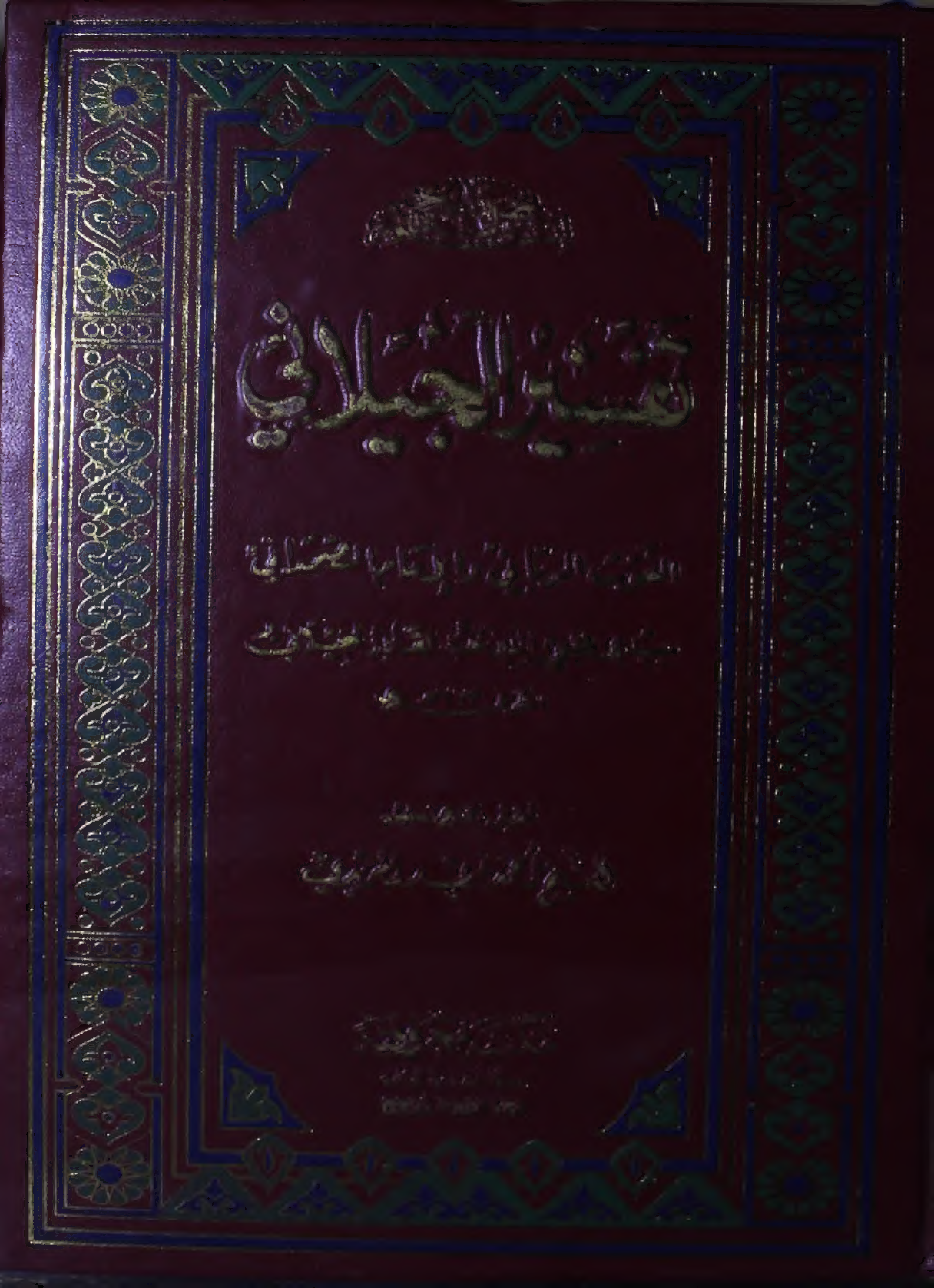

تفسير الجيلاني

تفسير الجيلاني

الغوث الرباني والإمام الصمداني

سيدي محيي الدين عبد القادر الجيلاني

المتوفى ٧١٣هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - آخر سورة المائدة



المكتبه المعروفيه

كانسی روڈ شالدره کوئٹه پاکستان

فون: 0333-7807152,0333-7907398

طبعة جديدة منقحة

ISBN: 9953-27-144-5

2010م 1431هـ



رَجَاءٌ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَ هٰذَا النَّاشِرِ

وَذُنُوبَ وَالِدَيْهِ مَعاً فِي النَّاظِرِ

غَفَرَ اللهُ ذُنُوبَهُ وَسَتَرَ عُيُوبَهُ وَوَالِدَيْهِ وَالْمُسْلِمِينَ

أَجْمَعِينَ وَلِمَنْ دَعَا لَهُ بِخَيْرٍ

راجي عفو ربه

عبدالغني حليمي



المكتبة المعروفية - كويتا - باكستان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

حمدًا لمن أظهر من غيب هويته قرآنا غدا فرقانه كشافًا عن فرق الكتب الإلهية الغياهب وأبرز من سجف ألوهيته نورًا أشرق على مرايا الكائنات بحسب مزايا الاستعدادات فاتضحت من معالم العوالم المراتب.

وصلاة وسلامًا على أول ذرة أضاءت من الكنز المخفي في ظلمة عماء القدم فأبصرتها عين الوجود وعلة إيجاد كل ذرة برأتها يد الحكيم إذ ترددت في هوة العدم فعادت ترفل بأردية كرم وجود مهبط الوحي الشفاهي الذي ارتفع رأس الروح الأمين بالهبوط إلى موطئ أقدامه ومعدن السر الإلهي الذي انقطع فكر الملأ الأعلى دون ذكر الوصول إلى أدنى مقامه فهو النبي الذي أبرزه مولاه من ظهور الكمون إلى حواشي متون الظهور ليكون شرحا لكتاب صفاته وتقريرًا ورفعه بتخصيصه من بين العموم بمظهرية سره المستور وأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذي عوج ليكون للعالمين نذيرا وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد وعلى آله وأصحابه مطالع أنوار التنزيل ومغارب أسرار التأويل الذين دخلوا عكاظ الحقائق بالوساطة المحمدية فما برحوا حتى ربحوا فباعوا نفوسًا وشروا نفيسًا وقطعوا أسباب العلائق بالهمم الحقيقية فما عرجوا حتى عرجوا فلقوا عزيزا وألقوا خسيسا فهم النجوم المشرقة بنور الهدى والرجوم المحرقة لشياطين الردى رضي الله عنهم وأرضاهم وإلى متبعيهم وأولاهم ما سرحت روح المعاني في رياض القرآن وسبحت أشباح المباني في حياض العرفان.

هذا.. ونحن منذ سنوات في رحلة التوجه لتحقيق تراث التفاسير الإشارية لمشايخ السادة الصوفية، وبين يديك كتاب جديد في عالم التراث العربي والإسلامي، الخاص بعلم التفسير لكتاب الله العزيز، وهو التفسير المنسوب للغوث عبد القادر الجيلاني- قدس سره- . وإنما ذكرت ذلك لأن هذا التفسير منسوب أيضًا نعمة الله بن محمود النخجواني الزاهد الصوفي نزيل بلدة آقشهر المعروف ببابا نعمة النخجواني.

الحنفي المفسر المتوفى سنة 920 هـ؛ ولكن سبب تحقيقه هو وجود عدة نسخ للكتاب مثبت عليها نسبتها للشيخ عبد القادر، ولم يكن هناك ترجيح قاطع جازم في صحة نسبتها لأيهما دون الآخر.

وقد اعتمدنا في نص الكتاب على ثلاث نسخ: الأولى، نسخة دار الكتب المصرية- الخطية- ونسخة الفواتح الإلهية- للنخجواني- الحجرية- والنسخة المطبوعة في طي عملنا للكتاب- ونحن على وشك الانتهاء منه- فجزى الله من قام على إخراج تراث العلماء والعارفين خير الجزاء في الدنيا والآخرة.

فكان ضبط النص وتصحيحه، ثم عزو الآيات والتنسيق والتفصيل والترقيم، والتخريج للأحاديث، والتعليق بفوائد مباركة بالهامش لتتم الإفادة التي بها تحصل السعادة المنبعثة والمستمدة من أهل العلم والسيادة.

هذا .. ونسأل الله تعالى من فضله أن يزيدنا بصيرة بأسراره وغوصًا في غماره وتوفيقًا لاقتفاء آثاره واقتباس أنواره والقيام بشكره والتحفظ من قهره ومكره، وأن ينفعني بكتابي والطالبين ويجعلهم فيه راغبين، ويرحمني وإياهم ومن دعا لي منهم ويتقبل في دعوته برحمته إنه هو أرحم الراحمين.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وعلى آله المباركين وصحبه المقربين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

كتبه الفقير إلى حضرة ربه الغني العظيم: أبو الحسن والحسين أحمد فريد المزيدي الحسني، والله الموفق لكل خير وهو الرحمن الرحيم.

ترجمة سيدي محيي الدين

عبد القادر الجيلاني ﷺ

هو الشيخ محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست، ابن عبد الله بن يحيى الزاهد ابن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون ابن عبد الله المحض نسبًا بالمحلى، بضم الميم وتشديد اللام من الإحلال، ابن الحسن المثنى ابن الحسن ابن علي بن أبي طالب ﷺ، سبط ابن عبد الله الصومعي الزاهد، وبه يُعرف حين كان بجيلان.

وأما مولده ﷺ[1]: فسُئل قَدَّس الله روحه عنه قال: لا أعلمه حقيقة، لكن قدمت بغداد السنة التي مات فيها التميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة.

قال بعض أهل العلم: والتميمي هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب، تُوفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فيكون مولده على هذا سنة سبعين وأربعمائة.

وقال أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي: إن مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر سنة إحدى وسبعين وأربعمائة وله ثمانية عشر سنة.

وقال بعضهم: منسوب إلى جيلان، بكسر الجيم وسكون الياء المثناة من تحت، وهي وراء طبرستان، ويُقال لها أيضًا: جيلان، وكيلان، وكيل.

وقيل: جيلاني منسوب إلى جده جيلان، والله أعلم.

وأمه: أم الخير ابنة أبي عبد الله الصومعي، وكان لها حظٌ وافرٌ من الخير والصلاح، والصومعي من جلة مشايخ جيلان ورؤسائهم، وزهادهم، له الأحوال السنية والكرامات الجلية، والشيخ أبو محمد أحمد عبد الله كان صالحًا في العلم والخير، ومات شابًا،

---

(1) قال برهان الدين القادري: قال الحافظ محب الدين محمد بن النجار في تاريخه: ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافع الجيلي أن مولد الشيخ عبد القادر الجيلي في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة. وكذا قال الحافظ أبو عبد الله محمد الذهبي: وُلد بجيلان سنة إحدى وسبعين وأربعمائة.

وقال أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في تاريخه: وُلد سنة سبعين وأربعمائة. وكذا قال سبطه أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان، وابن كثير، وابن الأثير في تاريخهما، رضي الله عنهم أجمعين انتهى. وانظر: الروض الزاهر (12)، والسيف الرباني (406) بتحقيقنا.

وعمته المرأة الصالحة أم محمد عائشة بنت عبد الله، ذات الكرامات الظاهرة.

رُوي أن بلاد جيلان أجدبت مرة، واستسقى أهلها فلم يسقوا، فأتى الشيخ إلى دار الشيخة عائشة المذكورة وسألوها الاستسقاء لهم، فقامت إلى رحبة بيتها وكنست الأرض وقالت: يا رب، أنا كنست فرش أنت، فلم يلبثوا أن أمطرت السماء كأفواه القرب، فرجعوا إلى بيوتهم يخوضون في الماء، عمرت وماتت بجيلان رضي الله عنها.

والجون -بضم الجيم-: لقبٌ وهو من أسماء الأضداد، يُطلق على الأبيض والأسود، وهو الأكثر في استعماله، وهو المراد هنا، والمحض هو المخلص من كل شيء لُقب به عبد الله؛ لأن أباه الحسن بن الحسن بن علي، وأمه فاطمة بنت الحسين بن علي، رضي الله عنهم أجمعين، وهى نسبة خالصة من الموالي، قلت: وهكذا قيل، وكان ينبغي أن يُقال: خالصة في الشرف.

فاطمة المذكورة هي التي خلّف عليها الحسن عبد الله المطرف بن عمر بن عثمان بن عفان ﷺ، وولد له محمد الديباج، لُقِب به لحسنه، ولُقِب أبوه بالمطرف لجماله، ولما نشأ عبد الله بن عمر قال الناس: هذا شيخٌ حسنٌ، مطرف بعد عبد الله بن الزبير، وكان عبد الله بن الزبير فائق الجمال، وأم مطرف يرجع نسبها إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ.

والمطرف - بضم الميم وفتح الراء-: اسم مفعول من أطرفه بكذا، والمثنى المتقدم ذكره هو نعتٌ للحسن؛ لأن الحسن بن الحسين، وهو بضم الميم وفتح النون وتشديدها، اسم مفعول من ثنيت الشيء إذا قربت له ثانيًا.

قلت: هكذا قيل في تفسيره، ولو قيل: لأنه ثنى اسم الحسن، فذكر مرتين في تسمية أبيه كان أوضح.

صفة الشيخ عبد القادر قطب الأقطاب قدس الله سره العزيز

وأما صفة الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ فقال الشيخ الإمام العلاّمة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة:

كان شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلي ﷺ نحيف البدن، ربع القامة، عريض الصدر، عريض اللحية، أسمر، مقرون الحاجبين، ذا صوتٍ جهوريٍّ، وسمتٍ بهيٍّ، وقدرٍ عليٍّ، وعلمٍ وفيٍّ، ﷺ.

ومن دعائه قُدّس سره:

اللهم أصلح الإمام والأمة، والراعي والرعية، وألف قلوبهم في الخيرات، وادفع بعضهم عن بعضٍ، اللهم أنت العالم بسرائرنا فأصلحنا، وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها، لا ترانا حيث نهيتنا، ولا تفقدنا من حيث أمرتنا، أعزنا بالطاعة ولا تذلنا بالمعصية، اشغلنا بك عمن سواك، واقطع عنا كل قاطعٍ يقطعنا عنك، ألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

لا إله إلا الله، ما شاء الله كان، لا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا تأخذنا على غفلةٍ، ولا تأخذنا على غرةٍ.

﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286].

هكذا روى عنه في مناقبه: أبو الخير عبد الله بن أبي غالب الأرضي قال: أخبرنا الشيخ الجليل أبو الفرج عبد الجبار ابن شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر ﷺ قال: سمعت والدي غير مرة يقول.. وذكر الدعاء وغيره.

قلت: فاسمع أيها الواقف على هذا الكتاب من كل بادٍ وحاضرٍ دعاء قطب الأولياء، وأستاذ الشيوخ الأكابر الذي خضعت لقدمه رقاب الأولياء محيي الدين عبد القادر، وقوله فيه: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر الآية.

واستمع إلى قول العراقي: إن كنت وقفت عليه وما ذهب من ادعاء وأشباهه، أنت بعد ذلك مخيّرٌ بين أن تأخذ بقول تاج العارفين ركن الشريعة، وبحر الحقيقة محيي الدين عبد القادر الذي شهد له جميع الأولياء بالتقدم، والمقام الأرفع، وكل منهم لشرف مرتبته العلياء خضع، وأنطقته العناية بالمعارف والأسرار والحكم بعدما تفل في فمه سبع مرات جده رسول الله ﷺ، وبين أن تأخذ بقول فقيه من علماء الظاهر الحاقدين مع كونه مخالفًا في ذلك لأقوال الأئمة من العلماء المشهورين، فلم يزالوا باستحباب الدعاء المذكور معتقدين وبه داعين.

وقد نصَّ من الأئمة جملةً غير واحدٍ على أن فضل الدعاء ما ورد في الكتاب العزيز كلام الرّب الماجد، وكذلك أفرد الشيخ المذكور قول الدّاعي: اللهم افعل ما أنت أهله. وعلل بتحريم ذلك لكونه تعالى كما أنه أهل للإنعام والثواب بالفضل فهو أهل للانتقام والعقاب بالعدل، بعبارة غير هذه العبارة.

فواعجبًا منه كيف لم يحط إلى ما تبادر إليه اعتقاد الداعي من اتصاف الباري بنهاية الجود والكرم في حال دعائه أنه لا يطلب منه إلا ما يتعلّق بجانب الفضل من إحسانه وعطائه، دون ما يتعلق بجانب العدل من عقابه وقضائه.

وأيضًا فإن الشيخ الكبير العارف في العرف والاصطلاح إذا وصف بأوصاف الملاح، واقتصر على بعض الأوصاف، وصف ما يتعلق بالندى والسماح.

ومن ذلك قول سيد السادات ومالك الدنيا والآخرة: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:56].

ومن دعائه أيضًا ﷺ في افتتاح المواعظ: اللهم إنا نسألك إيمانًا يصلح للعرض عليك، وإيقانًا نقف به في القيامة بين يديك، وعصمةً تنقذنا بها من ورطات الذنوب، ورحمةً تطهرنا بها من دنس العيوب، وعلمًا نفقه به أوامرك ونواهيك، وفهمًا نعلم به كيف نناجيك، واجعلنا في الدنيا والآخرة من أوليائك، واملأ قلوبنا بنور معرفتك، وكحّل عيون عقولنا بإثمد هدايتك، واحرس أقدام أفكارنا من مزالق مواطئ الشُّبهات، وامنع طيور نفوسنا من الوقوع في شباك موبقات الشُّبهات، وأعِنّا في إقامة الصلوات، وامحُ سطور سيئاتنا عن جرائد أعمالنا بأيدي الحسنات، كن لنا حيث ينقطع الرجاء منا، إذا أعرض أهل الوجوه بوجوههم عنا حين نحل في ظلم اللحود رهائن أفعالنا إلى اليوم المشهود، أجر عبدك الضعيف على ما ألف من العصمة من الزلل، ووفقه والحاضرين لصالح القول والعمل، وأجر على لسانه ما ينفع السامع، وتذرف له المدامع، ويلين له القلب الخاشع، واغفر له وللحاضرين ولجميع المسلمين[1].

ذكر رحلته في طلب العلم وشدة مجاهدته ﷺ:

قال الحافظ محب الدين بن النجار في تاريخه: كتب إليَّ عبد الله بن أبي الحسن الجبائي ونقلته من خطه، قال: حكى لنا الشيخ عبد القادر قال: قالت لي أمي: امشِ إلى بغداد واطلب العلم، قال: فخرجت من بلدٍ إلى بلدٍ، وأنا ابن ست عشرة، أو قال: ثماني عشرة سنة، واشتغلت بالعلم، وكانت أمي تشتاق إليَّ، فتكتب إليَّ الكتب فتذكر شوقها إليَّ، وتقطع شعرها فتجعله في الكتاب وتنفذه، فأكتب إليها: إن شئت تركت العلم وجئت إليك، فتنفذ إليَّ: لا تجئ واشتغل بالعلم، فكنت أشتغل في الفقه على المشايخ،

(1) انظر: بهجة الأسرار (179).

وأخرج إلى الصحراء فلا آوى في بغداد، وأجلس في الخراب بالليل والنهار، وكنت ألبس جبة صوف، وعلى رأسي خريقة، وأمشي وأنا حافٍ في الشوك، وما هالني شيءٌ إلا سلكته.

قال: وقال لي: طالبتني نفسي يومًا بشهوة من شهوات الشوق، فكنت أضاجرها وأدخل في دربٍ وأخرج إلى دربٍ أطلب الصحراء، فبينما أنا ذات يومٍ أمشي إذ رأيت رقعه ملقاة في الطريق فأخذتها فقرأتها، فإذا فيها مكتوبٌ: ما للأقوياء والشهوات، إنما خُلقت الشهوات للضعفاء من عبادي ليتقووا بها على طاعتي، فلما قرأتها خرجت تلك الشهوة من قلبي. قال: وقال لي: كنت أقتات بخرنوب الشوك، وقمامة البقل، وورق الخس من جانب النهر والشط. وقال ابن النجار: قرأت في كتاب أبي بكر التيمي، قال: سمعت الشيخ عبد القادر الجيلي يقول: بلغت بي الضائقة في غلاء نزل ببغداد، إلى أن بقيت أيامًا لا آكل فيها طعامًا، بل كنت أتتبع المنبوذات، فخرجت يومًا من شدة الجوع إلى الشط لعلي أجد ورق الخس والبقل وغير ذلك أتقوته، فما ذهبت إلى موضعٍ إلا وجدتُ غيري سبقني إليه، وإن أدركت شيئًا وجدت عنده جماعة من الفقراء، فلا أرى مزاحمتهم عليه، فرجعت أمشي وسط البلد، فلا أدرك موضعًا قد كان فيه شيء منبوذ إلا وقد سُبقت إليه، حتى وصلت إلى مسجد يانس بسوق الريحانيين، وقد أجهدني الضعف وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانبٍ منه وقد كدت أصافح الموت، فدخل شابٌ أعجميٌ ومعه خبزٌ رضافي وشواء فجلس يأكل، فكنت إذا رفع اللقمة أكاد أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي، وقلت: ما هذا؟ ما هاهنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت العجمي فرآني فقال: باسم الله يا أخي، قال: فأبيت، فأقسم عليّ فبادرت نفسي إلى جانبه، فأبيت مخالفًا لهواها، فأقسم عليّ، فبدرت نفسي إلى إجابته، فأكلتُ مُقصرًا، فأخذ يَسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت له: أما شغلي فمتفقه، وأما من أين أنا فمن جيلان، فقال لي: وأنا أيضًا من جيلان، فهل تعرف لي شابًا جيلانيًا يُسمَّى عبد القادر، يُعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد، فقلتُ له: هو أنا، فاضطرب لذلك وتغيّر وجهه وقال: والله يا أخي، لقد وصلتُ إلى بغداد ومعي بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحدٌ إليك، فنفذت نفقتي، وبقيت ثلاثة أيام بعدها لا أجد شيئًا أشتري منه قوتي إلا من الذي لك معي، فلما كان هذا اليوم وهو الرابع قلتُ: لي ثلاث أيام بلياليها لم آكل فيها طعامًا، وقد أحلّ لي الشرع أكل الميتة فأخذت من وديعتك ثمن هذا الخبز والشوي،

فكُلْ طيبًا، فإنما هو لك وأنا الآن ضيفك، بعد أن كان في الظاهر لي وأنت ضيفي، فقلتُ له: وما ذاك؟ فقال: اعلم يا أخي أن أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، ووالله ما خنتك فيها إلى اليوم، لكن نفقتي نفدت، وبحيث بقيت ثلاثة أيام لم أصب طعامًا فاشتريتُ هذا الطعام من نفقتك، وأنا معتذرٌ إليك من جنايتي عليك، مع فسحة الشرع في بعض ذلك، قال: فسكتته وطيبت نفسه، وفضل من طعامنا ما دفعته إليه مع شيء من الذهب، وقلت له: هذا يكون برسم نفقتك، فقبله مني وانصرف.

وقال: كتب إليّ عبد الله الجبائي ونقلته من خطه قال: قال لي الشيخ عبد القادر الجيلي:

كنتُ يومًا جالسًا على مكانٍ بالصحراء أكرر الفقه، وأنا في مشقةٍ من الفقر، فقال لي قائلٌ لم أرَ شخصه: اقترض ما تستعين به على الفقه، أو قال: على طلب العلم، فقلتُ: كيف أقترض وأنا فقيرٌ وليس لي شيء أقضيه؟ فقال: اقترض وعلينا الوفاء، فجئت إلى رجلٍ يبيع البقل فقلت له: تعاملني بشرط إذا سهل الله لي شيئًا أعطيك، وإن مت تجعلني في حلٍّ، تعطيني كل يومٍ رغيفًا وبنصف رغيف رشاد، قال: فبكى وقال: يا سيدي، أنا بحكمك، أي شيءٍ أردت فخذ مني، فكنتُ آخذ منه كل يومٍ رغيفًا وبنصف رغيف رشادًا، فأقمت على ذلك مدة فضاق صدري يومًا، كيف لا أقدر على شيءٍ أعطيه؟ فأظن أنه قال: فقيل لي: امضِ إلى الموضع الفلاني فأيش رأيت على الدكة فخذه وادفعه إلى البقال، أو قال: فاقضِ به دينك، فلما جئت إلى ذلك الموضع رأيت على دكة قطعة ذهب كبيرة، فأخذتها وأعطيتها للبقلي.

قال: وقال لي الشيخ: كان جماعة من أهل بغداد يشتغلون بالفقه، فإذا كان أيام الغلة يخرجون إلى الرستاق يطلبون شيئًا من الغلة، فقالوا لي يومًا: اخرج معنا إلى بعقوبا نحصل منها شيئًا، وكنت صبيًا، فخرجت معهم، وكان في بعقوبا رجل صالح يُقال له: الشريف البعقوبي، فمضيت إليه لأزوره، فقال لي: مريدو الحق أو الصالحون لا يسألون الناس شيئًا، ونهاني أن أسأل الناس، فلما رجعت خرجت إلى موضعٍ، قال: وكنت أشتغل بالعلم وأزور الصالحين، وآخذ نفسي بالمجاهدة، حتى طرقني من الله الحال، فكان يطرقني بالليل والنهار وأنا في الصحراء، فأصرخ وأهج على وجهي، فلما كان ذات ليلةٍ طرقني الحال وصرخت صرخة عظيمة، فسمع العيارون صرختي ففزعوا من المالحة، فجاءوا حتى وقفوا عليّ وأنا مطروحٌ على الأرض، فعرفوني فقالوا: هذا عبد القادر المجنون، أزعجتنا، لا ذكرك الله بخيرٍ، وكانوا يدورون حول بغداد بالليل

لعلهم يرون أحدًا يأخذون منه شيئًا.

قال: وقال لي: لحقني الجنون وحُملت إلى المارستان، وطرقتني الأحوال حتى مت، وجيء بالكفن والغاسل وجعلوني على المغتسل ثم سرّي عني وقمت.

قال: وقال لي: ترد عليّ الأثقال الكثيرة لو وُضعت على الجبال تفسخت، فإذا كثرت عليّ الأثقال وضعت جنبي على الأرض وقلت: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:5]، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني تلك الأثقال.

قال: وقال لي: وقع في نفسي أن أخرج من بغداد؛ لكثرة الفتن التي بها، فأخذت مُصحَفي وعلقته على كتفي ومشيت إلى باب الحلبة؛ لأخرج منه إلى الصحراء، فقال لي قائلٌ: إلى أين تمشي؟ ودفعني دفعة خررت منها- أظنه قال: على ظهري- وقال: ارجع؛ فإن للناس فيك منفعة، قال: فقلتُ: أيش عليّ من الخلق؟ أنا أريد سلامة ديني، قال: ارجع ولك سلامة دينك، ولم أرَ شخص القائل، ثم بعد ذلك طرقتني أحوال أشكلت عليّ، فكنت أتمنى على الله أن يسهل لي من يكشفها، فلما كان من الغد اجتزت بالظفرية ففتح رجلٌ باب داره وقال لي: يا عبد القادر تعالَ، فجئت فوقفت عليه، فقال لي: أيش طلبت البارحة؟ أو قال: أيش سألت الله البارحة؟ ونسيت الذي سألت الله بالليل، قال: فسكتُّ ولا أدري ما أقول له، فاغتاظ مني، ودفع الباب في وجهي دفعة عظيمة، حتى طار الغبار من جوانب الباب إلى وجهي، فلما مشيت قليلاً ذكرت الذي سألت الله تعالى، ووقع في نفسي أنه من الصالحين- أو قال: من الأولياء- فرجعت أطلب الباب فلم أعرفه، فضاق صدري، وكان ذلك الرجل الشيخ حماد الدباس، ثم عرفت بعد ذلك، وصحبته وكشف لي جميع ما كان يشكل عليّ، وكنت إذا غبتُ عنه لطلب العلم ورجعت إليه يقول لي: أيش جابك إلينا؟ أنت فقه، مُر إلى الفقهاء، وأنا أسكت، فلما كان يوم الجمعة خرج من بغداد ومعه جماعة من أصحابه؛ ليصلي الجمعة في جامع الرصافة، وأنا معه، وكان في شدة البرد في الكوانين، فلما وصلنا إلى قنطرة النهر دفعني حتى رماني في الماء، فقلت: باسم الله، غسل الجمعة، وكان عليّ جبة صوف وفي كمي أجزاء، فرفعت كمي حتى لا تهتلك، وخلوني ومشوا، فخرجت من الماء وعصرت الجبة وتبعتهم، وتأذيت من البرد أذية كبيرة.

قال: وكان الشيخ حماد يؤذيني أذية كثيرة ويضربني، وإذا غبت عنه لطلب الفقه ورجعت إليه يقول: قد جاءنا اليوم الخير الكثير والفالوذج، وأكلنا وما خبأنا لك شيئًا،

فطمع فِيَّ أصحابه؛ لكثرة ما يرونه يؤذيني، وجعلوا يقولون: أنت فقه، أيش تعمل معنا؟ أو أيش جابك إلينا؟ فلما رآهم الشيخ يؤذونني غار لي، وقال لهم: يا كلاب، لِمَ تؤذونه؟ والله ما فيكم مثله أحد، أنا إنما أؤذيه لأمتحنه فأره جبلاً لا يتحرك، قال: وبعد مدة قدم إلى بغداد رجلٌ من همدان يُقال له: يوسف الهمداني، وكان يُقال: إنه القطب، ونزل في رباط، فلما سمعت به مشيت إلى الرباط فلم أرَه، فسألت عنه فقيل لي: هو في السرداب، فنزلت إليه، فلما رآني قام وأجلسني، ففرّسني وذكر لي جميع أحوالي، وحل لي جميع ما كان يشكل عليّ، ثم قال لي: يا عبد القادر، تكلم على الناس، فقلت له: يا سيدي، أنا رجلٌ قح أخرس، أيش أتكلم على فصحاء بغداد؟! فقال لي: أنت حفظت الفقه وأصول الفقه والخلاف والنحو واللغة وتفسير القرآن، ولا يصلح لك إلا أن تتكلم على الناس، اصعد على الكرسي وتكلم على الناس، فإني أرى فيك عرقًا سيصير نخلة، فأيّده العيارون- جمع عيار، وهو لغةً: الكثير المجيء والذهاب، وهنا والله أعلم هم: المتلصصة، والمسالحة- هو بفتح الميم والسين والحاء المهملتين: الحرس؛ لأنهم يكونون دون سلاحٍ- والله أعلم، وانظر: الروض الزاهر للبرهان القادري (70) بتحقيقنا.

من كلامه ﷺ، وذِكر شيء من علمه، وتسمية بعض شيوخه رضي الله عنهم مختصرًا:

لما علم أن طلب العلم فريضة، وشفاء الأنفس المريضة، إذ هو أوضح منهاج التقوى سبيلاً، وأبلغها حجةً، وأظهرها دليلاً، وأرفع معارج اليقين، وأعلى مدارج اليقين، وأعظم مناصب الدين، وأفخر مراتب المهتدين، وهو المرقاة إلى مقامات القرب، والمعرفة والوسيلة إلى التولي في الحضرة المشرفة شمر عن ساق الاجتهاد في تحصيله، وصارع في طلب فروعه وأصوله، وقصد الأشياخ الأئمة أعلام الهدى علماء الأمة، فاشتغل بالقرآن حتى أتقنه، وعم بدراسته سره وعلنه.

وتفقّه بأبي الوفا علي بن عقيل، وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد[1]، وأبي الحسن محمد ابن القاضي أبي يعلى، وأبي سعيد المبارك بن علي المخرمي[2]، رضي الله عنهم

(1) هو الكلوذاني، نسبة إلى كلواذان، بفتح الكاف وسكون اللام وفتح الواو، وبين الألفين ذال معجمة، قرية من قرى بغداد.

(2) هو بضم الميم وفتح الخاء المعجمة، وكسر الراء المهملة وتشديدها، ثم ميم وبعدها ياء النسب، نسبة إلى محلة المخرم ببغداد، نزلها بعض ولد يزيد بن المخرم فسُمّيت به.

مذهبًا وخلافًا وفروعًا وأصولاً.

وسمع الحديث من جماعةٍ منهم:

-أبو غالب محمد بن الباقلاني.

- أبو سعيد محمد بن عبد الكريم.

- أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون.

- أبو بكر أحمد بن مظفر.

- أبو محمد جعفر بن القاري.

- أبو القاسم علي بن أحمد الكركي.

- أبو عثمان إسماعيل بن محمد الأصبهاني.

- أبو طالب عبد القادر بن محمد.

- ابن عمه أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد.

- أبو البركات هبة الله، وأبو العز محمد بن المختار.

- أبو النصر، وأبو غالب، وأبو عبد الله يحيى أبناء الإمام أبي علي البنا.

- أبو الحسن المبارك بن عبد الجبار.

- أبو منصور عبد الرحمن بن أبي غالب.

- أبو البركات طلحة بن أحمد العاقولي.

وغيرهم رحمهم الله أجمعين.

وقرأ الأدب على أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، رحمه الله تعالى.

وصحب الشيخ العارف قدوة المحققين، وإمام المحققين، السالك، وحجة العارفين أبا الخير حماد بن مسلم الدباس، وأخذ عنه الطريقة، وتأدَّب به.

قلت: ومنهم: أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الأصبهاني الحافظ، وأبي سعد محمد بن عبد الكريم بن خُشيش، وأبي العز بن محمد بن مختار الهاشمي، وأبي البركات محمد بن محمد بن أحمد بن يوسف الخرزي، والأستاذ أبي الحسن محب بن عبد الله الحبشي المعروف بالدوامي، وأبي عثمان إسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملة الأصبهاني، وأبي البركات هبة الله بن المبارك السقطي، وأبي الحسين عبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف.

وأخذ الخرقة الشريفة من يد الإمام رفيع المقام القاضي ابن أبي سعيد المبارك المخرمي، ولقي جماعة من أعيان شيوخ الزمان، وأكابر مشايخ أولي العرفان، أكرم بهم

مجدًا وسؤددًا وشرفًا وفخرًا مؤيدًا، فهم حماة الملة وذوادها، وأنصار الشريعة وأعضاؤها، وأعلام الإسلام وأركانه، وسيوف الحق وسنانه، فقام ﷺ في أخذ العلوم الشرعية عنهم دائبًا، وفي تلقي الفنون الدينية منهم، والعلم والهيبة، والجلالة الوافرة، والمناقب الفاخرة، وأظهر الله الحِكم في قلبه وعلى لسانه، وظهرت علامات قربه من الله، ودلالة ولايته مع قدم راسخ في المجاهدة والعبادة، وتجرد خالص من دواعي الهوى، وشوائب الركون إلى العادة، ومقاطعة دائمة لجميع الخلائق، وصبر جميل في طلب مولاه لقطع العلائق، وتجرع الغصص، ومُرّ الشدائد والبلوى، ورفض جميع الأشغال اشتغالاً بالمولى، ثم لما أراد الله تعالى به نفع الخلائق بعد ما تضلع من العلوم الظاهرة وأسرار الحقائق، أضيف إلى مدرسة أستاذه أبي سعيد المخرمي ما حولها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها، وبذل الأغنياء في عمارتها أموالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم، فتكملت المدرسة المنسوبة إليه الآن، وكان الفراغ منها في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة.

وتصدَّر للتدريس فيها والفتوى والمواعظ، وقُصدت بالزيارات والنذور، واجتمع بها عنده من العلماء والصلحاء جماعة كثيرة، انتفعوا بكلامه وصحبته ومجالسته وخدمته، وقصد إليه طلبة العلم من الآفاق، فحملوا عنه، وسمعوا منه، وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وأتى مقاليد الحقائق، وسلمت إليه أزمة المعارف، وصرف في الوجود المغارب منه والمشارق، وأصبح قطب الوقت مرجوعًا إليه حكمًا وعلمًا، وقام بالنظر والفتيا بعضًا وكلاً، وبرهن على العلوم فرعًا وأصلاً، وبيَّن الحكم نقلاً وعقلاً، وانتصر للحق قولاً وفعلاً، وصنَّف كتبًا مفيدة، وأملى فوائد فريدة، فتحدَّث بذكره الرفاق، وصارت بفضله الركاب، وانتشرت أخباره في الآفاق، وأعملت المطى إليه، ومدت الأعناق، وتنزهت في حدائق محاسنه الأعين، ونطقت ببدائع صفاته الألسن، ولُقِّب بإمام الفريقين، وموضع الطريقين، وكريم الجدين، ومعلم الطرفين، مشتملاً برد المفاخر والفضائل صادقًا فيه قول القائل:

انهـلَّ الـسّحَابُ وأعـشبَ العـراقُ ... وَزَالَ الغـــيُّ واتّـــضَح الرشـــد

أضحى الزمان مشرقة به مناكبه، والدين مشرقة به مناصبه، والعلم عالية به ألويته، والشرع منصورة به كتائبه، وانتمى إليه جمعٌ عظيمٌ من العلماء، وتتلمذ له خلقٌ كثيرٌ من

الفقراء، حذفت ذكرهم اختصارًا لكثرة عددهم[1].

وقد ذكرت فيما مضى أن جمهورهم شيوخ اليمن يرجعون إليه في لبس الخرقة، بعضهم لبسها من يده راحلين إليه لما قدمت أعلام فضائله عليهم، وفي لبس الخرقة وانتساب شيوخ اليمن، قلت في بعض القصيدة العشرة الأولين من هذه الأبيات:

وَفِي مَنهجِ الأشيَاخِ لِلناسِ خرقةٌ ... لهم سيدُ أصلٍ رَوَى ذَاكَ عَنْ أصْلِ

وَلبسَ الثمَانين تَرجعُ غَالبًا ... إِلَى سيِّد سِنام فَحَازَتْ عَلَى الكلِّ

إِمَامُ الوَرَى قطبُ المَلأ قَائِلٌ عَلَى ... رِقَابِ جميعِ الأوليَاءِ قَدَمِي عَلا

فَطَأطَا لَهُ كُل مشرقٍ وَمَغربٍ ... رِقَابًا سِوَى فَردٌ فَعُوقِبَ بِالعَزْلِ

مَليكٌ لَهُ التَّصْرِيف فِي الكونِ نَافِذٌ ... لشرقٍ وغربِ الأرْضِ والوعرِ والسَّهلِ

سِرَاجُ الهُدَى شَمْسٌ عَلَى فلكِ العُلا ... بجيلان مبداها طلوعًا بِلاَ أفلٍ

طِرازُ جَمَالٍ مُذهب فوق حلة ... عَلَى الكونِ فِيهَا الدَّهر بجمَالٍ

يتيمةُ درَّات عقدٍ وَلاَبتي ... نهج عَلَى جيدِ الوجودِ بِهِ محلٍ

قفَا هَا هُنَا فِي نهرِ عيونهم ... مَلأهَا وَمِنْ بَحْرِ النبوةِ مُشتمل

بجدكَ يَا بحر النَّدَى عَبْد قَادِرٍ ... الَى يَافِعي ذو افتقَارٍ وَذُو محلٌ

وَسُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبًّا مقدسًا ... وأوسع قطرًا لِلْوَرى فضله مَوْلَى

* * *

من أقوال سلطان الأولياء سيدي عبد القادر الجيلاني

وها أنا أذكر شيئًا من كلام الشيخ محيي الدين عبد القادر ﷺ من نفس مقاله الذي نسج غيره على منواله.

قال ﷺ في الذكر:

أعذب مورد وردته عطاش العقول مورد الذكر والتوحيد، وأطيب نسيم هبت

(1) انظر: بهجة الأسرار (204).

على مشام القلوب نسيم الأُنس بالله ﷻ، التلذذ بحلاوة مناجاة الله كؤوس راحات الأرواح.

وذكر الله تعالى جلاء ذنب الغيون للعقول، ودرر حمد الله لا يرصع به إلا تيجان معارف الأسرار، ومسك شكره لا يفتق إلا جيوب ثياب الأرواح، وورد الثناء عليه لا يطلع إلا على شجر ألسن عباده المؤمنين، إن ذكرت ربك بألسن حسن صنعه فتح أقفال قلبك، وإن ذكرته بألسن لطائف أسرار أمره فأنت ذاكرٌ على الحقيقة، وإن ذكرته بقلبك قرّبك من موجبات الرحمة، وإن ذكرته بسرّك أدناك من مواطن القدس، وحملك بجناح لطفه إلى مقعد صدقٍ، وما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذِكره، ولا لاحظ أزلية وحدانيته من التفتَ بعين سره إلى غيره، الذِّكر روح جنات الرحمة، تهب نسمة على مسام أرواح الذاكرين، فتهتز من نشواته أعطاف الأرواح في أقفاص الأشباح، فتهفو العقول راقصة في ميادين الصور، فتخرج الأسرار هائمة في براري الوجد، فتنطق بلابل الشكر بما في خبايا الضمائر، فيحترق المحب بنيران التعلق، ويغيب المشتاق عن نظر ذاته لشدة الشوق، ويقول لسان الواجد طربًا بقرب الواجد: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف:94]، فتبرز موائد القدم، فتجلو عرائس صفات المحبوب على أعين الألباب في قصور الأوكار تحت جنات الأسرار، ويجلل عليها الإجلال ستور العزة فيخيم برد العظمة، وترمد عيون البصائر في حر نفس العبق، وتسقط قوادم أقدام شوقها؛ لطول سفرها في هجير بيداء الهجر، ويرسل إليها سفير الكرم طيب القدر فيداوي رمدها بكحل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولما طلعت طلائع هذا الاسم في جبروت الجلال وسعت سطوة العز تحت خفقان رايات جنود الكبرياء، فبهتت عيون العقول، ودهشت نواظر الأوهام، ووقعت أطيار الأوكار، وطُمست سطور كتابة الكلمات، وقال لسان هيبة الأحدية: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:108]، فتزلزلت جبال فهم الألباب، ودكّت لها تجلي أرض يعقوب البشرية، وقصت أجناح الأرواح، فلا أوكار لها في فضاء علم التفريد، وتنبّهت القلوب بأشواق عشقه، وهامت الأسرار بوله حبه، وتبلبلت الأفكار في براري بُعده وقربه، فحكمته مبثوثة في كل ذات، وآثار صنعته لائحة في كل مصنوعٍ، وعجائب قدرته ظاهرة في كل كائنٍ، وبراهين وحدانيته قائمة في كل موجودٍ، وأنوار هدايتِهِ ظاهرة لِذي كل عقلٍ، وألسن حسن صنعته تخاطب أهل الوجود بإشارات شواهد الهيبة، قابل مرائي

العقول بأشخاص أعيان عجائبه، وجلا على عيون قلوب عباده عرائس أسرار الغيب.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13] [1].

وقال أيضًا ﷺ: الشريعة المطهرة الإيمان فيها طائر غيبي من أُفق: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:105]، يسقط على شجرة ذل العبد يبشرهم أنهم في قفص صدرها، جاءته إلى مقعد صدق الشريعة المحمدية ثمرة شجرة الوجود، الملة الإسلامية شمس أضاءت بنورها ظلمة الكون، أنتج برقة تعطي سعادةْ الدارين.

احذر أن تخرج عن دائرة إمامك، وأن تفارق إجماع أهله في قلب صاحب الناموس الأكبر خزائن جواهر الغيب.

اجعل قبول أمره طريقك إلى الله ﷻ، عين كعبة عقلك، مهبط أملاك كلمات أحكامه من ماء غمائم أقواله، يشرب عطاش الأرواح في غيوب حياة ألفاظه، يعتمل حصر العقول نادى منادى الطلب للأرواح الكامنة في القوالب أثار ساكن عزمها إلى العُلا، طارت بأجنحة الغرام في فضاء المحبة، وقعت بعد التعب على أغصان الشوق، فناحت في شجر بلابلها بمطربات ألحان إلى جمال، وأشهدهم أريجها هبوب نسيم الغرام إلى إعادة لذاذة ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ خرجت بعض تلك الطيور من أقفاص الصدور، تتلمح أثرًا من أوكارها القديم، تتنشق نسمة من مهب التكلم بتذكر عيشها في ظل أبد الوصل، فتشكو جواها بعد بعاد الأحباب، فسمعت داع الله بلسان إنسان عين الوجود انتقش دعاؤه ﷺ في صفحات ألواح الأرواح، صارت دعوته ريحًا تهز أغصان أشجار القلوب، أشرقت على النفس أنوار الغيب، هبطت الأسرار وارتفعت الحجب الظاهرة عن عيون بصائرها، لاحظت جمال صاحب الكون، شاهدته بصفاء مرأى الأسرار، بغية كل عارف موضع نظرات الحق منه.

وقال: لو بلغ طفل عقلك الأشد في حجر التأديب ما التفت إلى الدنيا لكنْ هو في مهد: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح:11].

الأرواح الطاهرة قناديل هياكل الأجساد، العقول الصافية ملوك قصور الصور.

يا غلام افتح عين قلبك لترى عرائس أسرار الأزل، تستنشق روحك هبوب

(1) انظر: بهجة الأسرار (98).

نسيم لطائف القدر، إن الله عين وضع تماثل الوجود على ساحل بحر الدنيا؛ لامتحان عيون البصيرة، فسلم من الالتفات إلى زخرفها أطفال أرواح أقيمت في مقام الثبات، وربيت في حجور العظمة، وأرخيت عليها أكناف آيات الأمر، وكوشفت بتطابق مخبآت القدر، وحليت عليها عرائس الغيب، وردت فقرها إلى كهف الكرم بليل أسرار العارفين، هيم أفكار الوالهين، وزلزل جبال همم العقول، اطلع على مخبآت الأسرار بأرواح المؤمنين، طار إليه بأجنحة صدق العشق، اطوِ في صدق قصدك إليه أذيال بساط البسط، فطار حول سمعه طلبته فراشًا تتهافت حول النور، تحوم حول جاهه بقوادم أقدام الوله، اطلب منه ما طلب آدم ﷺ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23] انتهى كلامه في ذلك مختصرًا[1].

وقال أيضًا ﷺ: تفقَّه ثم اعتزل، مَنْ عبد الله بغير علمٍ كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، خُذْ معك مصباح سراج ربك: «من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم[2]».

وقال أيضًا ﷺ: طارت نحل الأرواح قبل وجود الأشباح من كون (كن)، فصاروا من التوحيد لترعى في زهر أشجار الأنس، وتأكل من ثمار أغصان المعرفة، وتتخذ بيوتًا في مواطن القدس فوق قمم جبال الفرق، فتسلك سبيل الدنو إلى ربها، وحضرة العلوم في قربها، وتجني ثمار الحضور بأيدي الهمم العالية، فاصطادها صياد القدر بشباك مقام التكليف بيدي الأمر في أقفاص الأشباح، فألقتها من الهياكل بهجة حسن المعتقد، وألقت مسالك البشرية فتيممت موطنًا من القدس الأشرف، فأوحى ربك إلى نحل الأرواح: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل:69] في مسالك الأشباح، وكلي من ثمرات الشريعة، وارعي من أزهار أنوار الحقيقة، فلما طار طائر صاحب الجب من حدائق المجاهدة وقع في شَرَك المحبّة، ورأى من البلاء في ساحة الولاء، فقال: كيف الخلاص؟ روض أنيق لكن ثمره مرٌّ، ومنهل عذب لكن كم فيه من غرقٍ، فناداها حادي مطايا صدق الطلب بلسان النصح:

يا أرباب الوله في جب معشوق الأرواح، ويا أصحاب الخرق، رعايات أماني

---

(1) انظر: بهجة الأسرار (101).

(2) رواه أبو نعيم في الحلية (15/10).

العارفين ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع أستار الصور، ولا يحجبنكم عنه إلا حجب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوا عنده الحياة الأبدية، وموتوا عن شهواتكم وإراداتكم؛ ليحيينكم به عنده في مقعد صدق.

الولاء والبلاء نجمان طلعا في فلك الشريعة.

المحبّة والمحنة وردتان لمعتا في غصن الفرات.

البلاء الأعظم فَقْد المحبوب، والعناء الأكبر عدم المطلوب.

معاشر العارفين ما البراءة من الحول والقوة إلا به حقيقة التوحيد ومحو كل متلوح لعين العقل محض التفريد، وإلقاء كل ما في الوجود من يد الطمع عين التجريد. قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91]، لما نظرت الملائكة إلى تجلِّي الأرواح كامنة في مكامن أسرار الغيب، ساكنة في أثر الوصل، مستقرة في مهد اللطف، هبَّ نسيم القرب، وهتف في ناديها ريحان روح الأنس، وتألّق لها برق نور المعارف، وهزّ أعطافها نشوات سكرات المشاهدة، ونادمها حديث مسامر المخاطبة، بأرج الملكوت الأعلى بعطر إعجابهم بحالهم.

وتهب عيون أشباح النور إلى سطوع أنوارهم في أطوارهم، فقال القدر: يا أصحاب صوامع النور الطائر إلى درجات هذا الشرف، انظروا إلى طائرٍ يطير من وكر شجرة الشرف الأعظم، يُقال له: أحمد، فطار حتى قاب قوسين بجناح شرفه طائرًا إلى أوكار هذا العز بنور هدايته، فنزلوا على أغصان هذا الوصف باتّباع شرعه، فأشرق لعيون عقولهم هذا النور ببركته، ووصلوا إلى هذا المقام، هو هدهدٌ يعود إلى بلاد بلقيس الغيب إلى سليمان العقول بنبأ يقين بكتاب: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:42]، يقول: إذا وردت عليه واردات محبوبه «لست كأحدكم» تميز على الأنبياء برتبة:

«أظل عند ربي[1]»، ترعى نحلة روحه ليلة إسرائه زهرة شجرة: ﴿فَأَوْحَى﴾ [النجم: 10] نثر على تاج رأس مجده نثار دُر ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:18] في مجلس وادي من أجله نثر رداءها الزمان على مناكب بهجة المكان، لله در عبد لا تجعل بين أذن سره وبين سماع هذا الكلام حجابًا من عقل طبعه وعمل بقوله تعالى:

---

(1) رواه البخاري (2661/6)، وأحمد (200/3) بنحوه.

﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201][1].

وقال أيضًا ﷺ: اسم الله تعالى الأعظم هو الله، وإنما يُستجاب لك إذا قلت: (يا الله) وليس في قلبك غيره.

(بسم الله) من العارفين ك (كن) من الله ﷻ، هذه كلمة تزيل الهم، هذه كلمة تكشف الغم، هذه كلمة تبطل السم، هذه كلمة نورها يعم.

الله يغلب كل غالبٍ، الله مظهر العجائب، الله سلطانه رفيع، جنابه منيع، الله مطلع على العباد، الله رقيبٌ على القلوب والفؤاد، الله قاهر الجبابرة، الله قاصم الأكاسرة، الله عالم السر والعلانية، الله لا تخفى عليه خافية، من كان لله كان في حفظ الله، من أحبَّ الله لا يرى غير الله، من سلك طريق الله وصل إلى الله، عاش في كنف الله، من اشتاق إلى الله أنس بالله، من ترك الأغيار صفا وقته مع الله.

وقال ﷺ: سرير الأسرار لا يُنصب إلا في سرادق حق اليقين، وحق اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد قاعِدة بناء الوجود، والهداية الأحدية مغناطيس حديد قلوب العارفين، والروضة الأبدية مراتع أسرار المكاشفين، باسط الخواطر في حضرة السرمدية بمناشطه، وأشهدهم بقربٍ إلى الأسرار في جنات الأزل بمخاطبة ﴿أَلَسْتُ﴾، سقاهم كأس حبه بأيدي سقاة قربه، خرجوا إلى الدنيا وفي رءوسهم نشوات ذلك الخمار، وفي عيون عقولهم بقايا رسوم ذلك الجمال، وفي أحداق قلوبهم برقات ذلك الحباب.

واحرقتاه عليكم كيف تموتوا وما عرفتم ربكم! الشجاعة صب يا عُجم الفطنة، سافر إلى بلاد القرب، يا موتى الطبيعة سافروا إلى بلاد الهند للهداية.

يسقى بعض العارفين من هذا الشراب قطرة، وأفرغ ساقي القدر منه نعته، فقامت روحه ترقص طربًا بين يديه، واهتزَّ جبل موسى شوقًا عند لمع برق التجلِّي، فنظر سر المحبوب، فقال من عليه طفحات عبقه: أنا الحق، سكر نديمه الآخر، فقال: سبحاني! فأرق جماعة من طيور أرواح أقفاص الأشباح، وطارت بأجنحة الشوق في بهاء الغرام، وقامت من مجد الوجود نوادي منادي الأزل، وطمعت أن ترعى من طور القدم حب المشاهدة، فانقضَّت على حمائم طلبها برداء العظمة، فيصعق من في السماوات ومن

---

(1) انظر: بهجة الأسرار (20).

في الأرض إلا من شاء الله، لاحت لأسرار العالمين بهجة جلال الديمومية، وأشرقت لعيون العارفين كمال الأحدية من مشكاة نور القِدم، وسقطت قوادم أقدام الخلائق في مفاوز: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:67]، وانقطع العاصون في فتنة: ﴿نَسُوا اللهَ﴾ [الحشر:19].

معاشر المريدين لقد أودعت صور الآدمي نشرًا من الغيب، ودُفن في ترابها كنز من العلا، فرامت التشبث إلى معرفته، والاطلاع على دفينه، فمنعها حاجز النفوس، فما وجدت سبيلاً لترد سلسبيلاً[1].

معاشر العارفين جدوا، ليس المحبوب غائبًا عنكم إلا بحجاب الأهوية، والله إن هوى هذه النفوس قيد أرجل العقول، وإن مواضع الشهوات مزالق أقدام الأفهام، سافروا بالهمم إلى المحبوب، اخرجوا من جيوش الصور إلى طلب نظر المصور، اطلبوا حياة الأبد تحت جبل قاف القرب. ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197][2].

وقال أيضًا ﷺ في الحلاج: طار واحد من العارفين إلى أفق الدعوى بأجنحة: (أنا الحق)، طار بغير أجنحةٍ فتعرّض لحتفه، فظهر عليه عتاب من الملك من مكمن: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:6].

أثبت في إصابة مخلب: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت:57][3].

قال له: شرع سليمان الزمان، لِمَ تتكلّم بغير لغتكم، ثم ترنمت بلحنٍ غير معهودٍ، أدخل الآن في قفص وجودك، ارجع من طريق عزة القدم إلى مضيق ذلة الحدث.

قل بلسان اعترافك يمنعك ادعاء الدعاوى، حب الواحد إفراد الواحد، مناط حفظ الطريق إقامة وظائف خدمة الشرع[4].

وقال ﷺ في الحلاج أيضًا: طار طائر بعض العارفين من وكر شجرة صورته، وعلا السماء خارقًا صفوف الملائكة، وكان بازيًا من بزاة الملك، مخيط العينين بخيط:

(1) انظر: بهجة الأسرار (139).

(2) انظر: قلائد الجواهر (280)، والبهجة (139).

(3) انظر: بهجة الأسرار (104).

(4) انظر: السابق (142).

﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:28]. فقال: رأيت ربي فازداد حيرة في قول مطلوبه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115]، وعاد هابطًا إلى حضرة الأرض، طلب ما هو أعز من وجوده في قعور البحار، تلفَّت بعين عقله فما شاهد سوى الآثار، فكر فلم يجد في الدارين مطلوبًا سوى حبيبه فطرب، فقال بلسان سكر قلبه: أنا الحق، ترنَّم بلحنٍ غير معهودٍ من البشر، صفَّر في روضة الوجود صفيرًا لا يليق لبني آدم، لحَّن بصوته لحنًا عرضه لحتفه، نُودي في سرِّه: يا حلاج أنت اعتقدت أن قوتك بك، قل الآن نيابةً عن جميع العارفين: حب الواحد إفراد الواحد، قل: يا محمد أنت سلطان الحقيقة، أنت إنسان عين الوجود، على عتبة باب قلبك تجمع أعناق العارفين، في حمى جلالتك تُوضع جباه الخلائق أجمعين[1].

وقال أيضًا ﷺ: الخواطر خطاب يرد على الضمائر، فإذا كان من قِبَل الملك فهو الإلهام، وإذا كان من قِبَل الشيطان فهو الوسواس، وإذا كان من قِبَل النفس فهو الهواجس، وإذا كان من قِبَل الله سبحانه وتعالى فهو خاطرٌ حقٌّ، فعلامة الإلهام أنه يرد بموافقة العلم، فكل إلهامٍ لا يشهد له ظاهرٌ فهو باطلٌ، وعلامة الهواجس الإلحاح في طلب وصف من خصائص صفات النفس، ولا يزال يعاوده ولو بعد حين حتى يأتي الرجل ذلك الوصف.

وعلامة الوسواس أنه إذا دعا إلى زلةٍ وقع فيها، ووسوس بزلةٍ أخرى، فآلات المخالفات عنده سواء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:6]، وعلامة الخاطر الحق أنه لا يدعو إلى خيرٍ، ولا يحدث إلى سوءٍ، بل يرد بزيادة علم وبيان يعرف بغيته عند وجدانه، فإذا ورد على القلب خاطر حق يغير خاطر حق.

فقال الجنيد: الأول أقوى؛ لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى الأمثل، وهذا مكان العلم.

وقال ابن عطاء: الثاني أقوى؛ لأنه يزداد بالأول قوة.

---

(1) وقال الشيخ عبد القادر: عثر الحسين عثرة فلم يكن في زمانه من يأخذ بيده، ولو كنت في زمنه لأخذت بيده، وأنا لكل من عثر مركوبه من أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة آخذ بيده، يا هذا فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي شاهر، وقوسي موتر لحفظك وأنت غافل.
رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم وأمدنا بإمداداتهم وأفاض علينا من نفحاتهم آمين. وانظر: بهجة الأسرار (105).

وقال ابن خفيف: هما سواء؛ لأن كلاهما من الحق، ولا مزية لأحدهما إلا بمرجحٍ في وصفٍ خاصٍّ.

وإذا اختلفت الخواطر على القلب فقل: سبحان الملك الخلاَّق، ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ*وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر:16، 17]، وأجمعوا على أنه من كان أكله الحرام لم يستطع أن يفرق بين الخواطر.

وقال أيضًا ﷺ: أول ما يطلع في قلب المؤمن نجم الحكم، ثم قمر العلم، ثم شمس المعرفة، فبضوء نجم الحكم تنظروا إلى الدنيا، وبضوء قمر العلم تنظروا إلى الآخرة، وبضوء شمس المعرفة تنظروا إلى المولى.

وقال أيضًا ﷺ: عروش الروح جلا جمالها القدر على عبادة الملائكة في حلل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] في مجلس: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾.

العقل فيه إشارة إلى كونه من عالم الشهادة، وحملت أصداف الهياكل درر الأرواح في بحر الوجود على سفن العلم؛ ليكمل بها ضياء نور اليقين، فسارت بريح الروح إلى خزائن المجاهدة، ووقف سلطان العقل فيه بإزاء سلطان الهوى، وتقابلا وتعاملا في سعة فضاء صدره، فكانت النفس هذه أحقر جنود سلطان الهوى، وكانت الروح من أشرف جنود سلطان العقل، فأذن مؤذن الحكم بينهم:

يا خيل الله اركبي، ويا كتائب الحق ابرزي، ويا جنود الهوى تقدمي، فكل يريد نصرة حزبه، وكل يحاول قهر خصمه.

فقال التوفيق لهما بلسان سابق الغيب من نصرته: كانت العناية معقودة بزمامه، ومن أعنته كان السعيد في الدنيا والآخرة، ومن كنت معه لم أفارقه حتى أوصله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر. التوفيق هو حسن نظر الحق سبحانه لوليه بعين رعايته.

يا غلام اتبع العقل وقد وقف بك على محجة طريق النبعادة الكبرى، فارق نفسك وهواك، وقد رأيت العجب الروح سماوية غيبية، والنفس ترابية أرضية، طار طائر اللطف في وكر الكشف بجناح العناية إلى شجرة العُلا، وتوكَّر في غصن القرب، وغرّد بلحن لسان الشوق، ناداه نديم الأُنس فالتقط جواهر الحقائق من بين أكناف المعارف، وبقي الكشف محصورًا في قفص ظلمة وجوده، إذا فنيت القوالب بقيت أسرار القلوب، وإذا نظر إلى قلبك نظرة أقامه مقام عرشه، وأودعه حقائق العلوم، وجعله خزانة أسرار المعرفة، فحينئذٍ يتراءى لعين عقلك جمال الأزل، ويعرض عن كل شيءٍ

متصفًا بصفات الحدث، ويقابل بصيرة سرك أشخاص عوالم الملكوت في مرآة القرب، وتجلى على عين سريرتك عرائس الفتح في مجلس الكشف عن حقائق الآيات، فإذا آثار مثلوجات الأكوان ممحوة من لوح همتك.

يا هذا، العقول المنورة سرج الفحول، والأفكار الصافية أدلّة أرباب المعارف، والعناية السابقة تكشف عن وجه وجود اليقين بباب الشك إذا تزاحمت الظنون والإرادات اللاحقة، تقطع الباطل بيد الحق إذا تنافرت الأدلّة.

وقال: طلب موسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في أرض أدنى، قيل: إنها من وراء جبل، ويحتاج إسكندر طالبها أن يقطع إليها يأجوج الوجود، ويخرق ردم يأجوج وجوده بصحة التوحيد الذي محق كل ملوحٍ لعين الفعل في الأكوان، ويخرج بحضرة عقله إلى حيز الآخرة مكن دائرة الدنيا، فإنه يجدها تحت ظل شجرة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ*إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:22، 23]، تلك الشجرة نبت رياحين في جناب القدس، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، لا شرقية فتطلع مشرق أفق الدنى من مشارق سموات الأسرار، ولا غربية فتلوح من مغرب حق الكون في مغارب معالي القلوب.

طلب عيسى عليه السلام عين الحياة الحقيقية في الأرض، قيل له: لا تجدها إلا بعد تعب: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران:55]. تحت ميل رأيك مقام: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. والمحبوب المكنى أحمد ﷺ وجد عين الحياة الحقيقية في معارج معراج ليلة أُسري به في مجلس: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ [النجم:17]، قيل له: اغتسل منها بماء: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ [النجم:11]، وجد في درعها عقد ينظمه لك ناظم الشرف في سلك: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:18] [1].

وقال رضي الله عنه: يا غلام عليك بالصدق والصفاء؛ فلولاهما لم يتقرّب بشيءٍ إلى الله عز وجل، يا غلام لو ضرب حجر قلبك بعصا موسى الإخلاص لتفجّرت منه ينابيع الحكم بجناح الإخلاص، يطير العارف من ظلمة قفص الكون إلى فسحة نور القدس، وينزل بعد الطيران في ظل روض مقعد صدق.

(1) انظر: بهجة الأسرار (144).

يا غلام ما أشرق نور اليقين في قلب عبد إلا ظهر على أسرار بروج صاحبه ضياء نور ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:8].

وتهيب الملائكة باسمه في الملكوت الأعلى، وجاء يوم القيامة في زمرة الصادقين.

يا غلام الإعراض عن شبهات النفوس تجريد بل توحيد، هو صفاء بوارق سَوق عشقه بخواطر العارفين، حتى لا يتلذَّذ بواصلٍ بغيره، هو هيم قلوب الوالهين حتى وقعت في أودية جنة الطريق إلى الله ﷻ، لا يسافر فيها بغير زاد الصدق، والحضور معه لا يحصل بغير تجريد القوالب، والإفطار في الآخرة على شراب النظر لا يوصل إليه إلا بعد الصيام عن الدنيا وما فيها، ما نظرة منه إليك غالية بترك الوجود، وما لحظة منه لك كثيرة بالخروج عن الأكوان، إذا صفت النفس من الأكدار البشرية امتثلت الأوامر، وإذا قوي نظر العارف تنطق على سرّه أنوار بارئه.

الأولياء هم خواص حظوة السلطان، والعارفون ندماء مجلس الملك، ودون حلاوة شهد الولاء تحمل مرارة صبر البلاء.

يا غلام عيون عقول الفحول لم تلتفت إلى الدنيا، ولم يخدعهم مطلب برقها اللامع، بل فهموا قول المحبوب عنها، ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد:36].

يا غلام من اللذات يدخل الشيطان إلى القلب، ومن منافذ الشهوات يعبر إلى الصدور، وتجرُّع حب الدنيا يزرع في النفوس بغض الآخرة، فطوبى لمن تنبَّه من رقدة غفلته، وصفا مورد حاله بطلب قرب مولاه، وبادر بالخروج إلى ما لا بُدَّ له من الخروج منه، وحاسب نفسه قبل محاسبة أسرع الحاسبين، وشمر للسباق إلى الآخرة، فإن الدنيا ميدان السابقين، والأعمال حلبات صدق الفائزين، وعلى جسر الهمة الممر: ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:46][1].

وقال ﷺ: يا هذا كن مع الله تعالى كأن لا خلق، ومع الخلق كأن لا نفس، فإذا كنت مع الله تعالى كأن لا خلق وجدت، وعن الكل فنيت، وإذا كنت مع الخلق كأن لا نفس عدلت واتقيت.

اترك الكل على باب خلوتك، وادخل وحدك، ترى مؤنسك في خلوتك بغير سؤالٍ، وتشاهد ما وراء العيان، وتزول النفس، ويأتي مكانها أمر الله وقربه، فإن جهلك علمٌ،

---

(1) انظر: بهجة الأسرار (148) بتحقيقنا.

وبُعدك قربٌ، وصمتك ذِكرٌ، ووحشتك أُنسٌ.

يا هذا ما ثَمّ إلا خلق وخالق، فإن اخترت الخالق فقل: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، ثم قال: مَنْ ذاقه فقد عرفه.

يا هذا المؤمن إذا عمل صالحًا انقلبت نفسه قلبًا، ثم انقلب قلبه سرًّا، ثم انقلب السر فصار فناءً، ثم انقلب الفناء فصار وجودًا، ثم قال: ليس كل الأحباب يسعهم كل باب، يا هذا الفناء إعدام الخلائق، وانقلاب طبعك إلى طبع الملائكة، ثم الفناء عن طبع الملائكة، ولحوقك بالمنهاج الأول، فحينئذٍ يسقيك ربك ما يسقيك، ويزرع فيك ما يزرع، إن أردت هذا فعليك بالإسلام، ثم الاستسلام، ثم العلم بالله، ثم المعرفة به، ثم الوجود به، فإذا كان وجودك به كان كلك له.

الزُّهد عمل ساعة، والورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد.

قال ﷺ: ينبغي للفقير أن يتزر بالفقه والقناعة حتى يصل إلى الحق سبحانه وتعالى، ويسعى بقدم الصدق طالبًا لباب القرب، مهرولاً عن الدنيا والآخرة والخلق والوجود، يحتاج أن يموت ألف مرة، ويفنى ألف مرة، تستقبله - أو قال: حتى تستقبله - عناية الحق ورأفته ورحمته، وشوقه إليه، ووحدانيته، ونظراته، ومباهاته، ومواكب أرواح النبيين والمرسلين والصدِّيقين، والملائكة تصحبه وتزفُّه إلى الله ﷻ، فتقرب مبايعته فيقف على كل سطرٍ وكل كلمةٍ وكل حرفٍ، يقف على أوقاته وأزمانه وساعاته ولحظاته، ويتبشر له أمره وما يؤول إليه، كلما جذب الخوف إليه جذبه القرب منه، ثم لا يزال ينقل من شيء إلى شيء؛ حتى يمثل حاجبًا بين يديه، منفردًا عنده، مطلعًا على أسراره، يعطى خلعةً وطبقًا ومنطقة وتاجًا، ويشهد الملك له على نفسه ألا يغير عليه.

يا موتى القلوب طلبكم الجنة، قيدكم عن الحق سبحانه وتعالى[1].

قال ﷺ: اعلم والاك الله بجميل حمايته، وصانك بلطف رعايته، أن قدم الصدق إذا طلبت وجدت، وعروس الوصل إذا نبتت نبتت، وأصول القرب إذا رسخت بزغت، ورياض القدس إذا ظهرت ظهرت، ورياض الأُنس إذا شهدت دهشت، وقلوب الأحباب إذا رمقت عتقت، وأسماع الأرواح إذا قرت سمعت، وأبصار الأسرار إذا خطرت نظرت، وألسن القوم إذا أمرت نطقت، فلله در عباد ناداهم مولاهم في سابق

(1) انظر: بهجة الأسرار (108).

القدم بلسان الكرم إليّ، ودعاهم بمبادئ الفضل إلى مناد الوصل، قيد لهم من معان الحب مناد، وحدا بهم في جنات القرب حادي، وشاهدوا محل الجمال عن مطالع الأزل، وعاينوا أعين الجمال في طوالع الحلل، وسمت بصائرهم إلى مطالعة عوالم الغيب ومعالم التوحيد، وشراب سرائرهم في مشاهدة قدس معارج التفريد، وشخصت أبصارهم إلى رقوم الفتح من ذيول الكشف عن محيا ذاك الجناب، واتكأت أفئدتهم على أرائك الأنس في مقاصير القدس بين تلك القباب، وحلت أبصارهم على بساط البسط، وارتاحت أرواحهم برياحين الخطاب، فإن صمت صامتهم فلشهود حق اليقين، وإن نطق ناطقهم فلورود أمر اليقين، وإن خامر نفس مريدهم خوف: ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ**﴾ [الأعراف:99].

أو باشر قلبه زجر: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران:28]، ناجاه مخاطب الإيحاء: ﴿**إِنَّنِي مَعَكُمَا**﴾ [طه:46].

ونطقت شواهد السعادة قائلة: ﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ**﴾ [الحديد:12].

وقال سفير الجودي: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى:11].

وإن أخرج لمرادهم مرسوم: ﴿**ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي**﴾ [يوسف:54] من ديوان: ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:105]، حديثه بدءًا: ﴿**اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [فاطر:32] إلى حضرة: ﴿**سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ [يس:58]، وقدم إلى مجلس: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ**﴾ [الإنسان:21].

واستقبله وجه: ﴿**فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ**﴾ [الأعراف:144].

فمد باع وصل: ﴿**اشْرَحْ لِي صَدْرِي**﴾ [طه:25].

ونطق به مجيب: ﴿**يَا عِبَادِيَ**﴾ [العنكبوت:56].

فأخبر لسان صدقه: ﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**﴾ [المائدة:117].

وإن ثبتت مطاياهم على طريق: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ**﴾ [النساء:80]، واستقام على سبيل: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ**﴾ [الحشر:7].

واستمسك بعروة: ﴿**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ**﴾ [آل عمران:31].

يصل بسبب: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:36].

وسقى حرقة حاله صاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:9].

وأمده بفيض من بحر: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم:3].

وإن قرأت مكتوب سعدهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

وإن نظرت منشور مجدهم ف ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:119].

وإن سألت عن مقامهم ف ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55].

وإن حددت وصفهم ف ﴿أُوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد:10].

وإن كبر ما ظهر منهم، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:118].

وإن ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:14]، الغاية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ [السجدة:17]، وكيف وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى نبيٍ من أنبياء بني إسرائيل أن لي عبادًا يحبوني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكروني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطيور إلى أوكارها، فإذا جن الليل، واختلط الظلام، وفُرشت الفرش، ونُصبت الأسرة، وخلا كل حبيبٍ بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ، وناجوني بكلامٍ، فبين صارخ وباكٍ، وبين منادٍ وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعدٍ، وبين راكعٍ وساجدٍ، فبعيني ما يتحملوني من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي، أو ما أعطيهم أن أقذف في قلوبهم من نوري، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثاني أن لو كانت السماوات السبع والأرضون في ميزان أحدهم لاستقللتها له، والثالث أن أقبل بوجهي الكريم عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي الكريم عليه، هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟.

فعليك يا أخي باتِّباعهم؛ لعلك أن تكون من أتباعهم، وسلم لهم ما ترى وما تسمع تنل من السعادة منزلاً أرفع، فالله نسأل أن تكتحل أبصارنا بنور هدايته، ويشدد قواعد عقائدنا بحسن رعايته[1].

وقال ﷺ: فلما قضى موسى الأجل خرج بأهله وقد استبان وضع الحمل والليل

(1) انظر: بهجة الأسرار للشطنوفي (46) بتحقيقنا.

كسواد حدق حور الجنة، والريح تنثر عبرات عيون السحب، وسيوف البرق تسل من غمد الغمائم، وأسود الرعود تزمجر في غابات الديم، فتطلب مطرًا تأوي إليه من القطر؛ ليقدح لروحه من زند الظلام شررًا، ويطلب من أكناف الوادي المقدس نار هدى، والغرام غريم سره، والوجد نديم روحه، والشوق سمير رقاده، والتوق جليس فؤاده، والهوى حشو صدره، فلاح له النور في معرض النار، نصب لاصطياد طائر روحه شباك، إني أنا الله رأى سطرًا من سطور لوح القدرة، تجلّت على روحه سمعته الطيور، وقعت رجل عقله في شَرك أني آنس أفرغ في كأس سمعه إلى صرف شراب: لا إله إلا أنا، أسكره بإدامة شرب مُدامي وكلمه، دبّت فيه نشوات الشوق، وطمحت به طوامح أمواج بحار الوله، غلب على قلبه هيمان العشق، حرقت لذة التكليم ما قد سمعه، حتى وصلت إلى بصره، فطلب البصر بعينه من النظر، ووافقه توق القلب، وقال: رب أرني أنظر إليك، قيل: يا موسى، انظر أولاً إلى مرآة الجبل، وحك الذهب بسابك على محك، فإن استقر اعتبر سكونك عن حركة الصخور لهيبة تجلي، فمادت به أجزاء الطور عند إشراق لمعان ذلك النور، وتعطّرت أشجار الوادي المقدس بنسيم القرب، وأرجت رياض البقعة المباركة ببهجة وقت الوصل، وصارت هضبات الطور حدائق لأجل التجلّي، وامتلأت جنباته بالملائكة استعظامًا لقوله: ﴿أَرِنِي﴾ [الأعراف: 143]، وقامت أرواح الأنبياء تترصّد ما يكون.

سمع كلامًا ككلام البشر خاطبه من ليس من جنس المحدثات، نُودي من جميع آفاق الوجود، صارت جملته سمعًا وبصرًا، فتلفَّت بعين سره إلى الطور، وقع شعاع نور عين عقله على أجزاء الجبل، انعكست أشعة المتقادحات، برق بصر الحس، ذهلت عين الفكر، خرس لسان الطبع، انقطعت أسباب الحواس.

قرأ لسان حال موسى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه:108].

قال: المخبر عن صدق طلبه: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف:143].

قال: يا موسى صعقت طبيعتك ضعيفة عن تناول شراب التجلِّي، شق عينيك ضيق عن مقابلة أنوار سبحات، ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر لا يطلع شجر كانون هذا الكون:

«إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا[1]».

خلعة النظر في الدنيا مدخرة في خزائن الغيب لصاحب: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: 9]، هذا الشرف لا يناله من الخلق سوى سيد ولد آدم، ويتيمة عقد البشر، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:152].

قلت: فهذا ما أحضرته من نقش جواهر نظام المودعات في خزائن لطائف معارف كلامه بلونٍ غريبٍ.

❁❁❁

في ردّ بعض الاعتراضات والشُبه عن الشيخ قُدس سره:

قال المعترض: جاء في «الغنية» عن الشيخ عبد القادر أنه يقول بالجهة، لقول الشيخ: وهو بجهة العلو مستوٍ على العرش محتوٍ على الملك.

قلت: وهذا جهل واضح من المعترضين، حيث إن قول الشيخ في هذا الموضع بعد ذكره للآيات والأحاديث : وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل، وكونها على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كلّ نبي أُرسل بلا كيف، وذكر نحو هذا في سائر الصفات.

فإن كلام الشيخ في «الغنية» هو معنى التفويض الذي هو مذهب سلف هذه الأمة وبه قال أتباع الإمام أحمد بن حنبل ﷺ، ومقابله التأويل وهو مذهب الخلف[2].

ولذلك قال الشيخ الشعراني ﷺ في كتاب اليواقيت (ص89): رأيت في كتاب البهجة المنسوبة لسيدي عبد القادر الجيلي ﷺ ما نصه: اعلموا أن عبادتكم لا تدخل الأرض، وإنما تصعد إلى السماء قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] فربنا سبحانه وتعالى في جهة العلو: الله على العرش استوى وعلى الملك احتوى وعلمه محيط بالأشياء بدليل سبع آيات في القرآن العظيم في هذا المعنى، لا يمكنني ذكرها لأجل جهل الجاهل

---

(1) رواه النسائي (419/4)، وأحمد (324/5)، وابن ماجه (1360/2).

(2) انظر: السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني للشيخ ابن عزوز المكي (ص492) بتحقيقنا، فإنه قد حل الإشكال، وأوضح المقال في هذا الاعتراض.

ورعونته، انتهى.

قال: فلا أدري أذلك الكلام دُسَّ على الشيخ في كتابه أم وقع في ذلك في بدايته ورجع عنه لما دخل في الطريق، فإن من المعلوم عند كل عارف بالله تعالى أنه تعالى لا يتحيز، والشيخ قد شاعت ولايته في أقطار الأرض فيبعد من مثله القول بالجهة قطعًا.

وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ أنه لا يلزم من قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر:10] أن يكون تعالى في جهة الفوق دون غيرها بدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:3] ظرفية تليق بجلاله.

وأجمع المحققون أن شهود الحق تعالى في حال السجود صعود وإن كان السجود في أسفل سافلين.

وأما قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50] أي: يخافون ربهم أن يُنزل عليهم عذابًا من فوق رءوسهم، هذا هو الاعتقاد الحق.

قلت – أي الشعراني –: ويصح حمل قول السيد عبد القادر الجيلي السابق أنه تعالى في جهة العلو على أن مراده بجهة العلو الجهة التي قصد العبد قضاء حاجته منها وإن كانت في السفليات، هذا لا يبعد على مقام الشيخ، انتهى والله تعالى أعلم.

قلت: لم يثبت عن الشيخ عبد القادر أنه قال بأقوال المشبهة والمجسمة والمعطلة، بل مذهبه في الأسماء والصفات والرؤية والعرشية وغيرها من مسائل الاعتقاد مذهب أهل الحقائق بالإثبات والتنزيه، وهو منهج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهو ما عليه اعتقاد المحققين من السادة الصوفية.

وذلك واضح في كتبه وما كُتب عنه قدس الله سره العزيز.

ألا ترى قول الشيخ في فتوح الغيب (ص149): الحمد لله الذي كيّف الكيف وتنزه عن الكيفية، وأيّن الأين وتعزز عن الأينية، ووجد في كل شيء وتقدس عن الظرفية، وحضر عن كل شيء وتعالى عن العندية، فهو أول كل شيء وليس له آخرية.

وإن قلت: أين فقد طالبته بالأينية، وإن قلت كيف فقد طالبته بالكيفية، وإن قلت: متى فقد زاحمته بالوقتية، وإن قلت: ليس فقد عطلته عن الكونية، وإن قلت: لو فقد قابلته بالنقصية، وإن قلت: لم فقد عارضته في الملكوتية.

سبحانه وتعالى لا يسبق بقبلية ولا يلحق ببعدية، ولا يقاس بمثلية، ولا يقرن بشكلية، ولا يعاب بزوجية، ولا يعرف بجسمية.. إلى آخر كلامه قدس سره.

وقـــال ﷺ كما في القلائد (ص276): قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]: لا شبيه له، ولا نظير، ولا عون له، ولا ظهير، ولا شريك، ولا وزير، ولا ند له، ولا ذي تـــركيب مشير، ليس بجسم فيمس، ولا جوهر فيحس، ولا عرض فينتفي، ولا ذي تـــركيب فيتبعض، ولا ذي آلة فيمثل، ولا ذي تأليف فيكيف، ولا ذي ماهية مخيلة فيحدد، ولا ذي طبيعة من الطبائع، ولا طالع من الطوالع، ولا ظلمة تظهر، ولا نور يزهو ... إلى آخره.

ومما نقل عن الشيخ ﷺ قوله: «قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله»

قال الشيخ يوسف بن الملا عبد الجليل الكردي: ثم العجب العجيب، والأمر الغريب ممن تجرأ على خرق إجماع المسلمين، ووقع في حضرة إمام العارفين، وشيخ شيوخ العالمين، صاحب القَدَمِ من القِدَم، غوث البريّة، قطب العرب والعجم، من خضعت له الرقاب، وشهدت بسلطنته الأقطاب، بحر العلم اللدني، مولانا الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، مروّح الله تعالى أروحنا بنفحات روحه، وفتح أقفال قلوبنا بمفاتيح فتوحه، ولا زالت رحمة الرحمن فيّاضةً على روحه في كل حينٍ وآنٍ، آمين.

وزعم أن قوله رضي الله تعالى عنه وقدّس روحه: (قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله)، قالهُ بحظِّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، وحاشاه ثم حاشاه من ذلك؛ بل إذا كان كامنًا في باطنه يظن أن أصفياء الله تعالى مثله منطوون على خبث الضمائر، ومتصفون بالصفات الرذائل، نعوذ بالله العظيم من الخذلانِ، وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان، ولقد صدق من قال:

وإذا رأى الإنســـانُ نقـــصًا إنّمـــا مِـــرآتهُ تجلـــي علـــيهِ بحالـــهِ

فإن من قُرِّبَ هذا التقريب، وعُرِّف هذا التعريف، ومُكِّنَ هذا التمكين، وصُرِّف هذا التصريف، وخضع له رقاب أكابر الأولياء هذا الخضوع، ورجع إليه العارفون بالله تعالى هذا الرجوع، وزفّته العناية هذه الزفات المشعرة بعظيم جلالته، وضرب له الوجود بمعازف السرور عند رؤية طلعته، ورقص الكون جميعه طربًا لظهور ولايته، وحَمَلَ بين يديه علم القطبيّة، وتُوِّج بتاج الغوثيّ، وأُلبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع .

الوجود، ومشت أكابر الأولياء من الصدِّيقين والبُدلاء تحت ركابه بأمر الملك المعبود، واشتهرت في الوجود كراماته، وجمعه بين علمي الظاهر والباطن -يستحيل أن يكون قال ذلك بحظِّ نفسٍ، وهوًى كامنٍ، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:124] كيف وقد أجمع على فضله وعلمه وجلالة قدره الخاص والعام من زمنه إلى هذه الأيام! بل قد ذكر العلماء الأعلام أن كراماته قربت من التواتر بين أهل ملة الإسلام، فيكون صدور هذا القول عنه امتثالاً لأمره، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضله، وبيانًا لعلوِّ شأنه، وتعريفًا للجاهل بكبر قدره، وإرشادًا إلى التعلُّق به، والتوسل برفيع جاهه، وغير ذلك من المصالح.

وقد رُوي في كتاب «مناقبه» من طرقٍ كثيرةٍ بروايات شهيرةٍ عن جماعةٍ من المشايخ الأكابر، والعلماء الأفاضل، والأخيار الثقات، واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدة أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: «قدمي هذه على رقبة كل وليِّ لله» وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق، ورُوي أنهم كانوا نحوًا من خمسين شيخًا، ورُوي نيفًا وخمسين شيخًا:

منهم: الشيخ أبو النجيب السهروردي، والشيخ قضيب البان الموصلي، والشيخ أبو السُّعود أحمد بن أبي بكر العطاء، وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.

ورُوي من طرقٍ كثيرةٍ عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حَنى له رقبته إلا رجلاً بأصبهان؛ فإنه لم يفعل، فسُلب حاله.

ورُوي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض، وقال: على رأسي، على رأسي، على رأسي، قالها ثلاث مراتٍ.

وكان من جملة من حَنى له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

فأما الشيخ أحمد الرفاعي: فرووا عنه أنه كان جالسًا يومًا برواقه بأم عبيدة، فمدَّ عنقه وقال: على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسُئِل عن ذلك، فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليِّ لله.

وأما الشيخ أبو مدين المغربي: فرووا عنه أنه حَنى رأسه يومًا وهو بين أصحابه،

وقال: وأنا منهم، اللهُمَّ إني أُشهدك، وأُشهد ملائكتك أني سمعتُ، وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك؟ فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، فأرّخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق، وأخبروا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني قال ذلك في الوقت الذي أرّخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم القناوي: فرووا عنه أنه مدَّ عنقهُ يومًا بقنا، وقال: صدق الصّادق المصدوق. فقيل له: ومن هو؟ فقال: الشيخ عبد القادر الكيلاني قد قال: قدمي هذا على رقبة كل وليّ لله، وتواضع له رجال الشرق والمغرب، فأرّخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

ورُوي بأسانيد كثيرةٍ من طرقٍ متعددةٍ عن جماعةٍ من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمرٍ.

منهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قال: إنما وَضَعَتْ الأولياء كلهم رؤوسهم لمكان الأمر، ألا ترى الملائكة لم يسجدوا لآدم ﷺ إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم: الشيخ أبو سعيد القليوي قال: قالها بأمرٍ لا شكَّ فيه، وهي لِسَان القطبيّة.

ومنهم: الشيخ علي الهيتي: لَمّا قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صَعَدَ إليه فوق الكرسي، وأخذ قدمه، وجعلها على عنقهِ، ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: فلِمَ فعلت ذلك؟ فقال: لأنه أُمر أن يقولها، وأُذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردتُ أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم: الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذا على رقبة كل وليّ لله بأمرٍ أو بلا أمرٍ؟ قال: بلى قالها بأمرٍ.

ومنهم: الشيخ أبو محمد القاسم قال: لما أُمر الشيخ عبد القادر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله رأيتُ الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتوارى عنه حاله.

ومنهم: الشيخ حياة بن قيس الحرّاني قال: قد غشانا زمانٌ مديدٌ في ظلّ حماية سيئات الشيخ عبد القادر الكيلاني، وشَرِبنا كؤوسًا هنيئةً من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه، فيبسط من شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله زاد الله جميع الأولياء نورًا في قلوبهم، وبركةً في علومهم، وعلوًا في

أحوالهم بسبب وضعهم رؤوسهم.

ورُوي بأسانيد صحيحةٍ متعددةٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه أنه سيقول مقالته تلك قبل أن يقولها بسنين كثيرةٍ، بعضهم قال ذلك بنحو مائةٍ.

منهم: **الشيخ عبد الله الجوني** روى عنه الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد الله بن علي الجوني سنة أربعٍ وستين وأربعمائةٍ يقول: أُشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولودٌ، له مظهرٌ عظيمٌ بالكرامات، وقبولٌ تامٌ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ويندرج الأولياء في وقته تحت قدمه ذلك الذي يشرق به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم: **الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء** قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شابٌّ: قوموا لوليّ الله، وربما يمشي إليه في وقتٍ خطواتٍ، وكان الشيخ عبد القادر يتكرّر إليه، فلمّا تكرّر منه قوله: قوموا لوليّ الله قال له أصحابه في ذلك، فقال: لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأنّي أراه قائلاً ببغداد على رءوس الأشهاد وهو محقٌّ: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، فتوضع له رقاب الأولياء في عصره؛ إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

ومنهم: **الشيخ عقيل المنبجي قُدِّس سرُّه** سُئل عن القطب في وقته؟ فقال: هو في وقتنا هذا بمكة مخفيٌّ لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق، وهو شريفٌ يتكلّم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام، وهو قطب وقته، يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، وتضع له الأولياء رقابهم، ولو كنتُ في زمانه لوضعت له رأسي، ذلك الذي ينفع الله به مَنْ صدّق بكراماته من سائر الناس.

ومنهم: **الشيخ علي بن وهب البخاري قُدِّس سرُّه** قال: إن الله تعالى قد نوّر الوجود بظهور رجلٍ اسمه عبد القادر، مظهره في العراق، يقول ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ويقرُّ أولياء عصره بفضله.

ومنهم: **الشيخ حمّاد الدبّاس قُدِّس سرُّه** قال الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي: كنت عند الشيخ حمّاد بن مسلم الدبّاس ببغداد سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ، والشيخ عبد القادر يومئذٍ في صحبته، فجاء، فجلس بين يديه متأدّبًا، ثم قام، فسمعت الشيخ حمّاد يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدمٌ تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليؤمرنَّ أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله،

وليقولنَّ، ولتوضعنَّ له رقاب الأولياء في زمانه.

وقد سَبَقَ قول الغوث في قصة ابن السقَّا، ومما أخبر به جماعةٌ من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار قدَّس الله تعالى أرواحهم عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال.

منهم: الشيخ أبو سعيد العز بن أحمد القيلوي قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله تجلّى الحق سبحانه وتعالى على قلبه، وجاءته خُلعةٌ من رسول الله ﷺ على يد طائفةٍ من الملائكة المقرّبين والبهاء بمحضرٍ من الأولياء من تقدَّم منهم ومن تأخَّر، الأحياء بأجسادهم، والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافِّين بمجلسه، واقفين في الهواء صفوفًا حتى انسدَّ الأفق بهم، ولم يبقَ وليٌّ لله تعالى في الأرض إلا حَنى عنقه.

ومنهم: الشيخ بقا قُدِّس سرُّه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله قال الملائكة: صَدَقت يا عبدَ الله.

ومنهم: الشيخ عدي بن مسافر الأموي قُدِّس سرُّه، والشيخ أحمد الرفاعي قُدِّس سرُّه روى عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر قال: بخ بخٍ، ذلك قطب الأرض، وضع ثلاثمائة وليّ لله، وسبعمائة غَيبي، ما بين جالسٍ في الأرض ومارٍّ في الهواء، ممتدة أعناقهم له في وقتٍ واحدٍ حين قال: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله.

قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدةٍ أتيت أم عبيدة؛ لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، قال: صَدقَ الشيخ عدي.

ومنهم: الشيخ ماجد، والشيخ مطر- قُدِّس سرُّهما- روي عن الشيخ ماجد أنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله لم يبقَ لله وليٌّ في الأرض في ذلك الوقت إلا حنىَ عنقه تواضعًا له، واعترافًا بمكانته، ولم يبقَ نادٍ من أندية صالحي الجن من جميع الأقطار في الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذِكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار مسلِّمين عليه، وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه.

قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر؛ لزيارته وفي أنفسنا إعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلمّا دخلنا عليه رحّب بنا، وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن

الشيخ عبد القادر.

ومنهم: **الشيخ مكارم قدَّس سرُّه** قال: أشهدني الله ﷻ أنه لم يبقَ أحدٌ ممن عقد له الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف النافذ في الوجود وأهله ولايةً وعزلاً معلمةً بطرازَي الشريعة والحقيقة، وسَمِعْتهُ يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله، ووضع رأسه، وذلل قلبه له في وقتٍ واحدٍ حتى الأبدال العشرة.

قال الراوي: قلت: مَنْ هم؟ قال: الشيخ بقا بن بطو، والنهر ملكي، والشيخ أبو سعيد القليوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر الأموي، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عبيد البصري، والشيخ حيّاة بن قيس الحرّاني، والشيخ أبو مدين المغربي قدَّس الله تعالى أرواحهم أجمعين.

ومنهم: **الشيخ خليفة قُدِّس سرُّه**، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ، روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بَكر بن أحمد بن أبي السعادات البندينجي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله.

قال: صدق الشيخ عبد القادر، كيف لا وهو القطب وأنا أرعاه!.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه مقالاته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرةٍ مما يتعلق بذلك، ومما يدل على عظمة فضله، وجلالة قدره، ضربت وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضًا؛ لكثرة ما في ذلك من الأشهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر يعني: قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حدَّ التواتر المعروف؛ لكثرة المخبرين عنها، وقد ذكرت شيئًا منها في باب الكرامات الآتي قريبًا.

وبالجملة: فهذا الذي ذكرته مِنْ فضله، وإن عظم فهو قطرةٌ من بحر فضائله، أو غبارٌ من رمال ساحله.

وقد رُوي بالسند الصحيح عن الشيخ أبي الرضا محمد بن أحمد بن داود البغدادي المعروف بالمقيّد قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسئلةٍ عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبو الخليل أحمد بن أسعد بن وهب بن علي المقري إلى جامع الرّصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبا سعيد القيلوي، والشيخ علي الهيتي، فسألت الشيخ أبا

سعيد عن ذلك؟ فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وعنده تُحط رحال جدالة هذا الشأن.

قلت: فمن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر الكيلاني، فلم أتمالك أنا، وثبتُ، ووثبوا كلُّهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر، ولا تقدّم منا أحدٌ ولا تأخّر ولا تفرّقنا وما منَّا إلا مَنْ يشتهي أن يسمع شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلم، فلمّا استقر بنا المجلس قطع كلامه، وقال: إني للواصف أن يبلغ وصف القطب ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطئٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلةٌ في المشاهدة إلا وله منها مشربٌ هنيءٌ لا يشقى جليسه، ولا يغيب شهوده، ولا يتوارى عن حاله بشرٌ تابعٌ له حدٌّ ينتهي إليه، ووصفٌ ينحصر فيه، وتكلُّفٌ يجب عليه.

ثم أنشد بعد كلامٍ طويلٍ في ذلك من غير ترنُّمٍ ولا أغانٍ:

مـا لي في الصبابةِ منهلٌ مستعذبٌ ... إلا ولي فيه الألذُّ الأطيبُ

او لي في الوصالِ مكانةٌ مخصوصةٌ ... إلا ومنزلتي أعزُّ وأقربُ

وهبتْ لي الأيامُ رونقَ صفوها ... فَحَلاَ مناهلها وطاب المشربُ

وغدُوتُ مخطوبًا لكلِّ كريمةٍ ... لا يهتدي فيها اللبيبُ ويخطبُ

انا مِنْ رجالٍ لا يخافُ جليسُهم ... ريبَ الزمانِ ولا يرى ما يُرهِبُ

قومٌ لهم في كلِّ مجدٍ رتبةٌ ... علويّةٌ وبكلِّ جيشٍ مَوكبُ

انا بلبلُ الأفراحِ املأُ دوحَها ... طربًا ولي العلياء بانٌ أشهبُ

اضحتْ جيوشُ الحبِّ تحت مَشيئتي ... طوعًا ومهما رمته لا يعزبُ

اصبحتُ لا املاً ولا امنيةً ... ارجو ولا موعودةً أترقبُ

ما زلتُ أرتعُ في ميادين الرِّضا ... حتى وُهبتُ مكانةً لا توهبُ

أضحى الزمانُ كحُلّةٍ مرقومةٍ ... تزهو ونحن لها الطرازُ المُذْهَبُ

أفِلَتْ شموسُ الأوّلينَ وشمسُنا ... ابدًا على فَلَكِ العُلا لا تغربُ

ثم قال: كل الطيور تقول ولا تفعل، والبازي يفعل ولا يقول، ولأجل هذا صار أكفُّ الملوك سُدَّتَهُ، فقام إليه الشيخ أبو منصور بن المبارك الواعظ المعروف بجرادة،

وأنشد يقول:

بــكَ الــشهورُ تُهــنَّا والمواقــيتُ ... يــا مَــنْ بألفاظــهِ تغلــو اليواقيتُ

الــبازُ انــت فــإنْ تفخرْ فلا عجبَ ... وســائرُ الــنّاسِ في عينِــي فواخيتُ

واشــمُ مــن قدميك الصدقَ مجتهدًا ... لأنّــه قــدمٌ في نعلــهِ الــصيتُ

فقام الشيخ علي بن الهيتي وَقبّل قدم الشيخ عبد القادر، قال: فكتبنا المجلس عندنا وحفظنا ما وقع فيه.

قلتُ: وقد أوّل بعض العلماء قوله قُدِّس سرُّه: قدمي هذه على رقبة كلّ وليِّ لله، فقال: المراد بذلك شريعتي وعلمي الذي هو شريعة محمّدٍ ﷺ، كما يُقال: القدم على القدم: أي العلم على العلم، والله أعلم.

قال الشيخ اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: اعلم وفّقنا الله تعالى وإيّاك لفهم الحق واتّباعه، وَجَعَلنا جميعًا ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه أن القوم وردوا بحرًا ليس له ساحلٌ، وكل أحدٍ من المنكرين عليهم من ذلك المورد ما حلّ، وبما فيه من جواهر المعارف والأسرار والحِكَم جاهلٌ، وسُقوا بكؤوس الوصل راح المحبة التي لم يشمَّ ريحها مَن لم يقضِ من قتل نفسه بحبّه، فأخذ ينكر عليهم مَنْ لم يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهرٌ؛ وذلك لجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والرّاح التي في تلك المغارف، فإن الشّطح الصادر عنهم منه ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسُكر سببٌ مباحٌ يُسقط التكليف بالشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، ومنه ما صدر منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ.

وممن قال أن هذا القول صَدَرَ عنه في حال السُكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنه ما أمروا به، فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضلهم، وبيانًا لعلوّ شأنهم، وتعريفًا للجاهل بكبِيْر قدرهم، وإرشادًا إلى التعلّق بهم، والتوسل برفيع جاههم، وغير ذلك من الصالح، ومن ذلك قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه: (قدمي هذه على رقبة كل وليّ لله)، وشطحات المشايخ كثيرةٌ جدًّا، فكل ما بلغك عن أحدٍ منهم مِنْ شطحٍ فاحمله على أحد المحامل المذكورة على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى انتهى. وانظر: الانتصار للأولياء الأخيار (ص64) وما بعده.

- وأما ما نسب إليه ﷺ من قوله:

«معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا»

قال الشيخ العطار: وأما قول سيدنا سلطان الأولياء عبد القادر: «معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا»

فهو من باب قول الخضر لموسى عليهما السلام: (أنا على علمٍ أوتيته لم تؤته) أو معنى ذلك، مع أنا لا نتوقف في فضل موسى على الخضر، وفضلُ الله يؤتيه من يشاء، كيف وعلم رجال هذه الأمة موروث عنه ﷺ، وقد علم ما لم يعلمه غيره من الأنبياء، فقد فاز رجال هذه الأمة بالعلم الموروث عنه ﷺ.

وقال أيضًا الشيخ الشعراني معقبًا على ذلك: اعلم أن قوله ﷺ: «إنما أوتيتم اللقب» أي حجر علينا لقب النبي، وإن كانت النبوة سارية إلى يوم القيامة في أكابر الرجال، لأنهم نواب الأنبياء وورثتهم، وأما قوله: «وأوتينا ما لم تؤتوا».

فهو معنى قول الخضر عليه السلام الذي شهد بعدالته وتقدمه في العلم لموسى عليه السلام أنا على علم علمنيه الله لا تعلمه أنت يريد من الوجه الخاص الذي بين كل إنسان وبين ربه، ويحتمل أن يريد الشيخ عبد القادر بالأنبياء هنا أنبياء الأولياء أصحاب التعريف الإلهي، فتكون تصريحًا منه بأن الله تعالى قد أعطاه ما لم يعطهم، والله أعلم[1].

وبالجملة: قال الشيخ الصيادي: والذي أراه أن ما صدر عن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ونفعنا الله به من الكلمات التي رؤيت بمرأى الشطحات فهي مؤوّلة منصرفة عن مقام الشطح على الغالب.

وأما بعض الكلمات التي لا تقبل التأويلات فهي نسبت إليه، ولم تكن منه ﷺ على الأصح، كالكلمات التي سمَّاها واضعها عليه من الله ما يستحق بالغوثية والمعراجية وأسندها إلى الشيخ ﷺ، وأخذ به نزه الله مقامه إلى مذهب الحلولية وأهل الوحدة المطلقة، فهي بهتان وافتراء محض عليه قُدِّس سرُّه.

وإنه ﷺ من أعظم من تحقق بقدم الاتباع للنبي ﷺ في الأقوال والأفعال، وقد دلَّت عليه إرشاداته وكمالاته وعباداته.

وقال الشيخ أبو الهدى أيضًا[2]: وقد كنت رأيت في كتاب: «الفيض الوارد» للعلاَّمة الفاضل السيد محمود أفندي الألوسي المرحوم مفتي العراق عليه رحمة الخلاَّق،

(1) وانظر: تأويل الشطح للشعراني (ص44)، وكشف الأسرار للعطار (ص162) بتحقيقنا.

(2) في قلائد الزبرجد (ص149) بتحقيقنا.

ما نصّه:

قد ذكر الإمام الربّاني مجدد الألف الثاني في مكتوباته، أن القطبية كانت لأئمة أهل البيت أصالة، وصارت من بعدهم وكالة حتى ظهر الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه فأعطيها أصالة، حتى إذا ذهب إلى حظائر القدس أعطيها من جاء بعده وكأنه عنه، فكل الأقطاب من بعده نوابه، ووكلاؤه، ولا يزال الأمر كذلك حتى يظهر المهدي فيعطاها أصالة.

وفي قوله قُدِّس سرُّه:

غَـربَت شـمُوس الأوَّلِين وشَمسُنَا ... أبَـدًا عَلَـى فُلَـك العُـلا لا تَغرُب

رمز إلى ذلك انتهى، فليحفظ!

وقال الصيادي أيضًا (ص151): إن السيد الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه، وغمرنا بره قد نال ما نال من القطبية بواسطة جده ﷺ على أتم وجه وأكمل حال.

فقد كان ﷺ من أجلة أهل البيت حسينيًا من جهة الأب، حسنيًا من جهة الأم، لم يصبه نقص: لو أن.. وعسى.. وليت.. ولا ينكر ذلك إلا زنديق أو رافضي يُنكر صحبة الصديق، انتهى.

هذا والله الموفق والهادي سواء الصراط.

بعض المصنفات والمصادر التي ترجمت

لسيدي عبد القادر قدس سره

- بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الجيلاني للشطنوفي (طبع دار الكتب العلمية -بيروت- بتحقيقنا).
- الجنى الداني في ذكر نبذة من مناقب عبد القادر الجيلاني، لجعفر بن حسن البرزنجي. (طبع) ومنه مخطوط ببرلين، وليبزج.
- غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر لابن حجر العسقلاني (طبع كلكتا، وبيروت).
- قلائد الجواهر في ترجمة الشيخ عبد القادر للتاذفي (طبع دار الكتب العلمية-بيروت- بتحقيقنا).
- ذيل قلائد الجواهر في ذكر ذرية سلطان الأولياء الشيخ عبد القادر (الجيلاني)- مطبعة السعادة 1326هـ.
- نزهة الخاطر في ترجمة الشيخ عبد القادر للملا علي القاري (طبع باستانبول).
- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للبرهان إبراهيم بن علي الديري (بتحقيقنا).
- مفاتيح المطالب ورقية الطالب في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني، للديري. (لعله نفسه الكتاب المتقدم).
- النشر العاطر بمناقب الشيخ عبد القادر لجمال الدين بن أحمد التونسي (طبع بتونس).
- تحذير المنكر للقدرة المعاند الغادر المعترض على كلام سيدي الشيخ عبد القادر لابن الرسام الحموي الحنبلي.
- الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر قدس سره لابن الأهدل اليمني.
- روض النواظر في ترجمة الشيخ عبد القادر للشيخ محمد سعيد بن ذريع القادري.
- الصبح السافر عن شمائل الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن عيسى بن داود السنجاري. مخطوط بدار الكتب المصرية.
- رياض البساتين في مناقب الشيخ عبد القادر لمحمد أمين الكيلاني -طبع بتونس.

- الدر الفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لعبد الرحمن بن السايح.
- خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر لليافعي (بتحقيقنا).
- درر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر لابن الملقن.
- مختصر بهجة الأسرار للشيخ عبد العزيز الديريني (مخطوط يسر الله لنا تحقيقه).
- الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبد القادر للشهاب القسطلاني.
- روضة الناظر في درجة الشيخ عبد القادر للمجد الفيروزابادي.
- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للإشبيلي.
- نزهة الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ أبي محمد عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن هبة الله الهاشمي البغدادي.
- تفريح الخاطر ترجمة الشيخ عبد القادر لمحيي الدين الأربلي (تحت قيد الطبع) بتحقيقنا.
- الشرف الباهر في مناقب الشيخ عبد القادر لموسى بن محمد اليونيني البعلبكي (مخطوط بدار الكتب المصرية).
- جلاء الخاطر من كلام الشيخ عبد القادر لولده سيدي عبد الرزاق.
- مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني منظومة رائية من البحر الوافر، للمشيشي.
- أنوار الناظر في مناقب الشيخ عبد القادر لابي بكر عبدالله بن نصر بن حمزة البكري الصديقي البغدادي.
- أنهار المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ غوث الدين محمد بن ناصر الدين محمد المدارسى الهندي.
- نثر الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر للقاضي محمد بن صبغة الله بدر الدولة المدارسي الهندي.
- تلطيف الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر للشيخ محمد صادق السعدى الشهابي القادرى المولوي.
- النشر العاطر بمولد الشيخ عبد القادر للشيخ جمال الدين التونسى المالكى.
- السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني لابن عزوز المكي (طبع ببيروت بتحقيقنا).
- الطراز المذهب شرح قصيدة مدح الباز الأشهب للآلوسي المفسر (بتحقيقنا).
- المورد السني في ترجمة سيدنا عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني لمحمد صالح بن أحمد الخطيب القادري الحسني (طبع).
- الباز الأشهب عبد القادر الكيلاني لإبراهيم الدروبي البغدادي (طبع بالعراق).

- الباز الأشهب في حياة الشيخ عبد القادر الكيلاني لأرتين آصادور بيان.
- الكواكب الدرية في المناقب القادرية لمحمد رشيد الرافعي (مطبوع).
- نفحة الرياض العالية في بيان طريقة القادرية لمحمد رفعت بن عبد الله الرومي.
- رسالة في ذرية الجيلانيين القاطنين بحماه لمحمد سعدي بن عمر الأزهري.
-الشيخ عبد القادر الجيلاني وأعلام القادرية لمحمد درنيقة.
-زين المجالس في مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني -بلسان أردو - للقاضي محمد يوسف صاحب مركهى الهندي.
-الشراب النيلي في ولاية الجيلي لمحمد بن إبراهيم الحلبي الشهير: بابن الحلبي المتوفى سنة 971 هـ.

وانظر في المصادر:

- الأنساب للسمعاني (415/3).
- المنتظم لابن الجوزي (219/10).
- الكامل لابن الأثير (323/11).
- مرآة الزمان للشيخ اليافعي (964/8).
- العبر للذهبي (175/4).
- دول الإسلام له (3935/1).
- سير أعلام النبلاء له (150/22).
- فوات الوفيات لابن شاكر (273/2).
- الوافي بالوفيات للصفدي (358/1).
- البداية والنهاية لابن كثير (252/2).
- ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (290/1).
- الطبقات الكبرى للشيخ الشعراني (108/1).
- شذرات الذهب لابن العماد (198/4).
- كنوز الأولياء ورموز الأصفياء لأبي الليث الزيلي (ص34).
- الأعلام للزركلي (47/4).
- معجم المؤلفين لكحالة (200/2).

نماذج من صور المخطوط

أ ١

الجزء الاول من تفسير القرآن العظيم لمولانا ذي النور الرباني
والهيكل الصمداني خزانة [illegible] الدقائق النوراني امام
العارفين تاج الدين القطب الكامل
السيد عبد القادر الكيلاني
اعاد الله علينا وعلى المسلمين
من بركاته وبركات [illegible]
[illegible]

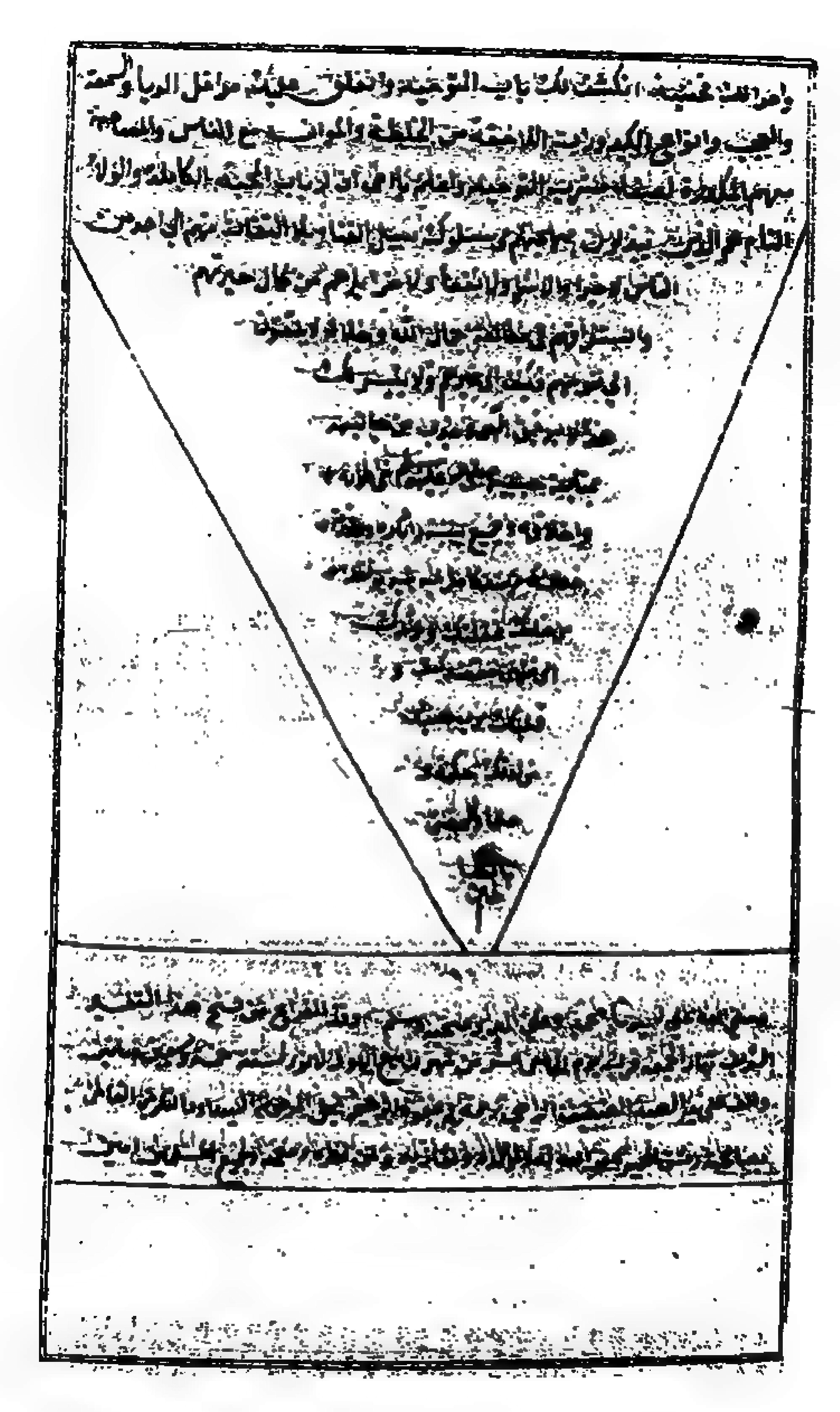
تفسير [illegible]

٥٥٠

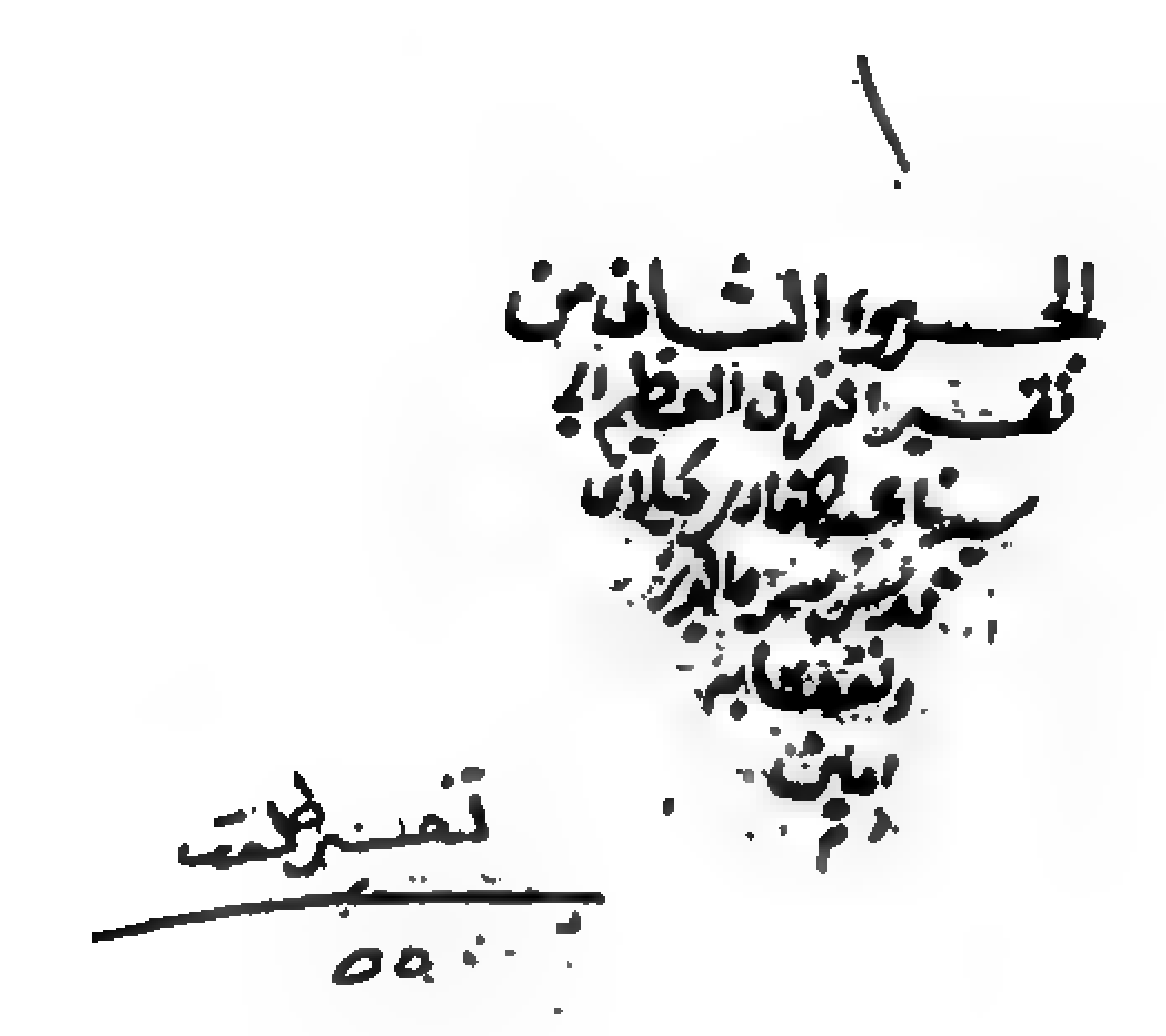
صورة عنوان الجزء الأول من مخطوطة دار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الصفحة الأولى من مخطوطة دار الكتب المصرية



صورة الصفحة الأخيرة من نهاية الجزء الأول من المخطوطة



صورة عنوان الجزء الثاني من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة تشتمل لا تخفى على ارباب الهداية الكاملة من الراسخين من اهل العز والتمكين
الواصلين الى الوحدة الذاتية بمقتضى اليقين الحق متدرجين من مرتبتي العلم والعين
اليها بعد ما سبقت لهم العناية الازلية والجذبة الالهية والبشارة المتضمنة لانواع الرموز
والاشارة من قبل الحق الحقيقي بالحقيقة ان من اهتدى الى التوحيد الذاتي وعلى على تلك المرتبة
بلا طريان تزلزل وتلوين البتة تتم ويدوم صلوته وسلم كون الذات الابدية معهد يا الطاهر
وباطنه من الجهل والالتفات الى ما سواه من الزخرفات الفانية الملهية من الفناء
فيه والبقاء ببقائه وايضا ان لم ان يميت نفسه بالموت الارادي عن مقتضيات اوصاف
البشرية وقواه الناسوتية بعيدة عن التوبيب [illegible] بلاهوت ومرا حضرة الرحموت
الذي لا ينام ولا يموت وبالجملة الابد الا تخلع عن خلع الثياب البدنية المقتضية
للتعدد والكثرة مطلقا حتى يتصف بالطهارة الحقيقية والطيب المعنوي للحالة
الحسنية والسيادة السرمدية وبذلك خاطب سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم
بعد ما يمن باسمه العلي الاعلى بسم الله
الذي تجلى باسمائه الحسنى وصفاته العليا على ما ظهر وبطن من الاشياء
الرحمن لعموم عباده بالرزق الصوري الرحيم لخواصهم بالمثوبة العظمى
والدرجة العليا والترقي من ارض الطبيعة الى سماوات الصفات والاسماء
والعروج بالملأ الاعلى والوصول الى سدرة المنتهى طس يا طالب
السعادة السرمدية والسيادة الحسنية الدائمة الابدية تلك الآيات
المتلوة عليك تعظيما لشأنك وتتميما لبرهانك آيات القرآن
اي بعض آيات القرآن المبين المبين لدلائل التوحيد وبينات
الفرقان الفارق بين الباطل والحق من الاحكام وكتاب

مبين

صورة الصفحة الأولى من الجزء الثاني من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحان من تجلى لذاته بذاته، في ملابس أسمائه وصفاته وتعزز بكبريائه عن أن يصفه ألسنة مظاهره ومصنوعاته، جل جناب قدسه عن أن يكون شرعة كلّ وارد ووجهة كل قاصد، فيا عجبًا من المدرك وما إلا إدراك في مقام لا يسع فيه سوى ما عرفتاك.

تعالى الحق عن علم الرجال وعن وصف التفرق والوصال

إذا ما جل شيء عن خيال يجل عن الإحاطة والمثال

بحمدك لنفسك نتوسل إليك، وبشأنك لذاتك نثني عليك، ولا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ونصلي على نبيك المؤيد من عندك لتبليغ سرائر حكمك وأحكامك إلى خلص عبادك ونتضرع إليك ألّا تزيغ قلوبنا بعد أن هديت؛ إذ بيدك أزمة الأمور وبمشيئتك يجري ما في الصدور.

إخواني - أبقاكم الله تعالى - لا تلوموني بما أنا عليه، ولا تعيروني بأمر قصدت إليه؛ إذ من سنته سبحانه إظهار ما خفي في علمه وإبراز ما كمن في غيبه، يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما بكم من نعمة فمن الله، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب عن جميع ما يعيبني ويريب.

والملتمس من الإخوان، والمرجو من الخلان ألّا ينظروا فيه إلا بعين العبرة لا بنظر الفكرة وبالذوق والوجدان لا بالدليل والبرهان، وبالكشف والعيان لا بالتخمين والحسبان، والله ما هذا الفقير الحقير من أصحاب القيود المتشبثين بأذيال الحجج والحدود، ولا من المتصوفة المتصلفة من الوارد والمورود والمتفوهة من الواجد والموجود، بل من خدام الفقراء المنسلخين عن جميع الرسوم والعادات، المنتظرين بما ظهر لهم من الحق في عموم الأوقات وشمول الحالات، نفعنا الله وإياكم بالقرآن

العظيم وشرح صدورنا وصدوركم بالآيات والذكر الحكيم إنه هو الجواد الكريم، الفتاح العليم، التواب الرحيم.

ثم لما كان ما ظهر فيه من الفتوحات التي فتحها الله الحق ووهبها من محض جوده فسمى من عنده بـ «الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية».

سورة الفاتحة

فاتحة سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على من أيقظه الله تعالى سبحانه من منام الغفلة ونعاس النسيان أن العوالم وما فيها إنما هي من آثار الأوصاف المترتبة على الأسماء الذاتية الإلهية؛ إذ للذات في كل مرتبة من مراتب الوجود اسم خاص وصفة مخصوصة لها أثر مخصوص، هكذا بالنسبة إلى جميع مراتب الوجود، ولو حبة وذرة وطرفة وخطرة، والمرتبة المعبرة عنها بالأحدية الغير العددية، والعماء الذي لا حظ لأولي البصائر، والنهى منها إلا الحسرة والحيرة والوله والهيمان، هي غاية عروج معارج الأنبياء، ونهاية مراتب سلوك الأولياء، وبعد ذلك يسيرون فيه لا بد وإليه إلى أن يستغرقوا فيتحيروا، وإلى أن يفنوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى تلك المرتبة ليتقربوا إليها ويتوجهوا نحوها حتى ينتهي توجههم وتقربهم إلى العشق والمحبة الحقيقية الحقية، المؤدية إلى إسقاط الإضافة، المشعرة للكثرة والاثنينية، وبعد ذلك خلص نيتهم، وصح طلبهم للفناء فيه، نبه سبحانه إلى طريقه إرشادًا لهم وتعليمًا في ضمن الدعاء له والمناجاة معه، مندرجات من نهاية الكثرة إلى كمال الوحدة المفنية لها متيمنًا.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة:1-7].

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾[1] المعبر بها عن الذات الأحدية، باعتبار تنزلها عن تلك المرتبة؛ إذ

---

(1) قال نجم الدين كبرى: سُمِّيت الفاتحة لمعنيين: أحدهما: أن الله تعالى بها فتح أبواب خزائن -

الحقائق التي ما فتح أبوابها لأحد من العالمين على حبيبه ونبيه ورسوله محمد ﷺ في هذا الكتاب بعد أن أودع فيه حقائق جوامع الكلام التي أنزلها على جميع أنبيائه ورسله - عليهم السلام - يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : 59] والثاني: أنها هي فاتحة فتوحات هذا الكتاب بأن الله تعالى ضمن فيها: حقائق مراتب الربوبية ومراتب العبودية، ومراتب الأمور الدنيوية ومراتب الأمور الأخروية التي هذا الكتاب مشتمل عليها سنجمع دقائق مبانيها فمراتب الربوبية عشرة: أولها: مرتبة الاسم؛ بأن له تعالى أسماء والثاني: الذات. والثالث: الصفات. فهذه المراتب الثلاثة حاصلة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1]. والرابع: الثناء. والخامس: الشكر. وهما حاصلان في ﴿الْحَمْدُ﴾ [الفاتحة:2]. والسادس: الألوهية بمعنى الخالقية، وهي حاصلة في ﴿لِلَّهِ﴾ [الفاتحة:2]. والسابع: الربوبية بالوحدانية في الخالقية، وهي حاصلة في ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]. والثامن: الملكية بالمالكية، وهي حاصلة في ﴿مَالِكِ﴾ [الفاتحة: 4]. والتاسع: المعبودية بالألوهية والوحدانية، وهي حاصلة في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]. والعاشر: الهداية بالحق والإنعام من الأزل إلى الأبد، وهي حاصلة في ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]. وكذلك في مرتبة العبودية عشرة: أولها: معرفة الله تعالى بهذه المراتب والثاني: الإقرار بالربوبية لله تعالى وبعبودية نفسه له. والثالث: معرفة النفس وخلوها عن مراتب الربوبية.

والرابع: العلم باحتياجه إلى الله تعالى واستغناء الله تعالى عنه. والخامس: عبادة الله تعالى على ما هو أهله بأمره. والسادس: الاستعانة بالله تعالى في عبوديته بالتوفيق والقدرة والتعلم والإخلاص. والسابع: الدعاء بالخضوع والخشوع والشوق والمحبة، فإنه خُلق لهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:77] وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]. والثامن: الطلب لوجدان الله تعالى وصفاته ونعمه، وهو المقصد الأعلى والمنية القصوى. والتاسع: الاستهداء عنه ليهتدي به وينعم عليه بإرشاده طريق الهداية. والعاشر: الاستدعاء منه بأن ينعم عليه، ويديم نعمته عليه، ولا يغضب فيرده إلى الضلالة والغواية. وهذه المراتب كلها حاصلة في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة فافهم جدًا. ومراتب الأمور الدنيوية أربعة: الملك والملك والتصرف فيهما بالملكية والمالكية، وفاتحة الكتاب مشتملة على هذه المراتب كلها كما أشرنا إلى طرف منها، وسنبينها في تفسيرها إن شاء الله تعالى، ولهذا المعنى أيضًا سُمِّيت أم الكتاب؛ لأن أم الكتاب في الحقيقة مصدر حقائق كل دين، وكتاب ومنشأ دقائق كل حكم وخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39] وأما الحكمة في أن الله تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء واختياره على سائر الحروف لاسيما على الألف بأنه أسقط الألف من الـ «اسم» وأثبت مكانه الباء، وقال: ﴿بِسْمِ﴾ فعشرة معانٍ: أحدها: إن في الألف ترفعًا وتكبرًا وتطاولاً، وفي الباء انكسارًا وتواضعًا وتساقطًا، فالألف لما تكبرت وضعها الله تعالى والباء لما تواضعت رفعها الله تعالى كما ورد في الحديث: «من تواضع لله رفعه الله

ومن تكبر وضعه الله» وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ: أن يأتي الجبل ليسمعه كلامه فتطاول كل جبل طمعًا أن يكون محلاً لموسى ﷺ، وتصاغر طور سيناء في نفسه «متى أستحق أن أكون محلاً لقدم موسى ﷺ في وقت المناجاة؟» فأوحى الله تعالى إلى موسى: «أن ائتِ ذلك الجبل المتواضع الذي ليس يرى لنفسه استحقاقًا» فكذلك حال الباء مع الألف. وثانيها: إن الباء مخصوصة بالإلصاق، وتصل كل حرف بخلاف أكثر الحروف خصوصًا الألف؛ لأن الألف مخصوصة بالقطع وتكون منقطعة عن الحروف كلها، فلما كانت الباء واصلة للرحم في الحروف وصلها الله تعالى، ولما كانت الألف قاطعة الرحم عن الحروف قطع الله معها كما روى عبد الله بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: فيما يحكي عن ربه - جل ثناؤه -: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم شققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» حديث صحيح وثالثها: إن الباء مكسورة أبدًا فلما كانت فيها كسرة وانكسار في الصورة والمعنى وجدت شرب العندية من الله تعالى واسمه دون الألف كما قال تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي». ورابعها: إن في الباء وإن كانت في الظاهر تساقط وتكسر، ولكن في الحقيقة رفعة درجة وعلو همة وهي من صفات المصدقين، وفي الألف ضدها أما رفعه درجتها فبأنها أعطيت نقطة وليست للألف هذه الدرجة، وأما علو الهمة فإنه لما عُرضت عليه النقطة ما قبلت إلا واحدًا بسكون حاله كحال موحدٍ لا يقبل إلا واحدًا، وعابدٍ لا يعْبدُ إلا معبودًا واحدًا، وقاصدٍ لا يقصدُ إلا مقصودًا واحدًا ومحبٍ لا يحبُّ إلا محبوبًا واحدًا وخامسها: إن للباء صدقًا في طلب قُربة الحق ونيل المقصود الحقيقي لا يوجد في غيرها من الحروف وذلك أنها لما وجدت درجة حصول النقطة وبلغت هذه المرتبة وضعتها تحت قدمها؛ لصدقها في طلب المقصود الحقيقي والمطلوب الأصلي، وما تفاخرت بها بل أعرضت عنها حتى بلغت مقصدها الأقصى ومقصودها الأعلى، فالباء مخصوصة من سائر الحروف بوضع النقطة تحتها ولا تناقضها الجيم وإن كانت تحتها نقطة واحدة؛ لأن نقطة الجيم في وضع الحروف ليست تحتها بل هي في وسطها وكذلك الباء، وإنما موضع النقطة تحتها عند اتصالهما بحرف آخر لئلا تشبها بالخاء والثاء بخلاف الباء فإن نقطتهما موضوعة تحتها وإن كانت مفردة غير متصلة بحرف آخر وسادسها: إن الألف حرف العلة وهو معلول لا يتحمل الحركة، والباء حرف صحيح غير معلول يتحمل الحركة وحالهما كما أن الله عرض الأمانة على أهل السماوات والأرض من الملائكة وغيرهم ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] فأمر الملائكة بالسجود له فأبى إبليس واستكبر فلعنه الله وأسقطه عن قربته وطرده عن جواره وحضرته، واصطفى آدم من بريته واجتباه لقربته وزاد في علو درجته وهداه إلى محبته ومعرفته. وسابعها: إن الباء حرف تام متبوع في المعنى وإن كان ناقصًا منكسرًا تابعًا في الصورة، والألف حرف ناقص تابع في المعنى وإن كان تامًا متبوعًا في الصورة ألا ترى أنك إذا نظرت إلى صورة وضع الحروف وجدت الألف مقدمًا على الباء متبوعًا له، وإذا قلت الباء وجدت الألف تابعًا وإذا قلت الألف لم تجد للباء تبعية فالابتداء بالمتبوع التام في المعنى والناقص المنكسر التابع في الصورة أولى من الابتداء بمن هو على مثل هذا وثامنها: إن الباء حرف عامل يعمل ويتصرف في غيره، فظهر لها من هذا



الوجه قدر وقدرة فصلحت للابتداء، والألف ليس بعامل ولا متصرف في غيره فليس له هذا القدر والقدرة، فما صلح للابتداء والاقتداء. وتاسعها: إن الباء حرف في صفاته مكمل لغيره، فكماله في صفاء نفسه بأنه للإلصاق والاستعانة والإضافة، وفيه تواضع إذا لم تقبل من الحركات إلا الكسرة، وله علو وقدر في تحميل الغير بأن يخفض الاسم التابع له ويجعله مكسور الصفات نفسه بحيث كل اسم يجيء خلف الاسم التابع له يكون مكسورًا بالإضافة، والذي يجيء بعده يكون مكسور بالصفة إلى غير النهاية كما دخل على الاسم، وجعل ميم بسم مكسورة، وجعل الهاء من الله مكسورة بالإضافة، والنون من الرحمن مكسورة بالصفة، والميم من الرحيم أيضًا مكسورة بالصفة لو شئت هلم جرًا، فالكامل المكتمل أولى بالإمامة والتقدم من الألف الذي هو ناقص معلوم في نفسه منقص معلل لغيره، فإنه لو دخل في الفعل الماضي يجعله مهموز الفاء معتل العين ناقص اللام. وعاشرها: إن الباء حرف شفوي تفتح الشفة به ما لم تفتح بغيره من الحروف؛ لأن بالميم وإن كان شفويًا لا تفتح الشفة به كما تفتح بالباء حسًا، وكان أول انفتاح فم الذرة للإنسانية في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] بالباء في جواب ﴿بَلَى﴾ فلما كان الباء أول حرف نطق به الإنسان وفتح به فمه، وكان مخصوصًا بهذه المعاني اقتضت الحكمة الإلهية اختيارها من سائر الحروف، فاختارها ورفع قدرها وأعلا شأنها وأظهر برهانها وأعز سلطانها وجعلها مفتتح كتابه ومبتدأ كلامه وخطابه، وأعطاها رفعة الألف وقامته وتقدمه على الحروف وإمامته فحذف الألف في﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ وطوّل باءه لإظهار تعظيمها وتفخيمها؛ إذ منها مرتبة الألف وأثبتها مكانه وقرنها باسم ذاته وصفاته، وجعلها معدن إشاراته ومنبع كراماته مع بريته. كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: الباء بره بأوليائه، والسين سره مع أصفيائه، والميم منته على أهل ولائه، وأخبرنا المؤيد بن محمد الطوسي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم ﷺ أرسلته أمه إلى الكتاب يتعلم فقال له المعلم: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فقال عيسى: وما ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فقال: ما أدري؟ فقال: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم منته» برنا الثعلبي ثنا أبو القاسم بن حسين بن محمد يقول: سمعت أبا بكر محمد بن عمر الوراق يقول في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: إنها روضة من رياض الجنة لكل حرف منها تفسير على حدة: الباء على ستة أوجه : «بارئ» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284] «بصير» «باسط» رزق خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27] «باعث» الخلق بعد الموت للثواب والعقاب، من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:7]. «بار» بالمؤمنين من العرش إلى الثرى بيانه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:28]. والسين على خمسة أوجه: «سميع» لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى﴾ [الزخرف:80]. «سيد» قد انتهى سؤدده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص:2] «سريع» الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى؛ بيانه: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202]. «سلام» على خلقه من العرش

إلى الثرى، بيانه ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر:23]. «ستار» ذنوب عباده من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر:3]. والميم على اثني عشر وجهًا: «ملك» الحق من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر:23] «مالك» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:26] «منان» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات:17] «مجيد» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15]. «مؤمن» أمّن خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:4]. «مهيمن» اطلع على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:23]. «مقتدر» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف:45]. «مقيت» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾ [النساء:85]. «مكرم» أولياته من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]. «منعم» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20]. «مِفْضَلٌ» عما خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:243]. «مصور» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر:24]. قال الشيخ المحقق مصنف الكتاب رحمه الله تعالى: الباء بلاؤه لأنبيائه وأحبائه، والسين سلامه لأوليائه وأصفيائه، والميم معروفه مع أهل ولائه في ابتلائه ومعرفة مبتلاه بالابتلاء، وإنه لأوليائه وأصفيائه ومنته على أهل سلامته بآلائه ونعمائه وسلامة القلب وصفائه. قال رحمه الله تعالى: قيل ما المناسبة في حمل هذه الحروف على هذه المعاني؟ قلنا: إن مناسبة حمل الباء على البلاء في ابتداء كلامه وابتداء خطابه أن الإنسان في أصل الجبلة وبدء الخلقة خلق مجبولاً على الابتلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2] إنما بنى أمر خلقته على الابتلاء؛ لأنه خلق للمحبة والولاء، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، والمحبة مظنة الابتلاء كما أخبر النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه وإذا أحبه حبًا شديدًا اقتناه فإن صبر ورضي اجتباه، قيل: يا رسول الله و ما اقتناه؟ قال: لا يبقي له مالاً وولدًا» وإن مناسبة حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية من افتتاح الكتاب، فلمعنيين: أحدهما: أن السلامة مرتبة لأهل البلاء؛ لأن البلاء على نوعين بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء المحبة على نوعين: بلاء المحبة وبلاء المحنة، وبلاء النعمة على نوعين: بلاء الرحمة وبلاء النقمة، فأما بلاء المحبة فمخصوص بالأنبياء والأولياء كما قال رسول الله ﷺ: «إن البلاء موكل بالأنبياء والأولياء ثم بالأمثل فالأمثل» فمنهم من يختص ببلاء المحنة كما كان حال أيوب ﷺ، ومنهم من يختص بلاء النعمة كما كان حال سليمان ﷺ واعلم أن الطريق إلى الله تعالى على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة؛ لأن غبار بلاء المحنة بناء خُلّص الأنبياء والأحباء أبرز، فَنزه النبوة والمحنة عن تدنس غش معدن الإنسانية، ويموت الحسية الحيوانية. كما جاء البلاء

للولاء كاللهب للذهب، فأهل المحنة مجذوبون بجذبة البلاء واصلون إلى المبلي غير منقطعين في رتبة البلاء بالغون إلى كعبة وصال المحبوب ألا ترى أن أيوب عليه السلام كيف وصل بجذبة ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، إلى مشاهدة كمال ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، وذلك لأنه تمسك بيد الصبر على جذبة الضر فمسه الضر إلى الضار، فأنسته لذة مشاهدة الضار عن شهود ألم الضر، فأرى أن الضر كان جذبة فوصله إلى الضار فعرفها أنها رحمة في صورة بلاء المحنة رحمه بها محبوبه وخلصه من حبس وجوده، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، أي: أفنيتني عني بضاريتك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، الواو فيه واو الحال أي: في هذا الحال أرحم علي من جميع الراحمين؛ لأن رحمة الرحماء على المرحومين بالنعمة، والفتحة في الظاهر لدفع الفقر والمرض وذلك أيضًا بلاء بلاء النعمة لبعضهم رحمة وهم أهل الوفاء، ولبعضهم نقمة وهم أهل الجفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7]. فأهل الوفاء: أوفوا بما عاهدوا الله على ترك الشهوات النفسانية والزينة الدنيوية حتى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]، وأهل الجفاء: نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا استعدادهم بالركون إلى زينة الدنيا، واتباعهم الهوى أولئك هم الخاسرون؛ فصار عليهم النعمة في الظاهر نقمة في الحقيقة فالنعمة توجب الإعراض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:83]. مس الضر يوجب الإقبال إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:51] فأنت رحمة علي بدفع النعمة والصحة على أنها مظنة الإعراض، وأفنيتني بك عني فلما جاوز الضر حده آل إلى ضده، فما أبقى الضر مني شيئًا وما بقي الضر، كالنار إذ لم تبق من الحطب شيئًا لا تبقى النار، فإذا لم يبق الضر بالغي إلا الرحمة، فبنظر الرحمة نظرت إليك فرأيتك رحمة أرحم الراحمين؛ فإذا تحققت هذا فاعلم أن المرتبة الثانية من بلاء المحنة لأهل السلامة كما كان حال أيوب وإبراهيم ويونس وغيرهم من الأنبياء - عليهم السلام - في المرتبة الثانية السلامة. وأما المعنى الثاني: في حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية فهو إنا ذكرنا أن الباء في افتتاح الكتاب إشارة إلى البلاء لأهل الولاء، وقررنا أن الإنسان لا يخلو من البلاء بحال، وأثبتنا أن البلاء على نوعين بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء النعمة ما يكون مع سلامة الدين والدنيا لأهلهما، فالسين بعد باء البلاء إشارة إلى أهل الصفاء، كما ذكر فإن قيل ما الفرق بين بلاء المحنة وبلاء النعمة التي هي الرحمة وكلاهما السلامة في الدنيا والآخرة؟ قلنا الفرق بينهما من وجهين: أحدهما: أن بلاء المنحة وإن كانت السلامة ولكن يخلوها صاحبه من المحنة. إمّا في ابتداء أمره: كما كان حال إسماعيل ويوسف - عليهما السلام - ابتلاهما الله تعالى بالمحنة في حال عبادتهما فخلصهما منها بعد ذلك وأعطاهما النبوة والملك كما حكى الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:101]. إمّا في أثناء أحواله: كما كان لإبراهيم عليه السلام ابتلاه الله تعالى بذبح ولده ورميه في المنجنيق إلى نار نمرود حتى خلصه الله من ذبح الولد بعد التسليم عند الامتحان كقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:13]، وكقوله ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:17]، وخلصه عن النار بقوله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]. وإما في آخر عهده: كما كان حال زكريا ويحيى وجرجيس - عليهم السلام - كانت فتنتهم في آخر عمرهم، ولهذا كان بلاء المحنة وبلاء المنحة مخصوصين بالأنبياء والأحباء؛ لأنهما فرع بلاء المحبة وهم مخصوصون بالمحبة وأهل المحبة لا ينفكون عن المحنة والمنحة، ولا يخلو أهل المنحة في بعض الأحوال من المحنة عن المنحة وإن كان الغالب على أحوالهم المحنة أو المنحة بخلاف أهل بلاء النعمة، فإنه يمكن أهل بلاء الرحمة منهم أن يستديم نعمته في سلامة الدين والدنيا، ولهذا أثبتناهم في المرتبة الثانية بإشارة السين السلامة لهم وهم الأولياء والأصفياء مع أنه يمكن أن يصيب بعضهم المصائب والمحن نادرًا. الفرق الثاني: أن سلامة أهل بلاء المنحة غير سلامة بلاء أهل بلاء النعمة، وإن كانت سلامة بلاء النعمة داخلة في سلامة بلاء المنحة وهما شريكان في اسم السلامة لا في المعنى؛ لأن سلامة بلاء النعمة راجعة إلى البدن والمال والأولاد والأقرباء والأحباء في الدنيا والآخرة راجعة إلى عبور الصراط والنجاة من النار والدخول في دار السلامة كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر:46]. وسلامة أهل بلاء المنحة وهم أهل المحبة من الأنبياء والأولياء في العبور من النعمة إلى المنعم ومن البلاء إلى المبلي ومن دار السلام كما قال تعالى في شرح عبورهم عن الجنة إلى مليك الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55] أي: في عبورهم في جنات ونهر إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، والإشارة في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] لهذه السلامة مودع في ترك سلامة أهل بلاء النعمة، وإنما قوله تعالى للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] كان بعد أن أُلقي إبراهيم في النار لتخليص إبريز الخلة عن دنس التفات لغير الخليل، وإن كان إبراهيم عليه السلام في بلده مقام الخلة نظر إلى غير خليله بنظر العداوة، وقال ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء :77]، وأعرض عن الأغيار وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:79] وسعى على قدم العبودية إلى حضرة الربوبية ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]. واعلم أن الطريق إليه بغير هدايته منسد، فأحال بعد إقامته شروط العبودية هداية الربوبية عليه قال سيهدين ليهديه الله إليه بقدم الوصال كما هداه بنظر التوحيد متى رأى القمر بازغًا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، إلى أن قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، إني وجهت وجهي لأن الهداية بالنظر والتوحيد هداية أهل البداية والبداية بالقدم والوصول إلى الوحدة هداية أهل النهاية، وبين النظر والقدم مسالك ومهالك كثيرة وقد انقطع فيها خلق عظيم من العلماء المتقين، وأعزة السالكين وهلك فيها جمهور الحكماء المتفلسفين اللهم إلا عبادك منهم المخلصين المجذوبين بجذبات المحبة من الأنبياء والمرسلين وأوليائك المحفوظين على الصراط المستقيم والدين القويم كما خلصت بفضلك

ورحمتك خليلك ﷺ حين ابتليته بالإلقاء بالنار ليتخلص بالكلية من آفة التفاته كما تخلص من آفة الالتفات إلى المال والولد فلما ألقي في النار أدركته العناية الأزلية.

وخلصت إبريز خلته عن آفة الالتفات إلى غير خليله من نفسه ومن الوسائط كلها حتى جبريل حين تلقاه في الهواء ليمتحن إبريز خلته بمحك هل لك من حاجة، فيرى هل هو صاف خالص أم فيه بقية روحانية بعد بذل الجسم والروح تتعلق بالمناسبة الروحانية بجبريل ﷺ فاشتعلت نار الخلة بكبريت الغيرة وأحرقت بقيته الغيرية، فاشتعلت منها شعلة أما إليك فلا فرجع جبريل ﷺ بخفي حنين، فعبر عن مقاطع الوسائط بدلالية نور الخلة في خفاء العناية وصل الخليل إلى الجليل بالسلامة، فالنار كانت واسطة تخليصه وتمحيصه بترك سلامة أهل بلاء النعمة لنيل سلامة أهل بلاء المحنة وهي الوصول إلى المليك بالسلام. وكذلك الفرق بين بلاء أهل المحنة وبين بلاء أهل النعمة أن بلاء المحنة يكون الامتحان لأحباء في دار الدنيا كما كان محنة أيوب ﷺ فلا يدفع أنها تنقضي في دار الدنيا صورة ومعنى وأما تنقضي في الدنيا بالمعنى وبالموت صورة بخلاف بلاء النعمة فإنه إما يدفع في الدنيا والآخرة صورة ومعنى وإما أن يكون في الدنيا بالمعنى لا بالصورة بأن يكون في التنعم ويكون في الآخرة بالصورة والمعنى. وأما مناسبة حمل الميم في المرتبة الثالثة من حروف بسم على معروفه مع أهل بلائه وولائه في أثناء ابتلائه، وعلى منته على أهل سلامة في الابتلاء بآلائه ونعمائه فظاهر، فإنه لو لم يكن معروفه ومع أهل بلائه بنعمة الصبر لزال قدمهم عن جادة العبودية ورؤية رحمة الربوبية في عين البلاء وانقطع نظريهم بحجاب البلاء عن الجمع كما كان في حق الأكثرين من المخذولين. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي﴾ [الفجر:16] فرؤية الإهانة في البلاء من الخذلان، والضر ليس من شأن الإنسان لأن الإنسان خلق من عجل، والصبر من الله تعالى كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127] فالبلاء لأهل الولاء المنحة نعمة الصبر كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، أي: بشر بأن هذا البلاء ليس للإهانة كما كان في حق أهل الخذلان بل للإعانة على نيل درجة الصبر ليستحقوا به الصلاة والرحمة والهداية من الله تعالى، وإن أيوب ﷺ وجد مرتبة الصابرين ونعم العبد بمعروف الصبر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44]، وكذلك لو لم تكن منته على أهل السلامة في بلاء النعمة المنحة الشكر ورؤية النعم من المنعم زال قدمهم عن جادة كما كان حال قارون وفرعون انقطع نظرهما لحجاب البلاء في النعمة عن المنعم قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:78]. وقال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: 51]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، وهذه الآفة مذكورة في جبلة كل إنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6 – 7]، وإنما تخلص من هذه الورطة من تخلص بمنه عليه في عطية نعمة الصبر والشكر، فبقوة الصبر لا ينفق نعمة الله في معصية، وبقوة الشكر ينفقها في سبيل الله تعالى ويستعين بهما على طاعته ويصفو ويسلم قلبه عن

لا يمكن التعبير عنها باعتبار تلك المرتبة أصلاً، وباعتبار شمولها وإحاطتها جميع الأسماء والصفات الإلهية المستندة إليها المظاهر كلها المعبر عنها عند أرباب المكاشفة بالأعيان الثابتة، وفي لسان الشرع باللوح المحفوظ والكتاب المبين

كدورات الطغيان المَنتهي عن الاستغناء، ويتنور بنور الشكر والصبر، فيرى بصر بصيرته بذلك النور نعمة الشكر من الشكور ونعمة الصبر من الصبور وهو الله تعالى، فبقدر الصبر والشكر يصل السالك إلى الصبور والشكور كما قيل: خطوتان وقد وصلت، وإن سليمان عليه السلام نال مرتبة العبدية بامتنان نعمة الشكر ودعوة ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص:35] كانت لاستكمال نعمة الشكر، وإنما أيوب وسليمان - عليهما السلام - اشتركا في نيل مقام ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ لأن كل واحد منهما كان مخصوصًا بالاتصاف بصفة من صفات الله وهي البصير والشكور، فلمّا اشتركا في الاتصاف بصفات الله تعالى اشتركا في مقام نعم العبدية، والله أعلم.

ثم اعلم أن في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أربع مراتب: الاسم والذات وصفة الجلال وصفة الجمال، وهذه هي مراتب الموجودات كلها فإنها أربعة أقسام: الألوهية والروحانية والجسمانيات والحيوانيات، وهي كل ذي روح، ففي الباء في أول هذه المراتب الأربع إشارة إلى أن وجود هذه العوالم لي وليس لغيري وجود حقيقي إلا بالاسم، فللعالم أعني ما سوى الله تعالى بالاسم والمجاز وجود لا بالمعنى والحقيقة، وإلى هذا إشارة بعضهم بقوله: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه، وأوضح من هذا قول بعضهم: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله قبله. وصرّح النبي ﷺ بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»، حديث متفق على صحته، فتحقيق ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أن وجودي بذاتي وهو الله وصفاتي كلها التي هي إمّا من قبيل الجلال أو من قبيل الجمال، فبذاتي قائمة وما سواي وهو العالم اسم موجود بإيجادي وقائم بقيوميتي ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]، فيه أخرى وهي أن الخلائق محجوبون عن الله تعالى بحجاب أسماء أنفسهم وحجاب أسماء ما سواهم من العالم، وقد تصور والكل اسم مسمى فوقعوا في تيه الشرك والتفرقة، وتاهوا في بيداء الضلالة وزلت قدمهم عن الصراط المستقيم وجادة التوحيد والوحيد والوحدانية، فلمّا عبروا بقدم الصدق في المتابعة عن حجب الأسماء وقطعوا مفاوزها بتعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] الذي كان آدم مخصوصًا به، وعلموا أن لا طائل تحتها عرفوا أن هذه الأسماء على الأشياء كلها ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم :23]. ولكشف هذا القناع كان دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء كما هي» لأن كل شيء بحسب نظر المظاهر أسماء بإزاء معنى يلائمه، كما سمي آدم لأنه من أديم الأرض هذا الاسم يلائم لآدم عليه السلام في الظاهر، وله في الحقيقة اسم آخر بإزاء اسم حقيقي، فلما أودع الله تعالى فيه ما يلائم لتلك الحقيقة وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30] فسماه بمناسبة المعنى الحقيقي المودع خليفة.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار تجلياتها على صفحات الأكوان وتطوراتها في ملابس الوجوب والإمكان، وتنزلاتها عن المرتبة الأحدية إلى مراتب العددية، وتعيناتها بالتشخصات العلمية والعينية وانصباغها بالصبغ الكيانية ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1] المعبر بها عن الذات الأحدية باعتبار توحيدها بعد تكثيرها، وجمعها بعد تفريقها، وطيِّها بعد نشرها، ورفعها بعد خفضها، وتجريدها بعد تقييدها.

﴿الْحَمْدُ﴾ والثناء الشامل لجميع المحامد والأثنية الصادرة عن ألسنة ذرائر الكائنات المتوجهة نحو مبدعها طوعًا، المعترفة بشكر منعمها حالاً ومقالاً، أزلاً وأبدًا، ثابتةً مختصة ﴿لِلَّهِ﴾ أي: للذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات المظهرة المربية للعوالم، وما فيها بأسرها لكونه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] [1] ولولا تربيته إياها وإمداده لها طرفة لفني العالم دفعة.

﴿الرَّحْمَنِ﴾ المبدئ المبدع لها في النشأة الأولى بامتداد ظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مرآة العدم المنعكسة منها العالم كله وجزءه، شهادته وغيبه، أولاه وأخراه وأجزاءه بلا تفاوت ﴿الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:3] المعيد للكل في النشأة الأخرى بطيّ سماء الأسماء وأرض الطبيعة السفلى إلى ما منه الابتداء وإليه الانتهاء لكونه:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4] والجزاء المسمى في الشرع بيوم القيامة، والطامة الكبرى المندكة فيها الأرض والسماء المطويات فيها سجلات الأولى

---

(1) اعلم أنه لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلي الألوهية دون العكس؛ فإن الألوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الألوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.
والحاصل: إن الألوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الألوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

والأخرى في الأرض؛ إذ فيها ارتجت الآراء والأفكار وارتفعت الحجب والأستار، واضمحلت أعيان السوى والأغيار، ولم يبق إلا الله الواحد القهار، ثم لما تحقق العبد في هذا المقام، ووصل إلى هذا المرام، وفوض الأمور كلها إلى الملك العلام القدوس السلام حق له أن يلازم ربه ويخاطب معه بلا ستر ولا حجاب، تتميمًا لمرتبة العبودية إلى أن يرتفع كاف الخطاب عن البين، وينكشف الغين عن العين، وعند ذلك قال لسان مقاله مطابقًا بلسان حاله:

﴿إِيَّاكَ﴾ لا إلى غيرك؛ إذ لا غير في الوجود معك ﴿نَعْبُدُ﴾ نتوجه ونسلك على وجه التذلل والخضوع؛ إذ لا معبود لنا سواك ولا مقصد إلا إياك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] أي ما نطلب الإعانة والإقدار على العبادة لك إلا منك؛ إذ لا مرجع لنا غيرك[1].

﴿اهْدِنَا﴾ بلطفك ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6] الذي يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ من المترددين الشاكين، المنصرفين بمتابعة العقل المشوب بالوهم عن الطريق المستبين.

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7] بتغريرات الدنيا الدنية، وتسويلات الشياطين عن

---

(1) قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإيّاك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إيّاك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العنايات، بنعت العصمة عن القطيعة، وأيضًا: إيّاك نعبد بالمراقبة، وإيّاك نستعين بكشف المشاهدة وأيضًا: إيّاك نعبد بعلم اليقين، وإيّاك نستعين بحق اليقين، وأيضًا: وإيّاك نعبد بالغيبة، وإيّاك نستعين بالرؤية، وقيل: إيّاك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإيّاك نستعين على ثبات هذا الحال بك ولا بنا، وقيل: إيّاك نعبد بالعلم، وإيّاك نستعين بالمعرفة، وقيل: إيّاك نعبد بأمرك، وإيّاك نستعين علينا بفضلك قال سهل: إيّاك نعبد بهدايتك، وإيّاك نستعين بكلاءتك على عبادك، قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرهبة، والحياء، والمحبّة فأفضلها المحبة التي يليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة، وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبّين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قرة أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم.

منهج الحق ومحجة اليقين.

آمين: إجابة منك يا أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - يسّر الله أمرك - أن تتأمل في الأبحر السبعة المشتمل بهذا السبع المثاني في القرآن العظيم، المتفرعة على الصفات السبع الذاتية الإلهية، الموافقة للسماوات السبع والكواكب السبعة الكونية، وتدبر فيها حق التدبر، وتتصف بما رمز فيها تتخلص من الأودية السبعة الجهنمية، المانعة من الوصول إلى جنة الذات المستهلكة عندها جميع الإضافات والكثرات ولا يتيسر لك هذا التأمل والتدبر إلا بعد تصفية ظاهرك بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المستنبطة من الكلم القرآنية، وباطنك بعزائمه وأخلاقه ﷺ المقتبسة من حكمها المودعة فيها، فيكون القرآن الجامع له خلق النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا، المورث له من ربه المستخلف له.

فالقرآن خلق الله المنزل على نبيه، من تخلق به فاز بما فاز، لذلك قال ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الله»[1] وهي التي ذكرت في القرآن، والفاتحة منتخبة من جميع القرآن على أبلغ وجه وأوضح بيان، من تأمل فيها نال ما نال من جميع القرآن، لذلك فرض قراءتها عند الميل والتوجه إلى الذات الأحدية المعبر عنه بلسان الشرع، بالصلاة التي هي معراج أهل الاتجاه، كما قال ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن»[2]، وقال أيضًا: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»[3].

فعليك أيها المصلي المتوجه إلى الكعبة الحقيقية والقبلة الأصلية أن تواظب على الصلوات المفروضة المقربة إليها، وتلازم الحكم والأسرار المودعة في تشريعها، بحيث إذا أردت الميل إلى جنابه والتوجه نحو بابه لا بد لك أولاً من التوضؤ والتطهر عن الخبائث الظاهرة والباطنة كلها، والتخلي عن اللذات والشهوات برمتها إلى حيث

---

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (354/6).

(2) ذكره النيسابوري في تفسيره (53/1).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط (372/2 ، رقم 2262)، قال الهيثمي (115/2): فيه الحسن بن يحيى الخشني ضعفه النسائي، والدارقطني ووثقه دحيم وابن عدي وابن معين في رواية.

تيسر لك التحريمة بلا وسوسة شياطين الأهواء المضلة.

فإذا قلت مكبرًا محرمًا على نفسك جميع حظوظك من دنياك: الله أكبر، لا بد لك أن تلاحظ معناه بأنه: الذات الأعظم الأكبر في ذاته لا بالنسبة إلى الغير؛ إذ لا غير، وافعل هذا للصفة لا للتفضيل وتجعلها نصب عينيك وعين مطلبك ومقصدك.

وإذا قلت متيمنًا متبركًا: بسم الله، انبعثت رغبتك إليه ومحبتك له.

وإذا قلت: الرحمن، استنشقته من النفس الرحماني ما يعينك على الترقي نحو جنابه.

وإذا قلت: الرحيم، استروحت بنفحات لطفه ونسمات رحمته، وجئت بمقام الاستئناس معه سبحانه بتعديد نعمه على نفسك.

وإذا قلت شاكرًا لنعمه: الحمد لله، توسلت بشكر نعمه إليه.

وإذا قلت: رب العالمين، تحققت بإحاطته وشموله وتربيته على جميع الأكوان.

وإذا قلت: الرحمن، رجوت من سعة رحمته وعموم إشفاقه ومرحمته.

وإذا قلت: الرحيم، نجوت من العذاب الأليم الذي هو الالتفات إلى غير الحق، ووصلت إليه بعدما فصلت عنه بل اتصلت.

وإذا قلت: مالك يوم الدين، قطعت سلسلة الأسباب مطلقًا، وتحققت بمقام الكشف والشهود وحين ظهر لك ما ظهر، فلك أن تقول في تلك المقام والحالة بلسان الجمع: إياك نعبد، بك مخاطبين لك وإياك نستعين بإعانتك مستعينين منك.

وإذا قلت: اهدنا الصراط المستقيم، تحققت بمقام العبودية.

وإذا قلت: صراط الذين أنعمت عليهم[1]، تحققت بمقام الجمع.

---

(1) قال البقلي: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطْلاعِهم على مكائد النفس والشيطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال وبسعادة الهداية إلى القربة بالعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدِّيقين، والمقرَّبون والعارفون والأمناء والنجباء قال أبو عثمان: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: بأن عرَّفتهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان وجناية النفس، وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة، وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك، وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة، وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء، وقال حميد: فيما قضيته من المضار والمسار، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى يُحرسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، ومخاييل الظنون، ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر

وإذا قلت: غير المغضوب عليهم، استوحشت من سطوة سلطنة صفاته الجلالية.

وإذا قلت: ولا الضالين، خفت من الرجوع بعد الوصول.

وإذا قلت: آمين، أمنت من الشيطان الرجيم.

فلك أن تصلي على الوجه الذي تلي، حتى تكون لك صلاتك معراجًا إلى ذروة الذات الأحدية ومرقاة إلى السماء السرمدية، ومفتاحًا للخزائن الأزلية الأبدية، وذلك لا يتيسر إلا بعد الموت الإرادي من مقتضيات الأوصاف البشرية، والتخلق بالأخلاق المرضية والخصال السنية، ولا يحصل لك هذا الميل إلا بعد العزلة والفرار عن الناس المنهمكين في الغفلة، والانقطاع عنهم وعن وسوستهم وعاداتهم المرة، وإلا فالطبيعة سارقة والأمراض سارية والنفوس آمرة بالهوى، مائلة عن المولى، عصمنا الله من شرورها وخلصنا من غرورها بمنه وجوده.

إليك، والاستعانة بك، والتبرِّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيما قضيته من المسار والمضار، قيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدَّبوا بالخُلْوة عند غليات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيء من أمرِ الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ بل حفظتَ عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرع، وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى لم تطفئ شموس معارفهم، أنوار وَرَعِهم، ولم يضيفوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

فاتحة سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يخفى على السالكين المتدرجين في مسالك التحقيق، المتعطشين لزلال التوحيد أن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق؛ إذ ما من ذرة من ذرائر العالم إلا وله طريق منها، وأقوم الطرق وأحسنها وأوضح السبل وأبينها، والذي اختاره الله سبحانه لنبيه ﷺ ولورثته من الأولياء - زاد الله فتوحهم - في كتابه المسور بالسور المفضلة بالآيات، المنقسمة بالمحكمات والمتشابهات المشتملة كل سورة منها على أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة، فلا بد للخائض في لجج بحار القرآن، والغائص فيها لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، أن يتأمل كل سورة منها على وجه ينكشف له ما فيه من الأسرار بقدر استعداده وقابليته، وإلا فغوره بعيد وقعره عميق.

منها: سورة البقرة المشتملة أوائلها على الأحكام الشرعية المهذبة للظاهر عن الرذائل الرذيئة والخصائل الغير المرضية، وأواسطها على آداب الطريقة من الخصائل الحميدة والأخلاق المرضية المصفية للباطن عن الكدورات البشرية، وأواخرها على التوحيد الذاتي الخالص عن شوب الكثرة وشين الثنوية وإنما خص ﷺ بأواخر هذه السورة؛ لأنه ﷺ هو المظهر للتوحيد الذاتي، بخلاف الأنبياء السالفة - صلوات الله عليهم - فإنهم لا يظهرون؛ لذلك ختم ببعثته ﷺ أمر النبوة والرسالة، وانسد طريق الوحي والإنزال.

ثم لما أراد سبحانه إرشاد عباده إلى سبيل الهدى وإبعادهم عن طريق الضلال، أنزل عليهم هذه السورة الجامعة لها، فقال متيمنًا متبركًا على وجه التعليم، مخاطبًا لنبيه المبعوث على الخلق العظيم:

سورة البقرة

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد المستغني بذاته عن جميع الأكوان، المتلبس

بواسطة أسمائه وصفاته ملابس الحدوث والإمكان ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده الذين هم مظاهر أسمائه وصفاته، برش نوره عليهم ومد ظله إليهم في معاشهم ﴿الرَّحِيمِ﴾[1] لهم في معادهم ينجيهم عن ظلمة الإمكان المعبر بلسان الشرع بالسعير والجحيم ويهديهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾ [البقرة:1-5].

﴿الم﴾[2] [البقرة: 1] أيها الإنسان الكامل، اللائق لخلافتنا، الملازم لاستكشاف

---

(1) ﴿الرَّحِيمِ﴾ في الباطن، فيعمّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمّهم الرحمة الرحمانية؛ فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنه، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحّ رؤية الله تعالى كما يصحّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

(2) وفي موضع خبر (الم): و(لا ريب) جملة تحتمل الاستئناف ، فلا يكون لها موضع من الإعراب ، وأن تكون في موضع خبر لذلك، والكتاب صفة أو بدل أو عطف أو خبر بعد خبر، إذا كان الكتاب خبراً، وقلت بتعدد الأخبار التي ليست في معنى خبر واحد، وهذا أولى بالبعد لتباين أحد الخبرين؛ لأن الأول مفرد والثاني جملة، وأن يكون في موضع نصب؛ أي: مبرأ من الريب ، وبناء (ريب) مع (لا) يدل على أنها العاملة عمل (إن) فهو في موضع نصب ولا وهو في موضع رفع بالابتداء فالمرفوع بعده على طريق الإسناد خبر لذلك المبتدأ فلم تعمل حالة البناء إلا النصب في الاسم فقط هذا مذهب سيبويه، وأما الأخفش فذلك المرفوع خبر لـ (لا) فعملت عنده النصب والرفع وتقرير هذا في كتب النحو، وإذا عملت عمل إن أفادت الاستغراق فنفت هنا كل ريب، والفتح هو قراءة الجمهور، وقرأ أبو الشعثاء : (لا ريب فيه) بالرفع ، وكذا قراءة زيد بن علي حيث وقع ، والمراد أيضاً هنا الاستغراق، لا من اللفظ بل من دلالة المعنى؛ لأنه لا يريد نفي ريب واحد عنه ، وصار نظير من قرأ : (فلا رفث ولا فسوق) بالبناء والرفع ، لكن البناء يدل بلفظه على قضية العموم ، والرفع لا يدل لأنه يحتمل العموم ، ويحتمل نفي الوحدة ، لكن سياق الكلام يبين أن المراد العموم ، ورفعه على أن يكون ريب مبتدأ وفيه الخبر ، وهذا

ضعيف لعدم تكرار (لا) أو يكون عملها إعمال ليس فيكون فيه في موضع نصب على قول الجمهور من أن (لا) إذا عملت عمل (ليس) رفعت الاسم ونصبت الخبر ، أو على مذهب من ينسب العمل لها في رفع الاسم خاصة، وأما الخبر فمرفوع؛ لأنها وما عملت فيه في موضع رفع بالابتداء كحالها إذا نصبت وبني الاسم معها، وذلك في مذهب سيبويه، وسيأتي الكلام مشبعاً في ذلك عند قوله تعالى : (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) وحمل لا في قراءة (لا ريب) على أنها تعمل عمل (ليس) ضعيف لقلة إعمال لا عمل (ليس) فلهذا كانت هذه القراءة ضعيفة، وقرأ الزهري، وابن محيصن، ومسلم بن جندب ، وعبيد بن عمير ، فيه : بضم الهاء ، وكذلك إليه وعليه وبه ونصله ونوله وما أشبه ذلك حيث وقع على الأصل، وقرأ ابن أبي إسحاق: فهو بضم الهاء ووصلها بواو ، وجوزوا في قوله : أن يكون خبراً لـ (لا) على مذهب الأخفش، وخبراً لها مع اسمها على مذهب سيبويه ، أن يكون صفة والخبر محذوف ، وأن يكون من صلة ريب بمعنى أنه يضمر عامل من لفظ ريب فيتعلق به ، إلا أنه يكون متعلقاً بنفس لا ريب ، إذ يلزم إذ ذاك إعرابه ، لأنه يصير اسم لا مطولاً بمعموله نحو لا ضارباً زيداً عندنا ، والذي نختاره أن الخبر محذوف؛ لأن الخبر في باب (لا) العاملة عمل (إن) إذا علم لم تلفظ به بنو تميم ، وكثر حذفه عند أهل الحجاز ، وهو هنا معلوم ، فاحمله على أحسن الوجوه في الإعراب ، وإدغام الباء من (لا ريب) في فاء فيه مروي عن أبي عمرو ، والمشهور عنه الإظهار ، وهي رواية اليزيدي عنه. [انظر «تفسير البحر المحيط»(30/1)].

وقال نجم الدين: يحمل أن يكون ﴿الم﴾ وسائر الحروف المقطعة من قبيل المواضعات المعميات بالحروف بين المحبين لا يطلع عليها غيرهم، وقد وضعها الله مع نبيه ﷺ في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ليتكلم بها معه على لسان جبريل عليه السلام بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبريل عليه السلام ولا غيره يدل على هذا ما روي في الأخبار: «أن جبريل عليه السلام لما نزل بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:1]، فلما قال: ﴿ك﴾ [مريم:1]، قال: النبي علمت، فقال: ﴿هـ﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ي﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ع﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ص﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال جبريل عليه السلام: كيف علمت ما لم أعلم» وفي الحروف المقطعة إشارة إلى أن كلام الله تعالى لا يسعه الحروف والكلمات؛ لأن الكافر غير متناهٍ، والحروف والكلمات متناهية؛ وذلك لأن الصبيان يعلمون أولاً الحروف المقطعة الفارغة من معاني القرآن، ولكنها دالة على كلمات القرآن بها يهتدى إلى قراءة القرآن، ثم يعلمونهم المركبات من الحروف، ثم يعلمون القرآن كلامًا وسورًا؛ فيفقهون منها المعاني كل واحد على قدر علمه، وفهمه ومعرفته وصدق نيته وصفاء طويته، ومواهب الحق في حقه؛ فيظن بعض الظانين منهم إذا انقطعت الكلمات والسور المعدودة أن كلام الله انقطع ومعانيه تناهت، فالله سبحانه وتعالى بكمال حكمته أنزل بعد الكلمات والسور الحروف المقطعة بعضها مركبة بالكتابة مقطعة بالقرآن مثل ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ وغيرها. وبعضها مفردة مقطعة بالكتابة والقرآن مثل ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ ليعلموا أن كلام الله القديم والقرآن العظيم لا تحويه الكلمات المعدودة

أسرار ربوبيتنا كيفية بركات هويتنا الذاتية السارية على صفائح المكونات، المنتزعة عنها والمأخوذة منها.

﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المبتعد درجة كماله عن إفهام الجامع مراتب الأسماء والصفات في عالم الغيب والشهادة، المنزل على مرتبتك يا أكمل الرسل، الجامعة لجميع مراتب الكائنات من الأزل إلى الأبد بحيث لا يشذ عنها مرتبة أصلاً﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأنه منزل من عندنا لفظًا ومعنى:

أمّا لفظًا: فلعجز جماهير البلغاء ومشاهيز الفصحاء عن معارضة أقصر آية منه مع وفور دواعيهم.

وأمّا معنى: فلاشتماله على جميع أحواله الحقائق العينية والأسرار الغيبية مما كان وسيكون في النشأتين، ولا يتيسر الاطلاع عليها والإتيان بها على هذا النمط البديع إلا لمَن هو علام الغيوب.

وإنما أنزلناه إليك أيها اللائق لأمر الرسالة والنيابة، لتهتدي به أنت إلى بحر الحقيقة، وتهدي به أيضًا من تبعك من التائهين في بيداء الضلالة؛ إذ فيه﴿هُدًى﴾ عظيم ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] الذين يحفظون بامتثال أوامره واجتناب نواهيه نفوسهم عن خبائث المعاصي المانعة من الطهارة الحقيقية والوصول إلى المرتبة الأصلية.

ولا تحصيه السور المحدودة، فإن الحروف المقطعة تدل على ما تدل عليه الكلمات من المعاني والكلمات منحصرة معدودة ودلالة الحروف عليها الغير منحصرة معدودة؛ لأن هذا يشير إلى أن الحروف المقطعة لو ركب بعضها بعضًا إلى الأبد لا ينقضي كلام الله تعالى، ولا يضيق نطاق نطق الحروف عن توسع محيط الكلام الأزلي؛ لأنه فرق ظاهر بين الحروف المقطعة وبين الحروف المحدثة جمعًا. والكلمات القائمة بالحروف المحدثة منحصرة، ومعاني الحروف القائمة بالكلام القديم غير متناهية ولا منحصرة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:109]، وفي الحروف المقطعة إشارة أخرى وهي أن المركبة بالكتابة تشير إلى أن إلباس كسوة الحروف المحدثة في الكلام القديم لقصور فهم الإنسان، والمفردة منها تشير إلى أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبدي غير ذي عدد وتجدد الآيات والكلمات والسور العربية والعبرية والسريانية إنما جعلت كسوة الكلام الفرداني المنزه ليفهم الخلق لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى:7].

و﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون ويذعنون بأسراره ومعارفه ﴿بِالْغَيْبِ﴾[1] أي: غيب الهوية الذي هو ينبوع بحر الحقيقة وإليه منتهى الكلم، وبعد ذلك يتوجهون بمقتضيات أحكامه نحوه، ويهدون إليه بسببه ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿الصَّلَاةَ﴾ الميل بجميع الأعضاء والجوارح على وجه الخضوع والتذلل إلى جنابه؛ إذ هو المقصد للكل إجمالاً وتفصيلاً، ولكل عضو وجارحة تذلل خاص وله طريق مخصوص يناسبه، يرشدك إلى تفاصيل الطرق، فعله ﷺ في صلاته على الوجه الذي وصل إلينا من الرواة المجتهدين - رضوان الله عليهم أجمعين - ولما تنبهوا له به بمتابعته ومالوا نحو جنابه بالميل الحقيقي بالكلية لم يبق لهم ميل إلى ما سواه من المزخرفات الفانية لذلك ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ سقنا إليهم ليكون بقيًا لحياتهم ومقومًا لمزاجهم ﴿يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3] في سبيلنا طلبًا لمرضاتنا وهربًا عما يشغلهم عنا، فكيف إنفاق الفواضل؟.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ ينقادون ويمتثلون ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الكتاب الجامع أسرار جميع ما أنزل من الكتب السالفة على الوجه الأحسن الأبلغ، ومن السنن ومن الأخلاق الملهمة إليك ﴿وَ﴾ مع ذلك صريحًا يعتقدون ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين مع الإيمان بجميع الكتب المنزلة، وإن كان كل كتاب متضمنًا للإيمان بالنشأة الآخرة بل هو المقصود الأصلي من جميعها ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4] أفردها بالذكر؛ اهتمامًا بشأنها لكثرة المرتابين فيها.

---

(1) قال البقلي: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ما غاب عن الأبصار، منكشفًا بنعت الأنوار لعيون الأسرار. و«الإيمان بالغيب»: هو تفرّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، و«الإيمان بالغيب»: شوق القلب إلى لقاء الرب . وأيضًا «الإيمان»: تصديق السر ما أبصرت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرّ السرّ، واتصاله بروقة بطنان القلب. وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكلّ. وأيضًا «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»: هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وتراني الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة؛ فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحارى الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قدس الحق، بنعت بروزه في لباس حقّ اليقين، وحقيقةُ حق اليقين لا تحصل بالتحقيق؛ إلا بعد انسلاخ السرّ عن الاستشهاد والاستدلال.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: جزاء أولئك المؤمنون المعتقدون بجميع الكتب المنزلة على الرسل، والمؤمنون المذعنون بالنشأة الآخرة بل خاصة أنهم ﴿عَلَى هُدًى﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع اللطف والكرم إلى أن يبلغوا إلى هذه المرتبة التي هي الاهتداء إلى جناب قدسه ﴿وَ﴾ مع ذلك الجزاء العظيم والنفع الجسيم ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] الفائزون، الناجون عن مضائق الإمكان الواصلون إلى فضاء الوجوب، رزقنا الله الوصول إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⁽٦⁾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⁽٧⁾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ⁽٨⁾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ⁽٩⁾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ⁽١٠⁾﴾ [البقرة:6-10].

ثم قال سبحانه جريًا، بل على مقتضى سنته من تعقيب الوعد بالوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا الحق وأعرضوا عنه، وأظهروا الباطل وأصروا عليه عنادًا واستكبارًا، لا ينفعهم إنذارك وعدمه بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] بك وبكتابك؛ لأنهم هم.

﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ المحيط بذواتهم وأوصافهم وأفعالهم ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المكاشفات ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾[1] لئلا يكونوا من أصحاب المجاهدة ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾ لئلا يكونوا من أرباب المشاهدة ﴿غِشَاوَةٌ﴾ ستر عظيم لا يمكنك رفعه بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7] هو عذاب الطرد والبعد؛ إذ لا عذاب أعظم منه، أولئك الأشقياء البعداء عن ساحة الحضور، هم الضالون في تيه الحرمان، الباقون في

(1) قال البقلي: قال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «طبعَ الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرًّا، وآمنوا علانية» قال جعفر الصادق: الختمُ على وجوه: مِنهم من ختمَ على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختمَ على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد، فكلٌ واقفٌ مع ذلك الختم، وقال سهل: أسبلَ عليهم ستر شقاوة، فصمُّوا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره.

ظلمة الإمكان، أعاذنا الله من ذلك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الذين نسوا العهود السابقة التي عهدوا في الفطرة الأصلية ﴿مَن يَقُولُ﴾ قولاً لا يوافق اعتقادهم، وهو أنهم يقولون تلبيسًا ونفاقًا: ﴿آمَنَّا﴾ أذعنا ﴿بِاللهِ﴾ أي: الذي أنزل علينا الكتاب وإنك الرسول ﴿وَ﴾ وأيقنا ﴿بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الموعود بجزاء الأعمال ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8] موقنين بهما في بواطنهم، بل غرضهم من هذا التلبيس في زعمهم الفاسد أنهم:

﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ المحيط بجميع أحوالهم مخادعتهم مع آحاد الناس، تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ يخادعون الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بإحاطة الله بتوفيقه وإلهامه؛ حفظًا لدمائهم وأموالهم منهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَخْدَعُونَ﴾ بهذا الخداع ﴿إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن الله ومن هو في حمايته أجل من أن ينخدع منهم، فهم بهذا الخداع ما يخدعون إلا أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9] بخداعهم؛ لأن:

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1] غطاء مختوم على قلوبهم لا ينكشف إلا بكتاب الله المنزل على رسوله ﷺ، ولما لم يؤمنوا به ولم يلتفتوا إليه بل كذبوا رسوله المنزل عليه ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾ إحكامًا لختمه وتأكيدًا لحكمه ﴿وَلَهُمْ﴾ في يوم الجزاء ﴿عَذَابٌ﴾ هو إبعادهم وطردهم عن ساحة عز الحضور ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم بسبب تقريب المؤمنين إلى دار السرور جزاء ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10] ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم خداعًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ

(1) قال البقلي: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: رعونة تشغلها قبول الحق، وتلهيها بقبول الخلق، وأيضًا أي غفلة عن ذكر العقبى، وهمة مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذكره، وقيل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: بخلوها من العصمة والتوفيق والرعاية، وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيء عمي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها، وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرض لا يداوى إلا بالجوع والتقطع، وقال أيضًا: «مرض»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغفلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدى.

ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة:11-16].

﴿وَ﴾ مع ظهور حالهم وخداعهم عند الله وعند المؤمنين ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بتكذيب كتاب الله ورسوله المنزل عليه حتى لا يخرجوا من مرتبة الخلافة؛ لأن خلافة البشر إنما هي بالتوحيد وإسقاط الإضافات، والتوحيد إنما يحصل بالله وبكتابه ورسوله ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على سبيل الحصر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11] لا نتجاوز من الصلاح أصلاً تتميمًا لخداعهم الفاسد، وترويجًا له على المؤمنين وتلبيسًا.

﴿أَلَا﴾ أيها المؤمنون الموقنون بكتاب الله المصدقون لرسوله ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ المقصورون على الفساد، لا يرجى صلاحهم أصلاً؛ لكونهم مجبولين على الفساد ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12] بمشاعرهم لغشاوة قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم.

﴿وَ﴾ إذا لطف معهم ونصح كما هو دأب الأنبياء والمرسلين و﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ بالله وبكتابه ورسوله ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ الذين نسوا مزخرفات آبائهم بالإيمان بالله وبكتابه ورسوله، وفازوا في الدارين فوزًا عظيمًا بسبب الإيمان ﴿قَالُوا﴾ في الجواب توبيخًا وتقريعًا: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ بهذا الرجل الحقير الساقط، وبهذه الأساطير الكاذبة ونترك دين آبائنا ﴿كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ التاركون دين آبائهم لغرور هذا المدعي المفتري؟ ﴿أَلَا﴾ أيها المبعوث لإهداء المضلين المجبولين على الهداية في أصل فطرتهم ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ المجبولون على الغواية في بدء الفطرة لا يمكنك هدايتهم أصلاً؛ لعدم قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿وَ﴾ إن ظنوا في زعمهم من العقلاء ﴿لَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13] أصلاً لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم، فيسلب قابليتهم للإيمان.

﴿وَ﴾ علامة نفاق هؤلاء المضلين وخداعهم أنهم ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتابه ورسوله ﴿قَالُوا﴾ على طريق الإخبار عن الأمور المحققة ترويجًا وتغريرًا على المؤمنين ﴿آمَنَّا﴾ بالجملة الفعلية الماضية بلا مبالغة وتأكيد لحكمهم بفاهة المؤمنين؛

بأن السفيه يقبل الأخبار بلا تأكيد؛ لعدم تفطنه على إنكار المتكلم، فنزلوهم - وإن كان من حقهم الإنكار حقيقة - منزلة خالي الذهن؛ لسفاهتهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ نفوا خالين ﴿إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: مع أصحابهم المستمرين على الكفر، الظاهرين بالمخالفة بلا خداع ولا نفاق كالشيطان المصر على الضلال المستمر على الإضلال ﴿قَالُوا﴾ على طريق المبالغة والتأكيد قلعًا لما اعتقدوا من ظاهر حالهم ومقالهم وموافقتهم مع المؤمنين سرًا وجهرًا، وتحقيقًا لمؤاخاتهم معهم ﴿إِنَّا﴾ وإن كنا في الظاهر مداهنين معهم لمصلحة دنيوية، متفقون ﴿مَعَكُمْ﴾ لفائدة دينية، أتوا بالجملة الاسمية المصدرة بأن؛ تحقيقًا واهتمامًا، وقولنا: آمنا، استهزاء منا إياهم لا تصديق لمدعاهم، وبالجملة ما نحن مؤمنون بمجرد هذا القول بل ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14] مستخفون تجهيلاً وتسفيهًا واعتذارًا على مجرد القول الكاذب الغير المطابق للاعتقاد والواقع.

وهم في غاية انهماكهم في الغي والضلال، وهم مقرون جازمون بأنهم يستهزئون، بل هم في الحقيقة مستهزئون إذ: ﴿اللَّهُ﴾ المحيط بجميع مخايلهم الباطلة وأفكارهم الفاسدة ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ في كل لحظة وطرفة آنًا فآنًا ﴿وَ﴾ لم يشعرهم باستهزائه بل ﴿يَمُدُّهُمْ﴾ يمهلهم ويسوفهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد في الضلالة بتلبيس الأمر على الله وعلى المؤمنين ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15] يترددون إقدامًا وإحجامًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء عن طريق الهداية هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا واختاروا ﴿الضَّلَالَةَ﴾ المعززة في نفوسهم بتقليد آبائهم ﴿بِالْهُدَى﴾ المتفرعة على الإيمان بالله وبرسوله ﴿فَمَا رَبِحَتْ﴾ بهذا الاستبدال والاختيار ﴿تِجَارَتُهُمْ﴾ أي: ما يتجرون به ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] رابحين بسبب هذا الاستبدال، وخاسرين ضالين به. أو يقال: فما يتم الربح ﴿تِجَارَتُهُمْ﴾ اتجارهم ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1] بسبب هذا الاتجار.

---

(1) ورد في « التأويلات النجمية»:ثم ذكر من خصال هؤلاء الممكورين ما يدل على أنهم من المغرورين يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:11]، إلى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الإنسان وإن خلق مستعدًا لخلافة الأرض، ولكنه في بداية الخلقة معلول الهوى والصفات النفسانية فيكون مائلاً إلى الفساد. كما أخبرت عنه الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فبأوامر الشريعة ونواهيها تخلص جوهر الخلافة عن معدن نفس الإنسان، فأهل السعادة وهم المؤمنون ينقادون للداعي إلى الحق، ويقبلون الأوامر والنواهي وأهل الشقاوة وهم الكافرون والمنافقون من الدين =

ويتبعون الهوى، وإذا قيل لهم في الأرض أي: لا يسعوا في إفساد حسن استعدادكم وصلاحيتكم للخلافة في الأرض باتباعكم الهوى وحرصكم على الدنيا ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11]، لا يقبلون النصيحة ويدعون الصلاحية غافلين عن حقيقتها، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:12]، يفسدون صلاح آخرتهم بإصلاح دنياهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:12]، لهم بإفساد حالهم وسوء أعمالهم وعظم وبالهم من خسارة حسن صنيعهم وادعائهم الصلاح على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:103]. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ [البقرة:13] أي: أهل الغفلة والنسيان ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:13] أي: بعض الناسين منكم الذين تفكروا في آلاء الله وتدبروا بعد عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومعاهدة على التوحيد والعبودية، فتذكروا تلك العهود والمواثيق فآمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به ﴿قَالُوا﴾ [البقرة:13]، أهل الشقاوة منهم ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:13]، فكذلك أحوال أصحاب الغفلات تدعي الإسلام إذا دعوا من الإيمان التقليدي الذي وجدوه بالميراث إلى الإيمان الحقيقي بصدق الطلب، وترك محبة الدنيا واتباع الهوى والرجوع عن الخلق والتمادي في الباطن، ينسبون أرباب العلويات وأصحاب المقامات العالية إلى السفه والجنون، وينظرون إليهم بنظر العجز والذلة والمسكنة، ويقولون نترك الدنيا كما تركوها هؤلاء السفهاء من الفقراء لنكون محتاجين إلى الخلق كما هم محتاجون، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13]، فهم السفهاء لمعنيين أحدهما: أنهم يبيعون الدين بالدنيا والباقي بالفاني لسفههم وعدم رشدهم. والثاني: أنهم سفهوا أنفسهم ولم يعرفوا حسن استعدادهم للدرجات العلى والقربة والزلفى، فرضوا بالحياة الدنيا ورغبوا عن مراتب أهل النفي ومشارب أولي النهى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130]، فإن «من عرف نفسه فقد عرف ربه ومن عرف ربه ترك غيره» وعرف أهل الله وخاصته فلا يرغب عنهم، ولا نسبهم إلى السفه وينظر إليهم بالعزة، فإن الفقراء الكبراء هم الملوك تحت الأطمار، ووجوههم المسفرة عند الله كالشموس والأقمار، ولكن تحت قباب الغيرة مستورون عن نظر الأغيار محجوبون. وذكر المنافقون وأهل الغفلة بخصال أردأ من الأولى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا﴾ [البقرة: 14]، إلى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15] والإشارة في تحقيق الآيتين أن المنافقين لما أرادوا أن يجمعوا بين غيرة الكفار وصحبة المسلمين، وأن يجمعوا بين مفاسد الكفر ومصالح الإيمان، وكان الجمع بين الضدين غير جائز، فبقوا بين الباب والدار ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء:143]، وكذلك حال المتمنين الذين يدعون الإرادة ولا يخرجون عن العادة، ويريدون الجمع بين مقاصد الدارين ويتمنون أعلى مراتب الدين، ويرتعون في أسفل مراتب الدنيا، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم، وإذا أقبل الليل من حيث أدبر النهار من هنا، وقال النبي ﷺ: «ليس الدين بالتمني»(1) وقال: «بعثت لرفع العادات ودفع الشهوات» وقد قيل:

الدنيا والآخرة مرآتان ضرتان، فمن يطلب الجمع بينهما فممكور، ومن يدعي الجمع بينهما فمغرور، ومن كان له في كل ناحية خليط ومن كل زاوية من قلمه ربيط كان نهبًا للطوار يتقاوم قوم وينزل في قلبه كل فقه فقلبه أبدًا خراب لا يهنأ له عيش دلالة في التحقيق وليس من رام مع متابعة الهوى البلوغ إلى الدرجات العلى فهو كالمستهزئ بطريق هذا الفريق، وكم في هذا البحر من أمثاله غريق فظاهر الأمر يقتضي أنهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:14]، ولكن حقيقة الأمر تدل على أن ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15]، لأن دواعي استهزائهم بأهل الدين وازدرائهم بأرباب اليقين من نتائج الخذلان فإن الله يكلهم إلى أنفسهم فتأمرهم النفس الأمارة للاستهزاء وتحملهم على الازدراء فلو لم نجد لهم الحق وأدركتهم الرحمة لما أمرتهم بسوء الاستهزاء والازدراء، كما قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53] ومن الخذلان ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15]، أي يمهلهم في طغيان النفس بالحرص على الدنيا حتى يتجاوزوا في طلبها حد الاحتياج إليها ويفتح أبواب المقاصد الدنيوية عليهم يستغنوا بها ويقدر الاستغناء يزيد طغيانهم. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، فكانت جزاء سيئة ترددهم في الدين وتوابهم في طلب الاستهزاء وجزاء سيئة الاستهزاء الخذلان والإمهال إلى أن طغوا وجزاء سيئة الطغيان العمه، فيترددون في الضلالة متحيرين لا سبيل لهم إلى الخروج إلى الحق وجزاء سيئة العمه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16]. والإشارة في تحقيق الآية أن من نتيجة طغيانهم وعمههم أن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وأشربوا في قلوبهم الضلالة واستودعت عن حسن استعدادهم الفطري القابل للضلالة والهداية حتى يطلب قابليته الهداية وبدلت بالضلالة، ولما كان لهم هذا الحال من نتيجة معاملتهم أضاف الفعل إليهم وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16]. وإنما قال بلفظ الاشتراء لأنهم خربوا استعداد قبول الهداية عن قدرتهم وتصرفهم فلا يملكون الرجوع إليه وتمسكوا بالضلال تمسك الملاك فلا يمكنهم الرجوع إلى الهدى ولا يكون لهم دواء غير الرجوع؛ إذ هم اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة:16]، لأن خسران من رضي بالدنيا ظاهر ومن آثر الدنيا والعقبى على الله المولى فهو أشد خسرانًا وأعظم حرمانًا، فإذا كان المصاب بفوات النعيم ممتحنًا بنار الجحيم والعذاب الأليم فما نملك بالمصاب بفقد المطلوب وبعد المحبوب ضاعت عنه الأوقات وبقي في أسر الشهوات، لا إلى قلبه رسول ولا لروحه وصول لا من الحبيب إليه وقود ولا لسره معه شهود فهذا هو المصاب الحقيقي إذا فاته مولاه الذي فاته بفواته سواه فإن لكل شيء بدل والأبدال له كما قال بعضهم: كنت السواد لناظري فبكى عليك الناظر من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر فجزاء اشترائهم الضلالة بالهدى إعواز ربح السعادة والفوز بالنعيم المقيم، وخسران بيع الهدى بوجدان العذاب الأليم؛ بل لفقدان الاهتداء على الصراط المستقيم إلى الله العلي العظيم الكريم الرحيم كما قال: ﴿وَمَا

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [البقرة:17-19].

بل ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: شأنهم وحالهم بهذا الاستبدال، والاختبار في يوم الجزاء ﴿كَمَثَلِ﴾ كحال الشخص ﴿الَّذِي﴾ طلب شيئًا في الظلمة وترقبه، ولم يهتد إليه و﴿اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ ليستضيء بها، وفاز بمبتغاه ﴿فَلَمَّا﴾ استوقده ﴿أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ أي: حول المستوقد، وترقب وجدان مطلوبه ﴿ذَهَبَ﴾ ضوؤها، وسكن لهبها فضلّ عن مطلوبه، وخسر خسرانًا عظيمًا، كما ذهب ﴿اللهُ بِنُورِهِمْ﴾ أطفأ الله نيران المنافقين وسرجهم التي هي كفرهم ونفاقهم على زعمهم، وأفسد إضاءتهم في يوم الجزاء حين ترقبهم بوجدان مطالبهم ولم يهتدوا بها، بل عذبهم الله بسببها ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ لأجلها ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ ظلمة الضلالة المتقررة الراسخة في نفوسهم بتقليد آبائهم، المنتجة للكفر والنفاق، وظلمة فقدان المطلوب المترتب عليها في زعمهم مع ترقبهم، والظلمة العارضة لهم بعد استضاءتهم، وبسبب هذه الظلمات ﴿لاَّ يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] ولا يرجى نجاتهم عن عذاب الله بل يبقون فيه أبدًا وهم:

﴿صُمٌّ﴾ لعدم إصغائهم لقول الحق عن ألسنة الرسل صلوات الله عليهم ﴿بُكْمٌ﴾ لعدم قولهم بالإيمان المقارن بالتصديق ﴿عُمْيٌ﴾ لعدم التفاتهم إلى الدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة، وبالجملة: ﴿فَهُمْ﴾ في هذه الحالة ﴿لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18] ولا يطمعون الرجوع إلى الهداية لتذكيرهم الإفراط والتفريط الذي صدر عنهم في النشأة الأولى المستتبع لهذا العذاب.

﴿أَوْ﴾ مثلهم في هذا الاستبدال والاتجار ﴿كَصَيِّبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ متوالية متتالية، بعضها فوق بعض شدة وضعفًا بحسب تخلخل السحب وتكاثفها ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ بسبب الأدخنة والأبخرة المحتبسة فيه، متى أبصرها الناس

كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:16]، لإبطالهم حسن استعداد قبول الهداية.

وسمعوا أصوات بروقه ورعوده ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ أنامل أصابعهم ﴿فِي آذَانِهِم﴾ خوفًا ﴿مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾ النازلة منها، المهلكة غالبًا لمن أُصيب بها، وإنما يفعلون ذلك ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أي: حذر أن يموتوا من إصابتها؛ يعني: إنهم لما شبهوا في نفوسهم دين الإسلام بالصيب المذكور في ظهوره من غير ترقب، واشتمال في زعمهم على ظلمات التكاليف المتفاوتة المتنوعة، ورعود الوعيدات الهائلة وبروق الأحكام الخاطفة، وجب عليهم الاحتراز عن غوائله فمالوا عنه وأعرضوا، وجعلوا أصابع عقولهم في آذان قبولهم؛ خوفًا من الصواعق النازلة المصفية المفنية ذواتهم في ذات الله حذر الموت الإرادي، وهم بسبب هذا الميل والإعراض يعتقدون أنهم خلصوا عن الفناء في ذاته ﴿وَ﴾ لم يعلموا أنهم مستهلكون فيها إذ ﴿اللهُ﴾ المتجلي في ذاته لذاته ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 19] الساترين بذواتهم في زعمهم الفاسد ذات الله، غافلين عن تجلياته، وكيف يغفلون عنها؟.

﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢) ﴾ [البقرة:20-22].

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ أي: برق التجلي اللطفي ﴿يَخْطَفُ﴾ يعمي ﴿أَبْصَارَهُمْ﴾ التي يرون بها أنفسهم ذوات موجودات فاضلات به ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ﴾ وأشرق ﴿لَهُم﴾ التجلي اللطفي ﴿مَّشَوْا﴾ ساروا ﴿فِيهِ﴾ باقين ببقائه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتجلي القهري ﴿قَامُوا﴾ سكنوا على ما هم عليه من عدم الصرف ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ التجلي عليهم بالقهر دائمًا ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي: بتعيناتهم التي ظنوا أنهم موجودات حقيقية بسببها، وصيرهم فانين معدومين لا وجود لهم أصلاً، كما هم عليه دائمًا، قل لهم يا أكمل الرسل بلسان الجمع: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتجلي بالتجلي اللطفي ﴿عَلَى﴾ إبقاء ﴿كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20] على إفنائه بالتجلي القهري؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. ثم نبه تعالى على كيفية رجوعهم إليه وتنبيههم على تجلياته، فناداهم إشفاقًا لهم وامتنانًا

عليهم ليقبلوا إليه فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين نسوا حقوق الله بمتابعة آبائكم ﴿اعْبُدُوا﴾ تذللوا وتفزعوا وانقادوا ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أخرجكم وأظهركم من كتم العدم بإشراق تجلياته اللطفية إلى فضاء الوجود ﴿وَ﴾ أيضًا أخرج آباءكم ﴿الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ إن عبدتم كما ذكر ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21] تحذرون من تجلياته القهرية، فهو في بدء الوجود في المعاني اعبدوا ربكم:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ مبسوطًا؛ لتستقروا عليها وتسترزقوا منها ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ مرفوعًا؛ لترتقي الأبخرة والأدخنة المتصاعدة إليها وتراكم السحب فيها ﴿وَ﴾ بعد وجود هذه الأسباب ﴿أَنزَلَ﴾ بمحض فضله وفيضه ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿السَّمَاءِ مَاءً﴾ منبتًا لكم الزروع والأثمار المقومة لمزاجكم وإذا أنزل ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ سبحانه؛ أي: بسبب الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ أي: أخرج رزقًا لكم من الثمرات والطعوم؛ لتعيشوا بها وتقدروا إلى التوجه إلى توحيده وتفريده الذي هو غاية إيجادكم وخلقكم وما يترتب على وجودكم، وإذا كان كذلك ﴿فَلاَ تَجْعَلُوا﴾ أيها المنعمون بانتزاع النعم ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد القهار لجميع الأغيار ﴿أَندَادًا﴾ أمثالاً في استحقاق العبادة والإيجاد والتكوين والترزيق والإنبات والإضاء وغير ذلك مما يتعلق بالألوهية ﴿وَأَنتُمْ﴾ إن وصلتم إلى مرتبة التوحيد الذي ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22] [1] أن سلسلة

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ [البقرة:20]، أي: نور الذكر والقرآن ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:20]، أي: أبصار نفوسهم الأمارة بالسوء ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:20]، سلكوا طريق الحق بقدم الصدق ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:20]، ظلمات صفات النفس وغلب عليهم الهوى مالوا إلى الدنيا ﴿قَامُوا﴾ [البقرة:20] أي: وقفوا عن السير وتحيروا وترددوا وتطرقت إليهم الآفات واعترتهم الغرات واستولى عليهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم الشهوات حتى وقعوا في ورطة الهلاك. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة:20]، أي ولو كانت مشيته وإرادته أن يهديهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:20]، أي: يسمع نفوسهم التي تنظر إلى، زينة الحياة الدنيا وزخارفها كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20]، أي: قادر على سلب أسماعهم وأبصارهم حتى لا يسمعوا الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ولا يبصروا المزخرفات الدنياوية، والمستلذات

الحيوانية لكيلا يغتروا بها ويبيعوا الدين بالدنيا، ولكن الله يفعل بحكمته ما يشاء ويحكم بعزته ما يريد فلما أتم الكلام مع المؤمنين والكافرين والمنافقين خاطب الناس عمومًا أجمعين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:21]، إلى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الله تعالى خاطب الناسي عهوده يوم الميثاق والإقرار بربوبيته ومعاهدته ألا يعبدوا إلا إياه، فخالفوه ونقضوا عهده وعبدوا الطواغيت من الأصنام والدنيا والنفس والهوى والشيطان فزلت قدمهم عن جادة التوحيد ووقعوا في ورطة الشرك والهلاك فبعث إليهم الرسول وكتب إليهم الكتاب وأخبرهم عن النسيان والشرك ودعاهم إلى التوحيد والعبودية. ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21]، يعني: ذراتكم وذرات من قبلكم يوم الميثاق وأخذ مواثيقكم بالربوبية والتوحيد والعبادة فأوفوا بعهد العبودية بتوحيد اللسان وتجريد القلب وتفريد السر وتزكية النفس بترك المحظورات وإقامة الطاعات المأمورات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21]، عن ترك عبادة غير الله فيوفي الله بعهد الربوبية بالنجاة من الدركات ورفع الدرجات بالجنات والإكرام بالقربات والكرامات في الآخرة، كما أكرمكم في الدنيا. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:22]، فيه إشارة إلى تعريفه نفسه بالقدرة الكاملة ومنته على عباده وعزة عباده عنده وفضيلتهم على جميع المخلوقات من عباده بأن جعل لهم بنفسه فراشًا كالأرض ودنيا كالسماء، وأما عزة عباده عنده بأن خلق السماوات والأرض وما فيها لأجلهم وسخرها لهم لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13]، فكان وجود السماوات تبعًا لوجودهم وما كان وجودهم تبعًا لوجود شيء إلا وجوده، ولهذا السر أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام وحرم على آدم وأولاده السجود لغير الله ليظهر أن الملائكة وإن كانوا قبل وجود آدم أفضل الموجودات فلما خلق آدم عليه السلام جعله مسجودًا للملائكة ليكون هو أفضل المخلوقات وأكرمهم على الله تعالى ومتبوع كل شيء والكل تابع له. قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة:22]، تحقيقه أن الماء هو القرآن وثمراته الهدى والتقى والنور والرحمة والشفاء والبركة واليمن والسعادة والقربة والحق واليقين والنجاة، والرفعة والصلاح والفلاح والحكمة والموعظة والحلم والعلم والآداب والأخلاق والعزة، والغنى والتمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله المتين، وإجماع كل خير وختام سعادة وزهوق باطل الوجود الإنساني عند مجيء تجلي حقيقة الصفات الربانية لقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81]، فأخرج بماء القرآن هذه الثمرات من أرض قلوب عباده فكما أن الله منَّ على عباده بإخراج الثمرات وقال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة:22] وكان للحيوان فيها رزق؛ ولكن يتبعه الإنسان كما قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:33]. كذلك القرآن بثمراته كان رزقًا مختصًا

الأسباب منتهية إليه سبحانه، ولا موجود إلا هو، بل لا موجود إلا هو ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:59] والتحقيق بهذا المقام والوصول إلى هذا المرام لا يحصل إلا بعد التخلق بأخلاق الله، والتخلق بأخلاقه لا يتيسر إلا بمتابعة المتخلق الكامل، وأكمل المتخلقين نبينا ﷺ، والمتخلق بخلقه ﷺ إنما يكون بالكتاب الجامع لجميع أخلاق الله، المنزل على مرتبته، الجامع جميع مراتب المظان، وفي نسخة أخرى: المظاهر.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:23-20].

بالإنسان وللملائكة والجن كان لهم فيه رزق ولكن بتبعية للإنسان وهذا مما لا تدركه العقول المشوبة بالوهم والخيال؛ بل تدركه العقول المؤيدة بتأييد الفضل والنوال. قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:22]، فيه ثلاثة معانٍ: أولها: أن هذا الذي جعلت لكم من خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض ما فيها ليس شأن أحد غيري، ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22]، فلا تجعلوا لي أندادًا في العبودية. وثانيها: إني جعلت السماوات والأرض والشمس والقمر كلها واسطة أرزاقكم وأسبابها وأنا الرازق فلا تجعلوا الوسائط أندادًا لي، ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:37]. وثالثها: إني خلقت الموجودات وجعلت لكل شيء حظًا في شيء آخر وجعلت حظ الإنسان في محبتي ومعرفتي، وكل محظوظ لو انقطع عنه حظه لهلك فلا تنقطعوا عن حظوظكم من محبتي ومعرفتي بأن تجعلوا لي أندادًا وتحبونهم كحب الله . ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، فالأنداد وهي الأحباب غير الله تعالى: فوصف الذين لم ينقطعوا عن حظ محبته بالإيمان وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، يعني: الذين اتخذوا من دون الله أندادًا في المحبة ما آمنوا حقيقة وإن زعموا الإيمان فإنهم جدًا.

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المحجوبون بالأديان الباطلة ﴿فِي رَيْبٍ﴾ شكٍ وارتيابٍ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ من مقام كمال ترتيبنا وإرشادنا ﴿عَلَى عَبْدِنَا﴾ الذي هو خليفتنا ومرآتنا ومظهر جميع أوصافنا، وحامل وحينا المنزل عليه، المشتمل على جميع الأخلاق الإلهية ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ جملة قصيرة ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ إذ من خواص هذا الكتاب أن مجموعه مشتمل على جميع الأخلاق الإلهية، وكل سورة منه تشتمل على ما اشتمل عليه المجموع، تأمل.

﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم عن إتيانه ﴿ادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ حضراءكم الذين أنتم تشهدون بألوهيتهم وترجعون في الخطوب إليهم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ المحيط بكم وبهم، فأمروهم بإتيان كل سورةٍ جامعة جميع أوصاف المعبود بالحق ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:23] أنهم آلهة غير الله، سبحان الله وتعالى عما يقولون.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ فإن لم تفعلوا الإتيان أنتم في حين التحدي والمعارضة ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ أيضًا بعدما رجعتم إليهم، فلا تكابروا ولا تنازعوا، بل انقادوا وامتثلوا بأوامر الكتاب المنزل على عبدنا، واجتنبوا عن نواهيه ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي﴾ أخبر فيه بأنه ﴿وَقُودُهَا﴾ أي: ما يتقد به النار ﴿النَّاسُ﴾ الذين يعبدون غير الله ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ التي هي معبوداتهم التي نحتوها بأيديهم وما ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه النار إلا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24] الجاهلين طريق توحيد الحق، والمكذبين كتاب الله ورسوله المنزل عليه.

﴿وَبَشِّرِ﴾ المؤمنين الموقنين الموحدين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالكتاب المنزل على عبدنا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المؤمنون فيه، واجتنبوا عن الفاسدات المنهي عنها ﴿أَنَّ﴾ أي: حق وثبت ﴿لَهُمْ﴾ بعد رفع القيود ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ من العلم والعين والحق التي هي المعارف الكلية المخلصة عن جميع القيود المنافية للتوحيد ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف الجزئية المترتبة على تلك المعارف الكلية ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ حظوا منها؛ أي من تلك المعارف الكلية ﴿مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ حاصلةٍ من شجرة اليقين ﴿رِّزْقًا﴾ حظًا كاملاً يخلصهم من رتبة الإمكان ﴿قَالُوا﴾ متذكرين العهود السابقة: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ من الأعيان الثابتة، أو في عالم الأسماء والصفات، أو في اللوح المحفوظ، أو في عالم الأرواح إلى غير ذلك من العبارات، ومن غايات التذاذهم ونهاية شوقهم والتذاذهم بالثمرة المحظوظ بها ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ متماثلاً ﴿مُتَشَابِهًا﴾ متجددًا بتجدد الأمثال ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك المرتبة الكلية ﴿أَزْوَاجٌ﴾ أعمال صالحة ونيات

خالصة ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ عن شوائب الأغيار المانعة عن الوصول إلى دار القرار ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ في تلك المراتب ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:25] [1] دائمون بدوامه، باقون ببقائه، مستغرقون بمشاهدة لقائه سبحانه. ارزقنا بلطفك حلاوة التحقيق وبرد اليقين.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:26-28].

ثم لما طعن الكفار في غاية استكبارهم وعتوهم ونهاية استعظامهم نفوسهم، واعتقادهم الأصالة في الوجود، والاستقلال بالآثار المترتبة عليه الصادرة منهم ظاهرًا

---

(1) قال الشيخ إسماعيل حقي: أي يحصل لهم جنات القربة بمعجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم القلبية الصالحة والروحية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص والهدى والقناعة والعفة والمروءة والفتوة والمجاهدة والمكابدة والشوق والذوق والرغبة والرهبة والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم والسخاوة والشجاعة والعلم والمعرفة والعزة والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية وغيرها من المقامات والأخلاق تجرّى من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطفة والفضل.

وقال الشيخ البقلي: أهل جنان الوَصْلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح، جميعها يَدُل بعضهم بعضًا، ويحصل لهم من نور الكبرياء، ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات، وأيضًا إذا تمكّن أهل المشاهدة في الجنة غذاءً، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيّر بتغيّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية آخره في الألوهية، وآخره في الصمدية أوّله في الأزلية.

على الكتاب، والرسول المنزل عليه قائلين بأن ما جئت به وسميته وحيًا نازلاً إليك من عند الله الحكيم لا يدل على كلام من يعتد به ويعتمد عليه، فضلاً عن أن يدل على أنه كلام الحكيم المتصف بجميع أوصاف الكمال المستحق للعبادة؛ لأن ما مثل به فيه هي الأشياء الخسيسة الخبيثة والضعيفة الحقيرة، مثل الكلب والحمار والذباب والنمل والنحل والعنكبوت وغيرها، والكلام المشتمل على أمثال هذه الأمثال لا يصدر من الكبير المتعال؟!

رد الله عليهم وروج أمر نبيه - صلوات الله عليه - فقال: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المستجمع لجميع الأوصاف والأسماء، المقتضية لظواهر الكائنات، المرتبة لمراتب الموجودات الظاهر على جميع المظاهر بلا تفاوت، كظهور الشمس وإشراقها على جميع الآفاق، وسريان الروح في جميع الأعضاء ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾ استحياء من في فعله ضعف وعافية وضيعة، بل لله سبحانه ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ بمظهر ﴿مَّا﴾ من المظاهر غير المتفاوتة في المظهرية؛ إذ له بذاته من جميع أوصافه وأسمائه ظهور في كل ذرة من ذرائر العالم بلا إضافة، فلا تفاوت في المظاهر عنده، وما ترى في خلق الرحمن من تفاوت، وسواء كانت ﴿بَعُوضَةً﴾ مستحقرة عندكم أو أحقر منها ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ في الحقارة والخساسة كالبق والنمل، فلا يبالي الله في تمثيلها؛ إذ عنده الكل على السواء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ﴾ صدقوا النبي الأمي ﷺ و﴿آمَنُوا﴾ بما جاء به من عند ربه ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ علمًا يقينًا أن التمثيل بهذه الأمثال ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ الثابت الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بكشف الأمور على ما هي عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن تصديق الله ورسوله ﴿فَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين متهكمين على سبيل الاستفهام ﴿مَاذَا أَرَادَ اللهُ﴾ المقدس عن جميع الرذائل المتصف بالأوصاف الحميدة ﴿بِهَٰذَا﴾ الحقير الخسيس بأن يضرب ﴿مَثَلًا﴾[1] بهذا تعريض على رسول الله ﷺ بأبلغ وجه؛ يعني: ما جئت به من عندك كلمات مفتريات بعضها فوق

(1) قال البقلي: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسمعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حقٌّ من ربهم؛ لأنهم صادقوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجدّوا صرفًا صدقًا، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

بعض، أسندته إلى الله لتروجها على أولي الأحلام الضعيفة، ومن غاية استكبارهم ونهاية جهلهم المقتضي لعمى القلب لم يروا الحكمة في تمثيله، ولم يعلموا أنه ﴿يُضِلُّ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿بِهِ﴾ بسبب إنكار هذا المثال ﴿كَثِيرًا﴾ من المستكبرين المستحقرين بعض المظاهر ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ من الموحدين الموقنين الذين لا يرون في المظاهر إلا الله، ففي هذا المشهد لا يسع الإضافات المستلزمة للاستعظام والاستحقار، بل سقط هناك جميع الاعتبار، ثم بيّن سبب إضلاله له فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26].

﴿الَّذِينَ﴾ يخرجون عن طريق التوحيد باستحقار بعض المظاهر ﴿يَنقُضُونَ﴾ يفصمون ﴿عَهْدَ اللهِ﴾ الذي هو حبله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات سيما ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ توكيده بذكر ﴿مِيثَاقِهِ﴾ الموثق بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وقولهم: ﴿بَلَى﴾ [الأعراف:172] وبعدما نقضوا العهد الوثيق الذي من شأنه ألَّا ينقض لم يفزعوا ولم يتوجهوا إلى جبره ووصله، بل ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ التوجه عن امتثال ﴿مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ﴾ في كتابه المنزل ﴿أَن يُوصَلَ﴾ به ما نقض من عهده، ومع ذلك لا يقنعون بنقض العهد وقطع الوصل المختصين بهم، بل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بأنواع الفسادات السارية من إفسادٍ واعتقاد الضعفاء، والبغض مع العرفاء الأنساء - وفي نسخة أخرى: الأمناء - والمخالفة مع الأنبياء والأولياء ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن طريق التوحيد ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:27] المقصورون على الخسران الكلي الذي لا خسران فوقه، أعاذنا الله من ذلك.

ثم استفهم سبحانه مخاطبًا لهم، مستبعدًا عما صدر عنهم من الكفر والطغيان على سبيل الكناية تحريكًا لحمية الفطرة التي فطر الناس عليها، وتذكيرًا لهم بالعهود التي عهدوا مع الله في استعداداتهم الأصلية بقوله:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ وتشركون ﴿بِاللهِ﴾ الذي قدر وجودكم في علمه السابق أراد إيجادكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[1] أظهركم من العدم بمد ظله عليكم، وبعدما

---

(1) قال البقلي: أي: كنتم أمواتًا في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم. وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغَفْلة، فأحياكم بروح المعرفة. وقال الشبلي: وكنتم أمواتًا عنه، فأحياكم به، وقال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجَعون عند تحيُّركم عن إدراكه صرف الذَّات والصفات عن شواهد

أظهركم أنعم عليكم ورباكم في النشأة الأولى بأنواع النعم؛ لتعرفوا المنعم وتشكروا له في مقابلتها ﴿ثُمَّ﴾ بعد تربيتكم في النعم ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يخرجكم من النشأة الأولى إظهارًا لقدرته وقهره ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أيضًا في النشأة الأخرى لتجزى كل نفس بما كسبت في النشأة الأولى ﴿ثُمَّ﴾ بعدما قطعتم المنازل وطويتم المراتب والمراحل ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] [1] إذ لا وجود للغير ليرجع إليه، فلا مرجع

المعرفة في طلب الحقيقة. قال فارس: كنتم أمواتًا بشواهدكم، فأحياكم بشواهده ، ثم يُميتكم عن مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجَعون عن جميع ما لكم وكنتم له، وقال الو اسطيّ: وَبَّخَهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية.

(1) قال في «التأويلات»: ذكر بعد إظهار الحقائق في الأمثلة المتناسبة لتفهم المعاني المتشابهة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة:26]، إلى قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي: لا يبالي الله أن يضرب مثلاً ﴿مَا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:26]، أي: يلبس المعاني كسوة الأمثلة لبيان البعوضة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:26]، في الحقارة والصغر أو فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت وذلك لأن في كل شيء من العرش العظيم والذرة الحقيرة لله تعالى آية تدل العباد إلى المعبود، وتهدي القاصد إلى المقصود ففي البعوضة دلالات وآيات إذا جاعت قويت وطارت، وإذا شبعت تشققت وتلفت فهذه تدل على الإنسان فإنه إذا جاع رجع إلى الله تعالى، وإذا أشبع يتبع الهوى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:27]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:6-7]، ومنها أن البعوضة خلقت على صورة الفيل وفيها معانٍ: منها: أن القدرة على إيجاد كل واحد منها غير منقادة ليس خلق أحدها بأهون على الله تعالى من الأخرى. ومنها: أن البعوضة إذا أعطيت على قدر حجمها الحقير كل آلة وعضو أعطيت الفيل الكبير القوي وفيه إشارة إلى حال الإنسان وكمال استعداده كما قال ﷺ: «إن الله خلق كل شيء على صورته» أي: على صفته فعلى قدر صفة الإنسان أعطاه الله من كل صفة من صفات جلاله وجماله أنموذجًا ليشاهد في مرآة صفات نفسه كمال صفات ربه، كما قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»» ليس لشيء من المخلوقات هذه الكرامة المختصة بالإنسان. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]، وفيها وفي أمثالها دلالات يطول شرحها فقس الباقي على نداء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:26]، بنور الإيمان يشاهدون المعاني والحقائق في صورة الأمثلة ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:26]فجحدوا الحق ظلمة إنكارهم غشاوة أبصارهم فما شاهدوا الحقائق في كسوة الأمثلة كما أن العجمي لا يشاهد المعاني في كسوة اللغة العربية فيسأل عن الحيرة ما إذا أراد العربي بهذه اللفظة، فكذلك الكفار والجهال عند تحيرهم في إدراك

حقائق الأمثال قالوا: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:26]، فيجهلهم زاد إنكارهم على الإنكار فتاهوا في أودية الضلالة بقدم الجهالة. ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، ممن أخطاء رشاش النور في بدء الخلقة كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل» فمن أخطاه ذلك النور في عالم الأرواح فقد أخطاه نور الإيمان هاهنا، ومن أخطاه نور الإيمان فقد أخطاه نور القرآن فلا يهتدي، ومن أصابه ذلك هناك أصابه هاهنا نور الإيمان ومن أصابه نور الإيمان فقد أصابه نور القرآن ومن أصابه نور القرآن فهو ممن قال: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، وكان القرآن لقوم شفاء ونعمة لأن كلامه صفة شاملة للطف والقهر فبلطفه هدى الصادقين، وبقهره أضل الفاسقين بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، والفاسق الخارج من إصابة رشاش النور في بدء الخلقة. ثم أخبر عن نتائج ذلك الخروج ونقض العهد كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة:27]، الذين ينقضون عهد الله الذي عاهدوه يوم الميثاق على التوحيد والعبودية والإخلاص من بعد ميثاقه، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة:27]، من أسباب السلوك الموصل إلى الحق وأسباب النقل والانقطاع عن غير الخالق. كما قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، أي: انقطع إليه انقطاعًا كاملاً عن غيره ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:27]، أي: يفسدون بذر التوحيد الفطري في أرض طينتهم بالشرك والإعراض عن قبول دعوة الأنبياء، وسقي بذر التوحيد بالإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:27]، خسروا استعداد كمالية الإنسان المودعة فيهم كما تخسر النواة في الأرض استعداد النخلية المودعة فيها عند عدم الماء لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر :1-3]. ثم أخبر عن كمال جرأتهم بنسيان نعمة اختراع وجودهم وكفرانهم كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة:28]، والإشارة في تحقيق الآية أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ﴾ خطاب التهديد للكافرين عمومًا وخطاب التوحيد للمؤمنين خصوصًا وخطاب التشريف للأنبياء اختصاصًا، فتهديد الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾. ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28]، نطفًا في أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة:28]، بنفخ الروح فيكم في أرحام أمهاتكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28]، عند مفارقة نفوسكم عن أبدانكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28]، عند نفخ الصور والبعث عن القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28]، بالسلاسل والأغلال، ثم يسحبون في النار على وجوههم، وفيه إشارة أخرى كيف تكفرون بالله أي: لا تكفرون بالله وإنما تكفرون بأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث، والجنة والنار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة:28] وبأنبيائه لأنكم ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة:28] ذرات في صلب آدم فأحياكم بإخراجكم عن صلبه وأسمعكم لذلك خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وأذاقكم لذات الخطاب ووفقكم للجواب بالصواب حتى قلتم: ﴿بَلَى﴾ رغبة لا رهبة

إلا هو ولا مآب بسواه، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28] بالرجعة إلى أصلاب آبائكم، وإلى عالم الطبيعة الإنسانية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28] ببعثة الأنبياء وقبول دعوته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] بدلالة الأنبياء. وقدم التوحيد على جادة الشريعة إلى درجات الجنان والنعيم المقيم وأما خطاب التشريف للأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة:28]، أي: لا تكفرون وكنتم في العدم، فأحياكم بالتكوين في عالم الأرواح ورشاش النور فخمر طينة أرواحكم بماء نور العناية، وتخمير الطينة أربعين صباح الوصال، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة:28] بالمفارقة عن شهود الجمال إلى معتبرة الحسن والخيال، كما قيل:

لـولا مُفارقـة الأحبـاب مـا وجـدت لهـا المنـايا إلـى أرواحـنا سُـبُلا

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:28] أما الأنبياء فبنور نور الوحي لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52]، وأما الأولياء فبروح روح الإيمان لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22] ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:28] أما الأنبياء فبالعروج لقوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر:28]، فلما أثبت أن الرجوع إليه أمر ضروري إما بالاختيار كقراءة يعقوب ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم، وإما بالاضطرار كقراءة الباقين أشار إلى أن الذي ترجعون إليه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29] أي: ما خلقكم لشيء وخلق كل شيء لكم؛ بل خلقكم لنفسه كما قال تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41] معناه: لا تكن لشيء غيري فإني لست لشيء غيرك فبقدر ما تكون لي أكون لك كما قال ﷺ: «من كان لله كان الله له» وليس لشيء من الموجودات هذا الاستعداد أي: أن يكون هو لله على التحقيق وأن يكون الله له، وفي هذا سر عظيم وإفشاء سر الربوبية كفر، فلا تشتغل بمالك عمن أنت له فتبقى بلا هو بلا هو.

﴿أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة:29-32].

﴿هُوَ الَّذِي﴾ جعلكم خلائف في الأرض وصوركم على صورته، وصيركم مظاهر جميع أوصافه وأسمائه و﴿خَلَقَ لَكُم﴾ أي: قدر ودبر لكم ﴿مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ما في العالم السفلي من آثار الأسماء والصفات تتميمًا لجسمانيتكم؛ لتتصرفوا فيها وتتنعموا بها متى شئتم ﴿ثُمَّ﴾ لما تم تقدير ما في العالم السفلي ترقى عنها و﴿اسْتَوَىٰ﴾ توجه ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ إلى تقدير جميع ما في العالم العلوي ﴿فَسَوَّاهُنَّ﴾ فهيأهن ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ مطبقات مشتملات على ملائكةٍ ذوي علومٍ ومعاملاتٍ، وعلى كواكب ذوي آثارٍ كثيرةٍ كلها من مقتضيات أسمائه وصفاته ﴿وَ﴾ لا يخفى عليه شيء مما في العالمين؛ إذ ﴿هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29] لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

ثم لما قدر لنوع الإنسان جميع ما في العالم العلوي والسفلي أشار إلى اصطفاء شخصٍ من هذا النوع وانتخابه من بين الأشخاص؛ ليكون مظهرًا جامعًا لائقًا لأمر الخلافة والنيابة، فقال مخاطبًا لنبيه، مذكرًا له، مستحضرًا إياه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: استحضر أنت يا أكمل الرسل فذكر ممن تبعك وقت قول ربك ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ الذين هم مظاهر لطفه ومجالي جماله، لا يظهر عليهم أثر من آثار الجلال والقهر ﴿إِنِّي﴾ أريد أن أطالع ذاتي وألاحظ أسمائي وأوصافي على التفصيل، فأنا ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: العالم السفلي ﴿خَلِيفَةً﴾[1] مرآة مجلوة عن صداء الإمكان ورين التعلق؛ لأتجلى منها بجميع أوصافي وأسمائي حتى تعتدل خليفتي بأسمائي أخلاق من عليها وتصلح أحوالهم، وإذا شاور معهم قالوا في الجواب على مقتضى علمهم ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على مقتضى علمهم من العالم السفلي الذي هو عالم الكون والفساد ومنزل الجدال والعناد: ما نرى في العالم السفلي إلا اللدد والعناد والمخاصمة المستمرة بين العباد والخروج من حدودك من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الذراري ﴿أَ﴾ نسلم ونجوز لك أن ﴿تَجْعَلُ﴾ بعزتك وكبريائك مع أنا ننزهك عن جميع الرذائل خليفة لك

---

(1) جعل الله تعالى آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالثفل لا عبرة به، فافهم.

نائبًا عنك ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿يَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ المحرمة، وليس في وسعنا هذا التسليم، ولا نرى هذا الأمر لائقًا بجلالك وعصمتك، وإن شئت بفضلك وجودك أن تصلح بينهم ﴿وَ﴾ تدبر أمرهم ﴿نَحْنُ﴾ أولى بإصلاحهم وتدبيرهم وحفظ حدودك الموضوعة فيهم؛ إذ ﴿نُسَبِّحُ﴾ نشتغل دائمًا ﴿بِحَمْدِكَ﴾ وثنائك على آلائك ونعمائك ﴿وَنُقَدِّسُ﴾ به ﴿لَكَ﴾ أي: ننزه ذاتك عن جميع ما يشعر بالعلل والأعراض فنحن أولى بأمر الخلافة والنيابة منه ﴿قَالَ﴾ تعالى بلسان الجمع في جوابهم؛ إرشادًا لهم وامتنانًا لآدم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من آدم الذي هو مظهر ذاتي وجميع أسمائي ﴿مَا﴾ أي: شيء من الجامعية ﴿لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] أنتم لعدم جمعيتكم.

ثم لما ادعى سبحانه استحقاقه للنيابة ولياقته للخلافة، وأجاب عن شبههم التي أوردوها إجمالاً وأشار إلى تفصيل ما أجمل عليهم إرشادًا لهم على مرتبة الجمع، وتنبيهًا على جلالة قدر المظهر الجامع فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ﴾ سبحانه؛ أي: ذكره ﴿الأَسْمَاءَ﴾ التي أودعها في ذاته وأوجد بها ما في العالم من الآثار البديعة ﴿كُلَّهَا﴾[1] بحيث لا يبقى من الأوصاف المتقابلة والأسماء المتخالفة المتضادة شيء إلا ما استأثر به في غيبه ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ الأسماء المودعة باعتبار مسمياتها وآثارها الظاهرة في الآفاق ﴿عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾ الذين يدعون الأولوية في أمر الخلافة ﴿فَقَالَ﴾ تعالى لهم مخاطبًا على سبيل الإسكات والتبكيت: ﴿أَنبِئُونِي﴾ عن روية وبصيرة ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ المسميات، وبأسباب هؤلاء الآثار والمسببات ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] [البقرة:31] في

(1) قال البقلي: علّمه أسماء الصفات الخاصة التي عرف بها حقائق جميع الصفات، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات. وأيضًا علّمه أسماء المقامات التي هي مدارج الحالات، وقال الجريري: علّمه اسمًا من أسمائه المخزونة، فعلّم به جميع والأسامي، وقال ابن عطاء: لو لم يكشف لآدم عِلْم تلك والأسامي؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها.

(2) قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، كأنه قال لهم: وهل سبّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلّيات التي أتجلاّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبّحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادّعائهم الإلهيّة، فقالت بعد العلم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو =

دعوى الأولوية والأحقية للنيابة، محقين في الاعتراض على آدم لا عن علم بحاله.

﴿قَالُوا﴾ مستوحشين من هذه الكلمات، معتذرين متذللين خائفين من عتابه تعالى، متذكرين عن سوء الأدب مع الله، مستحيين عن سؤالهم من فعله الذي لا يسأل عنه قائلين: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك من أن يعترض عليك ويسأل عن فعلك، ذلك الحكم في ملكوتك والتصرف في مقتضيات أسمائك، وإنما بسطنا معك الكلام لا لانبساطك بنا؛ إذ ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ منها ﴿إلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ بقدر استعداداتنا وقابلياتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ﴾ بجميع الاستعدادات والقابليات ﴿الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:32] بإقامته ما ينبغي لمن ينبغي بلا عللٍ واعتراضٍ.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة:33-37].

ومتى اعترفوا بذنوبهم واعتذروا عن قصورهم وإجرامهم قبل الله عنهم عذرهم وتوبتهم، ثم أظهر عليهم الحكمة المقتضية لخلافة آدم - صلوات الله عليه - جبرًا لانكسارهم ورفعًا لحجابهم وامتنانًا عليهم حيث: ﴿قَالَ يَا آدَمُ﴾ المستجمع لجميع الأسماء المتخالفة ﴿أَنْبِئْهُم﴾ عن خبرةٍ وحضورٍ ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ المركوزة في هويتك عن هؤلاء المسميات المسميات المعروضة عليك المعبرة عنها بالعالم، ثم لما سمعُ آدم نداء ربه بادر إلى الجواب بمقتضى الوحي والإلهام الإلهي ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم﴾ بتوفيق الله وإلهامه ووحيه ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ على التفصيل الذي أودعه الحق في ذاته؛ لأن المرآة تظهر

لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا ليطونه على الملائكة.

جميع ما في الرائي، فلما سمعوا منه التفصيل واستسخروا بإنبائه، وندموا عما صدر عنهم في حقه، وزادوا الاستحياء من الله وتوجهوا نحوه ساكتين نادمين حتى لطف معهم وأدركتهم الرحمة الواسعة، تكلم سبحانه معهم وخاطبهم مذكرًا لهم عما جرى بينه وبينهم، ومستفهمًا لهم على وجه التأديب؛ لئلا يصدر عنهم أمثاله ولئلا يغتروا بعلومهم ومعاملاتهم، ولا يستحقروا مظاهر الحق، ولا ينظروا إليها بعين الاحتقار بل بنظر الاعتبار، ولا يتوهم إخفاء شيء من علم الله المحيط بالأشياء إحاطة حضور حيث ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ إجمالاً أولاً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما غاب عنهم في علم السماوات التي ادعيتم العلم بتفاصيل أحوالها ﴿وَ﴾ غيب ﴿الأَرْضِ﴾ التي قلتم فيها كلامًا على التخمين وبحسب الظاهر ﴿وَأَعْلَمُ﴾ أيضًا ﴿مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33] تظهرون في حق آدم باللسان ودعوى الاستقلال فيها والانحصار عليها.

ثم لما اعترفوا بذنوبهم وقصورهم، وتضرعوا إلى الله نادمين تائبين عن اجترائهم ومجادلتهم معه مستحيين عنه وعمن استخلفه لنفسه - يعني آدم - بنسبة المكروهات إليه، خائبين عما نووا في نفوسهم من الأولوية في الاستحقاق، تقبل الله عذرهم وأسقط حقه عنهم، ثم أمر بسجودهم لمن استخلفه؛ استجلالاً معه وإيفاء لحقه ليسقط أيضًا عن ذمتهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر يا أكمل الرسل وقت قولنا ﴿لِلْمَلائِكَةِ﴾ النادمين عن الجراءة التي صدرت عنهم ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ تذللوا وتواضعوا تكريمًا لآدم وامتثالاً لأمرنا ﴿فَسَجَدُوا﴾ مجتمعين متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة والندامة ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ منهم ﴿أَبَى﴾ وامتنع عن السجود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن الانقياد له، وأصر على ما هو عليه من الجحود ﴿وَكَانَ﴾ بعدم الامتثال الأمر الوجوبي ﴿مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34] المطرودين عن ساحة عز الحضور.

والسر في استثنائه تعالى عن هذا الحكم وعدم توفيقه إياه وعدم اقتداره على السجود، أن يظهر سر الحضور والإظهار والربوبية والعبودية، وسر الإيمان والكفر والجنة والنار وجميع القيودات الشرعية والتكاليف الإلهية؛ إذ نسبته يظهر الاثنينية ويتعدد الطرق وتتفاوت الآراء والمقالات وتبين المخالفات والمنازعات، ويظهر الباطل ويستر الحق، وهو الرقيب المحافظ لآدابه والحاجب المعتكف ببابه، حتى لا تكون شرعة لكل وارد، أو يتوجه إليه واحد بعد واحد، غيرة على الله وحمية لنفسه، ولهذا

تمنى كثير من المحققين مرتبته.

ومن غيرته على ربه إلهاؤهم واغترارهم بالمستلذات والمزخرفات التي مالت إليها نفوسهم بطبعها يشغلهم ويلهيهم بها عن التوجه إلى جنابه والعكوف ببابه، والسر في طرده ولعنه وإبعاده ويكفره تحذيرهم عن الانقياد والاقتداء على أبلغ وجه وآكده، وتمرين لعداوته ورقابته معهم في نفوسهم؛ لئلا يغفلوا عنه، ومع ذلك لم يتركوا متابعته ولم يجتنبوا من إقطاعه الملهية، نعوذ بالله من شرور أنفسنا.

﴿وَ﴾ وبعد ما خلقنا آدم في الأرض خليفة وأنزلنا عنه قوادح القادحين، وأمرنا جميع خصمائه بسجوده وتكريمه، وامتثلوا بالمأمور جميعًا إلا إبليس، تركه للحكمة المذكورة آنفًا ولئلا يتكبر آدم ويتجه بسببه انقياد جميعهم كما تجبر كثير من أبنائه في الأرض بانقياد الشرذمة القليلة ﴿قُلْنَا﴾ له على سبيل الشفقة والنصيحة: ﴿يَا آدَمُ﴾ المستخلف المختار، لازم العبودية ولا تغتر بالخلافة، وداوم على التوجه ولا تغفل عن المعاينة، واعلم أن المعاينة العبودية إنما تحصل بامتثال أوامرنا واجتناب نواهينا، ومتى قبلت بحمل الامتثال والاجتناب ﴿اسْكُنْ أَنتَ﴾ أيها الخليفة أصالة ﴿وَزَوْجُكَ﴾ تبعًا لك ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار السرور ومنزل الفراغ والحضور، ومقام الأنس من الرب الغفور ﴿وَ﴾ إذا سكنتما فيها ﴿كُلاَ﴾ تمتعًا ﴿مِنْهَا﴾ من جميع محظوظاتها ومستلذاتها الروحانية والجسمانية ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا بلا مقدار وعدد ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ بلا مزاحمة أحد ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ المخصوصة المعينة حتى لا تخرجا من رق العبودية وإن قربتما ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35] الخارجين عن حدود الله بارتكاب المنهي.

ولما استشعر إبليس التوصية والمعاهدة المذكورة المنبئة عن كمال العناية الإلهية بالنسبة إلى آدم، بادر إلى دفعها ورفضها، فوسوس لهما بأن ألقى في قلبهما الدغدغة في تخصيص هذه الشجرة المعنية بالنهي وأنساهما المعاهدة المذكورة في العبودية، وبالجملة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ ألجأهما إلى ارتكاب الزلة بوسوسة ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ العدو لهما والرقيب معهما فتناولوا عنها عن الشجرة المنهية ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا﴾ أي: من الحضور الذي ﴿كَانَا فِيهِ﴾ أي: في دار السرور ﴿وَ﴾ بعدما ظهر زلتهما ﴿قُلْنَا﴾ لهما ولناصحهما: ﴿اهْبِطُوا﴾ من دار السرور إلى دار الغرور، ومن دار الكرامة إلى دار الابتلاء والملامة،

وعيشوا فيها مع النزاع والخصومة؛ إذ ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾[1] ينتهز الفرصة لمقته ﴿وَ﴾ بعد هبوطكم ﴿لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي هي محل التفرقة وموطن الفتن والمحن ﴿مُسۡتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ استمتاع لمزخرفاتها ومستلذاتها الغير القارة التي ألهاكم الشيطان بها عن النعيم الدائم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:36] قيام الساعة التي هي الطامة الكبرى.

ثم لما لم يكن زلة آدم من نفسه ومن مقتضى طبعه بل بوسوسة عدوه، أشفق عليه وتوجه نحوه وتلطف معه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ استفاد ﴿ءَادَمُ﴾ المذنب العاصي ﴿مِن رَّبِّهِۦ﴾ المستخلف المستقبل عليه ﴿كَلِمَٰتٍ﴾ مشتملات على الرجوع والإنابة عما صدر عنه من زلة هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ولما تلقى آدم من ربه هذه الكلمات واستغفر بها، ورجع عما صدر ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيۡهِۚ﴾ أي: قبل توبته ورحم عليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع للمذنبين المنهمكين في العصيان بالإنابة إليه عن ظهر الجنان ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37] [2] لهم عما

---

(1) قال البقلي: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾: الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحدٍ، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيءٍ من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد. وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

(2) قال نجم الدين: وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة:33]، معان مختلفة: منها: إن من دلائل فضيلة آدم واستحقاقه لخلافة الحق احتياج الملائكة إليه بإنبائه الأسماء، وكان آدم ﵇ أول الأنبياء وأول ما بدأ بإنباء الملائكة بأمر الحق وهذا من جملة ما كان الله يعمله من آدم ولا يعلمون الملائكة منه فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:30]، وكان الإنباء بأسمائهم من إصلاح حالهم لا من الإفساد، ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ وقال: علمهم لأنه ما كان لهم من استعداد للتعلم؛ لأن التعلم موجب الترقي في العلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:11]، فكلما ازداد علمًا ازداد درجة وليس للملائكة الترقي في الدرجات لقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات:164]، ولما كان آدم مستعد للترقي فقال في حقه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]. ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة:33]، وما قال بأسماء كلها، كما قال تعالى في حق آدم ﵇ وإلا لكان هذا الأمر تكليفًا بما لا يطاق، وليس هذا من سنة الله تعالى؛ لقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾

[البقرة:286]، على أنا نقول لو كلف يجوز ولا يكون منه ظلمًا، ولكنه لا يكلف فإنه ليس من سنته ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:62] وإنما قلنا أنه كان في حق آدم التكليف بما لا يطاق لأن الملائكة غير مستعدين لإنباء الأسماء كلها؛ لأن الأسماء على ثلاثة أقسام: منها أسماء الروحانيات والملكوتيات وهي مقام الملائكة ومرتبتهم، فلهم علم بعضها واستعداد أيضًا لإنباء بما لا علم لهم بها، فإن الروحانيات والملكوتيات لهم شهادة كالجسمانيات لنا، والقسم الثاني: منها أسماء الجسمانيات وهي مرتبة دون مرتبتهم فيمكن إنباءهم؛ لأن الجسمانيات لهم كالحيوانات بالنسبة إلينا فإنها مرتبة دون مرتبة الإنسان فيمكن للإنسان الإنباء بأحوالها، والقسم الثالث: منها أسماء الإلهيات وهي مرتبة فوق مرتبة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50]، فلا يمكن للإنسان أن ينبئهم بها، ولا يمكن لهم الإنباء بما فوق ما علمهم الله منها؛ لأنها غيبهم وليس لهم الترقي إلى الغيب، ولهم مقام معلوم لا يتجاوزون عنه، وكذلك يمكن لهم النزول إلى هذا العالم، وذلك أيضًا بالأمر لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:64]، ولا يمكن لهم الترقي من سدرة المنتهى إلى عالم الجبروت؛ لأنهم أهل الملكوت كما قال جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى ليلة المعراج «لو دنوت أنملة لأحرقت» ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33] أي: بأسماء معرضهم على الملائكة وبأنفسهم، وإنما كان آدم عليه السلام مخصوصًا بعلم الأسماء دون الملائكة، وهم محتاجون إليه بإنباء أسمائهم وأسماء غيرهم؛ لأن آدم عليه السلام كان بالحقيقة أفضل العالم وخلاصته، وكان روحه بذر شجرة العالم، وشخصه ثمرة شجرة العالم، ولهذا خلق شخصه بعد تمامه بما فيه كخلق الثمرة بعد تمام الشجرة، وكما أن الثمرة تعبر عن أجزاء الشجرة كلها حتى تظهر على أعلا الشجرة كذلك آدم عبر على أجزاء الشجرة الموجودات علوها وسفلها، وكان في جزء من أجزائها له منفعة ومضرة ومصلحة ومفسدة، فسمي كل شيء منها باسم يلائم تلك المنفعة والمضرة والمصلحة والمفسدة بعلم علمه الله تعالى واختص به من الملائكة، وغيرهم هذا من جملة ما كان الله يعلم من آدم عليه السلام والملائكة لا يعلمون. وكان من كمال حال آدم عليه السلام أن أسماء الله تعالى جاءت على منفعته ومضرته ومصلحته ومفسدته فضلاً عن أسماء غيره، وذلك أنه لما كان مخلوقًا كان الله خالقًا، ولما كان مرزوقًا كان الله رازقًا، ولما كان عبدًا كان الله معبودًا، ولما كان معيبًا كان الله ستارًا، ولما كان مذنبًا كان الله غفارًا، ولما كان تائبًا كان الله توابًا، ولما كان متنفعًا كان الله نافعًا، ولما كان متضررًا كان الله ضارًا، ولما كان ظالمًا كان الله عدلاً، ولما كان مظلومًا كان الله منتقمًا له، فعلى هذا قس الباقي، فلما أظهر من آدم ما كان خفيًا ومغيبًا فيه من إنباء الأسماء قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [يوسف:96]، حين قلتم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة:33]، أي غيب أهل السماوات وهم الملائكة وغيبهم ما غاب عنهم من احتياجهم بآدم في إنباء الأسماء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:33]، أي غيب أهل الأرض هو آدم وغيبه ما كان مغيبًا مخفيًا فيه من إنباء الملائكة بالأسماء ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة:33]،

من الطعن في آدم واستحقاقه الخلافة، وإظهار طاعتكم بالتسبيح والتقديس تفاخرًا به على آدم ﷺ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33]، من غيرتكم على آدم، وحسبان استحقاقهم الخلافة، فلما أظهر عليهم من أمر آدم خلاف ما تصوروا فيه ومن أمرهم غير ما توهموه أمرهم بسجود آدم إظهارًا لاستغنائه عن طاعات المخلوقين وعصيانهم وشركهم وكفرانهم؛ لأنه ليس كفران ومعصية أكبر من السجود لغيره، واستغفارًا لله باعتراضهم عليه وقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، واعتذارًا من آدم ﷺ عن قولهم ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، وانكسارًا لأنفسهم بإظهار ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]. ثم أخبر بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، والإشارة في تحقيق الآية أن في قوله ﴿اسْجُدُوا﴾ ثلاثة معان: أحدهما: إنكم تسجدون لله بالطبيعة الملكية والروحانية ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، خلافًا للطبيعة بل تعبدوا ورقًا وانقياد الأمر وامتثالاً للحكم. والثاني: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]، تعظيمًا لشأن خلافته وتكريمًا لفضيلته المخصوصة به وذلك لأن الحق تعالى يتجلى فيه فمن يسجد له فقد سجد لله تعالى، كما قال تعالى في حق حبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] والثالث: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، أي: لأجل آدم ﷺ وذلك لأن طاعتهم وعبادتهم ليست موجبة لثوبهم وترقي درجاتهم، وفائدتها على الحقيقة راجعة إلى الإنسان؛ لمعنيين: أحدهما: إن الإنسان يقتدي بهم في الطاعة، ويتأدب بآدابهم في امتثال الأوامر، وينزجر عن الإباء والاستكبار كيلا يلحق به اللعن والطرد كما لحق بإبليس، ويكون مقبولاً ممدوحًا مكرمًا كما كان الملائكة في امتثال الأمر؛ لقوله تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6]، والثاني: إن الله تعالى من كمال فضله ورحمته مع الإنسان جعل همة الملائكة في الطاعة والتسبيح والتحميد مقصورة على استعداد المغفرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:5]، فلذلك أمرهم بالسجود لأجلهم وليستغفروا لهم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:34] أي: سجد الملائكة لأنهم خلقوا من نور، كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور» والنور من شأنه الانقياد والطاعة، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ ما سجدوا بي لأنه خلق من النار والنار من شأنها الاستكبار وطلب العلو طبعًا ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34]؛ لأنه ستر الحق على آدم ﷺ ولهذا أيضًا سمي إبليس؛ لأنه يلبس الحق وأصل الكفر الستر.

ثم أخبر عن تمام نعمته على آدم وكرمه في حقه بعد سجود الملائكة وطرد إبليس لأجله لقوله ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، والإشارة في تحقيق الآية أن فيها إشارات ومعاني منها ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35] أي: بعد أن سجدت لك الملائكة ولعنت لأجلك إبليس جعلت الجنة مسكنك وجعلت منك زوجك ولتسكن إليها وتسكن معك في الجنة، فأسلنا في الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة:35] أي: من أثمار أشجارها

ونعمها وألوان أطعمها ﴿رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، فتمت نعمتي لديكما ووجبت طاعتي عليكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35]، تقربا التي وطاعة لي لتكونا من المطيعين لأمري ونهي والموفين بعهدي، وإلا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]، فلما قبلتما قولي وما أوفيتما بعهدي وعصيتما أمري وظلمتما على أنفسكما، فهذا منكما من خصوصية الظلومية الجهولية ظلوم بأنه مظلم نفسه جهولاً بأنه لا يعلم أن ظلمه عائد إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:57]. ومنها: إشارة بأن أبحت لك يا آدم نعيم الجنة وما كان فيها، وما كان لك فيها حق لأنك ما عملت عملاً تستحق به الجنة، فأعطني هذه الشجرة الواحدة منها وهي كلها لي وأنا خلقتها، فإن لم تعطينها وتطمع فيها أيضًا، فاعلم ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:6-8]. ومنها: لتعلم أن لك همة عالية لا يسعها الجنة بما فيها، فإني أوهبتك الجنة منفردًا وحيدًا وأبحت لك نعيمها مع كثرة تنوعها دون شجرة واحدة، فما رضيت نفسك بها وما قنعت بها حتى تفرقت في تلك الشجرة، ولو كانت مكانها ألف جنة أخرى لم يكفها، وكانت جهنم حرصا تقول هل من مزيد ولا تملأ حتى يضيع الجبار فيها قدمه، فهنالك تمتلئ وتتردى بعضها إلى بعض وتقول قط قط فافهم جدًّا.
ومنها: إنه يشير بقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى أن الجنة مرتع النفس البهيمية الحيوانية، وغاية مطلبها وهمتها ونهاية نهمتها وشهوتها، ولكن فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، واقنعا بها واستريحا، ولا توقدا نار الفتنة على أنفسكما، ولا تصبا من قربة الجنة ماء الجنة على رأسكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35] أي: شجرة المحبة قدر غرست لأجل آدم ﷺ على الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وإنما نهى عنها لمعنيين: أحدهما: للعزة والدلال المحبوبي، فإنها من ثمة الحزن وكمالية الجمال. وثانيهما: نهي التحريض والحث عليها، فإن الإنسان حريص على ما يمنع منه، نقل أن آدم ﷺ ما أكل من الجنة شيء آخر إلا من هذه الشجرة لو لم ينه عنها لعله ما فرغ إليها من كثر أنواع المستلذات النفسانية، وكانت المحبة غذاء روحانيًا قد كره منها، وحرضه عليها بنهيه عنها، وهذا كان كحال موسى ﷺ فلما أراد الله تعالى أن يشوقه إلى جماله ويبتليه ببلاء طلب الرؤية، ويفتح به هذا الباب على المحبين كلمه تكليما بلا واسطة جبريل ﷺ لما أسكره بأقداح الكلام، وأذاقه لذة شراب السماع، وقربه اشتياق إلى جماله وطمع في رؤيته، ورجا وصاله، فلما طمع في رؤيته ألقى جلباب الحياء وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف:143]، ثم تروى بروائة الكبرياء، وأتزر بأزار العظمة والعلاء وقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، فكذلك حال آدم ﷺ خلصه بيده، وتفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة في جواره وزوجه حواء حتى شاهد جمال الحق في مرآة كل جميل من جمال الله تعالى. وأنبت شجرة المحبة بين يديه ودله عليه نهيه ومنعه عنها، وقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]،على أنفسكما باستجلاب

محنة المحبة لأن المحبة والمحنة متلازمان والبلاء والولاء توءمان، والجنة دار السلام والسلامة، فلما ذاقا الشجرة أخرجا من دار السلام فثبتا على زعم الحسود وبينا حديث كطيب المسك شيب به الخمر، فلما أضاء الصبح فرق بيننا، وأني نعيم لا تكدره الدهر. ثم أخبر عن ذلتهما بعد عزتهما بقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]، والإشارة فيها أن آدم عليه السلام أصبح محمول العناية، مسجود الملائكة، متوجًا بتاج الكرامة، ملبسًا بلباس السعادة، في وسطه نطاق القربة، وفي جيده طوق الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة ولا شخص معه في الرفعة، يتوالى عليه حلاوة النداء كل لحظة، فلما جاء القضاء ضاق الفضاء فانقلب العصا. فلم يمس حتى نزع لباسه، وسلب استئناسه تدفعه الملائكة بعنف أن اخرج بغير مكث ولا بحث ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يد التقدير بحسن التدبير ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن تلك العزة والقرابة، وكان الشيطان المسكين في هذا الأمر كذئب يوسف لما اخذ بالجناية ولطخ فمه بدم كذب، وإخوته قد ألقوه في غيابة الجب، فأخذ الشيطان لعدم العناية ولطخ خرطومه بدم نصح كذب ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من السلامة إلى الملامة، ومن الفرح إلى الترح، ومن النعمة إلى النقمة، ومن المحبة إلى المحنة، ومن القربة إلى الغربة، ومن الألفة إلى الكلفة، ومن الوصلة إلى الفرقة، وكان قبل أكل الشجرة مستأنسًا بكل شيء ومؤانسًا مع كل أحد، ولذلك سمي إنسانًا، فلما ذاق شجرة المحبة استوحش من كل شيء، واتخذ كل أحد عدوًا، وهكذا شرط صحة المحبة عداوة ما سوى المحبوب، فكما أن ذات المحبوب لا تقبل الشركة في التعبد كذا لا تقبل الشركة في المحبة، ولهذا قال ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(2) [البقرة:36]، وكذا كان حال الخليل في البداية يتعلق بالكوكب والقمر والشمس، ويقول: ﴿ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، فلما ذاق شجرة الخلة قال: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]. فلما استقرت حبة المحبة كالبذر في قلب آدم جعل الله شخص آدم مستقر قلبه، وجعل الأرض شخصه وقال:﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36] أي: التمتع والانتفاع ببذر المحبة بماء الطاعة والعبودية إلى حين إدراك ثمرة المعرفة، كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:25]. وعلى التحقيق ما كانت ثمرة شجرة المخلوقات إلا المعرفة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، أي: ليعرفون ثمرة المعرفة، وإن ظهرت على أغصان العبادة ولكن لا تنبت إلا من حبة المحبة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «أن داود عليه السلام قال: يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» فثبت أن بذر المعرفة هو المحبة، فاعلم واغتنم لعلك تشم رائحة فتسعد. ثم أخبر عن أمطار الإلهام من سحاب الفضل والأنعام على أرض قلب آدم لإنبات حبة المحبة، وتميز شجرة المعرفة بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:37]. والإشارة في تحقيق الآية: أن أول نبت مطرت أمطار الربانية من حبة المحبة في قلب آدم، وطينة الإنسان كان نبات، ﴿رَبَّنَا

صدر عنهم من المعاصي والآثام بلا معاتبة ولا انتقام.

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: 38-42].

ثم لما تلقناه الكلمات التي تاب بها وقبلنا عنه توبته، أخرجناه من اليأس والقنوط وأطمعناه الرجوع إلى الجنة بأن: ﴿قُلْنَا﴾ له ولذريته المتفرعة عليه، منبهين عليهم طريق الرجوع ﴿اهْبِطُوا﴾ الزموا مكان الهبوط، واستقروا عليها حال كونكم خارجين ﴿مِنْهَا جَمِيعًا﴾[1] من الجنة، وترقبوا دخولها بإذن منا ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم﴾ أيها المترقبون ﴿مِّنِّي﴾ لا غيري ﴿هُدًى﴾ من وحي وإلهام، وهو علامة إذني ودليل رضاي برجوعكم ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ ومن رجع إلي به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في المراجعة إلى المقام الأصلي

ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23]؛ لأنه أبصر بنور الإيمان أنه ظالم لنفسه إذا أكل حبة المحبة، ووقع في شبكة المحنة والذلة، وإن لم يعنه ربه بمغفرته، ويفنه برحمته لم يتخلص من حضيض بشريته الذي أهبط إليه، ويخسر رأس مال استعداد السعادات الأزلية، ولم يمكنه الرجوع إلى ذروة مقام القربة فاستغاث إلى ربه وقال مضطرًا، وكانت الحكمة في إبعاده بالهبوط والاضطرار، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، فبسابقة العناية أخذ بيده وأفاض عليه بحال رحمته: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، للتائبين فأخرج من آيات الكلمات شجرة الاجتباء، وأظهر على دوحتها زهرة التوبة، وأثمر منها ثمرة الهداية، وهي المعرفة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:122].

(1) قال البقلي: الإشارة فيه أن المريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحد، وربما يقع بكلام أهل الخداع في هاوية الهلاك، والمريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيء من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد، وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38] بعد رجوعهم إليها بل كما بدأكم تعودون.

﴿وَالَّذِينَ﴾ لم يترقبوا الرجوع، ونسوا ما هم عليه في الجنة ولم يلتفتوا إلى الهدى المؤتى، و﴿كَفَرُوا﴾ به وأنكروا له ﴿وَكَذَّبُوا﴾ رسلنا الذين أتوا إياهم ﴿بِآيَاتِنَا﴾ دلائلنا الدالة على صدقهم من المعجزات الظاهرة، والآثار الباهرة ﴿أُولَئِكَ﴾ الهابطون الناسون الموطن الأصلي والمقام الحقيقي، المستبدلون عن الجنة بعرض هذا الأدنى، والكافرون بطريق الحق، والمكذبون بمن يهديهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ التي هي معدن البعد والخذلان، ومنزل الطرد والحرمان ﴿هُمْ﴾ بسبب نسيانهم وتكذيبهم ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:39] إلى ما شاء الله.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

ثم لما بين سبحانه وتعالى طريق الهداية والضلال، ونبه على جزاء كل منهما إجمالاً، أشار إلى تفصيله وتوضيحه من قصص القرون الماضية والأمم السالفة، ليتيقن المؤمنين منها ومن جملتها قصة ندائه تعالى بني إسرائيل أولاد يعقوب إسرائيل الله، مخاطبًا لهم أمر تذكرهم بالنعم التي أنعمها عليهم؛ ليكونوا من الشاكرين لنعمه، الموفين بعهده بقوله:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المتنعمين بالنعم الكثيرة ﴿اذْكُرُوا﴾ واشكروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى من استخلفكم من أسلافكم ﴿وَأَوْفُوا﴾ بعد اعتدادكم النعم على أنفسكم ﴿بِعَهْدِي﴾ الذي عاهدتم معي من متابعة الهدى النازل مني على لسان الأنبياء ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من إرجاعكم إلى المقام الأصلي الذي أنتم فيه قبل هبوطكم إلى دار المحن، وبعد رجوعكم إليه في النشأة الأخرى، لا يبقى لكم خوف من الأغيار، بل رهبة من سطوة سلطنتي ﴿وَ﴾ عند عروجها ﴿إِيَّايَ﴾ لا إلى غيري ﴿فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40] فارجعون؛ لأوانس معكم وأزيل رهبتكم.

﴿وَ﴾ علامة وفائكم بعهدي هي الإيمان ﴿آمِنُوا﴾ على وجه الإخلاص والإيقان ﴿بِمَا أَنزَلْتُ﴾ من فضلي على كل واحدٍ من رسلي بالقرآن المنزل على الحضرة الختمية الخاتمية، المؤيد بالدلائل القاطعة والحجج الساطعة والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة مع كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين، مشتملاً على ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ والحقائق مع لطائف أخر خلت عنها جميعها، وبعد ظهور المنزل به وادعاء من أنزل عليه الرسالة والإهداء

﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ أي: لا تكونوا مبادرين على الكفر بالمهدي وما هدى به، بل كونوا أول من آمن به وصدق بما جاء به من عند ربه، فانتهزوا الفرصة للإيمان ولا تغفلوا عنه ﴿وَ﴾ بعد نزوله وظهوره ﴿لاَ تَشْتَرُوا﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِآيَاتِي﴾ المنزلة على أنبيائي ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من المزخرفات الفانية ﴿وَ﴾ إن عسر عليكم ترك هذا الاستبدال لميل نفوسكم إليه بالطبع ﴿إِيَّايَ﴾ عند عروض ذلك ﴿فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:41] لأحفظكم عنه وأسهله عليكم.

﴿وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ﴾ الظاهر الثابت ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الموهوم المزخرف للضعفاء الذين لا تمييز لهم ﴿وَ﴾ لا ﴿تَكْتُمُوا الحَقَّ﴾ أيضًا في نفوسكم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:42] حقيقته عقلاً وسمعًا.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة:43-48].

﴿وَ﴾ بعدما آمنتم بالله وكتبه المنزلة على رسله ذهبتم عما نهيتم ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أديموا الميل والتقرب إلى جنابه، وتوجهوا نحو بابه بجميع الأعضاء والجوارح، قاصدين فيه تخلية الظاهر والباطن عن الشواغل النفسية، والعوائق البدنية المانعة من الميل الحقيقي ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة لنفوسهم عن العلائق الخارجية، والعوارض اللاحقة المثمرة لأنواع الأمراض في الباطن في البخل والحسد والحقد وغير ذلك ﴿وَ﴾ إن قصدتم التقرب والتوجه على الوجه الأتم الأكمل ﴿ارْكَعُوا﴾ تذللوا وتضرعوا إليه سبحانه ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43] الذين خرجوا عن هوياتهم بالموت الإرادي، ووصلوا إلى ما وصلوا بل اتصلوا، لا مع الذين يراءون الناس، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، لذلك خاطبهم الحق سبحانه على سبيل التوبيخ، فقال:

﴿أَتَأْمُرُونَ﴾ أيها المراءون المدعون لليقين والعرفان ﴿النَّاسَ﴾ على سبيل النص

والتذكير ﴿بِالْبِرِّ﴾ المقرب إلى الله ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ أنتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ من امتثال ما قلتم ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ المشتمل على الأوامر والنواهي، فحقكم أن تمتثلوا بها أولاً ﴿أَ﴾ تلتزمون تذكير الغير، وأنتم في الغفلة ﴿فَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44] قبيح صنيعكم هذا.

ولما أمرتم بعد الإيحاء بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة المطهرين لنفوسكم ظاهرًا وباطنًا، فعليكم الإتيان بالمأمور على الوجه الأتم، ولا يتيسر لكم الإتيان بها على الوجه الذي ذكر إلا بإدامة الاستعانة ﴿وَ﴾ المظاهرة من الخصلتين؛ لذلك أمر سبحانه باستعانتهما ﴿اسْتَعِينُوا﴾ في التوجه والتقرب إلى الله ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عن المستلذات الجسمانية والمشتهيات المزينة ﴿وَالصَّلاَةِ﴾ الميل والإعراض عما سوى الحق ولا تسهلوا أمر الاستعانة ولا تخففوها ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة شاقة على كل واحد ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45] الخاضعين.

﴿الَّذِينَ﴾ يرفعون رين الغيرية عن العين، ويسقطون شين الاثنينية عن البين ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ﴾ في هذه النشأة؛ لأنهم يعبدون إليه كأنهم يرونه ﴿وَ﴾ يعلمون يقينًا ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا وجود للغير ﴿رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:46] عائدون صائرون في النشأة الأخرى، اللهم اجعلنا من متبعيهم ومحبيهم.

ثم لما منَّ عليهم بالنعم التي تظهر آثارها وثمراتها في العالم الروحاني بحسب النشأة الأخرى، منَّ عليهم بالنعم التي ظهرت آثارها عليهم في العالم الجسماني بحسب النشأة الأولى، فناداهم أيضًا مبتدئًا مذكرًا بقوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ ولا تكفروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وعلى أسلافكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنِّي﴾ بحولي وقوتي ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:47] من أبناء نوعكم بفضائل أغنت شهرتها على إحصائها.

وبعدما ذكرتم النعم وعرفتم المنعم المفضل، لا تغتروا بفضلي ولطفي بل احذروا من انتقامي وقهري ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ تحشرون إلي للجزاء، وفي ذلك اليوم ﴿لاَّ تَجْزِي﴾ لا تسقط ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعة كانت أو عاصية ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصية ﴿شَيْئًا﴾ من جزائها وعذابها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ يُقْبَلُ﴾ فيها ﴿مِنْهَا﴾ من النفس العاصية ﴿شَفَاعَةٌ﴾ من شافع صديق حميم ﴿وَ﴾ كذا ﴿لاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لتمهل مدة ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾

[البقرة:48][1] فيه بالأعوان والأنصار، بل كل نفس رهينة بما كسبت.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:43] بمراقبة القلوب وملازمة الخضوع والخشوع، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:43]، وأصل الزكاة الطهارة والنماء والزيادة أي: بالغوا في تزكية النفس عن الحرص الدنيوي والأخلاق الذميمة وتطهير القلب عن رؤية السيئة، وترك مطالبة ما سوى الله فإنه مع طلب الحق زيادة والزيادة على الكمال نقصان ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43] أي: اقتدوا مع الانكسار ونفي الوجود بالمنكسرين الباذلين الوجود لنيل الجود. ثم أخبر عن فريق منهم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:44]، والإشارة فيها أنها شاملة لمن يحرض الناس على طلب الحق ومعاملة الصدق ويحذرهم الدنيا والهوى، وينبههم عن آفاتها وهو تباعد عن ذلك، ولا ينتهي بنفسه مثل العلماء السوء والملتبسين الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:44] أي: تقرؤون القرآن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:44]، معناه ولا تفهمون فحواه كي تنتهوا عن أفعالكم الردية وتعملوا بأقوالكم السنية. ثم أخبر عما يخرجهم إلى الحق وترك الباطل بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ [البقرة:45]، والإشارة فيها أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة:45]، عن شهوات النفس ومتابعة هواها ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:45] أي: دوام الوقوف والتزام العكوف على باب الغيب وحضرة الرب، ﴿وَإِنَّهَا﴾ [البقرة:45] أي: الاستعانة بهما ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة:45]، أمر عظيم وشأن صعب ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45]، وهم الذين تجلى الحق لأسرارهم فخشعت لأنفسهم كما قال ﷺ: «إذا تجلى الله لشيء خضع له» وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:108] فالتجلي يورث الألفة مع الحق ويسقط الكلفة عن الخلق، ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:46] أي: يوقنون بنور التجلي ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:46]، أنهم يشاهدوا كمال الحق، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:46]، بجذبات الحق الذي جذبه منها توازي عمل الثقلين ثم أخبر عن تأكيد ذكر النعمة لتجديد المنة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، والإشارة في تحقيق الآية أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، ظاهره عام وباطنه خاص مع قوم منهم قد علم الله فيهم خيرًا، فأسمعهم خطابه في السر، فذكروا النعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهي استعداد قبولهم رشاش نوره يوم خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فآمنوا بمحمد ﷺ من خاصة قبول ذلك الرشاش كما قال ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل» ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:47] أي: بهذه النعمة عند رش النور على من لم يصبهم ذلك النور مع العالمين ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة:48] أي: عذاب يوم يخوف الله العام بأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ [البقرة:48]، ويخوف الخاص بصفاته كقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة:49-03].

وبعدما ما أمرهم بتذكير النعم إجمالاً، وحذرهم عن جزاء الكفران، أشار إلى مقدار النعم العظام التي خصصوا بها امتنانًا عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم﴾ أي: اذكروا وقت إنجائنا إياكم ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعلمونكم ويفضحونكم بسوء العذاب الذي لا عذاب أسوأ منه وهو أنهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ لئلا يبقى ذكركم في الدنيا؛ إذ بالابن يذكر الأب ويحيا اسمه؛ لأنه سره ﴿وَ﴾ أشنع من ذلك أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ بناتكم ليلحق العار عليكم، بتزويجهم إياهن بلا نكاح ولا عار أشنع من ذلك، لذلك عد موت البنات من المكرمات ﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ أي: واعلموا في المحن المشار إليها ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار لكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:49] ليجزيكم بنعمة أعظم منها، وهو إنجاؤكم منهم واستيلاؤكم عليهم.

وبعدما ابتليناكم باحتمال الشدائد والمتاعب، ومقاساة الأحزان أردنا إنجاءكم من عذابهم وإهلاكهم بالمرة، فأمرناكم بالسير والفرار من العدو ففررتم ليلاً، فأصبحتم

يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:23]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:8]، ويخوف خاص الخاص بذاته لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28]، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:12] ﴿لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:48]، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:19] ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:48]، في حق نفسها ولا في حق غيرها بغير الإذن، كقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255]، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:48] أي: عدل لأنه ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم:39]، والسعي المشكور إنما يكون هاهنا ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:48]، لأنهم ما نصروا الحق هاهنا وقد قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:7].

مصادفين البحر والعدو صادقكم.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ﴾ أي: وقت تفريقنا بالفرق الكبيرة ﴿الْبَحْرَ﴾ المتصل في بعضه ليسهل عبوركم منه ونجاتكم منه، وبالجملة: ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ فعبرناكم منه سالمين ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ المقتحمين بالفور خلفكم باجتماع تلك الفرق واتصال البحر على ما هو عليه في نفسه ﴿وَأَنتُمْ﴾ حينئذ ﴿تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:50] إلى الافتراق والاجتماع المتعاقبة، فكيف لا تذكرونها وتشكرونها.

﴿وَ﴾ بعد إنجائكم من البحر سالمين، وإغراقهم بالمرة وإيراثنا لكم أرضهم وديارهم وأموالهم اذكروا ﴿إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ المتبحر في ضبط المملكة في أول الاستيلاء بأمر، قلنا له: إن أخلصت التوجه والرجوع والميل إلينا مدة ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ متوالية متتالية - خصصها لخلوها عن الشواغل المانعة من الإخلاص - أنزلنا عليكم كتابًا جامعًا لمرتبتي الإيمان والعمل، حاويًا على جميع التدابير والحكم الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغل موسى بإنجاز الوعد، وإيفاء العهد فذهب إلى الميقات ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ الذي صوغتم بيدكم من حليكم بتعليم السامري، بسبب الخوار الذي ظهر منه ابتلاء لكم وفتنة إلهًا من دون الله، بل حصرتم الإلهية له بقولكم: هذا إلهكم وإله موسى، فأخلفتم الوعد ﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد ذهاب موسى إلى الميقات، وقبل رجوعه منه ﴿وَأَنتُمْ﴾ بسبب خلف الوعد والاتخاذ المذكور ﴿ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:51] خارجون عن الإيمان والتوحيد، والعياذ بالله من ذلك.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلينا عن صميم القلب ﴿عَفَوْنَا عَنكُم﴾ أي: أزلنا عن ذمتكم جزاء ذلك الظلم الذي ظلمتم ﴿مِّن بَعْدِ﴾ إنابتكم ورجوعكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ وإنما أزلناه عنكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:52] رجاء أن تشكروا، أو تعظموا نعمة العفو الذي هو من آثار اللطف، والجمال المتفرع على الظلم المعفو عنه الذي هو من آثار القهر والجلال، فتكونوا من الشاكرين الذين يشكرون الله في السراء والضراء والخصب والرخاء.

﴿وَإِذْ﴾ بعدما أخلفتم الوعد قبل تمامها، وظلمتم باتخاذ العجل لم نهمل أمر موسى، ولم نخلف الوعد الذي وعدنا معه اذكروا ﴿آتَيْنَا مُوسَى﴾ إنجازًا لوعدنا ﴿الْكِتَابَ﴾ الموعود، الجامع لأسرار الربوبية ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ الفارق بين الحق والباطل، وبين الضلالة والهداية ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تهتدون له ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:53] به إلى طريق

التوحيد، وتجاهدون فيه إلى أن تخلصوا عن الشواغل المانعة عنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة:54-57].

﴿وَ﴾ ولما أنجزنا وعد موسى ورجع إلى قومه غضبان أسفًا اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [1] المؤمنين له والمعاهدين من بعد رجوعه عن الميقات والتورية: ﴿يَا

(1) قال نجم الدين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة:54]، والإشارة فيها أن لكل قوم عجلاً يعبدونه من دون الله قوم يعبدون عجل الدرهم والدينار قال ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة» وقوم يعبدون عجل الشهوات، وقوم يعبدون عجل الجاه، وعجل الهوى وهذه بغضها الله تعالى لقوله ﷺ: «ما عبد إله أبغض على الله من الهوى» وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، فأرسل الله تعالى نبيه موسى قلب كل سعيد لقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54]، ارجعوا إلى الله تعالى بالخروج عما سواه، ولا يمكنكم إلا بقتل النفس ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:54]، بقمع الهوى لأن الهوى هو حياة، وبالهوى عبد ما عبد من دون الله على الحقيقة، وبالهوى ادعى فرعون الربوبية، وعبد بنو إسرائيل العجل، وبالهوى أبى واستكبر إبليس، وبه أكل آدم من الشجر، وبه عبدت الكواكب والأصنام وفيه معنى آخر ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ ارجعوا إليه للاستنصار على قتل النفس بنهيها عن هواها، فاقتلوا أنفسكم بنصر الله وعونه، فإن قتل النفس في الظاهر تيسر للمؤمنين والكافرين، وأما قتل النفس في الباطن وقهر ما قهر صعب لا تيسر إلا الخواص الحق بسيف الصدق ونصر الحق، ولهذا جعل مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69] وكان النبي ﷺ إذا رجع من غزو يقول: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وذلك لأن المجاهد إذا قتل سيف الكفار يستريح من النصب والتعب بمرة واحدة، وإذا قتل بسيف الصدق في يوم ألف مرة يحيى نفسه على بصيرة أخرى وتزداد في مكرها وخداعها وحيلها، فلا يستريح المجاهد طرفة من جهادها، ولا يأمن مكرها وبالحقيقة النفس صورة مكر

﴿قَوْمِ﴾ الناقضون بعهدي، المجاوزون لحدود الله ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهًا مستحقًا للعبودية ﴿فَتُوبُوا﴾ عن هذا الاعتقاد والاتخاذ، وارجعوا متذللين ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ الذي برأكم من العدم ليبرأكم عن هذا الظلم، وإذا تبتم ورجعتم ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الأمارة بهذا الظلم، بأنواع الرياضات وترك المشتهيات والمستلذات، وقطع المألوفات وترك المستحسنات الملومين عليها بأنواع الملامات، حتى تكون مطمئنة بما فتنتم بها، راضية بجريان حكم القضاء، مرضية بالفناء بل فانية عن الفناء ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المشار إليه من الإنابة والرجوع وإبراء الذمة والإذلال بأنواع الرياضات والفناء المطلق أيضًا ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم الذي خلقكم للتوحيد والعرفان، وإذا تحقق إنابتكم وإخلاصكم فيها ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ورضي عنكم ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الرجاع للعباد إلى التوبة والإنابة ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54] لهم بقبول التوبة عنهم وإن عظمت زلتهم.

الحق ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99] ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54] يعني: قتل النفس بسيف الصدق ألف مرة خير لكم؛ لأن بكل قتلة رفعة درجة لكم عند بارئكم، فأنتم تقربون إلى الله تعالى بقتل النفس وقمع الهوى وهو يتقرب إليكم بالتوفيق للتوبة والرحمة عليكم، كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا» وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54]، أخبر عن سوء أعمالهم بمقالهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55]، الآيتين الإشارة فيهما أن مطالبة الرؤية جهرة هي تعرض مطالعة الذات المقدسة، فتوجب سوء الأدب وترك الحرمة، وذلك من أمارات البعد والشقاوة فمن سطوات العظمة والعزة أخذتهم الرجفة والصعقة إظهارًا للعدل، ثم من سنة الكرم قاصد عليهم بحال النعم إسبالاً للستر على هيئات العبيد والخدم فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:55] ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:56]، إظهارًا للفضل. ثم أخبر عن نتائج الكرم بأنواع النعم بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة:57]، والإشارة لما ابتلاهم بألسنة العزة وأدبهم بسوط القوة، أدركم بالرحمة في وسطة الكربة، فأكرمهم بالإنعام وظللهم بالغمام ومن عليهم بالمن وسلاهم بالسلوى، فما ازدادوا بشؤم الطبيعة ولؤم الوقيعة إلا في البلوى، كما قيل ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:57]، بأمر الشرع ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة: 57]، إذ تصرفوا فيها بالطبع ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:57]، بالحرص على الدنيا ومتابعة الهوى.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى عند دعوتكم إلى الإيمان والهداية: ﴿يَا مُوسَى﴾ المدعي للرسالة، الداعي إلى الله بمجرد الإخبار ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ ولما جئت به من عند ربك ﴿حَتَّى نَرَى اللهَ﴾ المرسل ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهرًا من غير حجاب كما يرى بعضنا بعضًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ النازلة من عين قهرنا وغضبنا لإنكاركم ظهورنا الذي هو أظهر من الشمس، بل الشمس إنما هي لمعة من لمعات ذاتنا ﴿وَأَنتُمْ﴾ حين ترونها ﴿تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:55] متحيرين والهين بلا تدبير وتصرف، إلى أن صرتم فانين مقهورين تحت قهرنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم﴾ أحييناكم وأنشأناكم بالتجلي اللطفي ﴿مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وفنائكم بالقهر والغضب امتنانًا لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56] نعمة الوجود والحياة بعد الموت، وتعتقدون الحشر الموعود به في يوم الجزاء وتؤمنون به.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا إذ ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ يوم لا ظل إلا ظله، وأنتم تائهون في التيه في الصيف، بأن سار معكم حيث شئتم، ولا يزول ظله عنكم ﴿وَ﴾ مع ذلك أنعمناكم فيها بأعظم من ذلك بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ من جانب السماء ﴿الْمَنَّ﴾ التي الترنجبين لسكن حرارتكم ﴿وَ﴾ أنزلنا لغذائكم ﴿السَّلْوَى﴾ وهو السماني، أو مثله في النزول من جانب السماء، وأبحنا لكم تناولهما، ولا تكفروا بها بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ من خصائص النعم واشكروا لها ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بمنع المنافع ورد الفوائد ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:57] من الفوائد العائدة لنفوسهم من ازدياد النعم في إدامة شكرنا، والتقرب إلينا في إقامة حدودنا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)﴾ [البقرة:08-60].

﴿وَ﴾ واذكروا ظلمكم أيضًا ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ بعد خروجكم من التيه إشفاقًا لكم

وامتنانًا عليكم ﴿ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ التي هي من منازل الأنبياء والأولياء وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ من مأكولاتها ومشروباتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا مزاحم ولا مخاصم ﴿رَغَدًا﴾ واسعًا بلا خوف من السقم حتى يتقوى مزاجكم ويزول ضعفكم، وبعد تقويتكم المزاج بالنعم ارجعوا إلينا وتوجهوا نحو بيتنا التي فيها ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ مذللين خاضعين، واضعين جباهكم ووجوهكم على الأرض، وعند سجودكم استغفروا ربكم من خطاياكم ﴿وَقُولُوا﴾ رجاؤنا منك يا مولانا ﴿حِطَّةٌ﴾ أي: حط ما صدر عنا وجرى علينا من المعاصي والآثام، وإذا دخلتم كما أمرتم واستغفرتم كما علمتم ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ التي جئتم بها واستغفرتم لها ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:58] منكم، الذين لم يتجاوزوا الحد ولم يخالفوا الأمر الرضوان الذي لا مرتبة أعلى منه.

ولما أمرناهم بالدخول على هذا الوجه، وعلمناهم طريق الدعاء والاستغفار خالف بعضهم المأمول ظلمًا وتأويلاً ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالخروج عن أمرنا، قولنا لهم لإصلاح حالهم ﴿قَوْلًا﴾ آخر لفظًا ومعنى ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ بأن أرادوا من القول الملقى إليهم لفظًا آخر، ومعنى آخر برأيهم الفاسد وطبعهم الكاسد حطًا سمتاثًا؛ أي: حنطة حمراء، ولما لم يأتوا بالمأمور به ومع ذلك بدلوا إلى ما تهوى أنفسهم أخذناهم بها ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ تنصيصًا عليهم وتخصيصًا لهم، لتعلم أن سبب أخذهم ظلمهم ﴿رِجْزًا﴾ طاعونًا نازلاً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59] يخرجون عن حدود الله المنزلة من السماء بأنواع الفسوق والعصيان.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ وطلب السقي بإنزال المطر ﴿لِقَوْمِهِ﴾ حين بثوا شكواهم عنده من شدة العطش في التيه ﴿فَقُلْنَا﴾ له مشيرًا إلى ما يترقب من مطلوبه بل يستبعده: ﴿اضْرِبْ﴾ ولا تستبعد ﴿بِعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور والوقائع ﴿الْحَجَرَ﴾ الذي بين يديك فتفطن موسى بنور النبوة للأمر الوجوبي، فضربه دفعة ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ﴾ فجاءة ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ متمايزة منفردة كل منها عن صاحبتها بعدد رءوس الفرق الاثني عشر بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل فرقة ﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ المعينة لهم دفعًا للتزاحم والتنازع، ثم أمرناكم بما ينفعكم ظاهرًا وباطنًا بأن قلنا لكم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مترفهين متنعمين ﴿مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ الذي رزقكم من محض فضله ولطفه من حيث لا تحتسبون ونهيناكم عما يضركم صورة ﴿وَ﴾ معنى بأن قلنا لكم:

﴿لاَ تَعْثَوْا﴾ أي: لا تظهروا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ خيلاء متكبرين ﴿مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:60] فيها بأنواع الفسادات متهزين بها، و ﴿اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:18].

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة:61].

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لموسى في التيه بعد إنزال المنّ والسلوى وانفجار العيون محولاً خاليًا عن الإخلاص والمحبة، ناشئًا عن محض الفساد والغفلة وكفران النعمة: ﴿يَا مُوسَى﴾ على طريق سوء الأدب معه ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ معك في التيه ﴿عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهذا غير ملائم لمزاجنا وطباعنا ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي ادعيت تربيته لنا ﴿يُخْرِجْ﴾ يظهر ويهيئ ﴿لَنَا﴾ غذاءنا ﴿مِمَّا﴾ من جنس ما ﴿تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ التي هي معظم عنصرنا سواء كان ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ خضرواتها التي يأكلها الناس للتفكه والتلذذ بحرافتها وحموضتها ومرارتها الملائمة لمزاجه ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ التي يتفكه بها لتبريد المزاج ﴿وَفُومِهَا﴾ حنطتها التي يتقوت بها لشدة ملاءمتها مزاجه، لذلك ما أزل الشيطان أبانا آدم إلا بتناولها ﴿وَعَدَسِهَا﴾ المعد لهضم الغذاء ﴿وَبَصَلِهَا﴾ التي تشتهيها النفوس المتنفرة عن الحلاوة والدسومة.

فلما سمع موسى منهم ما قالوا آيس وقنط من صلاحهم وإصلاحهم ﴿قَالَ﴾ في جوابهم موبخًا لهم ومقرعًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ﴾ أيها الناكبون عن طريق الحق، المائلون إلى الهوى ﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ المخرج من الأدنى ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وأعلى، المنزل من الأعلى، وأنا أستحي من الله سؤال ما سألتم ﴿اهْبِطُوا﴾ انزلوا ﴿مِصْراً﴾ أرض العمالقة وديار الفراعنة ﴿فَإِنَّ لَكُم﴾ فيه ﴿مَّا سَأَلْتُمْ﴾ بالكد والفلاحة ﴿وَ﴾ بعدما ذلوا نفوسهم بطلب الأشياء الدنية الخسيسة ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أعلمت وختمت عليهم ﴿الذِّلَّةُ﴾ لخباثة نفوسهم وقساوة قلوبهم وتمكن النفاق في جبلتهم؛ لذلك ما ترى يهوديًا إلا ذليلاً في نفسه خبيثًا في معاشه ﴿وَ﴾ ضربت عليهم أيضًا ﴿الْمَسْكَنَةُ﴾ المذمومة

المتفرعة على الذلة المتفرعة على الدناءة والخباثة ﴿وَ﴾ بعدما ضربت عليهم الذلة ﴿بَاءُوا﴾ صاروا مقارنين ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ اللهِ﴾ المطلع على ضمائرهم وسرائرهم ﴿ذَلِكَ﴾ السبب الموجب لنزول الغضب ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ لخبث طبيعتهم وشدة نفاقهم وضغينتهم ﴿يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ النازلة عليهم عطاء وامتنانًا ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقنعون بكفران النعم بل ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ المنبئين لهم عن قبح صنيعهم ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الذي ظهر عندهم من الخبائث الموجبة للقتل بل ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ عصيانًا فاحشًا ﴿وَكَانُوا﴾ في ذلك العصيان ﴿يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:61] يتجاوزون حدود الله عنادًا واستكبارًا.

ولما بالغوا في الإعراض عن الله والتجاوز عن حدوده وكفران نعمه، وصاروا من إفراطهم مظنة ألَّا يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح، تقاعد موسى - صلوات الله عليه - عن تبليغهم، وآيس عن اهتدائهم بالمرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة:62-64].

ثم أشار سبحانه إلى أن منهم ومن أمثالهم من ذوي الأديان والملل من يهدي إلى الحق، ويتوجه إلى طريق مستقيم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدين سيدنا محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ انقادوا بدين موسى عليه السلام ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين آمنوا بدين عيسى عليه السلام ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين تدينوا بدين نوح عليه السلام ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أي: أيقن بوحدانية الله، وأقر بربوبيته، واعترف بأن لا موجد إلا الله الواحد الأحد، ومع ذلك صدق واعترف بيوم الجزاء ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ موافقًا لما أُمر، خالصًا لوجه الله مخلصًا فيه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي يوفقهم على التوحيد والإخلاص ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من العقاب والعذاب ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62] عن سوء المنقلب والمآب.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي: طلبنا منكم العهد الوثيق بأن تتبعوا

موسى وتمثلوا بأوامر كتابه وتجتنبوا عن نواهيه، فامتنعتم عن متابعته واستثقلتم ما في كتابه، فأنجيناكم إليه بأن أمرنا جبريل عليه السلام بقلع الجبل من مكانه ﴿وَ﴾ بعد قلعه ﴿رَفَعْنَا﴾ بتوفيقنا إياه ﴿فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا عليكم وقلنا لكم في تلك الحالة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم﴾ من الدين والكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد واجتهاد ﴿وَاذْكُرُوا﴾ جميع ﴿مَا فِيهِ﴾ على التفصيل لنفوسكم، وإن لم تأخذوا وتذكروا سقط عليكم الجبل فنستأصلكم فعهدتم خوفًا من سقوطه، وإنما فعلنا ذلك بكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63] لكي تحذروا عن قهرنا وانتقامنا.

﴿ثُمَّ﴾ لما أمهلناكم زمانًا ﴿تَوَلَّيْتُم﴾ أعرضتم عن العهد ﴿مِّنْ بَعْدِ﴾ ما أزلنا عنكم ﴿ذَلِكَ﴾ الخوف وأنتم في جبلتكم ظالمون، مجاوزون عن الحدود والعهود ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ﴾ المحيط ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بإرادة إيمانكم وإصلاحكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الواسعة الشاملة لكم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لَكُنتُم﴾ في أنفسكم ﴿مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64] [1]

---

(1) ورد في «التأويلات»: والإشارة فيها بقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:62]، من مدعي الإسلام وغيرهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:62] يعني: كان نور الله نور قلبه حتى آمن بذلك النور، كما قال تعالى: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»(1)، كذلك هاهنا من آمن بالله من جملة المذكورين فبي يؤمن لا بالتقليد والرسم والعادة والاقتداء بالآباء وأهل البلد ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة:62] أي: ثوابهم وجزاؤهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62] أي: مقام العندية والوصول، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:62]، من حجب الأنانية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، بالأنانية لأن بها ينقطع الطالب عن المطلوب ويحتجب المحب عن المحبوب، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62]، لأن الولي من أخرجه الله من ظلمات الأنانية والاثنينية إلى نور الوحدة والهوية، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، فافهم جدًا. وفيه معنى آخر ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:62]، بمعنى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وعمل صالحًا للقبول، فمعناه عمل على متابعة محمد ﷺ لأنه من يعمل على غير متابعة دين الإسلام لم يكن عمله صالحًا للقبول يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:85]. وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أدركني عيسى ابن مريم ثم لم يدخل شريعتي ومنهاج ديني لأكبه الله على وجهه في النار» ما استغنى [بنبوته] فكيف أنتم: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62]، لا عند غيره من الجنة والنار ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:62]، فيما يرجعون إليه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، على ما كانوا عليه، أو جعلهم الله من المقبولين

الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:15].

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

له. ثم أخبر عن الميثاق عنهم وأن آبائهم عند رفع الطور فوقهم لابتلائهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة:63]، إلى قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66] والإشارة فيها أن أخذ الميثاق كان عامًا في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ولكن قومًا أجابوه شوقًا وقلقًا، وقومًا أجابوه خوفًا وفرقًا ليتحقق أن الأمر بيد الله في كلتا الحالتين، يسمع خطابه من يشاء موجبًا للهداية ويسمع من يشاء موجبًا للضلالة، فإنه لا برهان أظهر من رفع الطور عيانًا فلما أوبقهم الخذلان لم يكن ينفعهم البرهان والعيان في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:63]، إشارة إلى أن أخذ ما يؤتي الله تعالى من الأوامر والنواهي وسائر الطاعات والعلوم وغير ذلك لا يمكن بقوة الإنسانية إلا بقوة ربانية وتأييد إلهي كما كان في حق يحيى ﷺ قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:12]، ربانية لأنه كما كان في حال صباه، ولم يكن له قوة نفسانية لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12]. ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة:63] أي: في كتاب الله تعالى من الرموز والإشارات والدقائق والحقائق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63]، بالله عما سواه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:64] أي: أعرضتم عن طريق الاتباع للشريعة لاستيلاء القوة الطبيعية، وبعد أخذ الميثاق وسلوك طريق الوفاء ابتلاء من الله تعالى. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [البقرة:64]، وهو سبق العناية في البداية وتوفيق أخذ الميثاق بالقوة في الوسط، وقبول التوبة وتوفيقها والثبات عليها في النهاية، ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64]، المصرين على العصيان المغبونين بالعقوبة والخسران، والمبتلين بذهاب الدنيا والعقبى ونكال الآخرة والأولى.

بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ [البقرة:60-71]:

وكيف لا تكونون من الخاسرين الناقضين للعهود، وأنتم قوم شأنكم هذا ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ وحفظتم قصة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا عن العهد ﴿مِنكُمْ فِي﴾ زمن داود عليه السلام واصطياد يوم ﴿السَّبْتِ﴾ ذلك أنهم سكنوا على شاطئ البحر بقرية، يقال لها: أيلة، وكان معاشهم من صيد البحر فأرسل الله عليهم داود عليه السلام، فدعاهم فآمنوا له، وعهد الله معهم على لسان داود بألّا يصطادوا في يوم السبت، بل تعينوها وتخصصوها للتوجه والتعبد، فقبلوا العهد وكانت حيتان البحر بعد العهد يحضرن في يوم السبت على شاطئ البحر ويخرجن خراطيمهن من الماء، ولما مضى عليها زمان احتالوا لصيدها بأن حفروا حياضًا وأخاديد على شاطئ البحر وأحدثوا جداول منه إليها، فلما كان يوم السبت يفتحون الجداول ويرسلون الماء في الحياض واجتمعت الحيتان فيها، وفي يوم الأحد يصطادونها منها، ونقضوا عهد الله بهذه الحيلة، قال الله تعالى: لما أمهلناهم زمانًا ظنوا أنهم خادعوا ثم انتقمنا منهم ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ إذا أفسدتم لوازم الإنسانية؛ أي: العهود والتكاليف أفسدنا أيضًا إنسانيتكم ﴿كُونُوا﴾ صيروا في الساعة ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:65] مهانين مبتذلين، فمسخوا عن لوازم الإنسانية من العلم والإرادة والمعرفة والإيمان، ولحقوا بالبهائم بل صاروا أسوأ حالاً منها.

﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أي: قصة مسخهم وشأنهم ﴿نَكَالًا﴾ عبرة ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من الحاضرين المشاهدين حالهم وقصتهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن يوجد بعد من المذكرين السامعين قصتهم وتاريخهم ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66] الذين يحفظون نفوسهم دائمًا عن أمثالها.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين من سوء معاملة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام وقبح صنيعهم معه، ومجادلتهم بما جاء به من عند الله جهلاً وعنادًا ليتنبهوا ويتفطنوا على أن الإيمان بنبي يوجب الانقياد والإطاعة له، وترك المراء والمجادلة معه والمحبة والإخلاص معه، وتفويض الأمور إليه وهو إلى الله؛ ليتم سر الربوبية والعبودية والنبوة والرسالة والتشريع والتكاليف والتوسل والتقرب والوصول، وذلك ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين حدثت الفتنة العظيمة بينهم وهي: إنه كان فيهم رجل من صناديدهم له أموال وضياع وعقار كثيرة، وله ابن واحد وبنو أعمام كثيرة،

فطمعوا في أمواله فقتلوا ابنه ليرثوه، وطرحوه على الباب، فأصبحوا صائحين فزعين يطالبون القاتل، فأراد الله تفضيحهم وتشهيرهم، فأمر موسى بأن قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فلما سمعوا قوله استبعدوه وتحيروا في أمرهم ومن غاية استبعادهم ﴿قَالُوا﴾ على طريق المعاتبة: ﴿أَ﴾ تعتقد أنت يا موسى الداعي للخلق إلى الحق ﴿تَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾ أي: تأخذنا باستهزاء وسخرية ونحن محل استهزائك مع أنه لا يليق بك وبنا ﴿قَالَ﴾ موسى مستبعدًا ومستعيذًا: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:67] المستهزئين بالناس، بل ما أتبع إلا ما يوحى إلي.

فلما سمعوا استبراءه واستعاذته خافوا من الابتلاء فأوجس كلامهم خيفة في نفسه، لكونهم خائنين، واشتغلوا بتدبير الدفع، وشاوروا وأقر رأيهم على أن نووا في نفوسهم تلك البقرة المخصوصة المعلمة المعلومة عندهم بالشخص، وبعد ذلك سألوه عن تعيينه بأن ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أكبير أم صغير؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ كبير في السن ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغير فيه بل ﴿عَوَانٌ﴾ متوسط ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الصغر والكبر استكمل النمو ولا تميل إلى الذبول، وإذا تحققتم ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:68].

ثم لما ازداد خوفهم من الفضيحة بنزول الوحي متعاقبة زادوا في الاستفسار عن التعيين مكابرة وعنادًا وتسويفًا حيث ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ من الألوان المتعارفة المشهورة حتى نذبحها ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ﴾ أصيل في الصفرة كأنه وضع اسم الصفرة بإزائها أولاً ﴿لَوْنُهَا﴾ كلون ذهب ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة:69] والسرور عبارة عن الانبساط والانتعاش الحاصل للقلب عند فراغه عن جميع الشواغل، وفي تلك الحالة يتعجب عن كل ذرة بل عن نفسه، ويؤدي تعجبه إلى التحير، فإذا تحير غرق في بحر لا ساحل له ولا قعر، أدركنا يا دليل المتحيرين.

ثم لما جزموا الإلجاء وقطعوا النظر عن الخلاص، كابروا وعاندوا أيضًا مبالغين فيها حيث ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما هويتها وهيئتها الشخصية المعينة، وقل: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ المأمور به ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ واستوصفناه منك وصفتها بالصفات المشتركة العامة ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعيينه وتشخيصه لنا ﴿لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70] بذبحها.

﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ عجف مهزول بسبب أنها ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾

تقلبها للزراعة ﴿وَلَا﴾ ذلول بسبب ذلتها إنها ﴿تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ بالدلو والسقاية بل ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من صغرها عن أمثال هذه المذلات ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا علامة في أعضائها من ضرب العود والسوط وغيرها، بل تأكل وتمشي هونًا بلا مصرف ومراع، ولما بالغوا في الاستفسار إلى أن بلغوا ما نووا في نفوسهم ألزموا وأفحموا و﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ الثابت الكائن في الواقع وفي نيتنا واعتقادنا.

حكي أن شيخًا صالحًا من صلحائهم كانت له هذه العجلة المتصفة بهذه الصفات، فذهب بها إلى «أيلة» فأودعها عند الله وقال: اللهم إني استودعتها عندك لولدي حتى يكبر، ثم مات الشيخ وكانت تلك البقرة في حمى الله وحفظه حتى كبر الولد وحدثت تلك الفتنة فيما بينهم، فأمر الله بذبح تلك البقرة على سبيل الإلجاء، فاشتروها بملء مسكها ذهبًا ﴿فَذَبَحُوهَا﴾ ملجئين مكرهين ﴿وَ﴾ لولا إلجاؤنا إياهم وإكراهنا لهم ﴿مَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71] لخوف الفضيحة وغلاء الثمن.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة:72-74].

﴿وَ﴾ كيف تفعلونه وأنتم تعلمون أن سبب نزوله تفضيحكم وإظهار ما كتمتم في نفوسكم ﴿إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ بغير حق ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ وتدافعتم ﴿فِيهَا﴾ أي: في شأنها بأن أسقط كل منكم قتلها عن ذمته وسترتم أمرها وهدرتم دمه ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿مُخْرِجٌ﴾ مظهر ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72] في نفوسكم.

﴿فَقُلْنَا﴾ لكم بعد تدارئكم وتدافعكم وذبحكم البقرة المأمورة ﴿اضْرِبُوهُ﴾ أي: المقتول ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي: ببعض البقرة أيّ بعض كان، فضربوه فحيي بإذن الله، فأخبر بقاتله، ففضحوا وارتفعت المداراة ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل إحياء هذا المقتول بلا سبب تقتضيه عقولكم وترتضيه نفوسكم ﴿يُحْيِي اللَّهُ﴾ القادر على ما يشاء جميع ﴿الْمَوْتَى﴾ في يوم الحشر والجزاء بلا أسباب ووسائل اقتضتها عقول العقلاء؛ إذ عنده الإبداء عين

الإعادة والإعادة عين الإبداء، بل الكل في مشيئته على السواء ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ ظهوره من ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على تحقيق وقوعه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73] رجاء أن تتفكروا وتتفطنوا منها إليه وتؤمنوا بجميع المعتقدات الشرعية الدنيوية والأخروية.

وصدقوها على وجه التعبد والانقياد وبلا مراء ومجادلة مع من أوتي بها من الرسل والأنبياء، ولا يتيسر لكم هذه المرتبة إلا بعد ذبحكم بقرة النفس الأمارة المسلطة بالقوة التامة عليكم، المتلونة بالألوان المسرة لنفوسكم وطباعكم، المسلمة الممتنعة من التكاليف الشرعية من الأوامر والنواهي، وضربكم بها على النفس المطمئنة المقهورة المقتولة ظلمًا لتصير حية بالحياة الأبدية، باقية بالبقاء السرمدي، فتخبركم وتذكركم عن صنائع أمارتكم الظالمة المتجاوزة عن الحدود، خلصنا الله من شرورها.

﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ بالقساوة الأصلية ﴿قُلُوبُكُم﴾ المتكبرة المتحجرة الصلبة البليدة ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الإحياء الملين للقلوب الخائفة الوجلة عن خشية الله، وإذا لم تلن قلوبكم ولم يؤثر فيها ﴿فَهِيَ﴾ في الصلابة والقساوة ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي لا تقبل النقر والأثر أصلاً ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: بل قلوبكم أشد صلابة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتأثر بالخير وقلوبكم لا تتأثر أصلاً ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ ويتأثر منها، وقلوبكم لا تتأثر بأنهار المعارف المتشعبة عن بحر الذات الجارية على جداول ألسنة الأنبياء صلوات الله عليهم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ يتأثر بالشقوق في نفسها بتخليل بحر الدهور ومن مؤثر خارجي وإذا تشقق ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ ويدخل فيه الماء، وقلوبكم لا تتأثر لا بنفسها ولا بالمؤثر الخارجي ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ ينزل من أعلى الجبل ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ الناشئة عن ظهور الآيات مثل المطر الهاطل والريح العاصف والزلزلة القالعة وغير ذلك من الآيات الظاهرة في الآفاق، وقلوبكم لا تتأثر بالآيات الباهرة النازلة عليكم ترغيبًا وترهيبًا.

هذا تقريع وتوبيخ لهم على أبلغ وجه وآكده، وحث على المؤمنين وتحذير لهم من ربكم أمثالها بأنهم مع قابليتهم على التأثر لا يقبلون الأثر النافع لهم في الدارين، والحجارة مع صلابتها وعدم قابليتها تتأثر فهم أسوأ حالاً وأشد قساوة وصلابة منها، ومع ذلك يخادعون الله في الأمور بالستر والإخفاء، ويظنون غفلته ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ المظهر لهم، المحيط بجميع مخايلهم وحيلهم ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:74] [1] ولو طرفة

(1) قال نجم الدين: ثم أخبر عن قتلهم القتيل وإحياء القتيل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:72]، الآيتين والإشارة في تحقيقهما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ فيها إشارة

إلى قتل النفس، وإن القتيل هو القلب الروحاني، وإن إحياءه في قتل النفس البهيمية، كما قال قائلهم:

إنَّ فـــي قَتلـــي حَياتـــي أقتلونـــي يـــا ثِقاتـــي

وكما أشار بعضهم:

أو مـــت بالطبيعة تحيـــي بالحقـــيقة ـــــر بـــالإرادة تحيـــى بالطبـــيعة

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فشككتم واختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أم من النفس الأمارة بالسوء. ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:72]، بإحالة النفس إلى الشيطان ومكرها إلى الدنيا وزينتها والشيطان والدنيا يخيلان إلى النفس الأمارة وهواها ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:73]، وكما أن الله تعالى أراد أن يحيي قتيلهم ليفصح بالشهادة على قاتله أمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيي، فيخبر بقاتله فكذلك إذا أراد الله أن يحيي قتيل قلب الإنسان أمر بقتل حيوان النفس بسيف المجاهدات؛ ليحيي قتيل قلبه بأنوار الشهادات، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]. وكما أن البقرة بعد ذبحها ضرب على القتيل قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان كذلك من ضرب لسان النفس المذبوح بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر يحيي الله قلبه بنوره فيقول، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53]. ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73]، يحيي الله الأجساد في الآخرة والقلوب في الدنيا، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة:73]، دلالة مع الخواص وبراهينه مع أخص الخواص، كما قال تعالى في خواص المؤمنين ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقال في يوسف ﷺ وهو أخص الخواص ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24] ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73]، فأثبت الله تعالى العقل لمن كان مستعدًا لرؤية آياته باستحقاق إرادة الله تعالى آياته لا برؤية نفسه، فإن العقل الحقيقي هو المستفاد من أنوار مواهب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، وقال في الذين لهم عقل المعاش دون المستفاد ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18]. ثم أخبر عن أهل هذه الشقاوة ووصفهم بالقساوة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:74]، والإشارة في تحقيق الآية أن اليهود وإن شاهدوا عظيم الآيات، وطالعوا واضح البينات فحين لم تساعدهم العناية ولم توافقهم الهداية لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة على قسوة، ولم تنزلهم من مكامن التقدير إلا شقوة على شقوة، وذلك لأن الله تعالى أراهم الآيات الظاهرة فرأوها بنظر الحس، ولم يرهم البرهان الذي يراه القلب فيعجزهم عن التكذيب والإنكار يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24]. وسُئل الحسن ابن منصور رحمه الله عن البرهان؟ فقال: البرهان واردات ترد على القلوب تفجر النفوس عن تكذيبها، فهكذا حال بعض المغرورين الممكورين من تدعي الطلب إذا لم يكن لهم شيخ كامل واصل حين شرعوا في الرياضة وأخذوا في المجاهدات بترك اللذات

ولمحة وخطرة.

ثم لما ذكر سبحانه امتنانه على بني إسرائيل وإنعامه إياهم بأنواع النعم، وذكر

والشهوات يلوح لهم من صفاء الروحانية ظهور بعض الآيات وخرق العادات، فإذا لم يكن مقارنًا برؤية البرهان ليكون مؤيدًا بالتأييد الإلهي مؤكدًا بالعناية الأزلية لم يزدهم إلا العجب والغرور والخسران والقساوة والطغيان، وأكثر ما يقع هذا للرهبان والمتفلسفة الذين استدرجهم الحق بالخذلان من حيث لا يعلمون، وإنما شبه قلوبهم بالحجارة للقسوة وعدم اللين للذكر الحقيقي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:23]، والذكر الحقيقي ما يتداركه الحق بذكره كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]. ثم بين أنها دون الحجارة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة:74]، والإشارة فيها إلى مرتبة القلوب في القسوة بعضها بمرتبة الحجارة التي تنفجر منها الأنهار، وهو قلب يظهر عليه بغلبات أنوار الروح لصفائه بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهابين والكهنة. وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب يظهر عليه في بعض الأوقات عند انخراق حجب البشرية من أنوار الروح، فيريد بعض الآيات والمعاني المعقولة، كما يكون لبعض الفلاسفة والشعراء. وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب فيه بعض الصفاء فيكون بقدر صفائه قابل عكس أنوار الروح من وراء الحجب، فيقع فيه الخوف والخشية كما يكون لبعض أهل الإيمان. وأهل هذه المراتب مشتركة بين قلوب المسلمين وغيرهم، فالفرق بينهم أن أحوال هذه المراتب للمسلمين مؤيدة بنور الإسلام، فتزيد في قربهم وعلوهم ودرجاتهم ولغيرهم غير مؤيدة بالإيمان، فتزيد في غرورهم وردهم واستدراجهم والمسلمون مخصوصون من غيرهم بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلي أنوار الحق دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وسيجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبعض القلوب بمرتبة الحجارة القاسية التي لا يؤثر فيه القرآن والأخبار والحكمة والموعظة لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:74]، وهذا القلب مخصوص بالكافر والمنافق، فإنه قلب مختوم عليه وفيه الدلالة على أن القلوب على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم بالابتكار والجحود واستيلاء حب الدنيا وزخارفها وتتبع الشهوات ولذاتها تقسو وتشتد قسوتها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:74]. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:74] أي: يجازيكم عاجلاً وآجلاً، فأما عاجلاً: بأن يجعل إنكاركم سبب غفلة وقسوة قلوبكم فيقسيها بأعمالكم الفسادة ويطبع عليها بطابع إنكاركم وجحودكم كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:155]، وقال ﷺ: «ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» وأما آجلاً: فيعاقبكم يوم القيامة على قدر سيئات أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:40].

أيضًا ظلمهم وعدوانهم وكفرانهم نعمه، أراد أن ينبه على المؤمنين المحمديين المتمنين إيمان اليهود وانقيادهم على رسول الله ﷺ ومؤاخاتهم مع المؤمنين بأن متمناكم وملتمسكم محال.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة:75–77].

﴿أَ﴾ لم تسمعوا قصتهم، ولم تعرفوا خيانتهم ودناءتهم وزلتهم المضروبة عليهم وسوء معاملتهم مع نبيهم المبعوث عليهم ﴿فَتَطْمَعُونَ﴾ وترجون ﴿أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ أي: بنبيكم، ويصادقوا ويحاقوا ويتلوا معكم كلام الله مع علمكم بحالهم ﴿وَ﴾ لم تسمعوا أنه ﴿قَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ من أسلافهم قوم ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ النازل لهم، وفيه وصف نبينا ﷺ فيضطربون ويستقلون بعثته ﴿ثُمَّ﴾ لما قرب عهده ﷺ وظهر أمره، واستشعروا من أمارته أنه هو النبي الموعود في كتابهم ﴿يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: الكتاب، حسدًا وعنادًا ويغيرونه مكابرة ﴿مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ جزموه وحققوه أنه هو ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:75] مكابرتهم ومعاندتهم ويجزمونه في نفوسهم بحقيته، ويقولون في خلواتهم: إنا وإن كان النبي الموعود لكن لا نؤمن له؛ لأنه من العرب لا منَّا.

﴿وَ﴾ منهم من آمن وصدق ظاهرًا لمصلحة دنيوية وهو على خباثته الأصلية ودناءته الجبلية، بل أخبث منها بحيث ﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا في إيمانهم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ برسولكم الذي هو الرسول الموعود في التوراة يقينًا، وصدقنا جميع ما جاء به من عند ربه ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: المنافقين مع المصرين ﴿قَالُوا﴾ أي: كل من الفريقين للآخر عند المشاورة وبث الشكوى: أترون أمر هذا الرجل كيف يعلو ويرتقي وما هو إلا النبي المؤيد الموعود في كتابنا؟ أي شيء تعلمون يا معاشر اليهود؟ ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ في كتابكم من وصفه ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِ﴾ ويغلبوا عليكم ويتقربوا ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ فالعار كل العار، أم تحرفون الكتاب ولا تسلمونه غيرة وحمية؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:76] تتفكرون وتتأملون أيها المتدينون بدين الآباء

في أمر هذا الرجل؟ هكذا جرى حالتهم دائمًا بأن قالوا بأمثال هذه الهذيانات إلى أن تتفرقوا.

قل لهم يا أكمل الرسل: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ من الكفر والتكذيب عنادًا ومكابرة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:77] من القول الغير المطابق للاعتقاد.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة:78-81].

هذا حال علمائهم وأحبارهم ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعقلون ولا يفهمون ﴿الْكِتَابَ﴾ والإنزال والإرسال والدين والإيمان وجميع التكاليف الشرعية؛ لعدم ذكائهم وتفطنهم في الأمور الدينية الاعتقادية، بل ما يأخذونه ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ كسائر الأماني الدنيوية؛ تقليدًا لرؤسائهم ورهبانهم ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ ما هم في أنفسهم من الممترين في المعتقدات ﴿إِلَّا﴾ أنهم ﴿يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:78] ظنًا بليغًا في تمييز علمائهم المحرفين للكتاب، وبسبب هذا الظن لم يؤمنوا بنبينا ﷺ، ولما صار المحرفون ضالين في أنفسهم مضلين لغيرهم، استحقوا أشد العذاب.

﴿فَوَيْلٌ﴾ حرمان عن لذة الوصول بعدما قرب الحصول أو طرد، وتبعيد عن ذروة الوجوب إلى حضيض الإنكار، أو عود وترجيع لهم في الحرية إلى الرقية الأبدية في النشأة الأخرى ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ بعد تحريفهم بآرائهم السخيفة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ لسفلتهم وجهلتهم ترويجًا للمحرف ﴿هَٰذَا﴾ ما نزل ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وإنما قالوا ذلك ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ بنسبته إلى الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على وجه التحف والهدايا من الضعفاء الذين يظنونهم عقلاء أمناء في أمور الدين كما يفعل مشايخ زماننا، أنصفهم الله مع من يتردد إليهم من عوام المؤمنين.

ثم لما كانت الويل عبارة عن نهاية مراتب القهر والجلال، وغاية البعد عن مراتب اللطف والجمال كرره مرارًا وفصله تحذيرًا للخائنين المستوحشين عن طرده وإبعاده فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المحرفات الباطلة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:79] من القبوحات والمعاملات الخبيثة.

ومن جملة هذياناتهم مع ضعفائهم أنهم لما ظهر فيما بينهم واشتهر ما نزل في التوراة: إن الذين اتخذوا العجل إلهًا يدخلون النار، اضطرب الضعفاء من هذا الكلام، وضاق المحرفون من اضطرابهم أن يميلوا إلى الإسلام.

﴿وَقَالُوا﴾ لهم تسكينًا وتسلية: لا تخافوا ولا تضطربوا ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَةً﴾ أربعين يومًا مقدار زمان عبادة العجل وأقل من ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل توبيخًا وتقريعًا: أأنتم ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ وأخذتم ﴿عِندَ اللهِ عَهْدًا﴾ بألّا يمسكم النار إلا أيامًا معدودة ﴿فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾ إن ثبت، فنحن أيضًا من المصدقين المؤمنين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ﴾ افتراء ﴿مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:80] ثبوته عنده فيجازيكم بما افتريتم.

﴿بَلَى﴾ أي: بلى الأمر الحق المحقق الكلي الثابت عهده وجرى عليه سنته أن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ مشغلة مبعدة عن الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَحَاطَتْ﴾ شملت واحتوت ﴿بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ خطاياه كلها إلى سيئة مبعدة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء عن طريق الحق ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ نار البعد والخذلان لا ينجون ولا يخرجون منها أصلاً بل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81] دائمون لها ما شاء الله.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 82 - 85].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ واعتقدوا بوحدانية الله، وأيقنوا بألّا وجود لغير الله ﴿وَ﴾ مع الإيمان والإيقان ﴿عَمِلُوا﴾ بالجوارح ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المترتبة على هذا الاعتقاد المستلزمة إياه ﴿أُولَئِكَ﴾ المقربون الواصلون إلى ما يصلون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ القرب والوصول ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:82] متمكنون ما شاء الله، ولا مرمى وراء الله، ولا مقصد سوى: لا إله إلا الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضًا قصة ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: العهد الوثيق من بني إسرائيل المفرطين في بعض العهود والمواثيق، بأن قلنا لهم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: لا تتوجهون ولا تتقربون ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ الذي أظهركم من العدم وربكم ورباكم بأنواع اللطف والكرم، لكي تعرفون ﴿وَ﴾ لا تفعلون ولا تعاملون ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ المربيين لكم باستخلاف الله إياهما إلا ﴿إِحْسَانًا﴾ محسنين معهما بخفض جناح الذل وبذل المال وخدمة البدن ﴿وَ﴾ مع ذلك كذا مع ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾ المنتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ لا يقهرون ﴿الْيَتَامَى﴾ الأطفال الذين لا متعهد لهم من الوالدين، بل تحسنون لهم وتتعطفون معهم ﴿وَ﴾ كذا مع ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين لا يمكنهم الكسب لعدم مساعدة إلا أنهم بالجملة ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ أي: لجميع الأجانب المستغنين عن جميع الأمداد ﴿حُسْنًا﴾ قولاً حسنًا هينًا لينًا مبينًا عن المحبة والوداد.

﴿وَ﴾ لما أمرناهم ونهيناهم بما يتعلق بمبدئهم ومعاشهم أمرناهم أيضًا بما يتعلق بمعادهم ورجوعهم إلينا، فقلنا لهم ﴿أَقِيمُوا﴾ أديموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ التي هي معراجكم الحقيقي إلى ذروة التوحيد ﴿وَ﴾ العروج إليها لا يتحقق إلا بترك العلائق وطرح الشواغل لذلك ﴿آتُوا الزَّكَاةَ﴾ المطهرة المزيلة عن نفوسكم محبة الغير والسوى، بل محبة نفوسكم الشاغلة عن الوصول إلى شرف اللقاء ﴿ثُمَّ﴾ لما اشتغلتم بالأوامر والنواهي نقضتم العهود بأن ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم عنها، ونبذتموها وراء ظهوركم ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ وهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة:62] ﴿وَأَنْتُمْ﴾ قوم ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة:83] شأنكم الإعراض عن الحق مستمرين عليه.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون معرضين، اذكروا قبح صنيعكم وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بأن ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ أي: لا يسفك بعضكم دم بعض بلا موجب شرعي ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي: لا يخرج بعضكم بعضًا من دياره تعديًا وظلمًا ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ طوعًا، واعترفتم رغبة بهذا العهد ﴿وَأَنتُمْ﴾ بأجمعكم ﴿تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:84] تحضرون، وكلكم متفقون عليه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ﴾ الخبيثون الدنيئون، نقضتم العهد بعد توكيده بأن ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بعضكم نفس بعض بغير حق ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ أي: يخرج بعضكم ﴿فَرِيقاً﴾ بعضًا ﴿مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة إجلاء وظلمًا وأنتم بأجمعكم ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تعينون ﴿عَلَيْهِم﴾ على المخرجين الظالمين ﴿بِالإِثْمِ﴾ أي: الخصلة الفاحشة ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: الظلم المتجاوز عن الحد ﴿وَ﴾ من جملة عهودكم أيضًا: ﴿إِن يَأْتُوكُمْ﴾ أي: يأتي بعضكم بعضًا ﴿أُسَارَى﴾ موثقين في يد العدو ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ تعطوهم فديتهم وتنقذوهم من عدوهم تبرعًا، فلا ينقضون هذا العهد مع أنه غير محرم عليك ترك فدائهم وينقضون العهد الوثيق المتعلق بالقتل والإخراج ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ وقتلهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وتوفون بعض العهد الثابت في الكتاب، وهو عهد الفدية ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو عهد عدم القتل والإجلاء مع أنه لا تفاوت بين العهود المنزلة من عند الله ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ﴾ التفرقة بين عهود الله المنزلة في كتابه عتوًا واستكبارًا ﴿إِلاَّ خِزْيٌ﴾ ذل يستكرهه جميع الناس ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ القائمة للعدل والجزاء ﴿يُرَدُّونَ﴾ هؤلاء الناقضون لعهد الله ﴿إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ هو قعر بحر الإمكان الذي لا نجاة لأحد منه ﴿وَمَا اللّهُ﴾ المستوي على عروش الذرات الكائنة في العالم رطبها ويابسها، شهادتها وغيبها ﴿بِغَافِلٍ﴾ مشغول بشيء يشغله ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:85] [1] أنتم بل شأنكم وحالكم وأعمالكم كلها

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [البقرة:82]، من أهل الطلب بأن المنازل إلى المقصد، وإن كانت متناهية فإن السير في المقصد غير متناه ﴿وَعَمِلُواْ﴾ [البقرة:82]، على قانون الشريعة بإشارة شيخ الطريقة ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:82]، وهي المبلغات إلى الحقيقة أولئك أصحاب الوصول إلى جناب الأصول خالدين فيها بالسير إلى أبد الآباد، وكذلك من اكتسب اعتقادًا فاسدًا من المتفلسفة على خلاف الشريعة وأحاطت به خطيئته فيبقى عليه إلى أن يموت

﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81] أبد الآباد، ولن تنفعهم المجاهدات ولا النظر في المعقولات ولا الاستدلال بالشبهات، والذين آمنوا منهم بنبوة محمد ﷺ وعملوا الصالحات من المأمورات وغير المنهيات، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [البقرة:82]، وأهل الدرجات والغرفات في الجنات ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:82]. ثم أخبر الميثاق والعبودية على الإطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84]، إلى قوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:86] والإشارة فيها ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84] أي: في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة:84]، بامتثال أوامر الشيطان في استجلاب حظوظ النفس، فإنه يسعى في إراقة دماء قلوبكم، كما قال بعضهم:

أرى قدمي أراق دمي ... إلى خفض سعى قدمي

وكذلك لا تسفكون بتربص الشيطان بينكم تسفكوا دماءكم بعضكم دماء بعض، كما قالت الملائكة في حقكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:84]، غير دينكم الذي كنتم عليه في أصل الفطرة ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:84]، بقولكم: ﴿بَلَى﴾ شهدنا والذي يدل على هذا التأويل، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس:61]، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:85]، باستيفاء حظوظ النفس ولذاتها وشهواتها، فإن المجرمين اقتضوا بأيديهم حتفهم وآثروا باختيارهم ما فيه هلاكهم واستئصالهم، قال بعضهم:

فالله بيني وبين عيني ... بعين نفسي أصبت نفسي

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة:85] فيعاون بعضكم بعضًا على الإعراض عن الله تعالى والتساعد في مزاولة الحظوظ والخروج عن مقامات الحقوق فآفات أحوالكم غير لازمة عليكم بل هي متعدية عنكم إلى إخوانكم وقرنائكم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: 85] أي: مضرتكم لإخوانكم على بلائهم مظاهرة الشيطان ونصرته عليهم بما فيه هلاك أنفسهم، ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى﴾ [البقرة:85]، وهم أصناف شتى فمن أسير في قيد الهوى فإنقاذه بأن يدله على الهدى، ومن أسير بقيد حب الدنيا فخلاصه في إخلاص ذكر المولى، ومن أسير بقي في قيد الوسواس فقد استهواه الشيطان ففداؤه أن يرشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشكوك والظنون والتخمين ويخرجه من ظلمة التقليد وما تعود بالتلقين، ومن أسير تجده في أسر هواجس نفسه ربيط زلاته ذلك أسير في إرشاده إلى إقلاعها وإعانته وإنجازه على ارتداعها، ومن أسير تجده في أسر صفاته وحبيس وجوده فنجاته في أن تدل على الحق فيما تحل عنه رتاق الكون، ومن أسير تجده في قبضة الحق فبجزائه ليس لإسرائهم فداء ولا لقتلهم قود ولا لربطهم خلاص، ولا لبطشهم مناص ولا عنهم بدل ولا معهم جدل، ولا إليهم لغيرهم سبيل ولا لديهم إلا بهم دليل ولا منهم قرار ولا معهم قرار: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي

عنده مكشوف معلوم له سبحانه بالعلم الحضوري، بحيث لا يشذ عن حيطة علمه شيء فيها أصلاً.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة:86-88].

ولما ذكر سبحانه قبح معاشهم ومعادهم أراد أن ينبه على المؤمنين بأسباب مقابحهم وإعراضهم ليحذروا منها ويحترزوا عنها فقال مشيرًا لهم: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن منهج الصدق والصواب هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا واختاروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ الفانية غير القارة، بل اللاشيء المحض بالآخرة التي هي النعيم الدائم واللذة المستمرة والحياة الأزلية السرمدية ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: عذاب الإمكان والافتقار لذلك ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:86] فيما هو متمناهم من الحوائج، بل دائمًا مفتقرون محتاجون، مسودة الوجوه في النشأتين.

واذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين أيضًا من قبح صنائعهم ليعتبروا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة المشتملة على مصالحهم الدنيوية والأخروية فكذبوه، ولم يلتفتوا إلى كتابه ﴿وَ﴾ بعدما قضى وانقرض موسى ﴿قَفَّيْنَا﴾ أي: عقبناه ﴿مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ المرسلة إليهم، أولي الدعوات والآيات والمعجزات

سمعتموه من ربكم في أول الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، أمنتم وقلتم ﴿بَلَىٰ﴾. ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي عاهدتم عليه عند أخذ الميثاق ألا تعبدوا غيره من الشيطان والدنيا والنفس والهوى ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ [البقرة:85]، وهو عمى القلب عن المشاهدة والعمة في تيه الباطل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:85]، وهو المبالغة في عمى القلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:72].

فكذبوهم أيضًا ولم يلتفتوا بما جاءوا به ﴿وَ﴾ بعد ذلك بزمان ﴿آتَيْنَا﴾ أيضًا ﴿عِيسَى﴾ المبعوث إليهم ﴿ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات المبينات لأمر معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾ أي: خصصناه وقويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدس عن رذائل الإمكان، فكذبوه أيضًا، فأرادوا قتله ولم يظفروا عليه، ألم تكونوا أنتم أيها الناقضون للعهود والمواثيق ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الرسل من عند ربكم لإصلاح حالكم ﴿بِمَا لاَ تَهْوَى﴾ تحب وترضى ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ اشتغلتم بما جاءوا به بل ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عليهم واستحقرتموهم ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:87] كزكريا ويحيى - عليهما السلام - والقوم الذين شأنهم هذا كيف يرجى منهم الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿وَ﴾ من غاية عداوتهم معك يا أكمل الرسل ومع من بايعك من المؤمنين أنهم ﴿قَالُوا﴾ حين دعوتكم إياهم إلى الإيمان والتصديق بالإسلام: لا نفقه حديثكم ولا نفهم كلامكم؛ إذ ﴿قُلُوبُنَا﴾ التي هي وعاء الإيمان والإذعان ﴿غُلْفٌ﴾ مغلوف مغشاة بالأغطية الكثيفة لا يصل إليها دعوتكم وإخباركم قل لهم يا أكمل الرسل: لا غطاء ولا غشاوة إلا عنادكم وحديثكم وحسدكم على ظهور دين الإسلام وبغيكم عليه مع جزمكم بحقيته عقلاً ونقلاً ﴿بَل﴾ قل لهم نيابة عنا: ﴿لَّعَنَهُمُ اللهُ﴾ أي: طردهم وبعدهم باسمه المنتقم ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم المذكور في جبلتهم، لكونهم مقهورين تحت اسم المضل المذل، وإذا كانوا من مقتضيات اسم المضل ﴿فَقَلِيلاً مَّا﴾ نزرًا يسيرًا منهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:88] يهتدون بطريق التوحيد إيفاء لحق الفطرة الأصلية التي فطر الناس عليها، وهم الذين ذكرهم سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة:62] وبالجملة فلا يرجى منهم الإيمان.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ الْحَقُّ

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: 89-91].

﴿وَ﴾ أيضًا من غاية عداوتهم وعتوهم وعنادهم وحسدهم على ظهور دين الإسلام ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ﴾ مشتمل على الأحكام والمعتقدات والحقائق والمعارف جزموا أنه نازل ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ لتوافقه على ما في كتابهم وإعجازه عموم من تحدى معه ومع ذلك ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ ظهوره ونزوله ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون بهذا النبي ودينه وكتابه ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكتابهم ونبيهم ويقولون: سينصر ديننا بالنبي الموعود والدين الموعود ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ في كتابهم ونبيهم انتظروا له قبل مجيئه وافتخروا به على معاصريهم ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حين مجيئه عنادًا ومكابرة فاستحقوا بهذا الكفر والعناد طرد الله ومقته وتبعيده عن طريق التوحيد وتخليده إياهم في جهنم الإمكان، نعوذ بالله من غضب الله ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل نازلة دائمًا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:89] المصرين على العناد، المستكبرين على العباد.

ثم لما ذكر سبحانه ذمائم أخلاقهم وقبائح أفعالهم، أراد أن يذكر كلامًا مطلقًا على وجه العظة والنصيحة في ضمن تعييرهم وتقريعهم، ليتذكر به المؤمنون فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ بما باعوا واستبدلوا به أنفسهم معارف نفوسهم أو شهودها أو وصولها ﴿أَن يَكْفُرُوا﴾ أن يكذبوا من غاية خباثتهم وعنادهم ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على من هو أهل وقابل له؛ ليهدي به من ضل عن طريق الحق مع جزمهم أيضًا بحقيته بلا شبهة ظهرت لهم، بل إنما يكفرون ﴿بَغْيًا﴾ وحسدًا على ﴿أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ المستجمع المستحصر للقابليات والاستعدادات ﴿مِن﴾ محض ﴿فَضْلِهِ﴾ ولطفه بلا علة وغرض ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يختار ويريد من عباده الخلص، وهم الذين ارتفعت هوياتهم وتلاشت ماهياتهم واضمحلت وفنيت تعيناتهم، وصاروا ما صاروا لا إله إلا هو، ولما كفروا بالله وحسدوا لأنبيائه ويخلوا عن خزائن فضله ﴿فَبَاءُوا﴾ رجعوا مقاربين ﴿بِغَضَبٍ﴾ عظيم من الله المنتقم عن جريمتهم ﴿عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ عظيم إلى ما شاء الله الظهور باسم المنتقم، وقل يا أكمل الرسل للمؤمنين: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ المستهينين بكتاب الله ودينه ونبيه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة:90] لهم في الدنيا والآخرة، إهانتهم في الدنيا ضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة حرمانهم عن الكمال

الإنساني الذي يتوقع منهم، ولا عذاب أشد من ذلك.

ربنا اصرف عنا عذابك وقنا من سخطك.

﴿وَ﴾ من غاية استنكافهم واستكبارهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ كلامًا صادقًا يقبله كل العقول ﴿آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ في الواقع مطلقًا ﴿قَالُوا﴾ في الجواب حاصرين: بل ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ فقط، ولا تم الإنزال لغيرنا ﴿وَ﴾ لا يقتصرون عليه بل ﴿يَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَ﴾ إن كان ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع في نفسه وهم يعلمون حقيته، وإن كان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتاب، والحسد والعناد الراسخين في نفوسهم وطباعهم ومبالغتهم في العناد والإصرار على تكذيب هذا الكتاب مع أن الإيمان بأحد المتصادقين المتوافقين يوجب الإيمان بالآخر، يدل على ألا إيمان لهم بالتوراة أيضًا، بل هم كافرون بها لدلالة أفعالهم وأعمالهم على الكفر بها وإن أنكروه ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا يا أكمل الرسل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أيها المدينون بدين اليهود المؤمنون المصدقون بالتوراة ﴿أَنبِيَاءَ اللَّهِ﴾ الحاملين لها العاملين بها ﴿مِن قَبْلُ إِن كُنتُم﴾ صادقين في أنكم ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:91] بها فثبت أنكم لستم مؤمنين بها حينئذ لتخلفكم عن مقتضاه وتكذيبكم من أنزل عليه، وإن أنكروه اذكر لهم:

﴿ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا

إِلَيْكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة: 92 - 100].

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾[1] الواضحات المبينات في التوراة المبينات لطريق التوحيد والإيمان، فكذبتم موسى ﷺ على جميع بيناته بالمرة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهًا﴿مِن بَعْدِهِ﴾ أي من بعد ما ذهب موسى إلى الطور للفوائد الأخر المتعلقة لتكميلكم ﴿وَأَنتُمْ﴾ قوم ﴿ظَالِمُونَ﴾ [البقرة:92] شأنكم العدول عن طريق الحق ومنهج الصواب.

﴿وَ﴾ إن أردت يا أكمل الرسل زيادة إلزامهم وإسكاتهم، اذكر لهم نيابة عنا وقت ﴿إِذْ أَخَذْنَا﴾ منكم أيها الناقضون لعهودنا والمنكرون لكتابنا ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ الذي واثقكم معنا ثم استثقلتموه وتركتموه ﴿وَ﴾ ألجأناكم على إيفائه بأن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا وقلنا لكم استعلاءً وتجبرًا﴿خُذُوا﴾ وامتثلوا﴿مَا آتَيْنَاكُم﴾ على نبيكم من الأوامر والنواهي ﴿بِقُوَّةٍ﴾ جدٍ واجتهادٍ﴿وَاسْمَعُوا﴾ من المعارف والحقائق بسمع الرضا ونية الكشف ﴿قَالُوا﴾ ظاهرًا: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما أمرتنا به ﴿وَ﴾ قالوا خفية: ﴿عَصَيْنَا﴾ عن الامتثال بها ﴿وَ﴾ سبب عصيانهم أنهم لدناءتهم وسخافة طبعهم ﴿أُشْرِبُوا﴾ تداخلوا وتجبلوا وتطبيوا﴿فِي قُلُوبِهِمُ﴾ التي هي محل الإيمان والتوحيد منازل العرفان واليقين ﴿الْعِجْلَ﴾ أي: محبة العجل المسترذل والمستقبح المستحدث من حليهم وما هي إلا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بالله وبكتبه ورسله وحصرهم ظهور الحق في مظهر مخصوص، ومع ذلك يدعون الإيمان بموسى ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تقريعًا لهم على وجه التعريض: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ من إنكار كتب الله وتكذيب رسلهم وقتلهم بغير حق واعتقادهم الشريك لله﴿إِن كُنتُم﴾ صادقين في كونكم﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93].

---

(1) قال في التأويلات النجمية: ثم كرر الأخبار عن إصرارهم على الجحود مع وضوح الآيات من موسى ﷺ وغلوهم في حب العجل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة:92]، الآيتين والإشارة فيهما أن الأنبياء - عليهم السلام - يدعو العباد إلى التوحيد وإقرار العبودية عن كل مشهود ومحدود ومعدود، ولكنهم لم يحتجوا إلا إلى عبادة ما يليق بقصر نظرهم وخسة همتهم، فقوم عبدوا الصنم وقوم عبدوا الهوى، وقوم عبدوا الدنيا، وإنهم قد ظلموا على أنفسهم بوضعهم عبادتها في غير معبودًا مع أن الله تعالى أخذ ميثاقهم بعبوديته من غير شرك، ورفع فوقهم طور الأمانة التي عرضها وحملها الإنسان في الميثاق الأول.

ثم لما اشتهر بين الناس قولهم: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وامتنع كثير من الناس القاصدين دين الإسلام وتغمم ضعفاء المسلمين أيضًا من هذا الكلام، أشار سبحانه إلى دفعه مخاطبًا لرسوله معكم: ﴿قُلْ﴾ لهم نيابة عنا يا أكمل الرسل: ﴿إِن كَانَتْ﴾ محصورة مسلمة ﴿لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ﴾ التي هي منازل الشهداء والسعداء ومقام العرفاء والأمناء ﴿خَالِصَةً﴾ خاصة مخصوصة ﴿مِّن دُونِ﴾ شركة ﴿النَّاسِ﴾ المنسوبين إلى الأديان الأخر ﴿فَتَمَنَّوُا﴾ عن صميم القلب ومحض الرغبة ﴿الْمَوْتَ﴾ المقرب لكم إليها والموصل إلى لذائذها، كما يتمناه خلص المؤمنين بوحدانية الله في أكثر أوقاتهم.

قال المرتضى كرم الله وجهه: «لابن أبي طالب أشوق إلى الموت من الطفل بثدي أمه»، وقال أيضًا: «لا أبالي سقطت على الموت أو سقط الموت عليّ»، وقال أيضًا:

جـزى الله المـوت عـنا خيـرًا فإنـه	أبـر بـنا مـن كـل خيـر وأرأف
يعجـل تخلـيص الـنفوس مـن الأذى	ويدانـي إلـى الـدار التـي هـي أشـرف

وقال عمار ﷺ حين استشهد: «الآن ألقى الأحبة محمدًا وصحبه» وأنتم أيضًا تمنون الموت المقرب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:94] في دعواكم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ﴾ كسبت ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسهم من الحرص وطول الأمل والاستلذاذ باللذات الحسية والوهمية من الجاه والمنزل والمكانة بين الناس، والاستكبار عليهم، ألا تراهم يتوجهون ويرجعون إلى الله عند نزول البلاء المشعر بتعجيل الموت المقرب استكشافًا، وإذا كشف ولوا على ما هم عليه مدبرين؟! ﴿وَاللهُ﴾ المحيط بسرائرهم وضمائرهم ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:95] القائلين بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل، إن فتشت عن أحوالهم واستكشفت عن ضمائرهم ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ﴾ أي: اليهود وجدانًا صادقًا ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ دائمةٍ مستمرةٍ من نوع الإنسان عمومًا وخصوصًا ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ واعتقدوا ألَّا حياة إلا في دار الدنيا، بل ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ليزيد عليه ألفًا آخر، وهكذا ﴿وَ﴾ الحال أنه بهذه المحبة ﴿مَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾ بمبعد نفسه ﴿مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ إلى غاية ما يتمناه ويحب، بل ما زاد إلا عذابًا فوق العذاب ﴿وَاللهُ﴾ المجازي لهم أعمالهم ﴿بَصِيرٌ بِمَا

يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:96] أي: بجميع أعمالهم في جميع أعمارهم بحيث لا يعزب عن علمه شيء منها.

ثم لما ظهر الإسلام وترقى أمره وارتفع قدره واشتهر إنزال القرآن الناسخ لجميع الأديان اضطرب اليهود ووقعوا فيما وقعوا، سألوا رسول الله ﷺ عمن أنزل عليه من الملائكة، فقال ﷺ: أخونا جبرائيل - صلوات الرحمن عليه - قالوا: هو عدونا القديم، ليس هذا أول ظهوره بالعداوة، بل ظهر علينا بالعداوة من قبل مرارًا، وهو بصدد نسخ ديننا.

قال سبحانه وتعالى مخاطبًا لنبيه: ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ أي: لمن يدعي عداوة أميننا جبرائيل بواسطة إنزال القرآن، أولئك لا وجه لاتخاذكم جبرائيل عدوًا ﴿فَإِنَّهُ﴾ إنما ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي: القرآن ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا أكمل الرسل الذي هو وعاء الإيمان والإسلام ومهبط الوحي والإلهام ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ المنزل إلقاءه إليه، وأمره إياه بتنزيل لا من عند نفسه حتى يتخذوه عدوًا، وإن اتخذوه عدوًا فاتخذوا الله المنزل عدوًا مع أنه لا وجه للعداوة أصلاً؛ لكون المنزل عليه ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به إلى طريق الإيمان والتوحيد ﴿وَبُشْرَى﴾ بالنعيم الدائم الباقي ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:97] المهتدين به، جعلنا الله ممن اقتفى أثرهم.

قل لهم أيضًا يا أكمل الرسل: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا للهِ﴾ بنقض عهوده، وعدم الامتثال بأوامره والاجتناب عن نواهيه ﴿وَمَلائِكَتِهِ﴾ بنسبتهم إلى أشيائهم منزهون عنها ﴿وَرُسُلِهِ﴾ بالتكذيب والقتل والاستهزاء والإهانة، وخصوصًا من الملائكة ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ كلا الأمينين عند الله بنسبة الخيانة والعداوة إليهما فهو كافر بالله بثبوت واحدٍ منهما ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] بكفرهم وإصرارهم وعنادهم.

﴿وَ﴾ من جملة كفرهم وعنادهم أنهم ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ من غاية لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْكَ﴾ يا من وسعت مظهريته جميع أوصافنا وأخلاقنا ﴿آيَاتٍ﴾ دلائل ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات لطريق المعرفة والإيمان والتوحيد والإيقان فكفروا بها وكذبوها ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا﴾ مع وضوحها وجلائها ﴿إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99] الخارجون عن رتبة العبودية؛ لعدم الانقياد بالكتاب والنبي بل بالإنزال بل بالمنزل ألم يكونوا فاسقين دائمًا؟!

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً﴾ وثيقًا مؤكدًا ﴿نَّبَذَهُ﴾ نقضه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ لفسقه ثم

سرى نقضه إلى الكل فنقضوا جميعًا﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:100][1] ينقادون

(1) قال نجم الدين كبرى: قال الحق تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة:93] من خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] ﴿بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:93]، بشوق وصدق في جواب بلى ﴿وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:93]، الخطاب يسمع الإجابة في الثبات على العبودية ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [البقرة:93]، اجبنا بقولهم بلى ﴿وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:93] أي: بالثبات والاستقامة ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾ [البقرة: 93]، حب عجل الدنيا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:93]، بذلة أقدامهم عن صراط مستقيم العبودية بالليل إلى الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة، كما أن الكفر رأس كل خطيئة ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ [البقرة:93]، أن تعبدوا عجل الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93]، حقيقة لا مجازًا بالرسم والعادة فإن من علامة الإيمان ما أخبر عنه حارثة حين «سأله النبي ﷺ كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًا قال: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عرفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهارها وأسهرت ليلها واستوى عندي ذهبها ومددها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يزاورون وإلى أهل النار يتضاغون وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، فقال: أصبت فالزم» ثم أخبر عن كمال جهلهم وغرورهم إن اليهود ادعوا الاختصاص عن الله تعالى بالأشياء، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة:94]، إلى قوله ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:96] والإشارة في تحقيق الآيات أن من علامات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي، ومن وثق أن الجنة له فلا محب له ليشتاق إليها، وفيه معنى آخر وهو من أمارة أن يكون المرء من أهل الجنة تمنيه الموت لقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البقرة:94]، قال عقيب ادعائهم أنهم أهل الجنة بفاء التعقيب يعني ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:94]، موقنين من أهل الجنة حقيقة، فتمني الموت يكون بوصف حالكم. ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:95]، من سوء الأفعال والأقوال والأحوال، يعني: أن لا يكون تمني الموت من نتائج معاملات السوء التي توجب النار، وفيه إشارة إلى النار باب علوم الظاهر المنكرين على أرباب علوم الباطن يزعمون أنهم من أهل النجاة والدرجات دون الأئمة المحققين، فجعل الله تعالى أمارة أهل النجاة السلامة من الحياة الدنيا وتمني الموت، وهذا وصف حال السالك الصادق والمحقق العاشق، كما قال بعضهم:

إنْ في قتلي أقتلوني يا ثقاتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

وحال المنكرين من أهل الأهواء والبدع والعلماء الحريصين على الدنيا بخلاف هذا، فإنهم لن يتمنوه أبدًا قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة:96] لأن المشرك وإن كان حريصًا على الحياة، ولكن لم يكن له خوف العذاب لإنكاره البعث ولمنكر المعرفة حرص الحياة وخوف العذاب، فيكون أحرص على الحياة من المشرك، وفيه أن حب الحياة من نتيجة الغفلة عن الله، فأشدهم عنه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا وحال المؤمن

على ضده فالعبد المطيع يحب الرجوع إلى سيده والعبد الآبق لا يريد الرجوع إلى سيده، وفي الحديث الصحيح: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» أي: محبة العبد للقاء نتيجة محبة الله للقاء العبد كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]. ثم أخبر عن غاية خذلانهم من عداوتهم لجبريل لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:97]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى خص النبي ﷺ من سائر الأنبياء بإنزال القرآن على قلبه، فإن جميع الكتب كان ينزل ظاهرًا جملة واحدة في الألواح والصحائف مكتوبة. فمن فوائد ضرورة القرآن معجزة بأن يأتي بمثل هذا القرآن الذي لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله الآية. ومنها: أن القرآن لما أنزل على قلبه ﷺ أنزل عليه آية وآيات أو سورة بدفعات في مدة ثلاث وعشرين سنة من سني النبوة؛ ليتصف قلبه بأخلاق القرآن، وما أشير إليه فيه ويتأدب بآدابه كما روي عن عائشة - رضي الله عنها - وعن أبيها حين سُئلت ما كان خلق النبي ﷺ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، قالت: كان خلقه القرآن كقوله تعالى في جواب الكفار حين قالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:32]، ومنها أن القرآن لما نزل أنزل على قلبه صار قلبه خاشعًا خاضعًا من خشية الله تعالى حتى قال إنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه، وهذا من خصائص إنزال القرآن على قلبه لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:21]، ولو كانت التوراة أنزلت على قلب موسى ﷺ لا في الألواح ما ألقى الألواح في حال الغضب، وما يحتاج إلى صحبة الخضر ﷺ لتعلم العلم اللدني. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] أي: عدواتهم لله وملائكته لأن الله وملائكته عدو لهم يعني عداوتهم لله نتيجة عداوة الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فإن محبة المؤمنين نتيجة محبة الله تعالى لهم؛ لأن صفات الله تعالى قديمة وصفات الخلق محدثة، فلما نظر الله تعالى بنظر القهر والجلال والخذلان إلى ذات الكافرين، وقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي صار ذلك النظر بذر شجرة شقاوتهم فأثمرت الشجرة شجرة العداوة لله تعالى وملائكته، وكذا أحوال المؤمنين على الضد من هذا. ثم قال تعالى في جواب ابن صوريا حين قال: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها بقوله ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة:99]، إلى قوله: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيتين والإشارة فيهما أن معجزة كل نبي كان ظهورها على الأنبياء في الظاهر كإحياء الطيور لإبراهيم ﷺ واليد والعصا لموسى ﷺ وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى ﷺ فهم والخلق في مشاهدتها سواء، وكانت معجزة النبي ﷺ إنزال الآيات البينات على قلبه فكان ظهورها في نفسه ﷺ أولاً، ثم تظهر على الخلق ثانيًا بعد أن صارت خلقه، كما روى أبو هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ

بالعهد والكتاب والنبي أو أمره.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ

أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حديث متفق على صحته. فالآيات البينات هي أنواع معجزات القرآن منها: جزلة لفظه، وفصاحة عبارته، وبلاغة نظمه الذي عجز عنها فصحاء العالم وبلغاؤه من حين نزوله إلى الآن، ومنها: أن الله تعالى جمع بلفظ معاني وحكم كثيرة في الألفاظ يسيرة، ومنها: إيجاز الكلام في إشباع من المعنى فالكلمة القليلة الحروف منه تضمن كثيرًا من المعاني والحقائق وأنواعًا من الأحكام بحيث لا يتصور مثله من غير الله تعالى، ومنها: إدراج ما اشتملت عليه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - فيه من الأحكام والمواعظ والحكم مع ما تضمنه ما لم يشتمل عليه الكتب المنزلة سواه كما أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «أوتيت جوامع الكلم» ومنها: أن الله تعالى أنزل فيه ما أكمل به الدين وأتم به نعمته على عباده من أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة بحيث لم يترك دقيقة يحتاج إليها الكاملون الواصلون البالغون في أثناء سلوكهم وسيرهم إلى الله تعالى إلا أودعها فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59]، هذا مما يعجز عنه جميع الخلائق، ومنها: الإخبار عن شهود الأشياء الكامنة في الغيب إلى يوم القيامة فظهر كثير منها في عهد النبي ﷺ وبعده إلى الآن كما أخبر عنه القرآن وغير ذلك من الآيات الواضحات. ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99]، الخارجون عن نور الروحانية إلى الظلمات البشرية الحيوانية وشدت عن إدراك بصائرهم، وسبق الشقاوة من الله تعالى قسمتهم؛ فكما لا عقل لمن يجحد أن النهار نهار، فكذلك لا إدراك لمن لم يساعده من الحق أنوار واستبصار لا جرم كلما عاهدوا عهدًا كان يشوشهم سابق التقدير لهم وينقص عليهم حق التدبير فيهم والله غالب على أمره، ولما جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر والإلهامات، فكذبوا رسولهم الذي آتاهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان، ويا حرما قارنه خذلان، حيث كذبوا رسله ورفضوا بارة كتابه واتبعوا السحر.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: 101-106].

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة عتوهم أنهم ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ مرسل ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ المرسل للرسل لهداية الناس إلى التوحيد مع أنه ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب المنزلة على الرسل، الهادي لارتفاع التعدد والاختلاف عن أهل التوحيد مع أن مجيء هذا الرسول منزل مثبت في كتابهم الذي يدعون الإيمان به ﴿نَبَذَ﴾ طرح ﴿فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ وهو اليهود ﴿كِتَابَ اللهِ﴾ هو التوراة التي ادعوا الإيمان بها ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يلتفتوا إليه ولم يتوجهوا نحوه بل صاروا من غاية عداوتهم وعنادهم مع الرسول المبعوث ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:101] ولا يقرأون كتابهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما نبذوا التوراة وراء ظهورهم؛ لاشتمالها على أوصافك وظهورك يا أكمل الرسل أخذوا في معارضتك بالسحر ﴿اتَّبَعُوا مَا تَتْلُو﴾ تنسب وتفتري ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ المردة من الجن ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ بأن استيلاءه وتسلطه وتسخير الجن والإنس والوحوش والطيور والريح، إنما تم بالسحر ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَفَرَ﴾ وسحر ﴿سُلَيْمَانُ﴾ قط بل أمره على الوحي والإلهام والوارد الغيبي ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ يسترقون من الملائكة وينسبون الأمور إلى الوسائط أصالة، بواسطة ذلك ﴿كَفَرُوا﴾ وبعدما كفروا ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ أي: الذي يسترقون منهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ما يسترقون من ﴿مَا أُنزِلَ عَلَى المَلَكَيْنِ﴾ المحبوسين ﴿بِبَابِلَ﴾ المسميان: ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ مع أن المنزل إليهما مكر الله مع عباده وابتلاهم وفتنهم ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ﴾ له طريقة وكيفية، بل يقول لمن ظهر له بالسحر: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ من الله وابتلاء لعباده ﴿فَلاَ تَكْفُرْ﴾ بنسبة الأمور إلينا، ولا تكفر بصدد التعليم أيضًا

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ المسترقون ﴿مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مما يورث قطع المحبة والعلاقة المستلزمتين لحفظ النسب إضرارًا للدين والإيمان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ ومشيئته وتقديره؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

وهم مع إذعانهم العلم والعقل ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ ضرارًا فاحشًا في النشأة الأولى والأخرى ﴿وَلاَ يَنفَعُهُمْ﴾ نفعًا فيهما أصلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: استبدله؛ أي: كتاب الله بالسحر ﴿مَا لَهُ﴾ للمستبدل ﴿فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ نصيب لامتنعوا عن الاستبدال، لكنهم لم يعلموا فاستبدلوا، فثبت أنهم ليسوا من العقلاء العالمين، وبعدما عيرهم سبحانه بما عيرهم وجهلهم، كرر تعييرهم مبالغة وتذكيرًا للمتذكرين بها، فقال مقسمًا: ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ مَا شَرَوْا﴾ وأباحوا ﴿بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ حقائقها ومعارفها ولذاتها الروحانية بالسحر المبني على الكفر بالله وكتبه ورسله وملائكته؛ لأن المشهور من أصحاب السحر أن سحرهم لا يؤثر بالكفر والخباثة والكثافة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102] يفهمون قباحته لما ارتكبوا، لكنهم لم يعلموا فارتكبوا، فثبت أيضًا جهلهم وسخافتهم.

ومن غاية جهلهم أيضًا أنهم يدعون الإيمان بالله وبالرسول والكتب ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ يومًا بالله وكتبه ورسله بلا تفريق بين الكتب والرسل ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عن القبائح الأخروية جميعًا بلا رخصة ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ فائدة جليلة عائدة إليهم ﴿مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ عندهم ﴿خَيْرٌ﴾ من الدنيا ومزخرفاتها ولذاتها الفانية كما هو عند المؤمنين الموقنين بوحدانيته ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:103] خيريته لم يكفروا بعده، لكنهم كفروا فثبت جهلهم وغباوتهم أيضًا.

ثم لما سمع اليهود من المؤمنين قولهم: راعنا عند رجوعهم إليه ﷺ في الخطوب، قالوا: هؤلاء ليسوا مؤمنين منقادين له مطيعين لأمره؛ لدلالة قولهم: راعنا، على أنك محتاج إلينا، فلك أن تراعنا حق الرعاية ولما كان فيه من إيهام سوء الأدب وإن كان غرضهم الترقب والالتفات، أشار سبحانه إلى نهيهم عن هذا القول رعاية لمرتبة حبيبه ﷺ وتأديبًا للمؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا﴾ مع نبيكم عند الخطاب له ﴿رَاعِنَا﴾ وإن كان مقصودكم صحيحًا، لكن العبارة توهم للمعنى الباطل، بل الأولى لكم والأليق بحالكم أن تخاطبوا رسولكم إكرامًا له وتعظيمًا ﴿وَ﴾ إن

اضطررتم إلى الخطاب ﴿قُولُوا﴾ بدله ﴿انظُرْنَا﴾ بنظر المرحمة والشفقية ﴿وَاسْمَعُوا﴾ هذا القول بسمع الرضا والقبول وحافظوا عليه؛ لئلا تسيئوا الأدب معه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المغتنمين للفرصة في أمثال هذه الكلمات ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104] لهم في الدنيا والآخرة.

ثم لما عجزوا عن معارضتكم صريحًا أخذوا في التلبيس والتخمين وادعاء المحبة والمودة على وجه النفاق؛ ليحفظوا دماءهم وأموالهم عنكم، ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادهم ولا تسمعوا منهم أقوالهم الكاذبة.

﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم وزيادة إنعامكم وإفضالكم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ وحي نازلٍ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي اختاركم واصطفاكم على جميع الأمم بغضًا وحسدًا مركوزًا في طباعهم، وبخلاً على ما أعطاكم الله من الخير ﴿وَ﴾ لم يمكنهم منع إعطائه تعالى إذ ﴿اللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾[1] الواسعة ونعمته العامة الشاملة ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده بلا علةٍ وغرضٍ ومرجحٍ ومخصصٍ، بل مع اختيارٍ وإرادةٍ بلا إيجاب وتوليد كما ظنه المعتزلة والحكماء الناقدون للبصيرة في الإلهيات والنبوات ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40] ﴿وَ﴾ لا تشكوا في سعة رحمته وفضله بحرمان البعض؛ إذ ﴿اللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105] يفضل وينعم على مقتضى مشيئته وحكمته ومصلحته المخفية عن عقول العباد إلا من أطلعه الله على سرائر أفعاله من الكمل.

جعلنا الله من محبيهم ومتبعيهم بمنه ولطفه.

ثم اعلم أن الحوادث الكائنة في الآفاق كلية كانت أو جزئية، غيبًا أو شهادةً، وهمًا أو خيالاً إنما هي بمقتضيات الأوصاف والأسماء الإلهية الكلية المشتملة كل منها على أوصاف جزئيةٍ غير متناهيةٍ بلا تكررٍ فما من حادثة حدثت في العالم إلا بوصف

(1) يقال: خصه بالشيء واختصه به إذا أفرده به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء أفراده بها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تتعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء انه واجب في الحكمة يعنون به انه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

خاص الذي يخصه ويرتبه لا يوجد في غيره؛ لذلك قيل: «لا يتجلى في صورة مرتين؛ لئلا يلزم التكرار المنافي للقدرة الكاملة، ولا في صورة واحدة لاثنين؛ لئلا يلزم العجز عن إتيان الصورة الأخرى».

وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ﴾ نغير ونبدل ﴿مِنْ آيَةٍ﴾ نازلةٍ حاكمةٍ في وقتٍ وزمانٍ يقتضيه نزولها في اسم مخصوصٍ ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ من القلوب، كأنه لم ينزل من قبل ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ أي: متى ننسخها أو ننسها، نأت بخير منها بحسب اقتضاء الزمان الثاني والاسم الخاص له؛ إذ سريان الوجود دائمًا على الترقي في الكمال ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ إذ التجدد ظاهرًا إنما يكون بالمثل والمعاد مثل المبدأ، ثم استفهم لحبيبه؛ تذكيرًا وعظة للمؤمنين فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتجلي بالتجليات غير المتناهية ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإجراء والإعادة والإنزال والتغيير ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106][1] لا تنتهي قدرته عند المراد بل له التصرف فيه ما شاء بالاختيار والإرادة.

---

(1) قال نجم الدين: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة:101]، الآيات الثلاث والإشارة في تحقيقها أن الروح الإنساني في أصل الفطرة كان مناسبًا للأرواح المكية في استماع خطاب الحق واستماع مكالمته قبل هبوط إلى العالم الجسماني، كما أخبر عنه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا ﴿بَلَى﴾ وأخذ منهم العهد على هذا، ثم نبذ ذلك العهد فريق منهم بعد هبوطهم إلى العالم الجسماني بتعلقات الحيواني وتبعات النفساني، ولما جاءهم رسول من إلهامات الحق موافق لما معهم من كتاب العهد والميثاق عند استماع الخطاب ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ﴾ [البقرة:101]، الذي ألهموا والذي عاهدوا عليه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:101]، بترك العمل به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:101]، في أصل الفطرة ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:102]، النفوس ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:102]، الروح الذي هو خليفة الله في أرضه أي: ما حدثت به أنفسهم استهوتهم الشياطين وغرتهم به أنه من سليمان الروح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:102]، الروح ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ [البقرة:102]، النفس والهوى. ﴿كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:102]، من تخيلات الهواجس وتمويهات الوساوس التي تملي النفس ببيان وهو بمثابة السحر لقوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا» ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ [البقرة:102]، فتنة وخذلانًا من العلوم ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:102]، أي: الروح والقلب فإنهما من العالم العلوي الروحاني اهبطا إلى أرض العالم الجسماني بالخلافة؛ لإقامة الحق وإزهاق الباطل فافتتنا بزهرة الدنيا واتباعا خداعها؛ فوقعا في شبكة الشهوات التي ركبت فيها ابتلاء وامتحانًا، وشربا خمر الحرص والغفلة التي تخامر العقل وزينا بيغي الدنيا الدنيوية، وعبدا صنم الهوى وعلقا منكسين رءوسها -

بالالتفات إلى السفليات، وإعراضهما عن العلويات ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]، وفي كتبها عن استقامتها وحرما عن سماع خطاب الحق، وكشف حقائق العلوم النافعة الموجبة للجمعية ابتليا بإنزال أباطيل العلوم الضارة المؤدية إلى التفرقة مثل شبهات زنادقة الفلاسفة من قدم العالم وسلب الاختيار عن الله ونفي العلم بالجزئيات عنه وأمثال هذه الكفريات التي زلت بهما أقدام خلق كثير عظيم في الجاهلية والإسلام، وكذلك شبهات أهل الأهواء والبدع التي يكفر بها بعضهم بعضًا ويقتلون عليها فإنها علوم يجب الاستعاذة منها لقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع»ومع هذا من خصوصيته الروحية الملكية ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ [البقرة:102]، من الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية والقوى البشرية التي يلهماها ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:102]، مرء القلب وزوج دينه، وفي هذه القصة إشارة أخرى إلى أن من مال في هذا الطريق إلى تمويه وتلبيس وإظهار دعوى تلبيس، فهو يستهزئ بمن اتبعه ويلقيه في جهنم بباطله ويصده بتمويه ظلماته عن طريق رشده، ومن اعتبر عبر بالسلامة فتارة ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتك إشارة ظهر لذوي البصائر أغواره ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأن الضار هو الله تعالى ولكن الجرم أنهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة:102] أي: باعوا بالحظوظ النفسانية الحقوق الروحانية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102]، غاية ما خسروا من دولة الإيمان وسعادة العرفان ونهاية ما يصيرون إليه من العقاب والحرمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:103]، بما أعد الله لخواص عباده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما يستمدون به إلى استجلاب الحظوظ وترك الحقوق، وأثروا الإقبال على الله على ما شغلهم عن الله لا يثبتوا على مالهم فيه خير وخير الدارين، ووصلوا إلى غير الكونين ولكنهم كتبهم وصرفهم سطوات القهر فأثبتهم في مواطن العجز. ثم أخبر عن خيانة عقائد اليهود ومكائدهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104]، الآيتين والإشارة فيهما إلى أن أثر العناية في حق الأولياء يظهر في كل شيء من أخلاق قلوبهم وأوصاف نفوسهم وأعمال أبدانهم وأقوال لسانهم، ففي عهد النبوة وأيام دولة الرسالة كان في قولهم: راعنا للنبي ﷺ شائبة ترك أدب نهوا عنه وفي قولهم: انظر فارًا عن أدب أمروا به، وأما بعد عهد النبوة وانقطاع الوحي فأكرموا بخواطر الزماني وإلهامات الرباني ودلوا بها على الفجور والتقوى بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:8]، وعلى الضدين هذا في حق الأعداء ظهور أثر الخذلان عليهم فإن قصورهم في جميع أحوالهم من أعمالهم وأقوالهم قصور خشية وعلى مناهجهم بينوا فيما يأتون ويذرون، ومن نتائج خذلانهم يحسدون أولياء الله على ما آتاهم الله من فضله وما يردون أن ينزل عليهم من خير من ربهم ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة:107-109].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء، كما يشاء، متى يشاء بلا فتورٍ ولا فطور، هذا في الآفاق ﴿وَ﴾ ارجعوا إلى أنفسكم، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم﴾ في ذواتكم وهوياتكم ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المحيط بكم وبجميع أوصافكم ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يولي أموركم ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة:107] يعين عليكم من دونه بل هو محيط هوياتكم وماهياتكم كما أخبر به سبحانه في قوله: «كنت سمعه... وبصره... ويده... ورجله...»[1].

أتسلمون وتفوضون أموركم إلى الله ورسوله أيها المؤمنون المسلمون، وتقبلون دين الإسلام تعبدًا وانقيادًا ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ وتقصدون ﴿أَن تَسْأَلُوا﴾ وتقترحوا عن سرائر الآيات النازلة عليكم لإصلاحكم حالكم عنادًا ومكابرة ﴿رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾ عن الآيات النازلة لإصلاح بني إسرائيل مما نزل من آيةٍ إلا ويسألوه على وجه الإلحاح والاقتراح، فيجازيهم الله على مقتضى اقتراحهم، وإن اقترحتم كما اقترحوا يجازيكم الله كما جازاهم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ﴾ الموهوم المذموم ﴿بِالإِيمَانِ﴾ المحقق المجزوم ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108] طريق الحق

الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ [البقرة:105]، بأصناف ألطافه ﴿مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105]، لا ينقص مثقال ذرة من بحر أفضاله بأن يفيض على العالمين سجال نواله.

(1) أخرجه البخاري (2384/5، رقم 6137)، وابن حبان (58/2، رقم 347)، والبيهقي (219/10 ، رقم 20769)، وأبو نعيم في الحلية (4/1).

المستقيم الموصل إلى التوحيد كما ضل بنو إسرائيل بمخالفة كتاب الله وتكذيب رسله.

ثم اعلموا أيها المؤمنون أنه ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ خصوصًا اليهود والنصارى ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ بأنواع الحيل والنفاق ﴿مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿كُفَّاراً﴾ مردين واجب القتل والمقت عند الله، وليس ودادتهم كفركم لغاية تصلبهم في دينهم ونهاية غيرتهم عليه بل ﴿حَسَداً﴾ لكم ناشئًا ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ من غاية عداوتهم معكم ﴿مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُمُ﴾ أن دينكم ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بشهادة كتابهم ونبيهم، وإذا فهمتم أمرهم وعرفتم عداوتهم ﴿فَاعْفُوا﴾ عن الانتقام والعقوبة ﴿وَاصْفَحُوا﴾ أعرضوا عن التعبير في التقريع واصبروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ المبرم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم دائمًا ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:109] من أنواع الانتقامات قدير على الوجه الأصعب الأشد.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110) وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (111) بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)﴾ [البقرة:110-113].

﴿وَ﴾ بعدما فوضتم أموركم إلى الله، واتخذتموه وكيلاً حفيظًا لكم عن أدائكم ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ رابطوا ظواهركم وبواطنكم إليه سبحانه دائمًا على وجه التذلل والخضوع والانكسار والخشوع ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ طهروا قلوبكم عن الميل إلى ما سوى الحق ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُقَدِّمُوا﴾ في هذه النشأة ﴿لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من التوجه الدائم والإعراض الدائم عن محبة الغير ﴿تَجِدُوهُ عِندَ﴾ ظهور توحيد ﴿اللّهِ﴾ وتجريده وتفريده على قلوبكم ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المحيط بذواتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:110] عليم خبير.

﴿وَ﴾ من جملة حيلتهم معكم ووداداتهم كفركم أنهم ﴿قَالُوا﴾ لكم على وجه العظة والتذكير ﴿لَن يَدْخُلَ الجَنَّةَ﴾ من أهل الأديان ﴿إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ﴾ المهملات ما هي إلا ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ التي يخمرونها في نفوسهم بلا كتاب ولا دليل، وإن ادعوا الدليل ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا: ﴿هَاتُوا﴾- أيها المدعون ﴿بُرْهَانَكُمْ﴾[1] من آيات الله وسنن رسله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111] في دعوى الاختصاص.

قل لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والإخلاص لا وجه لدعوى اختصاص الجنة لا منكم ولا منا: ﴿بَلَى﴾ أي: بل مبنى الأمر على أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ وسلم وجهه المنسوب إليه مجازًا ﴿لِلّهِ﴾ المنسوب إليه حقيقة ﴿وَهُوَ﴾ في نفسه ﴿مُحْسِنٌ﴾ عارف مشاهد ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ مرجعه ومقصده ﴿عِندَ﴾ مرتبة ﴿رَبِّهِ﴾ المخصوص له ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:112] لغنائهم عن قابلية الخوف والحزن ومقتضيات الطبيعة وبقائهم بمرتبة ربهم.

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم للإيمان والإذعان وعدم تنبههم على طريق التوحيد

---

(1) قال نجم الدين: ثم أخبر تعالى عن دعاني وباطلة لليهود بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:111]، الآيتين الإشارة فيهما أن كل ممكور مغرور يظن النجاة نفسه، ونيل الدرجات سهمه، وهو مُصر على حسابه أن ليس أحد في نصابه ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:111]، الكاذبة وشهواتهم الغالبة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة:111]، من الأعمال الظاهرة والأحوال الباطلة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111]، في دعواكم بإتيان البرهان من إظهار معناكم، فإن مجرد الحسان دون تحقيق البرهان لا يأتي بحاصل ولا يجود بطائل، ثم بين برهان أهل الحق ودعوى الصدق بقوله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: أهل الحق من يكون توجهه بالكلية إلى الله خالصًا لله لا لطمع الجنة ولا لخوف النار لقوله تعالى: ولكل وجهته الهولية ما ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، في توجهه بمزاولة الحسنات القالية والقلبية ويكون نظره في جميع الحالات يرى في تعبده التوفيق من الله تعالى وذهابه إليه وفي الهداية إليه والهدايات منه، فإن «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه». وقال الخليل ﷺ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة:112]، فله الوصول إلى مقام عندية الرب ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْ﴾ [البقرة:112]، على مخلصي الحق في توجههم إلى الله تعالى من قطاع الطريق كقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40]، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:112]، على ما فاتهم في طلب عند وجدان الحق.

والعرفان ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ﴾: الدين ديننا والكتاب كتابنا والنبي نبينا ﴿لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾ في أمر الدين، بل هم ضالون عن طريق الحق، لا يهتدون النبي أصلاً إلا أن يؤمنوا بديننا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿قَالَتِ النَّصَارَى﴾: ديننا حق وشريعتنا مؤيدة ونبينا مخلد ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ في الدين والإيمان، بل الدين ديننا ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿هُمْ﴾ أي: كلا الفريقين ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ المنزل على نبيهم، ويدعون الإيمان والإذعان، ومع ذلك لم يخلصوا من الجهل والعناد، ولم يتنبهوا على التوحيد المزيح للاختلاف، المشعر للوفاق والاتحاد، بل فرق بينهم وبين المشركين النافيين للصانع؛ إذ ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الكتاب والنبي والدين والإيمان ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بأن الحق ما نحن عليه بلا كتابٍ ولا نبيٍ؛ لأن الإنسان مجبول على ترجيح ما هو عليه سواء كان حقًا أو باطلاً، صلاحًا أو فسادًا، والأنبياء إنما يرسلون ويبعثون؛ ليميزوا لهم الحق عن الباطل والصالح عن الفاسد، وهم مع بعثة الرسل إليهم سواء كان مع المشركين الذين لا كتاب لهم ولا نبي ﴿فَاللّهُ﴾ المحيط بسرائرهم وضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ على مقتضى علمه بأعمالهم وأحوالهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113] على مقتضى آرائهم وأهوائهم فيجازيهم بمقتضى ما يعملون ويعلمون.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:114-117].

﴿وَمَنْ﴾ على الله المظهر للعباد ليعرفوه، ويتوجهوا نحوه في الأمكنة المعدة للتوجه ﴿أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ﴾ الموضوعة ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ أي: يذكر فيها أسماؤه، والمؤمنون الموقنون بأسمائه الحسنى ﴿وَ﴾ مع المنع ﴿سَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ ليستأصلها ويخرجها عما يعدله ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المشركون ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا﴾ لنجاستهم وخباثتهم، وإن دخلوها لحاجة أحيانًا لا بد لهم أن يدخلوها ﴿إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ خاضعين متذللين مستوحشين، بحيث لم يتوجهوا يمنةً ويسرةً استحياء من الله، بل

منكوسين رءوسهم على الأرض إلى أن يخرجوا، قل يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ قتل وإجلاء وسبي وذلة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] [البقرة:

(1) ورد في «التأويلات»: أخبر تعالى عن الظلم المركوز في طبيعة الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:114]، الآيتين والإشارة فيهما أن عند أهل النظر مساجد الله التي يذكر فيها اسمه النفس والقلب والروح والسر والخفي وهو سر السر وذكر مسجد منها مناسب لذلك. فذكر مسجد النفس: الطاعات والعبادات ومنع الذكر فيه بترك الحسنات، وملازمة السيئات. وذكر مسجد القلب: التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه التمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات، كما أوحى الله تعالى لداود ﷺ: «حذّر وأنذر قومك من أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة» وذكر مسجد الروح: والشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمساكنات. وذكر مسجد السر: المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه الركون إلى الكرامات والقربات. وذكر مسجد الخفي: بذل الوجود وترك الوجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:114]، اسم الله بهذه الأذكار ومن أقدم على هذا المنع فقد ﴿سَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:114]، أي: خرب هذه المساجد ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد بقدم السلوك إلا بخطوات الخوف من سوء الحساب وألم العقاب ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [البقرة:114]، من ذل الحجاب ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:114]، لحرمانهم عن جوار الله العلي العظيم. ثم أخبر عن فتحه ملكه وسعة فضله بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:115]، والإشارة فيها أن الله تعالى منزه عن الجهات، فالشرق والغرب بالنسبة إلى حضرته متساويان إذ ليس الاعتبار بتوجه الصورة إلى جهة من الجهات، وأن تعين جهة الكعبة لجمع همم القلب وبقوة التوهم فللوهم في جمعية القلب حالة التوجه أثر عظيم، وإنما الاعتبار لتوجه القلب بجمع الهمم إلى الله تعالى فلكل قلب جهته هو موليها فإذا خص توجه القلب إلى الله بالإعراض عما سواه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ [البقرة:115]، فضله ورحمته كل شيء لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت:54]، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، أحاط بكل شيء علمه، وفيه إشارة أخرى إلى أن القلوب مشارق سموم الأشواق ومغاربها والله في مشرق كل قلب ومغربه شارق وطارق، فطارق القلب من هواجس النفس يطرق لظلمات المنى عند غلبات الهوى وغروب نجم الهدى وشارق القلب من واردات الروح يشرق بأنوار الفتوح عند غلبات الشوق وطلوع قمر الشهود، فتكون القبلة واضحة والدلالات لائحة فإذا تجلت شمس صفات الجلال خفيت نجوم صفات الجمال، وإذا استولى سلطان الحقيقة على ممالك الخليقة طويت بأيدي سطوات الجود سرادقات الوجود، فما بقيت الأرض ولا السماء ولا الظلمات ولا الضياء، وليس عند الله صباح ولا مساء وتلاشت العبدية في كعبة العندية ونودوا بفناء الفناء من عالم البقاء ورفعت القبلة وما بقي الإله: ﴿فَأَيْنَمَا

114] حرمان عن الكمال الإنساني بكفرهم وظلمهم.

﴿وَ﴾ قل للمؤمنين يا أكمل الرسل تسلية لهم: لا تغتموا عن منعهم منا وسعيهم في تخريبها، ولا تحصروا توجهكم إلى الله في الأمكنة المخصوصة، بل ﴿لِلَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فهما كنايتان عن طرفي العالم ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ توجهوا نحوه ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ أي: ذاته؛ إذ هو منتهى الجهات محيط بها ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ أجل من أن تحيط به القلوب إلا من وسعه الله بلطفه كما أخبر سبحانه بقوله: «لا يسعني **أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن**»[1] ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115] لا يغيب عن علمه شيء، وحيث اتجهتم نحوه علمه قبل توجهكم، بل توجهكم عين توجهه فلا يتوجه إليه إلا هو، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

ومن غاية جهلهم بالله الواسع العليم الذي لا يسعه الأرض والسماء ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255] حصروه سبحانه في شخص وتخيلوه جسمًا، وأثبتوا له لوازم الأجسام ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ كعيسى وعزير عليهما السلام ﴿سُبْحَانَهُ﴾[2] وتعالى، عز الصمد الذي شأنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ

تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، يوسع القلب لمن يشاء من عباده ليسعه ﴿عَلِيمٌ﴾ يوسع القلب لسعته بلا كيف ولا حيف كما قال تعالى: «لا يسعني قلب عبدي المؤمن».

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (494/3).

(2) قال نجم الدين كبرى: أخبر عن قصر نظر أهل الشرك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:116]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أظهر مما قالوا غاية ظلومية الإنسان وجهوليته كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:5]، وأظهر كمال حلمه إذ لم ينتقم في الحال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:61]، وفي قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبعة معان: أولها: التنزيه نزه ذاته من تهمة الولد كما نزه عن عائشة رضي الله عنها عن تهمة الإفك بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:16]. وثانيها: التعجب تعجب به العباد كيف يتخذ الله الولد وله ما في السموات عبيد وملكه، وكيف يقول مثل هذا القول مخلوق في حق خالقه، وكيف يحلم عنهم ويمهلهم في مكانهم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:191]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1]. والثالث: التسخير أي: يسخر له ما في السماوات والأرض

يكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4،3] أن يتخذ صاحبة وولدًا ﴿بَل لَّهُ﴾ مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَ﴾ مظاهر ﴿الأَرْضِ﴾ ليظهر عليها ويتجلى لها؛ إظهارًا لكمالاتها المترتبة على صفاته المندرجة في ذاته ونسبته تعالى إلى جميع المظاهر في التكوين والخلق على السوى من غير تفاوت، وعيسى وعزير - عليهما السلام - أيضًا من جملة المظاهر، ومرجع جميع المظان إلى الظاهر؛ إذ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116] خاضعون منقادون مقرون على ما هم عليه قبل ظهورهم من العدم مقرون بأنه:

﴿بَدِيعُ﴾ مبدع ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من العدم بلا سبق مادةٍ وزمانٍ ﴿وَ﴾ من بدائع إبداعه أنه ﴿إِذَا قَضَى﴾ أراد أن يوجد ﴿أَمْراً﴾ مما في خزائن علمه ولوحه المحفوظ وكتابه المبين ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ إمضاءً لحكمه ونفاذًا لإرادته ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117] بلا تراخٍ ولا مهلةٍ، بحيث لا يسع التعقيب أيضا إلا لضيق التعبير، والألفاظ بمعزل عن أداء سرعة نفوذ القضاء.

وسخر لعبيده، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف:13]. ورابعها: الخلق أي: من خلق السماوات والأرض وما فيهن كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:36]. وخامسها: القدرة، كقوله تعالى: من بيده ملكوت السماوات والأرض، وما فيهن الإبقاء والإفناء ما ينبغي له أن يتخذ ولدًا كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]. وسادسها: التوبة أي: سبح لله ذرات الملكوتيات توبة واستغفار بلسان الحال، عما قال بعضها بلسان القال اتخذوا الله ولدًا بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد:1] أي: هو أعز من أن يتخذ ولدًا حيكم بأن لا يفعل مثل هذا، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]. وسابعها: الدعاء أي: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]، ودعاء وتضرعًا وابتهالاً وتخشعًا واعتذارًا وتواضعًا وانكسارًا واعترافًا بظلم من قال هذا القول على أنفسهم؛ ولولا تضرعهم ودعائهم تكاد السموات تتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا إن دعوا للرحمن ولدًا، كما قال تعالى في حق يونس ﷺ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:143-144] أي: من الداعين وكان من دعائه قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87]، فكذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116] أي: كل ذرة من ذراتها وأعواز بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:118-121].

ثم لما ظهر واشتهر أن القرآن ناسخ للكتب السالفة مع كونه مصدقًا لها، ناطقًا بأنها منزلة من عند الله على الرسل الماضين الهادين إلى طريق الحق، وأن حكم الناسخ ماضٍ باقٍ، وحكم المنسوخ مضى ولم يبق أثره، مع أن كلا منهما حكم الله في زمانين ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون ظهور الله وتجلياته بحسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا في كل آنٍ وشأنٍ: لا نقبل هذا الحكم ولا نؤمن به ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللهُ﴾ مشافهة، بأن هذا ناسخ راجح وذاك منسوخ مرجوح ﴿أَوْ تَأْتِينَا﴾ على الله من يدعي الرسالة ﴿آيَةٌ﴾ ملجئة تدل على هذا الحكم بلا احتمال آخر، ولولا هذا ولا ذاك لم نقبله ولم نؤمن به، ولا تستبعد يا أكمل الرسل منهم هذا القول؛ إذ ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ﴾ كفروا للأنبياء الماضين ﴿مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بلا تفاوتٍ بل ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ المنكرة المخمرة لهذه الأباطيل، المموهة مع أنا ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ﴾ المنزلة الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ﴾ ذوي قلوبٍ صافيةٍ عن كدر الإنكار ﴿يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118] بها سواء الآيات الظاهرة على الآفاق والأنفس، وهم لانهماكهم في كدر الإمكان والإنكار لا يرجى منهم الإيمان والإقرار.

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ يا أكمل الرسل ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ بَشِيرًا﴾ إلى طريقه ﴿وَنَذِيرًا﴾ عن طريق الباطل ﴿وَ﴾ إن لم يبشروا ولم ينذروا بعدما بلغت إليهم التبشير والإنذار ﴿لاَ تُسْأَلُ﴾ أنت ﴿عَنْ﴾ إعراض ﴿أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:119] المجبولين على الكفر والعناد.

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى﴾ بمجرد المؤانسة وإظهار المحبة وإرخاء العنان ﴿حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ التي ادعوا حقيتها وهدايتها، بل حصروا الهداية عليها ﴿قُلْ﴾

لهم يا أكمل الرسل كلامًا على وجه التذكير وإمحاض النصح: ﴿إِنَّ هُدَى اللهِ﴾ الذي يهدي به عباده ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ النازل من عنده، وهو دين الإسلام، فاتبعوه لتهتدوا ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ يا أكمل الرسل، ومن تبعك بعد يأسكم في اتباعهم بك ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ من لدنا على هدايتك وإهداء من تبعك ﴿مَا لَكَ مِنَ﴾ عند ﴿اللهِ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يحفظك من الضلال ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [البقرة:120] يدفع عنك المكاره.

قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ واصطفيناهم من بين الأمم بإرسال الرسل، وهم ﴿يَتْلُونَهُ﴾ أي: الكتاب، متأملاً متدبرًا مما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والمعارف والحقائق، مراعيًا ﴿حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾ بلا تحريف ولا تبديل ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وبما فيه من الأحكام والآيات والأخبار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ﴾ بتحريفه أو تبديله إلى ما تهوى أنفسهم ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المحرفون المغيرون كتاب الله لمصلحة نفوسهم ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:121] الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة بسبب تحريف كتاب الله وتبديله.

﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ۞ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ [البقرة:122-120].

ثم لما خاطب سبحانه بني إسرائيل أولاً بإيفاء العهد الذي هو شعار الإيمان، وما يتعلق بإيفاء العهد من الرجوع إليه، والإيمان بكتبه ورسله وعدم المبادرة إلى الكفر، وعدم استبدال آيات الله الدالة على ذاته علمًا وعينًا وحقًا بالمزخرفات الفانية التي لا مداد لها أصلاً، وعدم لبس الحق الظاهر المكشوف المحقق بالباطل الموهوم المعدوم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة المنبئين من التوجه الفطري، والرجوع الحقيقي الأصلي، الركوع والخشوع على وجه التذلل والانكسار، إلى أن يصل إلى الفناء في ذاته بل إلى

فناء الفناء لينعكس البقاء.

ثم عبر سبحانه تعبيرًا فوق تعبيرٍ على الناسين نفوسهم في الغفلة بلا توجهٍ ورجوعٍ، ثم أمر خلص عباده باستعانة الصبر المورث للتمكين، والصلاة المشعر بالتوجه التام المسقط لجميع الآثام، هذا لتصفية ذواتهم.

ثم خاطبهم سبحانه ثانيًا وأوصاهم بشكر نعم تفضيلهم وتكريمهم على بني نوعهم بأنواع الكرامات الدينية والدنيوية.

ثم حذرهم وخوفهم عن يوم الجزاء على وجه المبالغة والتأكيد؛ لتصفية أوصافهم في معاشهم في النشأة الأولى.

ثم لما ذكر سبحانه كفرانهم وطغيانهم وعدم انقيادهم بالكتب والرسل، وتكذيبهم وقتلهم وخبث طينتهم ودناءة طبعهم، وقساوة قلبهم وشدة عداوتهم مع المؤمنين، وقبح صنيعهم مع الأنبياء الماضين كرر خطابه سبحانه إليهم ثالثًا بما سبق ثانيًا؛ مبالغةً وتأكيدًا وتلطفًا وإمهالاً لهم؛ كي يتنبهوا، ومع ذلك لم يتنبهوا لخبث طينتهم، فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ المعرضين عني بأنواع الإعراضات، والمعترضين لآياتي بأصناف الاعتراضات مضى ما مضى ﴿اذْكُرُوا﴾ واشكروا ﴿نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بفضلي وإحساني مع عدم شكركم وكفرانكم ﴿وَ﴾ خصوصًا اذكروا من النعم نعمة الجاه والتفضيل على جميع البرايا؛ إذ ﴿أَنِّي﴾ بحولي وطولي ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:122] من بني نوعكم، وامتثلوا أمري ولا تتجاوزوا عن حكمي، واحذروا عن قهري وانتقامي.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ وصفه أنه ﴿لاَ تَجْزِي﴾ لا تحمل ﴿نَفْسٌ﴾ مطيعة ﴿عَن نَّفْسٍ﴾ عاصية ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً من أوزارها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية حتى تتخلص بها ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ من شفيعٍ حميمٍ حتى يخفف عذابها لأجلها ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:123] بغيرهم في تحمل العذاب، بل ما يحمل رزاياهم إلا مطاياهم، ومع هذه المبالغة والتأكيد قليلاً منهم يؤمنون بخلاف الملة الحنيفية البيضاء الجليلة، فإنهم بأجمعهم يرجى منهم الإيمان بوحدانية الله إن أقاموا الصلاة إليه مخلصين إلا المصلين الذين هم في صلاتهم ساهون بما يلهيهم من محبة المال والجاه عصمنا الله من ذلك.

ثم لما ذكر سبحانه قصة بني إسرائيل وإنعامه عليهم بأنواع النعم، وكفرانهم

لنعمه من خبث طينتهم، أراد أن يذكر طيب طينة الملة الجليلة وصفاء عقائدهم واصطبارهم، وتحملهم على الاختبارات والابتلاءات الإلهية، فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى﴾ أي: واذكر يا أكمل الرسل وقت ابتلاء أبيك ﴿إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾[1] الذي ابتلاه واختبر خليله بأنواع البلاء من النار والمنجنيق وذبح الولد وإجلاء من الوطن وغير ذلك من البليات النازلة عليه ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ صادرة من ربه حين أراد اختباره ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ على الوجه الذي

---

(1) قال في «التأويلات»: أخبر تعالى عن أهل التقوى وتارك الهوى بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]، والإشارة فيها أن الولاء مظنة البلاء، فإن إبريز الولاء لا يبرز من معدن الإنسان الذي هو محل الابتلاء إلا بالتهاب نار الهوى، كما قيل البلاء للولاء كاللهب للذهب، فأصدقهم ولاء أشدهم بلاء، فلما ابتلي الخليل عليه السلام بكلمات هي أحكام النبوة ولوازم الرسالة وموجبات الخلة فوفى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]. أما أحكام النبوة: فما ابتلاه الله تعالى بالخصال العشرة في جسده كما ذكره في تفسير الآية، وأما لوازم الرسالة فمنها الصبر عند صدمات المكروهات وفقدان المألوفات، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، فصبر على كل مكروه وحادثة في ماله وولده ونفسه، وعن كل مألوف فقده في المال بالبذل وفي الولد بالذبح وفي النفس بالفداء. وأما موجبات الخلة: فمنها التبرؤ عما سوى الخليل، ورفع الوسائط فيما بينه وبين الخليل، والتسليم والرضا تحت تصرفات الخليل فيما أراده له الخليل. أما التبرؤ فقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، وأما العدواة فإنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77] وأما رفع الوسائط فقوله حين عرضه جبريل عليه السلام في الهوى وهم يعذبونه في لجة الهلاك، وما الرضا ففي ذبح الولد قد أظهر الرضا، بما أمره وما راجع الحق تعالى في ولده كما راجعه نوح عليه السلام في ولده ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:45]، فأخبره تعالى كمال رضاه بقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:103] فلما خرج عن عهده إتمام كلمات الابتلاء فزيد له في الاصطفاء والاجتباء وأكرم بكرامة الأنبياء والاقتداء بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]، وقد قيل: وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ [البقرة:124]، معنيان: أحدهما: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، تهدي الناس إلى طريق خلتي بأقوالك وأفعالك وأخلاقك على طريق هدايتك إليها بعد أن أسلموا لأحكام منا كما أسلمت وصبروا على بلائنا كما صبرت وأيقنوا بآياتنا كما أيقنت يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:24]. والثاني: جاعلك إمامًا لمن يدعي محبتي ويريد خلتي أبدًا ليقتدى بك فيما ابتليتك من موجبات الخلة ذكره بأداء حقوقها، والخروج عن عهده شرائطها كما أجرى منك والذي يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:31].

صدر بلا قصورٍ ولا فتورٍ تتميمًا لمرتبة الخلة والخلافة.

ثم لما اختبر سبحانه خلة خليله بأنواع البلاء أظهر خلته له بأنواع العطاء حيث ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿إِنِّي﴾ من غاية محبتي وخلتي معك أيها الخليل الجليل ﴿جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ الناسين التوجه والرجوع إلي ﴿إِمَاماً﴾ مقتدى لهم، هاديًا يهديهم إلى طريق التوحيد، ولما رأى إبراهيم عليه السلام انبساط ربه معه وإفضاله عليه وإظهاره الخلة له ﴿قَالَ﴾: ﴿وَ﴾ اجعل يا ربي ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضًا أئمةً إلى يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ سبحانه تلطفًا له وامتنانًا عليه: ومن ذريتك أيضًا الصالحين منهم لا الفاسقين؛ إذ ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي﴾ الذي هو نيابتي وخلافتي ﴿الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124] المتجاوزين عن حدودي وعهودي.

﴿وَ﴾ بعدما جعلناه إمامًا هاديًا إلى طريق الحق هيأنا له طريق الاهتداء ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ أي: الكعبة المعدة للتوجه إلينا بترك المألوفات وقطع التعلقات من الأهل والمال والوطن، والاجتناب عن التصرفات المانعة عن التوجه الحقيقي من الرفث والفسوق والجدال والقتل، وغير ذلك من الأمور المتعلقة للحياة المستعارة ﴿مَثَابَةً﴾ موضع ثواب ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ليتقربوا إلينا ويتوجهوا نحونا ﴿وَأَمْناً﴾ من جميع المخافات الدينية إذا كانت الزيارة على نية الإخلاص ﴿وَ﴾ بعدما جعلنا البيت مثابة للناس قلنا للزائرين لها والطائفين حولها: ﴿اتَّخِذُوا﴾ أيها الزوار ﴿مِن مَّقَامِ﴾ خليلنا ﴿إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] موضع ميل وتوجه؛ اقتداءً له صلوات الرحمن عليه ﴿وَ﴾ بعدما أمرنا الزوار

(1) قال نجم الدين: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125] يعني: إذا وصلتم إلى كعبة القلب اجعلوا مقام الخلة قبلة توجهكم فيكون قصدكم وذهابكم إلي لا إلى سواي اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم؛ وكانت ملته ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ومما يدل على المعنى الذي جرى في الآية قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، والإشارة فيها أنه لما شرف البيت بإضافة إلى نفسه لقوله بيتي أكرمه بكرامات مخصوصة عن غيره من المساجد: أولها: أنه كان أول بيت وضع للناس من بيوت الله تعالى. وثانيها: عين موضعه بمكة خير المواضع بإرسال جبريل عليه السلام وقد خلق الله تعالى موضع البيت بألفي عام. وثالثها: أمر الخليل عليه السلام ببنائه بيده. ورابعها: جعله مباركًا على زواره ومستقبليه. وخامسها: وهو سبب هداية لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96]. وسادسها: جعله حرمًا لا يصاد صيده ولا يقطع شجره. وسابعها: مأمنًا لا تجد جان يأوي إليه ويغفر ذنوب من دخل فيه قال تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:57]. وثامنها: جعلها قبلة حبيبه، وقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

بما أمرنا ﴿عَهِدْنَا﴾ وصينا ﴿إِلَىٰ﴾ خليلنا ﴿إِبْرَاهِيمَ وَ﴾ ذبيحنا ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ ابنه ﴿أَن طَهِّرَا﴾ بالمظاهرة ﴿بَيْتِيَ﴾ المعدة للطهارة الحقيقية عن جميع الشواغل ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ الذين قصدوا الميل إلى جنابنا ببذل المهج ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ القائمين المقيمين ببابنا رجاء

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144]، وقبلة أمته وحيث ما كنتم ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]. وتاسعها: جعله حجة ركنًا من أركان الإسلام وقال الله: ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97]. وعاشرها: جعله منزل الرحمة ومقسمها لقوله ﷺ: «إن الله في كل يوم وليلة مائة وعشرين رحمة تنزل على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون للناظرين» والحادي عشر: جعل طوافه عبادة وموجبًا للرحمة. والثاني عشر: جعل النظر إليه عبادة وموجبًا للرحمة. والثالث عشر: جعل جواره جوار الله. والرابع عشر: جعله محل الآيات البينات. والخامس عشر: جعل صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه من المساجد. والسادس عشر: جعله ملجأ الخلق ومعادًا يعودون إليه لا يقضون منه وطرًا كلما انصرفوا اشتاقوا إليه قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:125]. السابع عشر: جعله مغناطيس القلوب بجذبها من المسافة البعيدة فالقلوب مشتاقة إليه وإلى أهله لما قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37]. والثامن عشر: جعل له كرامة ظاهرة وآية مبينة أن الطير يقع على حيطانه ولا يطير فوقه ولا روث في حرمه مع كثرة الحمام. والتاسع عشر: جعله معظمًا مبجلاً في الجاهلية والإسلام من لدن آدم ﷺ إلى اليوم، وكانوا يعظمونه ويقصدونه ويزورونه ويقربون به أهل الأديان والملل كلها حتى الكفر والشرك. وعشرونها: جعل فيه الحجر الأسود وهو ياقوتة من يواقيت الجنة قال النبي ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه» شرفه الله بهذه الكرامة بما لا يحصى ولكن اقتصر على مخافة التطويل والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، أنا عهدنا معهما في الميثاق على تطهير القلب عن أدناس تعلقات الكونين واقتصار ملاحظة الأغيار فإنه بيتي، وإنما أضافه إلى نفسه ليكون مخصوصًا به عما سواه ولا يكون لغيره فيه مأوى ولا سكنى. ولو كان الأمر بالتطهر مقصورًا على بيت الكعبة لكفى الخطاب إلى أحدهما دون الآخر كقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: 27]، فلما كان الأمر بذلك مشتملاً على تطهير كلا البيتين خاطبهما به، وأما الطائفون فواردات الحق وإلهاماته وإشاراته ومحادثاته ولوامع أنواره وطوالع أسراره ووفور مواهبه فحملتها بلسان قوم الأحوال، وهي التي تطوف حول القلوب المطهرة من الملوثات السليمة من الآفات، وأما العاكفون فأنوار معرفته ومحبته وحقائق صفاته وأخلاقه فحملتها المقام فالأحوال تكون لأصحاب التلوين ولأرباب التمكين والمقام ولا يكون إلا لأرباب التمكين، وأما الركوع والسجود فإشارة إلى قلب الصفاء المطهرة وهي الإرادة والصدق والإخلاص والخضوع والخشوع والدعاء والتضرع والابتهال والانكسار والتواضع والخوف والرجاء والصفاء والوفاء والتسليم والرضا والخشية والهيبة والتوكل والتفويض فحملتها العبودية.

أن ينكشف لهم أسرار التكاليف التي كلفوا بها ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:125] أي: الراكعين الساجدين في فنائنا تذللاً وانكسارًا حتى يتحققوا بمقام العبودية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة:126-129].

﴿وَ﴾ بعد ﴿إِذْ﴾ أمرناه وابنه بطهارة البيت وامتثلا بالمأمور ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ منيبًا إلينا، داعيًا راجيًا في دعائه النفع العام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ﴾ بيتك ﴿هَذَا بَلَداً آمناً﴾ ذا أمن للمتوجهين إليها والعاكفين ببابها عن العلائق المانعة عن التوجه المعنوي ﴿وَ﴾ بعدما توجهوا نحوه ﴿ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ المترتبة على سرائر تعيينه وتخصيصه، ووجوب طوافه على المستطيعين المنهمكين في الشواغل المانعة عن التوجه إلى الكعبة الحقيقية الممثلة عنها هذا البلد.

ولما دعا إبراهيم بهذا الدعاء المجمل المطلق لهم، فصله سبحانه إجابة دعائه بقوله: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم﴾ من المتوجهين الزائرين ﴿بِالله﴾ الواحد الأحد تعبدًا وانقيادًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المحقق الوقوع إذعانًا وتصديقًا، فلهم ما دعوت لهم مع أنواع الإفضال والإنعام؛ جزاء لهم وإجابة لدعائك ثم ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ منهم وجحد بعدما وضح لهم الطريق ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾ متاعًا ﴿قَلِيلاً﴾ من مفاخرة الأقران والاستكبار على الإخوان وتفرج البلدان ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بعد جحوده وإنكاره ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ بل أشد منها، وهو حرمانه عن الفوائد المرتبة على الطواف والزيارة المنبئة عن الوصول إلى مرتبة العبودية المخلصة، عن جهنم الإمكان الذي هو مصير أهل الكفر والطغيان ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:126] مصيرهم الذي لا ينجو منه أحد من أهله، عصمنا الله منه بمنه وجوده.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ يَرْفَعُ﴾ يحمل جدك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ الأواه المنيب

﴿الْقَوَاعِدَ﴾ أي: التكاليف الشاقة الناشئة ﴿مِنَ﴾ إنشاء ﴿الْبَيْتِ﴾ المعد للاهتداء إلى كعبة الوصول من التجريد عن لوازم الحياة ومقتضيات الأوصاف المترتبة عليها، وترك المألوفات وقطع التعلقات العائقة عن الموت الإرادي الموصل إلى مقر الوحدة المغنية للكثرة الموهمة، المستبعة للبعد والفراق عن فضاء التوحيد ﴿وَ﴾ أبوك أيضًا ﴿إِسْمَاعِيلُ﴾ الراضي بقضاء الله، المرضي بما جرى عليه من البلاء، واذكر أيضًا دعاءهما بعدما احتملا المشاق والمتاعب بقولهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع المنح التي ليست في وسعنا وقدرتنا ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ ما أقدرتنا عليه ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ القادر لما جئتنا به ﴿السَّمِيعُ﴾ لمناجاتنا قبل إلقائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:127] لحاجاتنا وإخلاصنا في نياتنا.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا﴾ بفضلك ﴿مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ مستسلمين مفوضين جميع أمورنا إليك، مخلصين فيه ربنا ﴿وَ﴾ اجعل أيضًا ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ المتنسبين إلينا ﴿أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾ مسلمة ﴿لَكَ﴾ مطيعة لأمرك ﴿وَأَرِنَا﴾اكشف لنا ولهم ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ سرائر مناسكنا التي نعملها على مقتضى أمرك وتكليفك ﴿وَ﴾ إن أخطأنا فيما أمرتنا ﴿تُبْ عَلَيْنَا﴾ عما جرى علينا من لوازم بشريتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ للعباد العاصين الخاطئين ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:128] بقبول توبتهم، وإن نقضوها مرارًا.

ثم لما كان الغالب عليهما توحيد الصفات والأفعال، دعوا ربهما متضرعين أن يبعث من ذريتهما من يغلب عليه توحيد الذات فقالا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في الأمة المسلمة ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ هاديًا إلى توحيد الذات ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ أولاً ﴿آيَاتِكَ﴾ الدالة على ذلك ظاهرًا ﴿وَ﴾ ثانيًا: ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾ يفهمهم ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين سرائر الآيات ﴿وَ﴾ ثالثًا: يكشف ويوضح لهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ التي هي سلوك طريق التوحيد الذاتي ﴿وَ﴾ رابعًا: ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم عن رؤية الغير في الوجود مطلقًا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القاهر للأغيار ﴿الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:129] في إيجادها وإظهارها على وفق مشيئتك وإرادتك.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ

إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:130-133].

﴿وَ﴾ بعدما جعلنا الخليل إمامًا مقتدى للأنام، هاديًا لهم إلى دار السلام ﴿مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: من يعرض عن ملته الحنيفية، الطاهرة عن الميل إلى الآراء والآثام، البيضاء المنورة لقلوب أهل التفويض والإسلام، المبنية على محض الوحي والإلهام ﴿إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: لا يعرض عن ملته الغراء إلا من ترك نفسه في ظلمة الإمكان من غير رجوع إلى فضاء الوجوب، ليتبع الطريق الموصل إليه ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ واجتبيناه من بين الأنام ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ للرسالة والنبوة لإرشاد العباد إلى طريق التوحيد ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:130] للتحقق والوصول، لا لطريق الاتحاد والحلول بل لطريق التوحيد الذاتي.

واذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ اختبارًا له ﴿أَسْلِمْ﴾ توجه إلي بمقتضى علمك وكشفك مني ﴿قَالَ﴾ على مقتضى علمه بربه ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131]؛ إذ كشف له ربه عن ذرائر الكائنات لذلك لم يخصصه ولم يقيده بمظهر دون مظهر.

﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بالتوحيد الذاتي ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ إرشادًا لهم إلى طريق الحق ووصى أيضًا بنوه بنيه ﴿وَ﴾ وصى أيضًا ﴿يَعْقُوبُ﴾ بنيه بما وصى أبوه وجده، وقالوا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دين الإسلام المشتمل، على توحيد الذات والصفات والأفعال ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ﴾ فلا تكونن في حال من الأحوال عند الموت ﴿إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] [البقرة:132] موحدون بالتوحيد الذاتي.

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر تعالى عن كمال تسليمه وحسن استعداده بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131]، الإشارة فيها أن الروح الإنساني مخصوص من العالمين بالاستسلام لقبول أنوار فيض رب العالمين بلا واسطة والاستعداد والاستحقاق لخطاب ربه أسلم لنور فيضي وفيض نوري فيستسلم لقوله ويقول: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131] أي: لنور رب العالمين وبيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وليس لغير الإنسان كرامة أن يكون على نور من ربه إلا بواسطة هذا سر عظيم وشرحه يطول وأنت ملول. ثم أخبر عن وصيته لبنيه أن يدينوا بدينة لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة:132]، والإشارة فيها أن إبراهيم الروح يوصي أبناء

ثم لما اعتقد اليهود أن يعقوب وبنيه كانوا هودًا، والنصارى اعتقدوهم نصارى، أراد سبحانه أن يظهر فساد عقائدهم، فقال: أتسمعون أيها اليهود والنصارى يهودية يعقوب وبنيه ونصرانيتهم لمن أنزل عليكم ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ ولولا هذا ولولا ذاك كنتم مفترين عليهم جاهلين بحالهم، اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ﴾ حين أشرف على الموت ﴿لِبَنِيهِ﴾ إرشادًا لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ يا بني؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أحدًا صمدًا، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره من الآلهة الباطلة ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:133] منقادون متوجهون، خاليًا عن المكابرات والعناد، قالعًا عرق

ذريته من القلب وصفاته والنفس وصفاتها والقوى البشرية والحواس الخمس والأعضاء والجوارح، فإنها متولدات بعضها من بعض على الحقيقة لملته وهي الخلة عن التبرؤ عن غير الخليل في العبودية والخلة ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة شريفة وإشارة لطيفة يعني لولا فضل الله عليكم ورحمته اصطفاؤه لكم الدين فلقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، فقال لولا أورثنا واصطفينا وإلا ما للتراب ورب الأرباب. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة إلى أنكم للفناء فلا تفنوا إلا في استسلام وجوهكم لنار نور نور الله وهي نار وقودها الناس والحجارة، فإن اشتعال نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنما هي تكون بعد استسلام حطب الوجود لها فيه أنها عليهم موصدة في عمد ممددة، فمن لم يستسلم اليوم لنار الخلة والمحبة بالاختيار فلا بد غدًا يلقى في نار الغضب. ثم أخبر عن تأثير الوصية في أولاده وأولاد أولاده بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة:133]، والإشارة فيها إن الله تعالى استجاب دعاء إبراهيم في أولاده وأولاد أولاده إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:128]، وأظهر استجابته بإيصاء يعقوب وإقرار ولده وولد ولده لإبراهيم ﷺ وأولاده، ولهذا قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» فجروا كلهم صلوات الله عليهم على منهاج واحد في التوحيد والاستسلام توارثوا ذلك خلفًا على سلف فهم أهل بيت الزلفة ومستحقوا القربة، والمطهرون من قبل الله وفيه إشارة أن الله تعالى إذا تجلى لروح عبد مخلص متضرع إليه محب له يظهر آثار تجليه على قلبه وسره ونفسه وقواه وحواسه وجوارحه وجميع أعضائه فيستسلمون له بكليتهم وخضعوا له فيعبدون كلهم إلهًا واحدًا، وإن كان كل واحد منهم يعبد إلهًا آخر من قبل من الهوى والدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، وليستسلم كل واحد في العبودية لما يناسب حاله.

التقليدات الراسخة في قلوب العباد.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة:134-136].

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من العزائم الدينية، وعليها ما اكتسبت من الجرائم المتعلقة به بحسب ذلك الزمان ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من فوائد الإيمان والإسلام، وعليكم ما اكتسبتم من غوائل الكفر والطغيان بحسب زمانكم هذا؛ إذ كل منكم ومنهم لم يجز إلا بما عمل وكسب ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ﴾ وتؤاخذون أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:134] من السيئات، كما لا تثابون من حسناتهم بل كل امرئ بما كسب رهين.

﴿وَ﴾ إن ﴿قَالُوا﴾ أي: كل من الفريقين لكم ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لكي ﴿تَهْتَدُوا﴾ إلى طريق الحق ﴿قُلْ﴾ لهم لا نتبع آراءكم الفاسدة وأهواءكم الباطلة ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ مائلاً عن الآراء الباطلة مهذبًا منها ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:135] بالله باعتقاد الوجود لغير الله.

﴿قُولُوا﴾ لهم في مقابلة قولهم أيها المؤمنون المتبعون لملة إبراهيم، إرشادًا لهم وإسماعًا إياهم طريق الحق: ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ الواحد المتجلي في الآفاق بالاستحقاق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ بوسيلة رسولنا من الكتاب المبين لمصلحتنا، المتعلق بمبدئنا ومعادنا في زماننا ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ﴾ إلى المتبوعين الماضين ﴿إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ المورثين لملتنا وديننا ﴿وَ﴾ كذلك آمنا ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من الكتب والآيات الدالة على توحيد الذات وتصديق من جاء به من عند ربه ﴿وَ﴾ الحاصل أنا آمنا بجميع ﴿مَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لإهداء المضلين من عباده إلى توحيده ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإيمان والإنكار، بل نؤمن بجميعهم ونصدقهم؛ لكونهم هادين إلى توحيد الله

وإن تفاوتت طرقهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ لتوحيد الله ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136] منقادون متوجهون؛ وإن بين بطرقٍ متعددةٍ وكتبٍ مختلفةٍ بحسب الأعصار والأزمان المتوهمة من تجليات الذات بالأسماء والصفات.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة:137-141].

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ بعدما سمعوا منكم هذه الأقوال ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ بعد سماعكم طريق الإيمان من رسولكم ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق التوحيد كما اهتديتم ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن أقوالكم لهم تذكيرًا وعظة ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أي: ما هم إلا في خلافهم وشقاقهم الأصلية وعداوتهم الجبلية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ المحيط بكم وبهم، المطلع على سرائرهم وضمائرهم مؤنة خلوفهم وشقاقهم ﴿وَ﴾ لا تشكوا في كفايته؛ إذ ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة ﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137] بكفرهم ونفاقهم الكامنة في قلوبهم.

ثم قولوا لهم بعدما أظهروا الخلاف والشقاق: ما جئنا به عن التوحيد الحاصل من متابعة الملة الحنيفية ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ المحيط بنا، صبغ بها قلوبنا؛ لنهتدي إلى صفاء تجريده وزلال تفريده ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ حتى نتبعه؛ إذ لا وجود لغيره ﴿وَ﴾ إذ لم يكن للغير وجود ﴿نَحْنُ لَهُ﴾ لا لغيره ﴿عَابِدُونَ﴾ [البقرة:138] عائدون راجعون رجوع الظل إلى ذي ظل، والصور المرئية في المرآة إلى الرائي.

ثم لما طال نزاع أحبار اليهود مع المؤمنين ومجادلتهم مع الرسول ﷺ، أمر سبحانه لحبيبه بأن يتكلم بكلام ناشئ عن لب الحكمة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا دالًا على توحيد الذات، مسقطًا لجميع الإضافات ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾

وتجادلوننا ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ المظهر للكل من كتم العدم، بإشراق تجليات أوصافه فيه، ورش من نوره عليه ﴿وَ﴾ الحال أنه ليس له اختصاص ببعض دون بعض بل ﴿هُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بإظهار ذواتنا وذواتكم من العدم، ﴿وَ﴾ بعد إظهاره إيانا ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ صالحها وفاسدها ﴿وَلَكُمْ﴾ أيضًا ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ الصالحة والفاسدة، لا تسري منكم إلينا ولا منا إليكم ﴿وَنَحْنُ﴾ المتبعون لملة إبراهيم ﴿لَهُ﴾ أي: لله المظهر الظاهر بجميع الأوصاف والأسماء لا لغيره من الأظلال ﴿مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:139] متوجهون على وجه الإخلاص المنبئ عن المحبة المؤدية إلى الفناء في ذاته.

جعلنا الله من خدام أحبائه المخلصين.

أيسلم اليهود والنصارى ويذعنون بعدما أوضحنا لهم أنا على ملة إبراهيم دونهم؟ ﴿أَمْ﴾ تعاندون ﴿تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[1] تابعين لملتنا فإن كابروا وعاندوا وقالوا مثل هذا ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مستفهمًا مستوبخًا على وجه التنبيه: ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ بحالهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ النافي عنهم اليهودية والنصرانية بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران:67] مائلاً منهما، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر عندهم حقية دين نبينا ﷺ، وتحقق موافقة ملة أبيه إبراهيم بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿مَنْ

(1) ثم أخبر عن إقرارهم وكتمان شهادتهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:140]، والإشارة فيها أن للنفس والشيطان تسويلات سولت لهم أنفسهم فمنها تخيلهم أن إبراهيم الروح وأتباعه كانوا لركونهم إلى شيء من الدنيا وزينتها وشهوات النفس وهواها على ملة يهودية الشيطان ونصرانية النفس والهوى ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ [البقرة:140]، بأحوال الروح وأتباعه ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:140]، الذي خلقهم وركب فيهم خاصية تنافي جبلة النفس والشيطان وأما الروح وأتباعه فيتصرفون في الدنيا وزينتها والشهوات النفسانية ولذاتها عند بلوغهم حدود الرجال البالغين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله بقوة ربانية وبصيرة روحانية لا بشهوة حيوانية واستيفاء للذة نفسانية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:160] ويكون لهم ذلك ممدًا في العبودية ومجدًا في طريق الربوبية. كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف:32] على أن الله تعالى يتجلى ببعض صفاته على روح العبد فيظهر عكس أنوار الربوبية في مرآة القلب، فينعكس منها فيتنور بشعاعها هواء النفس ويقع على ضوء الشعاع على أرض الصدر فيقف الشيطان والنفس على كرامة الله الروح وأتباعه ويشاهدون آثار ألطاف الحق معهم.

أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً﴾ ثابتة في كتب الله التي صحت ﴿عِندَهُ﴾ أنها منزلة ﴿مِنَ اللهِ﴾ المنزل للرسل والكتب، مصدقًا بعضها بعضًا كتمانًا ناشئًا عن محض العداوة والشقاق بعد جزمهم حقيتها ومع ذلك يتوهمون كتمانها من الله أيضًا ﴿وَمَا اللهُ﴾ المحيط بمخايلهم ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140] من الكتمان والنفاق حفظًا لجاههم وجاه آبائهم.

قل لمن تبعك يا أكمل الرسل تذكيرًا لهم وتحذيرًا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ صالحة أو طالحة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿لَهَا﴾ في النشأة الأخرى جزاء ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الحسنات والسيئات في النشأة الأولى ﴿وَلَكُم﴾ فيها جزاء ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾ فيها ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ﴾ أنتم في يوم الجزاء ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:141] من الصالحات والفاسدات كما لا يسألون عن أعمالكم بل كل مجزي بصنيعته، مقتضٍ ببضاعته.

نعوذ بفضلك من عذابك يا دليل المتحيرين.

﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:142-143].

ثم لما كان الغالب على رسول الله ﷺ في أوائل حاله وسلوكه، توحيد الصفات والأفعال الموروثين له عن آبائه - صلوات الله عليهم - كان تابعًا لهم في قبلتهم التي كانوا عليها أيضًا صورة، وحين ظهر وانكشف له ﷺ توحيد الذات، وغلبت عليه تجلياتها وإشراقها استغرق ووله، بل فني واضمحل وتلاشت فيها هويته، وبعدما تنزل عن ولهه واستغراقه، خص له سبحانه قبلة مخصوصة، ووجهة معينة صورة؛ لتكون آية على قبلته الحقيقية المعنوية.

ثم لما أمره سبحانه بتوجهها واستقبالها وهو في الصلاة إلى القبلة الَّتي كان عليها قبل الأمر وتحول نحوها فيها، أخذ المنافقون في الغيبة، واشتغلوا بالنفاق، ونسبوه إلى ما هو منزه عنه، وانتهزوا واغتنموا الفرصة لمقابلته وصمموا العزم

بمجادلته، أراد سبحانه أن ينبه بما هم عليه من النفاق والشقاق في أمر القبلة على وجه الإخبار، فقال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ المعزولون عن مقتضى العقل الخبري، المتشعب من العقل الكلي، المتفرع على اسم العليم: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المحجوبين بظلمة التعينات عن نور الوجود قولاً ناشئًا عن محض الغفلة والسفاهة على سبيل الاستهزاء، وهو قولهم: ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾ حوّلهم وصرفهم؛ أي: المؤمنين ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ من قبل مع أنها قبلة من يدعون الانتساب إليهم والاقتداء بملتهم؟

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل على وجه التنبيه والإرشاد، وبلسان التوحيد الذاتي بعدما انكشف لك: ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الأماكن والجهات المتجلي فيها ﴿الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي: جميع ما يتوهم من الزمان والمكان والجهة، إنما هي مظاهر ذاته ومجالي أسمائه وصفاته ﴿يَهْدِي﴾ بحبه الذاتي ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المتوجهين إلى جنابه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:142] موصلٍ إلى ذاته من أي مكان كان، وفي أي وجهة وزمانٍ؛ إذ هو محيط بكلها.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: مثل صراط المستقيم الموصل إلى ذاتنا المعتدل المتوسط بين الطرق ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ معتدلاً قابلاً للخلافة والنيابة، بل في تولية الأمور بين العباد ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ﴾ قوامين بالقسط ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ الغافلين عن التوجه إلينا ﴿وَ﴾ كذلك أرسلنا إليكم رسولاً منكم حتى ﴿يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ حفيظًا لكم عن طرق الإفراط والتفريط فيما صدر عنكم من الأمور، فعليكم أن تلازموا وتداوموا امتثال ما جاء به رسولكم من عند ربكم؛ لتكونوا مهتدين إليه سبحانه من الصراط المستقيم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ أي: قبلتك يا أكمل الرسل ﴿الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ قبل هجرتك منها ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ ولنميز ونفصل ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ الهادي إلى توحيد الذات ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ يعود ويرجع ﴿عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ قبل الوصول إلى توحيد الذاتِ ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوصلة إلى الوحدة الذاتية ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة شاقة ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى ذاته بتوفيقهم على الإيمان ممن يرشدهم إليه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ المظهر لكم ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ به بعد توفيقكم إياه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ المؤمنين بالرسول المرشد إلى توحيد الذات الموقنين بما جاء به من عند ربه ﴿لَرَءُوفٌ﴾ عطوف ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:143] مشفق يوصلهم إلى ما يظهرهم لأجله بفضله وطوله.

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:144-147].

ولما انكشف له ﷺ توحيد الذات واستغرق فيها وتوجه نحوها، وانسلخ عن الأفعال والصفات بالمرة، انتظر ﷺ الوحي المطابق لهذا الانكشاف بحسب الصورة أيضًا، فقال سبحانه: ﴿قَدْ نَرَى﴾ نطلع ونعلم حين انكشافك بذاتنا ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ منتظرًا للوحي المتضمن للتوجه الصوري ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ بعد انكشافك المعنوي ﴿قِبْلَةً﴾ صورية ﴿تَرْضَاهَا﴾ مناسبة لقبلتك المعنوية ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ يا أكمل الرسل صورة ﴿شَطْرَ﴾ جهة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي يحرم فيه التوجه إلى غير الذات البحت المسقط للإضافة ﴿وَ﴾ لا تختص بهذه الكرامة لك، بل تسري منك إلى من تبعك من المؤمنين ﴿حَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ من مراتب الوجود ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ الفائضة لكم أيها المؤمنون من ربكم ﴿شَطْرَهُ﴾ لتكونوا من المنكشفين به المهتدين بذاته ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿لَيَعْلَمُونَ﴾ يقينًا بشهادة كتبهم ورسلهم ﴿أَنَّهُ﴾ أي: شأن انكشافك وتحققك بالتوحيد الذاتي ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت المنزل ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: رباهم بإعطاء العقل المميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل، ومع ذلك ينكرون عنادًا ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:144] من الإخفاء والستر بعد الوضوح والكشف[1].

(1) أخبر عن علة تحويل القبلة بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة:144]، والإشارة فيها أن النبي ﷺ من مكان تأدبه بآداب أدبه ربه بها لم يكن يظهر مع الله سؤاله، ولا يستدعي باللسان مأموله رعاية الآداب القربة؛ إذ أوحى الله تعالى إليه: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق مسألة السائلين» ومن كون نفقته على هذه الأمة كان يدخر دعوته المستجابة فدعا كل نبي دعوته وادخرت دعوتي شفاعة لأمتي، فلما قدر الله تعالى شرف الكعبة أن تكون

﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنْ أَتَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ نازلة لك دالة على توحيد الذات الذي هو مقصدك وقبلتك ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ لانهماكهم في الغفلة والضلالة ﴿وَمَا أَنتَ﴾ أيضًا بعدما انكشف لك الأمر يقينًا ﴿بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ التي توجهوا إليها ظنًا وتخمينًا ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿مَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ لتفاوت ظنونهم وآرائهم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ﴾ أنت يا أكمل الرسل ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ الباطلة ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ اليقيني المطابق للعين بل للحق ﴿إِنَّكَ﴾ مع اصطفائنا إياك واجتبائنا لك ﴿إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:145] المعرضين عنا بعد توفيقنا إياك وإرشادنا لك إلى الكعبة الحقيقة.

هذا تهديد لرسول الله ﷺ بعد تهديد وحث له ﷺ لدوام التوجه على ما انكشف له من توحيد الذات، تحريض للمؤمنين على متابعته ﷺ في دوام التوجه والميل إليه، ومثله في القرآن كثير.

ثم قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ المبين لهم طريق توحيد الصفات والأفعال، المنبه لهم على توحيد الذات، وعلى من يظهر به وهم ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ بالأوصاف والخواص المبين في كتابهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين خلقوا من أصلابهم، بل أشد من ذلك لإمكان الخلاف فيه دونه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ عنادًا واستكبارًا ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ الثابت في كتابهم ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] حقيته جزمًا، ويكتمونه مكابرة.

﴿الْحَقُّ﴾ الذي هو ظهورك واستيلاؤك عليهم، ونسْخك أديانهم وأحكام كتبهم

قبلته وقبلة أمته، فانعكس مسطور الكتاب من الكعبة في مرآة قلب النبي ﷺ فظهر فيه داعية استقبال القبلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان تقلب قلبه إلى الله تعالى وتقلب وجهه إلى السماء لأنه كان فمر جبريل ﷺ فقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ فالحبيب يترك سؤاله بطلب رضائه والرب يطلب رضاء رسوله بإنجاز مأموله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني ول قلبك رب المسجد الحرام بقلب الوجه إلى المسجد الحرام. ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: وجوه قلوبكم ﴿شَطْرَهُ﴾ أي: إلى الله إن كنتم في البيوت أو في المساجد ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من أهل العلوم الظاهرة ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ علمًا لا ينتفعون به ليكون حجة لهم بل حجة عليهم ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:144]، تأييدًا للأولياء وتهويلاً للأعداء.

إنما هو ناشئ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أظهرك مظهرًا كاملاً لذاته ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أنت ومن تبعك ﴿مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة:147] الشاكين في توحيد الذات كما كانوا.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿148﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿149﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿150﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿151﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿152﴾﴾ [البقرة:148-102].

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلٍّ﴾ أي: لكل من أفراد الأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾ مقصد وقبلة معينة من الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ بحسب اقتضائها وغلبتها ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: بادروا أيها المحمديون إلى منشأ جميع الخيرات، ومنبع جميع المبرات الناشئة من الأسماء والصفات، وهو الذات المستجمع لجميعها ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا﴾ من مقتضيات الأوصاف ﴿يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ﴾ الجامع لها ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين بعد رفع التعينات الناشئة من الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي بالأوصاف ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المظاهر المتعينة المتكثرة بحسب المبدأ والمظاهر ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:148] على رفع التعينات المسقطة لجميع الكثرات بحسب المعاد والباطن.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ يا أكمل الرسل عن مقتضى كعبة الذات بغلبة حكم بعض الصفات ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ منها متذكرًا ﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ المحرم للتوجه إلى السوى والغير ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: شأن التوجه نحوه ﴿لَلْحَقُّ﴾ الثابت النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الذي رباك بمقتضى جميع أوصافه وأسمائه ﴿وَ﴾ اعلم أنه ﴿مَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:149] أنت ومن تبعك، وعلى مقتضى علمه تثابون.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ عن مقتضى توحيد الذات بتكثير بعض المظان وترك ما

يستقبلونه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الجامع لجميع المظاهر ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ اقتداء لرسولكم ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المعرضين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ غلبة بادعائكم التوحيد الذاتي، وإخراجكم بعض المظاهر ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بنفي ذات الله وصفاته، وهم الدهريون القائلون بوجود الطبائع بلا فاعل خارجي، فإنهم لا يفحمون ولا يلزمون بأمثاله ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ أي: فلا تخافوا منهم في التوجه إلى الكعبة الحقيقية ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ في عدم التوجه حتى لا تحرموا عن مقتضيات بعض الأوصاف ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ الواصلة بحسب أوصافي وأسمائي ﴿عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:150] إلى ذاتي بسببها.

ومن إتمام نعمنا إياكم أنا هديناكم إلى جهة الكعبة الحقيقية، وأمرناكم بالتوجه نحوها ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿فِيكُمْ رَسُولاً﴾ هاديًا لكم ناشئًا ﴿مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ أولاً ﴿آيَاتِنَا﴾ آثار صفاتنا الدالة على وحدة ذاتنا ﴿وَ﴾ ثانيًا: ﴿يُزَكِّيكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ ثالثًا: ﴿يُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ الموضح للدلائل والآيات المبين للآراء والمعتقدات ﴿وَ﴾ رابعًا: يظهر لكم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ الموصلة إلى توحيد الذات ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُعَلِّمُكُم﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:151] لولا إرشاده وإرساله.

وإذا أنعمنا عليكم بهذه النعم العظام وأتممناها لكم ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ أيها المؤمنون بالميل الدائم والتوجه الصادق ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بنفساتٍ رحمانيةٍ ونسماتٍ روحانيةٍ ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ بإسناد النعم إلي ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152] بإسنادها إلى الوسائط والأسباب.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [البقرة:103-107].

ثم إنه لما بالغ سبحانه في التنبيه والإرشاد، وناداهم رجاء أن يتنبهوا مع أن فطرتهم الأصلية على التوحيد الذاتي، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الذات

﴿اسْتَعِينُوا﴾ لتحققه وانكشافه ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على ما جرى عليكم من الحوادث المنفرة لنفوسكم ﴿وَالصَّلاةِ﴾ أي: الميل والتوجه إلى جنابه لجميع الأعضاء والجوارح ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المعبر به عن الذات الأحدية ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:153] المتحملين للبلاء لو كوشفوا.

رب اجعلنا منهم بفضلك وكرمك.

﴿وَ﴾ مما يستعان فيه بالصبر إلى أن ينكشف سترة: الجهاد لذلك ﴿لاَ تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ طالبًا الوصول إلى بابه ﴿أَمْوَاتٌ﴾ كالأموات الأخر ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ بحياة الله الأزلي السرمدي ﴿وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154] بحياتهم بحياتكم المستعارة المستهلكة في الحياة الأزلية، بل هي عكس منها موت في نفسها.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ والله لنختبرن ولنجربن تمكنكم ورسوخكم في توحيد الذات ﴿بِشَيْءٍ﴾ قليل مما يشعر بالكثرة والاثنينية ﴿مِّنَ الْخَوفْ﴾ الحاصل من المنفرات الخارجية: مثل الحرق والغرق والعدو وغير ذلك ﴿وَالْجُوعِ﴾ الحاصل من المنفرات الداخلية: كالحرص والأمل والبخل وغيرها ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾ التي يميل قلوبكم إليها بالطبع ﴿وَالأَنفُسِ﴾ التي تظاهرون وتفتخرون بها من الأولاد والإخوان والأقارب والعشائر ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ المترتبة على الأموال والأولاد من الجاه، والمظاهرة في الغلبة على الخصماء ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155] [1] من أهل

---

(1) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة:155]، إلى ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] والإشارة فيها أن البلاء والابتلاء من الله تعالى لاستخراج جواهر الأخلاق الإنسانية من معادنها؛ لأن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف:7]، والأعمال من نتائج أخلاق النفس، فالسنة في استخراج جواهر الشكر الابتلاء بالنعمة كما كان لسليمان ﷺ فأخرج منه بها الشكر وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3]، والسنة في استخراج جواهر الصبر البلاء بالمحنة، كما كان لأيوب ﷺ فأخرج منه بها الصبر وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:44]، فيبتلي الرجل على حسب دينه فمنهم من يبتليهم الله بالخوف، وقال بشيء من الخوف يعني ببعضه والسر فيه أن يكون البلاء لأهل العناية بقدر قوته، واستطاعته في النعمة والمحنة يستخرج منه الشكر والصبر، وهما جوهر أن من معادن الروحانية ولو زاد على قدرة القوة والاستطاعة في النعمة والمحنة ما يخرج إلا ضد الشكر والصبر، وهما الكفران والجزع وهما جوهر أن من معادن النفسانيات؛ لأهل الرد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ

التوحيد وهم:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا﴾ بلسان الجمع: ﴿إِنَّا﴾ ظلال ﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد المتجلي بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا في النشأة الأولى ﴿وَإِنَّا﴾ بعد رجوعنا في النشأة الأخرى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156] عائدون

بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] أي: بقدر قدرة أهل القبول والعناية وعدم قوة أهل الرد والسخط، ومنهم من يبتليهم الله بالجوع ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ أو ببعض دون بعض من هذه الجملة أو بمجموعها، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، بشارة في الحال، أما في الحال فبشر الصابرين على الخوف بالتوكل واليقين والشجاعة، وعلى الجوع بتزكية النفس وتنقية القلب وتصفية الروح وتحلية السر، وعلى نقص الأموال بدفع الحرص والغفلة، وإزالة حب الدنيا فإنه رأس كل خطيئة، وحصول القناعة وهي كنز لا يفنى وما لا ينفد وشعار الصالحين، وهو العصد وعلى نقصا ن الأنفس إن كان بالمرض بكفارة الذنوب، وإن كان بموت الأقرباء بقطع التعلقات والتجرد عن العلائق، وعلى آفة الثمرات بالخلف من الله تعالى في الحال، وأما في الحال فبشره بالنجاة من العذاب والدرجات والثواب بغير حساب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10]، وفيه معنى آخر في غاية اللطافة وهو بشر الصابرين بأني لهم معهم في كل حال من حالات الصبر وتصبرهم على المصائب وتخلقهم بخلق من أخلاقه، وهو الصبر ولو لم يكن معهم باللطف والعناية لما قدروا على الصبر يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127]، والصبر هاهنا محمول على ثلاثة أوجه: صبر بالأمر، وصبر بالاختيار، وصبر الاضطرار. أما الصبر بالأمر: ففي الآية إضمار بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155] يعني: ولنبلونكم بأوامر هذه الأشياء، فالأمر بالخوف كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175]، والأمر بالجوع بصيام شهر رمضان، والأمر بنقصان المال بأداء الزكاة، والأنفس بالجهاد في سبيل الله، والثمرات بأداء العشر منها. وأما الصبر بالاختيار: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155]، إشارة إلى أنا نخبركم هل تختارون ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، الخوف بأن يخافوا من الله ويفروا منه إليه، والجوع فتجوعون تقربًا إلى الله تعالى، كما كان إخبار النبي ﷺ: «أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وصبرت، وإذا شبعت ذكرتك وشكرتك» ونقص من الأموال فتخرجون عنها بتركها والإنفاق في سبيل الله، والأنفس فبذل الروح في طلب الحق، والثمرات فبالغذاء في طريق الحق كل ثمرة أثمرته شجر الوجود حتى الولد كما كان حال الخليل عليه السلام في صحيح مقام الخلة ببذل المال والنفس والولد. وأما الصبر الاضطرار: وهو الصبر على المصائب التي تقع من غير الاختيار كما سبق ذكره.

صائرون رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ السعداء المتمكنون في مقر التوحيد، المنزهون عن الإطلاق والتقييد ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لا على غيرهم من أصحاب المراتب ﴿صَلَوَاتٌ﴾ ميول وتوجهات متشعبة من بحر الذات، جارية من جداول الأوصاف والأسماء إلى فضاء الظهور؛ لإثبات المعارف والحقائق الموصلة إلى النعيم الدائم السرمدي واللذة المستمرة الأبدية، نازلة لهم دائمًا ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي أوصلهم إلى مقر عزه ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ شاملة لهم ولغيرهم من سعتها ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الواصلون ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] إلى المبدأ الحقيقي والمنزل الأصلي.

﴿ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [البقرة:108-162].

ثم لما نبه سبحانه إلى الكعبة الحقيقية بالكعبة الصورية، أراد أن ينبه على علاماتها بعلاماتها: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ أي: الظاهر والباطن ﴿مِن شَعَآئِرِ اللَّهِ﴾ وعلامات توحيده ﴿فَمَنْ حَجَّ﴾ قصد ﴿الْبَيْتَ﴾ الممثل من المنزل الحقيقي والمرجع الأصلي على الوجه المفروض ﴿أَوِ اعْتَمَرَ﴾ على الوجه المسنون قاصدًا فيه التوجه إلى الذات الأحدي، معرضًا عن العلائق المانعة منه ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ لا تعب ولا ضيق ﴿عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي: يسعى بينهما، معتقدًا ارتباطهما إلى أن ينكشف باتحادهما ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ توجه نحوه ﴿خَيْرًا﴾ زائدًا على ما أمر وفرض ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الميسر له ﴿شَاكِرٌ﴾ راضٍ بفعله ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158] بحاله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ يسترون ﴿مَا أَنزَلْنَا﴾ في التوراة ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على ظهور من يغلب عليه توحيد الذات ﴿وَالْهُدَى﴾ المشير إلى أنه مبعوث إلى كافة البرايا، ناسخ لجميع الأديان؛ إذ به يتم أمر التكميل ولا بعثة بعد

ظهوره، بل ختم به ﷺ أمر الإرسال والإنزال والتديين والتشريع، والحال أن كتمانهم ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ﴾ أوضحناه بلا سترة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناظرين ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكاتمون المفرطون ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يطردهم ويبعدهم عن عز حضوره لخروجهم عن اعتدال العبودية بكتمان ما أراد الله ظهوره ﴿وَيَلْعَنُهُمُ﴾ أيضًا ﴿اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:159] المتمتعون باعتدال العبودية المستقيمون على ما أمروا بقدر وسعهم[1].

---

(1) ثم أخبر عن شعائر الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:158]، والإشارة فيها أن الله تعالى شعائر الظاهر دالة على شعائر الباطن؛ لتستدل العبد بإقامة مراسم شعائر الله في الظاهر بالصفاء والمروة من شعائر الله في الباطن، فالصفا السر والمروة الروح، وللسالك بينهما سعي فساعة يسعى صفاء السر بقطع التعلقات عن الكونين، والتفرد عن التقين تبتلاً إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، وساعة ليسعى في مروة الروح وهي إيصال الخير إلى جميع الأجزاء الإنسانية من الداخلية والخارجية الباطنية والظاهرية بمراقبة أحوال الباطن ومزاولة أعمال الظاهر في الطاعة، وتقديم الخيرات إلى نفسه وأهله وعياله والعالمين بأسرهم، والإشارة في سبع مراتب أن لظاهر الإنسان سبعة أركان ولباطنه سبعة أطوار، فكذلك العالم سبعة أقاليم ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ بيت القلب في طلب الرب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ خرج ﴿أَن يَطَّوَّفَ﴾ بصفاء السر فإنه تعظيم أمر الله، ويسعى ﴿بِهِمَا﴾ في مروة الروح فإن الشفقة على خلق الله يكون من شعائر الله، ويصل بركات سعيه إلى سبعة أركانه الظاهرة، وسبعة أطواره الباطنة، وإلى سبعة أقاليمهم كقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:39]، وإن سعيه سوف يرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ يعني: في حق نفسه أو حق غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ يأخذ الواحد من الأعمال الفانية، ويعطي العشر إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا يرى من الحسنات الباقية، بل يأخذ الوجود المجازي ويعطي الوجود الحقيقي ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158]، بنيات العباد في تقربهم إليه فيقرب إليهم بقدر صفاتهم في الطاعات، ومردتهم في الخيرات، كقوله تعالى في الحديث الرباني: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقربت إليه ذراعًا تقربت إليه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته أهرول»، وهذا من حقيقة صفة الشكورية، ومن كمال رأفته وغاية عاطفته مع أهل محبته وصفوته إن آثار أقدمهم وساعات أيامهم أشرف الأمكنة وأعز الأزمنة، فتلك المشاهد والآثار تعظم وتزار والتي تلك المشاهد والأطلال تشد الرواحل والرحال.. وإن لتراب أقدامهم بل لغبار آثارهم عند الأخيار أقدار عظيمة بل غيره تبقى على حانات طريقهم عند صديقهم لأعز من المسك الأزفر، كما قيل: وما ذاك إلا أن متت بجنابه أميمة في سرب. ثم أخبر عن خسارة أهل الخسارة في كتمان الأحكام ونعت حبيبه محمد ﷺ وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾ [البقرة:159]، الآيتين والإشارة فيهما أن كمال ما كوشف به السالك الواصل من بينات علوم الحقائق، وأسرار القرآن والأغيار

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ رجعوا منهم عن الكتمان، وأظهروا ما ظهر لهم في كتابهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بإظهار ما أفسدوا بالكتمان ﴿وَبَيَّنُوا﴾ ما بينه الله في كتابه من وصف نبيه المبعوث المرسل إلى كافة الأمم ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ التائبون منهم، المصلحون المبينون ما ظهر لهم في كتابهم ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ قبل توبتهم وأتجاوز عن سيئاتهم ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ الرجاع لهم عما جرى عليهم من العصيان والكفر ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:160] لهم بعدما رجعوا إلي مخلصين.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكتمان ما بين الله في كتابه ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كاتمون ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المصرون المعاندون في أمر الكتمان بعد الظهور مكابرة، وتنزل ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ طرده وتبعيده دائمًا مستمرًا منحصرًا عليهم، غير منفكٍ عنهم على ما يقتضيه حال الجملة المعبر عنها بخلاف اللعن السابق ﴿وَ﴾ تنزل عليهم أيضًا لعنة ﴿الْمَلائِكَةِ﴾ المستغفرين لمن تاب ﴿وَ﴾ أيضًا لعنة ﴿النَّاسِ﴾ العارفين لحقوق الله المتحققين بآدابه المعتكفين ببابه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة:161] مجتمعين عليها دائمًا لخروجهم عن رتبة العبودية.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بحيث ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ المترتب عليها لحظة ليتنفسوا ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة:162] يمهلون ساعة ليعتذروا.

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن

وهداية الطريق إلى الله تعالى آداب السلوك، ومعرفة آفات النفس وطريق الخلاص منها بتزكيتها ومعرفة المقامات والأحوال والفرق بينهما ﴿مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:159]، بينه الحق بتسليكه فيه وعرفه بطريق التسليك فيها عن طلاب الحق، وأهل الإرادة والصدق والمستعدين لقبول النصح والإرشاد مما يوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه عذاب ذل الحجاب كما قال النبي ﷺ: «من سئل عن علم علمه الله فكتمه ألجمه بلجام من النار».

يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة:163-166].

﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ المظهر لكم أيها المؤمنون وإله الكافرين الكاتمين ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا تعدد فيه ولا اثنينية بل ﴿لَّا إِلَٰهَ﴾ أي: لا موجود حقيقي ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الموجود الحقيقي الحق؛ إذ لا كثرة في الوجود، بل هو واحد في الذات، فرد في الصفات، ليس كمثله شيء ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ المبدئ لكم ولهم عامة بإشراق تجلياته ومد أظلاله على العدم في النشأة الأولى ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163] المعيد لكم خاصة إلى مبدئكم الأصلي ومقصدكم الحقيقي في النشأة الأخرى.

ولما كان لوحدته سبحانه آيات ودلائل واضحات لمن تأمل في عجائب مصنوعاته، وبدائع مبدعاته ومخترعاته، المترتبة إلى أسمائه وصفاته المستندة إلى وحدة ذاته، أشار سبحانه إلى نبذتها إرشادًا وتنبيهًا فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: إظهار العلويات التي هي الأسماء والصفات المؤثرة الفاعلة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ أي: السفلية التي هي طبيعة العدم القابلة المتأثرة من العلويات ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمة العدم والجهل والعمى ﴿وَالنَّهَارِ﴾ نور الوجود والعلم والعين ﴿وَالْفُلْكِ﴾ أي: الأجساد الحاصلة من تأثير الأسماء وتأثير الطبيعة منها ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ أي: بحر الوجود الذي لا ساحل له ولا قعر ﴿بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ من جواهر المعارف، ودرر الحقائق المستخرجة منه ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من كرمه وجوده بلا عوض ولا غرض ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ المعدة للإفاضة ﴿مِن مَّاءٍ﴾ علمٍ وعينٍ وكشفٍ ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: الطبيعة ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالجهل الجبلي ﴿وَ﴾ بعد ما أصابها ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ من القوى المدركة والمحركة المتشعبتين بالشعبة الكثيرة على صنعة الحياة المتفرعة على التجلي الحي ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ المروحة للنفوس، المتوجهة الناشئة المنشئة من النفس الرحمانية نحو الطبيعة المكدرة بالكدورات الجسمانية ﴿وَالسَّحَابِ﴾ أي: حجاب العبودية وقيود الغيرية الناشئة من مقتضيات الأسماء والصفات ﴿الْمُسَخَّرِ﴾ الممدود ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: سماء الأسماء الإلهية وأرض الطبيعة الكونية ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل وبراهين يقينيةٍ دالةٍ على أن مظهر الكل واحد ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

[البقرة:164] يعلمون الأشياء بالدلائل العقلية اليقينية المنتجة لعلم اليقين إلى العين والحق لو كوشفوا.

ربنا اكشف علينا ما أودعت فينا بفضلك وتوفيقك، إنك أنت الجواد الكريم.

﴿وَ﴾ مع لوامع هذه الآيات والدلائل الشواهد وبروق الواردات الغيبية، وشروق المكاشفات العينية الدالة على وحدة الذات ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ المخلوقين على فطرة التوحيد القابلين لها ﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ منهم جهلاً وعنادًا ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ المغني للكثرة مطلقًا ﴿أَندَاداً﴾ أمثالاً أحقاء للألوهية والربوبية مستحقين للعبادة إلى حيث ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ أي: كلاً منهم معبودهم ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾ الجامع للكل لحصر كل طائفة منهم مرتبة للألوهية في مظهرٍ مخصوصٍ، ولذلك كفروا ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ منهم ﴿للهِ﴾ المحيط للكل الحقيق بالحقية؛ لحصرهم الألوهية والربوبية والتحقق والوجود والهوية، والذات والحقيقة والصفات على الله لا على غيره؛ إذ لا غير في الوجود، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم في النشأة الأولى، وإليه الرجوع في النشأة الأخرى.

أذقنا حلاوة اليقين وارزقنا محبة المؤمنين الموقنين.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين خرجوا عن طريق التوحيد، وانصرفوا عن الصراط المستقيم واتخذوا أمثالاً يحبونهم كحب الله ما يرون حين ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ النازل عليهم باتخاذهم من ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ﴾ الكاملة والقدرة الشاملة الجامعة ﴿لِلهِ جَمِيعاً﴾ المنفرد بالمجد وإليها ﴿وَ﴾ من ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:165] صعب الانتقام، سريع الحساب، لتبرءوا من متبوعيهم في الدنيا كما تبرءوا منهم في الآخرة.

اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ من الأنداد والأمثال ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ من المتخذين ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿رَأَوُا﴾ المتبوعين ﴿الْعَذَابَ﴾ النازل على تابعيهم باتخاذهم آلهة، كذبوهم وأظهروا البراءة عنهم براءة نفوسهم ﴿وَ﴾ التابعون أيضًا يرونهم ويفهمون براءتهم ويقصدون انتقامهم ولا يستطيعون؛ إذ ﴿تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:166] أي: أسباب الانتقام بانقطاع النشأة الأولى.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ

﴿أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

[البقرة:167-170].

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من الانتقام ﴿قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ نادمين متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ مكررة في النشأة الأولى ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ فيها تلافيا وتداركًا لما مضى من اتخاذنا إياهم آلهة ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ في هذه النشأة، ولا تنفعهم هذه الندامة ولا التمني، بل ما يزيدهم إلا غرامًا فوق غرام ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل عذاب اتخاذهم ﴿يُرِيهِمُ اللهُ﴾ أي: يحضرهم ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الفاسدة السابقة كلها، ويعذبهم عليها فردًا فردًا، وما يقولون فيه وما لهم في تلك الحالة إلا ﴿حَسَرَاتٍ﴾ نازلةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من تذكر سوء عملهم وقبح صنيعهم، وهذا من أسوأ العذاب وأشد العقاب، أعاذنا الله من ذلك ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَا هُم﴾ لا تابعون ولا متبوعون ﴿بِخَارِجِينَ﴾ أبدًا ﴿مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:167] أي: نار البعد والإمكان المورث للحسرة والخذلان.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم لما بين سبحانه طريق توحيده على خلص عباده المتوجهين نحو جنابه، تطهيرًا لبواطنهم عن خبائث الأهواء العاطلة والآراء الفاسدة، أراد أن يرشدهم إلى تهذيب ظواهرهم أيضًا بالخصائل الحميدة الجميلة والأخلاق المرضية؛ ليكون ظاهرهم عنوانًا لباطنهم، فقال تعالى مناديًا لهم إشفاقًا وإرشادًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على التوحيد ﴿كُلُوا﴾ وتناولوا ﴿مِمَّا﴾ من جميع ما خلق لكم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لتقويم مزاجكم وتقويته ﴿حَلالاً﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع على حرمته ﴿طَيِّبًا﴾ مما يحصل من كد يمينكم وعرق جبينكم؛ إذ لا رزقَ أطيب منه ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تقتدوا ولا تقتفوا في تحصيل الرزق إثر وساوس شياطين الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق، المفضية إلى سبيل الظلم والعدوان، ولا تغتروا بتمويهات الشيطان وتزييناته ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:168] ظاهر العداوة عند أولي البصائر بنور الله، المقتبسين من مشكاة توحيده.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ ويغرركم ﴿بِالسُّوءِ﴾ الخصلة الذميمة ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ الظاهر القباحة؛ ليخرجكم عن حدود الله الموضوعة فيكم لتهذيب ظاهركم ﴿وَأَن تَقُولُوا﴾ بعدما خرجتم عن حدود الشرع ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد المنزه في ذاته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:169] (1) لياقته في حقه من حصره في الأنداد والأشباه، وإثبات الولد له والمكان والجهة والجسم، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: لمن يتبع خطوات الشيطان إمحاضًا للنصح وتحريكًا لحمية الفطرة الأصلية: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ على نبيه من البينات والهدى لتهتدوا إلى

---

(1) قال في التأويلات: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ الإشارة فيها أن لا تتبعوا أوامره ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ واتبعوا أوامر الله ورسوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة:55] ثم فسر خطوات الشيطان وبين عداوته بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ﴾ النفس ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالسوء كل معصية فيها حظ النفس، بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53] والنفس لا تأمر بما فيه حظها، والفحشاء كل معصية فيها حظ للشيطان وحظه في الإغواء والإضلال، بيانه قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:82] وقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء:119] وليس للشيطان حظ فيما فيه للنفس حظ؛ لأن الشيطان عدو للإنسان لا يرضى له أن يظفر بشيء من حظوظ الروحانية والنفسانية إلا بالاضطرار عند التعجز عن إضلال الإنسان وإغوائه على وجه يكون له قسمة خسارة الدنيا والآخرة، فيرضى له حينئذ بارتكاب معصية يكون فيها حظ من حظوظ النفس، وكذلك ليس حظ النفس فيما للشيطان فيه حظ من الضلالة والغواية إلا أن يمنيها الشيطان بتبعية حظًا من حظوظها كما قال: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:119] فتقع النفس عن الضرورة في ورطة الضرورة بتبعية استيفاء حظها، فعلى هذا ثبت أن السوء اختصاص بما فيه للنفس حظ، ولو استعمل في غير ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:268]، والفحشاء من الضلالة والغواية وهي المعتقدات الفاسدة والشبهات العقلية ألقها الشيطان في قلوب أهل الزيغ والضلال والأهواء المختلفة عند حرمانهم عن أنوار متابعة الأنبياء - عليهم السلام - واستبدادهم بآرائهم واقتدائهم بعقولهم المعلولة بآفات الحس والوهم والخيال وظلمة الطبع التي لا تفارق العقل إلا بظهور نور الشرع، فأوقعهم في أودية الهلاك مثل الفلاسفة والإباحية، فاعتقدوا شيئًا بين الكفر والإباحة والزندقة، فضلوا كثيرًا وأملى عليهم الشيطان بعض مقتعدهم حتى تلفظوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33] يعني: ما لا علم بكم به من علم التوحيد الفطري ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ وأخذ عنهم الإقرار والعهد بها بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾ أما هذا من لقاء الشيطان وإملائه بمثابة كيده كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:183] تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

توحيد الله ﴿قَالُوا﴾ في الجواب بإلقاء شياطينهم: لا نتبع ما ألقيتم علينا من المزخرفات ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وهم أعقل منا، قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا توبيخًا وتقريعًا لهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ ضالون جاهلون ﴿لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ من أمر الدين ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170] أصلاً إلى مرتبة اليقين، بل كانوا كذلك، بل أسوأ حالاً من ذلك، فكيف تتبعهم؟.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة: 171-173].

﴿وَ﴾ إن شئت يا أكمل الرسل زيادة تفضيحهم اذكر للمؤمنين قولنا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تقليدًا لآبائهم مع قابليتهم واستعدادهم للإيمان ﴿كَمَثَلِ﴾ الشخص ﴿الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يخاطب ويصوت من سفاهته ﴿بِمَا﴾ أي: بجمادٍ ﴿لاَ يَسْمَعُ﴾ منه شيئًا في مقابلته ﴿إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ منعكسين من دعائه، شبه حالهم في السفاهة والحماقة بحال من يصوت نحو الجبل فيسمع منه صوته منعكسة، فيتخيل من سفاهته أنه يتكلم معه، والحال أن آباءهم أيضًا أمثالهم ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون دعوة الحق من ألسنة الرسل ﴿بُكْمٌ﴾ أيضًا لا يتكلمون بما ظهر لهم من الحق الصريح نقلاً وعقلاً ﴿عُمْيٌ﴾ أيضًا لا يبصرون آثار الصفات وأنوار تجليات الذات الظاهرة على الآفاق ﴿فَهُمْ﴾ وآباؤهم من غاية انهماكهم في الغفلة والنسيان كأنهم ﴿لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171] أي: لا يخلقون من زمرة العقلاء.

نبهنا بفضلك عن سنة الغفلة ونوم النسيان.

ثم ناداهم سبحانه، وأوصاهم بما يتعلق بأمور معاشهم أيضًا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ مزكيات ما أحل لكم من الحيوانات من ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ سقنا نحوكم تفضلاً؛ لتقوية مزاجكم وتعديله ﴿وَ﴾ بعد تقويتنا وتعديلنا إياكم ﴿اشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل، المربي لكم بلا التفات إلى الوسائل والوسائط ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ﴾ لا إلى غيره من الآلهة ﴿تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:172] تقصرون العبادة.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ أي: ما حرم ربكم عليكم في دينكم من الحيوانات إلا ﴿الْمَيْتَةَ﴾ حتف نفسه بلا تزكية وتهليل ﴿وَالدَّمَ﴾ السائل من أي وجه كان ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ المرخص في الأديان الأخر لنجاسة عينه طبعًا وشرعًا ﴿وَمَا أُهِلَّ﴾ صوت ﴿بِهِ لِغَيْرِ﴾ اسم ﴿اللَّهِ﴾ عند ذبحه من أسماء الأصنام، وإنما حرم عليكم هذه الأشياء وقت سعتكم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ للولاة القائمين بحدود الله ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ مجاوزًا عن شدة الجوعة إلى وقت السعة ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ إن تناول منها مقدار سد الرمق ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المرخص لكم في أمثال المضائق والاضطرار ﴿غَفُورٌ﴾ ساتر لكم عن أمثال هذه الجراءة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:173] عليكم بهذه الرخصة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [البقرة:174-176].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ المبين لهم طريق الرشاد والسداد، ويظهرون بدله ما تشتهيه نفوسهم وترتضيه عقولهم عتوًا واستكباراً ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ أي: بكتمان كتاب الله ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من ضعفاء الناس على وجه التحف والهدايا ﴿أُولَئِكَ﴾ الكاتمون طريق الحق، الناكبون عن منهج الصدق ﴿مَا يَأْكُلُونَ﴾ بهذه الحيلة والتزوير، لا يستحيل ﴿فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أي: نار الحرص والطمع المقتبسة من نيران الإمكان المنتهية إلى نار الجحيم، أعاذنا الله منها ﴿وَ﴾ من فظاعة أمرهم وشناعة صنيعهم ﴿لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ المنكشف عن أحوال العباد ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليجزيهم على مقتضى أعمالهم التي كانوا عليها في النشأة الأولى، بل يسوقهم إلى النار بلا كشف عن حالهم ﴿وَ﴾ بعد ما ساقهم إليها ﴿لاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم الله بها كما يطهر عصاة المؤمنين بالنار، ثم يخرجهم إلى الجنة، يبقون فيها خالدين ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:174] مؤلم غير منقطع أبدًا.

﴿أُولَئِكَ﴾ الضالون الخاسرون هم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ﴾ المستبعة لهذا النكال ﴿بِالْهُدَى﴾ الموصل إلى النعيم الدائم في النشأة الأولى ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ الملذة المستمرة في النشأة الأخرى ﴿فَمَا﴾ أعجب حالهم ما ﴿أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:175] بارتكاب تلك الموجبات المؤدية إليها.

﴿ذَلِكَ﴾ النكال والعذاب ﴿بِأَنَّ اللهَ﴾ المرشد لهم إلى التوحيد ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن المبين لهم طريقه ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الصريح الثابت في الواقع ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي﴾ حقيقة ﴿الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ﴾ خلاف ﴿بَعِيدٍ﴾ [البقرة:176] بمراحل عن الحق.

حققنا بفضلك حقية ما أنزلت علينا من جودك.

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) ﴾ [البقرة:177-178].

ثم لما اختلف الناس في أمر القبلة واهتموا بشأنها، بأن حصر البر والخير كل فيها، أشار سبحانه إلى تخطئتهم، ونبه على البر الحقيقي والخير الذاتي بقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ أي: الخصلة السنية والأخلاق المرضية مجرد ﴿أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ مثلاً، بل اتصاف بالعزائم، والحكمة المترتبة على تشريع القبلة ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ الحقيقي ﴿مَنْ آمَنَ﴾ صدق منكم ﴿بِاللهِ﴾ المنشئ لكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿وَالْمَلائِكَةِ﴾ المهيمنين الوالهين في مطالعة جمال الله، المستغفرين لمن آمن وعمل صالحًا من عباده ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين لكم طريق الهداية ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ المبعوثين إليكم به؛ ليرشدكم إلى مقاصده.

﴿وَ﴾ بعد ما آمن بما ذكر ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ المانع من التوجه الحقيقي، وأنفقه ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ سبحانه طالبًا لرضاه، وأنفقه على المحتاجين أولاً هم ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ المنتمين إليه من قبل أبويه ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الذين لا متعهد لهم من الوالدين وذوي القربى ﴿والْمَسَاكِينَ﴾ الذين أسكنهم الفقر العارض لهم من عدم مساعدة آلات الكسب والحوادث الأُخر ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ الغرباء الذين لا يمكنهم التصرف في أموالهم لوقوع البون والمبين ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الذين ألجأهم الاحتياج مطلقًا إلى السؤال من أي وجهٍ كان ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ من الأسرى الموثقين في يد العدو، والمكاتبين الذين لا يقدرون على فك رقابهم من مواليهم وغير ذلك من المضطرين ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أي: دوام الميل والتوجه بجميع الأعضاء والجوارح نحوه تعالى في جميع الأوقات، خصوصًا في الأوقات التي فرض فيها التوجه ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ المفروضة المقدرة في كتاب الله.

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ كلهم من خيار الأبرار ﴿وَ﴾ بشر من بينهم يا أكمل الرسل ﴿الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر المكسر للظهر ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ المرض المسقم للجسم ﴿وَ﴾ خصوصًا الغزاة الذين صبروا ﴿حِينَ الْبَأْسِ﴾ من اقتحام العدو بالإنعامات العلية والكرامات السنية ﴿أُولَئِكَ﴾ الأبرار الأحرار الصابرون في البلوى، المرجون لرضا المولى على أنفسهم هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في أقوالهم وأصلحوا في أفعالهم، وأخلصوا في نياتهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177] [1] المحفوظون عن

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر عن البر في عبودية الحق البر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، والإشارة فيها أن ليس الاعتبار في البر بظواهر الأشياء والمعاملات الفارغة عن الحقيق، ولكن الاعتبار بالبر الحقيقي ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي: من آمن بهداية الله التي عينها من العناية؛ لقوله تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ﴾ فمن كانت هذه الكتابة عائدة عليه لتجلي الحق تعالى لروحه بصفة المحبة في بدء وجوده، فتنور الروح بنور المحبة فالروح صارت محبًا لمحبة، كما عبر عن هذا بقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ فشاهد بذلك النور محبوبه وآمن بنور المحبة بوحدانية ومشاهد الأمور الأخروية وآمن بها، وكذلك ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ وفيه معنى آخر ليس البر بركم بتولية وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر الحقيقي هو بر الذي يبركم معكم بتولية وجوه أرواحكم بجذبات المحبة قبل الحضرة الربوبية المحبوبية، فتؤمنوا بدلالات نور بري ومبرتي لكم كما ذكرنا في الحديث: «إن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل ﷺ: إني أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل ﷺ ثم ينادي جبريل ﷺ في أهل السماء: إن الله أحب فلانًا فأحبوه، فيحبوه أهل السماء»، وبر حبي لكم ليس بمحدث كحبكم معي؛ بل هو بر قديم في الكتاب العلم الأزلي والكلام السرمدي: ﴿يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] أي: يحبهم في الأزل ويحبونه في الأبد، يحبهم بأن بر معهم ببر محبته لهم ليبروا معه يحبهم إياه ببر محبة التي بر بها معهم، ويحبونه ولولا محبة لهم ما كانوا ليؤمنوا به ويحبوه أبدًا، فافهم جدًا قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:177] أي: بنور هذه المحبة يهتدون المحبون إلى أهل محبة محبوبهم، فإن الجنسية علة الصنم فيؤمنون بهم، ويتابعون هم حق المتابعة، فأظهر فوائد خصوصية هذا الإيمان، وأخبر عن ثمرات بذر بر حبه فيهم بقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] يعني: من ثمرات حبه إيتاء المال على حبه، والمال إشارة إلى ما يمال إليه غير الله، فمن نتائج بذر بر الحب إنفاق كل محبوب غير الله على حب الله؛ ليكون ثمرة بذر حب الله في النهاية بر الوصول إلى حضرة المحبوب لقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92] لأن ثمرة كل بذر في النهاية يكون من جنس بذرها في البداية، ولكن فيه معنى وخصوصية أخرى، ولهذا سُئل الجنيد رحمه الله: ما النهاية؟ قال:الرجوع إلى البداية في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] معنى آخر، وهو إنما حصل للعبد من بر الحب ومال إلى البر من عواطف الحق وإحسانه، بتجلي أنوار صفاته يعطيه وينقصه على حب حبيبه بأداء حقوق الشريعة والطريقة بالمعاملات الطيبة والقالبية ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة:177]، وهم الروح والقلب والسر والقربة الحق ﴿وَالْيَتَامَى﴾ [البقرة:177]، المتولدات من النفس الحيوانية الأمارة بالسوء إذا ماتت النفس عن صفاتها بسطوات تجلي صفات الحق، فثبت وبقيت منها يتامى المتولدات على الدوام من أوصاف البشرية ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:177]، وهي الأعضاء والجوارح ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:177]، القوى البشرية والحواس الخمس، فإنهم في التردد والشعر في عوالم المعقولات والمخيلات والموهومات والمحسوسات، وإنما ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:177]، وهم الدواعي الحيوانية والروحانية ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:177] أي: فك رقبة السر عن أسر تعلقات الكونين، وعتق رقبته عن عبودية ما في الدارين، فإن المكاتب عبد ما بقي درهم، فإذا تخلص السر عن أسر غير الله وعبوديته بدوام الرقبة، ولزوم المعاملة صار أهل المشاهدة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:177]، المحاضرة مع الله بالله ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:177]، زكاة مواهب الحق إلى استحقاقها من الحق، فهم ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:177]، مع الله بالتوحيد والعبودية الخالصة يوم الميثاق ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة:177]، وإنهم من الصابرين في بأساء مراعاة الحقوق ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:177]، مخالفات الحظوظ وفناء الوجود عند بقاء الشهود ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:177]، حين بأس سطوات الجلال لا لصبرهم بل لقيام الحق عنهم وبقائهم بصفات الجلال ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة:177]، ببذل الوجود وما عاهدوا الله عليه يوم الشهود كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:23] ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177]، من ترك الأنانية بالاستهلاك في الهوية، وإن ما ينقضي

جميع ما ضيق عليهم في أمور الدين، الواصلون إلى مرتبة الحقيق واليقين.

رب اجعلنا منهم بلطفك وكرمك يا أرحم الراحمين.

ثم ناداهم سبحانه إصلاحًا لهم فيما يقع بينهم من الوقائع الهائلة، والفتن العظيمة الحادثة من ثوران القوة الغضبية، وطغيان الحمية الجاهلية، المؤدية إلى قتل البعض بعضًا ظلمًا وعدوانًا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم وتوحيدكم المحافظة بزجر النفس الأمارة بالسوء عن مقتضياتها المنشعبة من القوى البشرية، وإن وقع فيكم أحيانًا فاعلموا أنه ﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْكُمُ﴾ في دينكم ﴿الْقِصَاصُ﴾ بالمثل ﴿فِي الْقَتْلَى﴾ المقتولين عمدًا فيُقتل ﴿الْحُرُّ﴾ القاتل ﴿بِالْحُرِّ﴾ المقتول ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْعَبْدُ﴾ القاتل ﴿بِالْعَبْدِ﴾ المقتول، وبالحر بالطريق الأولى ﴿وَ﴾ كذا يُقتل ﴿الْأُنثَى﴾ القاتلة حرة كانت أو أمة ﴿بِالْأُنثَى﴾ المقتولة أيضًا، كذلك لنظيرتها قياسًا على الحر والعبد، والأمة بالحرة بالطريق الأولى، وكذا بالذكرين مهما وافى قتل الحر، والحرة بالعبد والأمة، فقد خولف فيه، والظاهر أنه لم يقتل.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ أي: للجاني والقاتل من المحقوق والسهام المشتركة بين الغرماء الطالبين منه قصاص أخيه المسلم المقتول بيده ظلمًا ﴿مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قليل من الحقوق المذكورة ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فالحكم لازم عليكم في دينكم أيها الغرماء، متابعة المعروف المستحسن عند الله وعند المؤمنين والرجوع إلى الدية وعدم القصاص ﴿وَ﴾ عليك أيها الجاني ﴿أَدَاءٌ﴾ أي: أداء الدية التي هي فدية حياتك ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ولي المقتول ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ معتذرًا نادمًا متذللاً على وجه الانكسار بلا مطل وكسل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: سقوط القصاص بعد عفو البعض ولزوم الدية بدله ﴿تَخْفِيفٌ﴾ لكم أيها المؤمنون وإصلاح لحالكم ﴿مِّن﴾ قبل ﴿رَّبِّكُمْ﴾ أمَّا التخفيف بالنسبة إلى الغرماء فبتسكين القوة الغضبية، وتليين الحمية العصبية بالمال المسرة لنفوسهم بعد وقوع ما وقع، وأمَّا بالنسبة إلى الجاني فظاهر لإبقاء الحياة بالمال ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلة لكم من ربكم لتصفية كدورتكم الواقعة بينكم بواسطة القتل ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ﴾ منكم وتجاوز

الأن من فنون الإحسان ووجود فضائل الإيمان، وتصفية الأعمال وصلة الرحم والتمسك بفنون الذمم والعفو والوفاء بالعهود ومراعاة الحد وتعظيم الأثر كثير الخطر محبوب الحق شرعًا ومطلوبه أمرًا، ولكن قيام الحق عنك عند قيامك عنه، وامتحانك من مشاهدتك لاستهلاك في وجود القدم، وتعطيل رسولك عن ساكنات إحساسك أتم وأعلى في المعنى.

عن الحكم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور بأن قتل الغرماءُ الجاني بعد عفو البعض وأخذ الدية، أو امتنع الجاني عن أداء الدية على الغرماء ﴿فَلَهُ﴾ أي: لكل من المعتدين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:178] يؤاخذون في الدنيا بما صدر عنهم، ويعاقبون عليها في الآخرة.

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة:179-182].

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الموحدون المكاشفون بسرائر الشرائع والنواميس الإلهية الموضوعة بين المؤمنين في هذه النشأة خصوصًا ﴿فِي الْقِصَاصِ﴾ المسقط للجرائم الصادرة من جوارحكم البادية عليها ﴿حَيَاةٌ﴾ عظيمة حقيقية لكم في النشأة الأخرى؛ إذ لا يؤاخذون عليه بعد مؤاخذتكم في النشأة الأولى ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الناظرين بنور الحق في لب الأمور المعرضين عن قشوره ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:179] رجاء أن تتحفظوا عن مقتضى القوى البهمية، المنافية لطريق التوحيد المبني على الاعتدال والوفاق، المؤدية إلى أمثال هذه الخباثات.

ثم قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أيضًا في دينكم أيها المؤمنون ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه وأماراته ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالاً كثيرًا يقبل التجزئة والانقسام المعتد بها بلا تحريم الورثة ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ أي: الحصة المستخرجة منها لرضاء الله، للفقراء المستحقين لها، وأفضل الوصية وأولاها الوصية ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إن كانوا مستحقين لها، وأيضًا أفضلها الاستخراج ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعتدل المستحسن بين الناس، بحيث لا يتجاوز عن ثلث المال؛ لئلا يؤدي إلى تحريم الورثة، وما فرض في الوصية في دينكم إلا ﴿حَقًّا﴾ لازمًا ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:180] الذين يحفظون إيمانهم وتوحيدهم بمحبة الفقراء ومودة ذوي القربى عما يضاده ويخالفه.

﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ غيره من الأوصياء والحضار الشاهدين عليها ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ من الموصي صريحًا ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أي: إثم التبديل والتغيير ﴿عَلَى﴾ المبدلين المغيرين

﴿الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بأقوال الموصي ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:181] بما صدر من المبدلين المغيرين، فيجازي كلاً منهم على مقتضى عمله.

﴿فَمَنْ خَافَ﴾ من الأوصياء والوكلاء ﴿مِن مُّوصٍ﴾ حين الوصية ﴿جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فأصلح بَيْنَهُمْ﴾ ميلاً ببعض المستحقين، سألهم على مقتضى علمه بأحوالهم ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الوصي في هذا التبديل والتغيير، بل يرجى من الله بإصلاحه الثواب له ولمن أوصى إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بحالهما ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:182] لكل منهما.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (184) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)﴾ [البقرة:183-185].

ثم لما نبههم سبحانه بنبذ ما يتعلق بتهذيب ظاهرهم، أراد أن ينبههم على بعض ما يتعلق بتهذيب باطنهم فقال أيضًا مناديًا لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ في دينكم ﴿الصِّيَامُ﴾ هو الإمساك المخصوص من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس في الشهر المعروف بلسان الشريعة، والإمساك المطلق والإعراض الكلي عما سوى الحق عند أولي النهى واليقين المستكشفين عن سرائر الأمور، المتحققين بها حسب المقدور ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى﴾ أمم الأنبياء ﴿الَّذِينَ﴾ خلوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإنما فرض عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:183] رجاء أن تحفظوا أنفسكم عن الإفراط في الأكل المميت للقلب المطفئ نيران العشق والمحبة الحقيقية.

وإذ فرض عليكم صوموا ﴿أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ هي شهر رمضان ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ حين ورود شهر رمضان الذي فرض فيه الصيام ﴿مَّرِيضًا﴾ مرضًا يضره

الصوم أو يعسر عليه ﴿أَوْ﴾ حين وروده ﴿عَلَى﴾ جناح ﴿سَفَرٍ﴾ مقدار مسافة مقدرة عند الفقهاء فأفطر ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مساوية للأيام المفطرة، يجب على المفطر بلا كفارة ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي: الصوم، فيفطرونه مع أنهم ليسوا مرضى ولا مسافرين ﴿فِدْيَةٌ﴾ هي ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أي: فدية كل يومٍ من الأيام المفطرة من رمضان طعامُ واحدٍ من المساكين ﴿فَمَن تَطَوَّعَ﴾ زاد في الفدية ﴿خَيْراً﴾ تبرعًا زائدًا مما كتب له ﴿فَهُوَ﴾ أي: ما زاد عليها ﴿خَيْرٌ لَّهُ﴾ عند ربه يجزيه عليه زيادة جزاءٍ ﴿وَأَن تَصُومُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الفدية، وزيادة عليها متبرعًا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184] سرائر الإمساك والفوائد والعائدة منها إلى نفوسكم، من كسر الشهوة والتلقي على الطاعة والتوجه مع الفراغة، هذا في بدء الإسلام، ثم نسخ بالآية ستذكر.

واعلموا أيها المؤمنون أن أفضل الشهور عند الله وأرفعها قدرًا ومرتبة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: ابتداء نزوله أو نزل كله فيه، بل الكتب الأربعة كلها تنزل فيه على ما نقل في الحديث وكيف لا يكون أفضل الشهور، والحال أن القرآن المنزل فيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ المؤمنين بتوحيد الله المتوجهين نحو جنابه يهديهم إلى مرتبة اليقين ﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ شواهد وآيات واضحات ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾ الموصل للمستكشفين عن سرائر التوحيد إلى مرتبة عين اليقين ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ الفارق لهم بين الحق الذي هو الوجود الإلهي، والباطل الذي هو الوجودات الكونية يوصلهم إلى مرتبة حق اليقين ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ أدرك ﴿مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ المذكور مقيمًا مطيقًا بلا عذر ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ ثلاثين يومًا حتى بلا إفطار وإفداء؛ لأن هذه الآية ناسخة للآية السابقة.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ لا يطيق على صومه خوفًا من شدة مرضه ﴿أَوْ عَلَى﴾ متن ﴿سَفَرٍ﴾ فأفطر دفعًا للحرج ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: لزم عليه صيام أيام أخر قضاء لأيام الفطر إنما ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْيُسْرَ﴾ لئلا يتحرجوا ﴿وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ لئلا تضطروا وتضطربوا وإنما رخص لكم الإفطار في المرض والسفر ﴿وَ﴾ ألزم عليكم القضاء بعد ﴿لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ المفروضة لكم في كل سنة؛ لئلا تحرموا عن منافع الصوم ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ وتعظموه ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ إلى الرخص عند الاضطرار ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:185] تتنبهون بشكر نعمه الفائضة عليكم في أمثال هذه المضائق إلى ذاته، أو بشكر نعمه تتقربون إليه.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة:186-187].

﴿وَ﴾ لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ إرشادًا لعباده الشاكرين لنعمه عن تقربه إليهم بقولهم: ﴿إِذَا سَأَلَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عِبَادِي﴾ الشاكرين لنعمه ﴿عَنِّي﴾ بقولهم: أقريب إلينا ربنا فنناجيه مناجاتنا نفوسنا، أم بعيد منا فنناديه نداء الأباعد؟ قل لهم يا أكمل الرسل في جوابهم نيابة عني: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لهم من نفوسهم بحيث ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ استقبله سريعًا لإجابة دعاته كما أشار إليه في الحديث القدسي حكاية عنه سبحانه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ في جميع مهماتهم وحاجاتهم ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ معتقدين بي إيصالهم إلى غاية متمناهم؛ إذ لا مرجع لهم غيري ولا ملجأ لهم في الوجود سواي، وإنما أخبروا بما أخبروا وأمروا بما أمروا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186] رجاء أن يهتدوا إلى مرتبة التوحيد راشدين مطمئنين.

اهدنا بلطفك إلى مقر عزك يا هادي المضلين.

ثم أشار سبحانه إلى بيان أحكام الصوم مما يتعلق بالحل والحرمة فيه فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها الصائمون ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ دون نهاره؛ إذ الإمساك عن الجماع في يوم الصوم مأخوذ في تعريفه شرعًا ﴿الرَّفَثُ﴾ الوقاع والجماع ﴿إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ أي: مع نسائكم اللاتي ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ لا تصبرون عنهن لاقتضاء طبعكم، وميل نفوسكم إليهن ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أيضًا، لا يصبرن عنكم لاشتداد شهوتهن إلى الوقاع بأضعاف ما أنتم عليه، وإنما رخص لكم الوقاع في لياليه؛ إذ ﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾ المحيط بسرائركم وضمائركم ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ لو كلفتم بها ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[1] أي:

(1) قال نجم الدين كبرى: أخبر عن تفضله بالنوال قبل السؤال بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ

﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:187]، والإشارة في تحقيق الآية أن لخواص الإنسان بحسب تركيبهم من الروحاني والحيواني تلونًا في الأحوال لا بد لهم منه، فتارة يكونون بحكم غلبات الصفات الروحانية والواردات الربانية في ضياء نهار الروحانية النورانية، ففي تلك الحالة لهم سكر يغنيهم عن المشارب النفسانية، فيصومون عن الحظوظ الإنسانية، وبقوا مع تلك الحالة لتلاشت نفوسهم بسطوات صفات الجلال، وطاشت أرواحهم، وما عاشت أبدانهم، كما منّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:72]. وتارة يكون بحسب الدواعي والحاجات الحيوانية مردودين إلى ليلة ظلمات الصفات الإنسانية، وفي تلك الحالة لهم صحو يعيدهم إلى أحكام عادات طبائع الحيوانية، ولو بقوا على تلك الحالة لماتت قلوبهم بهجوم الآفات وفات لهم من الحقوق ما فات، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص:72]، فخصهم الله تعالى بنهار في كشف أستار الرحمة؛ ليسكنوا فيها ويستريحوا بها.

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليلة تسترحون فيها وتستعدون لصيام غداتها؛ يعني: إن لم يكن ليلة الصيام ما أحل لكم فيها ﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ وهي التمتعات النفسانية من الأمتعة الدنياوية المسخرة للنفس؛ لنفوذ تصرفها فيها تصرف الرجال في النساء؛ لاستيفاء الحظوظ تقوية على أداء الحقوق ولا تكون مسخرة لها؛ لينفذ فيها تصرفها، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:187]؛ أي: التمتعات بالحظوظ الإنسانية ستر لكم؛ ليحميكم عن حرارة شموس الشهود بلباس ظلمات صفات الوجود؛ كيلا تحرقكم سطوات تجلي صفات الجلال، ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة:187]؛ أي: بلباس صفاتكم الحميدة وأنوار أعمالكم الصالحة تسترون معايب الدنيا وتمتعاتكم بمتاع شهوات النفس ولذاتها؛ لقوله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» والمال هو الملعون الذي قال ﷺ فيه: «الدنيا لمعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»، فصار الملعون صالحًا ولقب بنعم إذا آمن بصلاح الرجل الصالح ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾ في خصوصية البشرية، ﴿تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ باستيفاء حظوظكم الحيوانية في ليالي الطلب من ضعفكم واستيلاء شهواتكم، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بنظر العناية إلى قلوبكم، ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أي: محا آثار ظلمات صفاتكم بأنوار هدايته عنكم، ﴿فَالْآنَ﴾ أي: في هذه الحالة، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ رخص لكم في مباشرة الحظوظ النفسانية بقدر الحاجة للضرورة الإنسانية بالأمر لا بالطبع، ﴿وَابْتَغُوا﴾ بقوة هذه المباشرة، ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المقامات العلية والدرجات الرفيعة، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: تمتعوا بالحظوظ؛ لرفع الحاجات الإنسانية في ليالي الصحو، ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ أي: تظهر آثار أنوار شمس صفات الجلال وتمحو ظلمات الصفات والآمال في نهار السكر، ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ بالامتناع عن الاستمتاع عن المشارب الروحانية والحيوانية ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليل الصحو بعد السكر.

﴿ولا تباشروهن﴾ أي: وتشغلوا القلوب بالحظوظ، ولا الأرواح بالاسترواح، ولا الأسرار

توقعونها بأيديكم إلى الخبائث فتعاقبون عليها، وتحرمون جزاء الصوم المتكفل لها الحق بذاته، كما قال ﷺ حكاية عنه سبحانه: «الصوم لي وأنا أجزي به»[1].

﴿وَ﴾ إذا علم سبحانه منكم ما علم ﴿عَفَا﴾ محا ﴿عَنكُمْ﴾ ما يوقعكم إلى الفتنة والعذاب، وهو تحريم الرفث في الليلة أيضًا، وإذا رخص لكم الوقاع فيها ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: ألصقوا بشرتهن لبشرتكم في ليلة الصيام المرخصة فيها الجماع، ولا تخافوا من عقوبة الله عليها بعد ما أذن ﴿وَابْتَغُوا﴾ اطلبوا سرائر ﴿مَا كَتَبَ﴾ قدر ﴿اللهُ لَكُمْ﴾ من الولد الصالح المتفرع على اجتماعكم من نسائكم؛ إذ سر الجماع والتزوع المستلزم له إبقاء نوع الإنسان المصور بصورة الرحمن؛ ليترقى في العبودية والعرفان إلى أن يستخلف وينوب عنه سبحانه ﴿وَكُلُوا﴾ في ليلة الصيام ﴿وَاشْرَبُوا﴾ فيها ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ أي: إلى أن يظهر ﴿لَكُمُ﴾ بلا خفاية ﴿الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ أي: البياض الممتد الذي يقال له في العرف: الصبح الصادق ﴿مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ البياض المتوهم قبل الصبح الصادق المعبر عنها بالصبح الكاذب، وكلاهما ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ الشامل لهما، وهو آخر الليل.

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ من الوقت المبين ﴿إِلَى﴾ ابتداء ﴿اللَّيْلِ﴾ وهو غروب الشمس بحيث لا يرى في الأفق الشرقي بياض وحمرة منها ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ في ليلة الصيام أيضًا ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ﴾ معتكفون ﴿فِي الْمَسَاجِدِ﴾ إذ الاعتكاف في الشرع عبارة

بالاستظهار عن الأغيار، ﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ أي: مقيمون في مقامات القربة والوصلة، مجاورون في حظائر القدس ومجالس الأنس؛ يعني: عند احتياج النفس بالضروريات الإنسانية في بعض الأوقات وإشغالها بها، كونوا بالضرورة فيها، وبالقلوب والأرواح والأسرار كائنين مع الحق بعيدين عن الخلق، وهذا مقام أهل التمكين، فإنكم إن كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين فيكم بكم عنا، وإذا كنتم قائمين بنا فينا فلا تعودوا منا إليكم، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ أي: تلك القربة والوصلة والاعتكاف والتبتل إلى الله حدود الله، ﴿فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ بالخروج عنها يا أهل الكشوف والعكوف، ولا تقربوها بالدخول فيها يا أهل الكسوف والخسوف. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ﴾ يظهر الله ﴿آيَاتِهِ﴾ ودلائله وبراهينه، ﴿لِلنَّاسِ﴾ أهل الصدق والطلب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ بأنوار العواطف والجود عن ظلمات شركة الوجود.

(1) أخرجه أحمد (232/2، رقم 7174)، وعبد بن حميد (ص 288، رقم 921) ومسلم (807/2، رقم 1151)، والنسائي (162/4، رقم 2213 عن أبي سعيد، 2214 عن أبي هريرة)، وابن خزيمة (198/3، رقم 1900)، وابن أبي شيبة (272/2، رقم 8893).

عن اللبث في المسجد على نية التقرب، فيبطله الخروج إلا إلى التوضؤ والطهارة، والجماع فيه ليس بمرخصٍ شرعًا ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ الحاجزة بينه وبينكم؛ لئلا تتجاوزوا عنها ﴿فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ إلى حيث يتوهم تجاوزكم عنها ﴿كَذَلِكَ﴾ كالحدود والأحكام المأمور به والمنهية ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ الهادي إلى وحدة ذاته جميع ﴿آيَاتِهِ﴾ أي: علاماته الدالة على توحيده الذاتي ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين العهود السابقة بواسطة تعيناتهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:187] رجاء أن يتخذوا عنها بسبب إشراق نور الوجود الحق المفني لها مطلقًا.

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة:188-190].

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: لا يأكل كل منكم مال الآخر ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بالسبب الباطل الغير المبيح له أكل مال الغير، من السرقة والغصب والربا والرشوة، والحيل المنسوبة إلى الشرع افتراء، وغير ذلك مما ابتدعه الفقهاء في الوقائع من الحيل والشبه، ونسبوها إلى السمحة الحنيفية البيضاء المحمدية، المنبئة عن الحكمة الإلهية، المنزهة عن أمثال تلك المزخرفات الباطلة ﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الأحكام الموضوعة ألا ﴿تُدْلُوا بِهَا﴾ أي: لا يحاول بعضكم مال البعض ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾ المسلطين عليكم؛ أي: لا يفتري بعضكم بعضًا افتراءً يوقع بينكم العداوة والحكومة والبغضاء المفضية إلى المصادرة المستلزمة لأخذ المال من الجانبين، ومن أحد الجانبين ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ أي: الحكام ﴿فَرِيقًا﴾ بعضًا أو كلاً ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ المظلومين ﴿بِالإِثْمِ﴾ الصادر عن المدلي والمغري ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أيها المدلون ﴿تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:188] أنكم آثمون مفترون.

بك نعتصم عن أمثاله يا ذا القوة المتين.

ثم لما قدر سبحانه في سابق علمه الحضوري سؤال أولئك السائلين عن كمية ازدياد القمر وانتقاصه وبدوه رقيقًا واستكماله، ورجوعه على ما كان عليه، أخبر نبيه ﷺ عما سألوه امتنانًا عليه فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الداعي إلى الحق ﴿عَنِ﴾ كمية تغير ﴿الأَهِلَّةِ قُلْ﴾ واختلافها كمالاً ونقصانًا، قل لهم في جوابهم كلامًا ناشئًا عن لسان الحكمة مطابقًا لأسلوب الحكيم مقتضى حالكم وإدراككم: إن تسألوا عن الحكم والمصالح المودعة فيها لا عن كمية أمر القمر، فإنها خارجة عن طوق البشر، ونهاية مدارك العقلاء من أمر القمر ليس إلا أن نوره مستفاد من الشمس، وإنه مظلم في ذاته، وإن استفادته النور بحسب مقابلته بالشمس، وعدم ممانعة الأرض منها.

وإمّا أن الشمس ما هي في ذاته والقمر ما هو؟ والارتباط بينهما على أي وجه فسر؟ لا يحوم حوله عقول أحد من خلقه، بل مما استأثر الله به في علمه، فلا يسأل عنه أحد، بل ﴿هِيَ﴾ أي: الاختلافات الواقعة في القمر زيادة ونقصانًا، ترقيًا وتنزلاً لأجل أنه ﴿مَوَاقِيتُ﴾ معينة ﴿لِلنَّاسِ﴾ في أمور معاشهم من الآجال المقدرة؛ لقضاء الديون والعدة وتعليقات المتعلقة بها، وغير ذلك من التقديرات الجارية في المعاملات بين الناس في العادات والعبادات ﴿وَ﴾ خصوصًا في ﴿الْحَجِّ﴾ والصوم والنذر المعينة، فإنها كلها تضبط باختلافات إلى غير ذلك من العبادات المؤقتة ﴿وَ﴾ كما أن سؤالكم هذا ليس من الأمور المبرورة المتعلقة لدينكم وتوحيدكم كذلك ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ لا من أبوابها.

الأنصار كانوا إذا أحرموا للحج لم يدخلوا من أبواب البيوت، بل يثقبون ظهورها ويدخلون منها يعدون هذه الفعلة من الأمور المبرورة ويعتقدونها كذلك، لذلك نبه سبحانه على خطئهم، وأرشدهم إلى البر الحقيقي بقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ المقبول عند الله بر ﴿مَنِ اتَّقَى﴾ عن محارم الله مطلقًا حين لبس الإحرام؛ إذ الإحرام للموت الإرادي المعبر عنه بلسان الشرع بالحج بمنزلة الكفن للموت الطبيعي، فكما أن لابس الكفن محفوظ عن جميع المحارم اضطرارًا، كذلك لابس الإحرام لا بد أن يتقي نفسه عن جميع المحارم إرادة واختيارًا ﴿وَ﴾ إذا لم يكن الدخول من ظهور البيوت وثقبه من البر ﴿أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ مغمضين عيونكم عن محارم الله ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ مخلصين له خائفين منه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:189] رجاء أن تفوزوا بالفلاح من عند الله بسبب تقواكم.

﴿وَ﴾ من جملة الحدود الموضوعة فيكم: القتال مع أعداء دينكم ﴿قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع المشركين المعرضين عن طريق الحق، المائلين عنه تعنتًا واستكبارًا وخصوصًا مع ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ويقصدون استئصالكم بادين للقتال مجترئين عليها ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ ولا تتجاوزوا أيها المؤمنون عما نهيتم عنه من قتل المعاهد، والفجر والاقتحام فجأة، والمقاتلة في الحرم وفي الشهور المحرمة، والابتداء بالمقاتلة وغير ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190] [1] المتجاوزين عن الحدود والعهود.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:191-194].

﴿وَ﴾ إن اجتمعوا لقتالكم وتوجهوا نحوكم ﴿اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكان وجدتموهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم﴾ إن ظفرتم عليهم ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: مكة ﴿وَ﴾ ألقوا بينهم الفتن والاضطراب وأوقعوهم في حيص بيص؛ إذ ﴿الْفِتْنَةُ أَشَدُّ﴾ أثرًا ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ لأن أثر القتل منقطع به وأثر الفتنة مستمر دائم غير منقطع ﴿وَ﴾ عليكم المحافظة للعهود خصوصًا ﴿لاَ تُقَاتِلُوهُمْ﴾ وأنتم بادون للقتل ﴿عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حرم فيه إزالة الحياة مطلقًا ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ وهم بادون معتدون عن حدود الله ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ بعد ذلك فيه أيضًا قائلين: ﴿كَذَلِكَ جزاءُ

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ثم أخبر عن النجاة وطريق نيل الدرجات بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:190]، والإشارة في تحقيق الآية أن قاتلوا من يمنعكم عن السير في سبيل الله، أو أراد أن يقطع عليكم طريقه من شياطين الأنس والجن حتى نفوسكم، وإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول إذا رجع من جهاد: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة:190]؛ أي: لا تجاوزوا عن حد الشرع، فتجاهدوا بالطبع ولكن كونوا قائمين على قدم الاستقامة بقدر الاستطاعة، وهو أن تقولوا حيث ما توقفون، وتفعلوا ما به تؤمرون، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190]، فلا تجمعون طرفي الإفراط والتفريط.

الكَافِرِين﴾ [البقرة:191] الهاتكين حرمة بيت الله.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر والقتال مع المؤمنين وآمنوا على وجه الإخلاص ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الكفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:192] لهم بما ظهر منهم من الإيمان والإسلام.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون إلى أن تستأصلوهم ﴿حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: لا تبقى فتنة يفتتنون بها ويشوشون منها ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ﴾ كله ﴿لِلهِ﴾ بلا مزاحم ولا مخاصم ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن كفرهم بلا مقاتلةٍ ودخلوا في دين الإسلام طائعين ﴿فَلاَ عُدْوَانَ﴾ ولا عداوة باقيًا لكم معهم، بل هم إخوانكم في الدين ﴿إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:193] أي: مع الظالمين منهم المجاوزين عن الحدود والعهود، المصرين على ما هم عليه من الكفر والجحود.

وبعد ما قاتل المشركون مع المؤمنين عام الحديبية في ذي القعدة الحرام، عزم المؤمنون الخروج إلى مكة لعمرة القضاء أيضًا فيها في السنة الثانية وهم يكرهون القتال؛ لئلا يهتكوا حرمة شهرهم هذا كما هتكوا، أنزل الله عليهم هذه الآية فقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: لا ينالوا ولا يمتنعوا عن القتال فيه؛ إذ هتككم حرمة شهركم في هذه السنة بسبب هتكهم حرمته في السنة السابقة، فيؤول كلا الهتكين إليهم ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أي: واعلموا أن الحرمات التي يجب محافظتها وعدم هتكها يجري فيها القصاص بالمثل، فلما هتكوا حرمة هذا الشهر في السنة السابقة، فافعلوا معهم في هذه السنة بمثله ولا تجاوزوا عنه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ وهذا أيضًا من الحدود الموضوعة بينكم لإصلاح حالكم وتهذيب أخلاقكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تتخلفوا عن حدوده بالإقدام على ما نهيتم عنه، والإعراض عما أمرتم به ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المدبر لكم المصالح لأحوالكم ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:194] منكم، وهم الذين يحفظون نفوسهم عن محارم الله ومنهياته، ويرغبونها نحو أوامر الله ومرضياته.

﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ

إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة:190-196].

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق الموضوعة فيكم: الإنفاق من فواضل أموالكم إلى الفقراء والمساكين الذين أسكنهم الاحتياج والإسكان في زاوية الخمول ﴿وَأَنفِقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مقتصدين فيه بين طرفي التبذير والتقتير المذمومين عند الله وعند المؤمنين ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ أنفسكم ﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ والمشقة بالإسراف والتضييع أو بالبخل والتقتير؛ إذ بالبخل تبقى النفس في ظلمة الإمكان وتوطن في وحشة الحرمان والخذلان ﴿وَ﴾ من جملة أخلاقكم الإحسان ﴿أَحْسِنُوا﴾ أيها المتوجهون إلى فضاء التوحيد أخلاقكم وأعمالكم وجميع أوصافكم؛ إذ ما من نبي ولا وليٍ إلا هو مجبول على حسن الأخلاق والشيم المقتبسة من أخلاق الله سبحانه، لذلك استحقوا الخلافة والنيابة ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195] المتفضلين بالأموال والأعمال.

﴿وَ﴾ من الأركان المفروضة في دينكم أيها المحمديون ﴿أَتِمُّوا الْحَجَّ﴾ أي: الخصائل والنسك المحفوظة المفروضة فيه، وإن أدى إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَالْعُمْرَةَ﴾ الأمور المسنونة فيه ﴿لِلهِ﴾ قاصدين التقرب إليه والتوجه إلى بابه؛ إذ الحج الحقيقي هو الوصول إلى الكعبة الحقيقية التي هي الذات الأحدية ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنعتم وحبستم بعدما أحرمتم للحج والعمرة من الوصول إلى الميقات، وتتميم الواجبات ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليكم إذا أردتم التحلل والخروج من الإحرام، ذبح ما تيسر لكم حصوله من الهدي المحلل، مثل البقرة والبدنة والشاة وغيرها بحسب طاقتكم وقدرتكم، بأن تبعثوها إلى الحرم أو تذبحوها حيث أحصرتم ﴿وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أيها المحصورون المريدون التحلل ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ المبعوث إليه، أو تذبحونه في المكان المحصور فيه، والحاصل ألّا تحلقوا رءوسكم قبل ذبح الهدي أو قبل وصولها إلى الحرم.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ازداد بشعر الرأس ﴿أَوْ بِهِ أَذًى﴾ ناشئًا ﴿مِّن﴾ شعر ﴿رَّأْسِهِ﴾ من تزاحم قمل أو صداع مفرطٍ أو جرب مشوش وحلق لأجله ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ أي:

فاللازم عليه الفدية سواء كان ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ مقدر بثلاثة أيام للفقراء العاجزين عن غيره ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ مقدرة بثلاثة آصع من الطعام للمتوسطين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾[1] من بدنة أو بقرة أو شاة للأغنياء على اختلاف طبقاتهم ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: إذا أحرمتم للحج حال كونكم آمنين من الموانع من إحصار العدو والمرض العارض ونزول الحادثة وغير ذلك من العوائق، فعليكم إتمام نسكه على الوجه الذي أمرتم به بلا إهمال شيء من آدابه المحفوظة فيه.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ﴾ تقرب إلى الله ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ من أشهر الحج قبل تقربه إليه بالحج، وبعد ما تم مناسك عمرته قصد ﴿إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ أي: فعليه ما استيسره ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ ويقال له عند الفقهاء: دم الجبران، يذبح حين أحرم للحج ولا تأكلوا منه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الهدي منكم لفقره ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي﴾ زمان ﴿الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إلى أوطانكم وأهليكم؛ إذ الصوم فيها خصوصًا في أيام الحج من أصعب المشاق المفضي إلى الحرج ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قائمة مقام الهدي للفقراء الغرباء الفاقدين وجه الهداية، وإنما أمرتم بصوم ثلاثة فيها؛ لئلا تحرموا عن إتمام متممات الحج في أوقاته ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: من جملة المتوطنين فيها، أو في حواليها أقل من مقدار مسافة القصر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في محافظة أوامره التعبدية ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بضمائر المتهاونين في أوامره ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:196][2] إذ أكثر الأمور الشرعية والعزائم الدينية

---

(1) ورد في التأويلات: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إن عارض لأحدكم مرض في الإرادة أو ضعف في الطلب ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إذ يعله وتعتريه مانعات من إكماله من غير فترة من نفسه، فلم يجد بدا من الإقامة بفناء الرخص والنزول بساحة تأويلات العلم، فليجتهد أن لا يتصرف خطوة من الطريق ولا يعرض لمحة عن هذا الفريق، فإنه قال بعضهم: من أقبل على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله بل يلازم عتبة الفقر، وإنه طار الفرج بالصبر، ويتدارك الأمر بما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: الإمساك عن المشارب، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: بالخروج عن المعلوم، والتقرب بما أمكنه من التضرع والابتهال والتطوف على الأولياء وخدمة الفقراء، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:196]، أو بذبح النفس في مقامات الشدائد والصبر على البلاء، وبذل المجهود في طلب المقصود.

(2) قال الشيخ البقلي: أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة

تعبدي لا يدرك سره، خصوصًا الأعمال المنسوبة إلى الحج.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة:197-198].

ثم لما أمر سبحانه عباده بالحج، بأن يأتوا إلى بيته من كل بلد بعيد وفج عميق، عين له وقتًا معينًا من الأوقات التي لها فضيلة ومنزلة عنده سبحانه، فقال: ﴿ٱلْحَجُّ﴾ أي: أوقات الحج ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ متبركات معروفات، وهي: شوال وذو القعدة وذو الحجة بتمامها أو بعضها على ما خولف فيه ﴿فَمَن فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ بأن ارتكب بشرائطه وأركانه عاديًا له في خلال هذه الأشهر، لزمه إتمامه بلا فسخ

بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلبًا بفنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر إتمام حقيقة الإجابة، بأن يقولوا: لبيك، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: اصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تميلوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابذلوا أنفسكم هديًا لله ليرشدكم لشفقته عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضًا فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحللوا من قتل نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قُربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحظوظ البشرية، فأثابها الله بالإحصار في وطنات الطبيعة،

العزيمة وقلب النية وحل المحرمات فيه ﴿فَلاَ رَفَثَ﴾ أي: لا جماع ولا وقاع وإن طالت المدة ﴿وَلاَ فُسُوقَ﴾ ولا خروج عن حدود الله بارتكاب المحظورات ﴿وَلاَ جِدَالَ﴾ ولا مجادلة ولا مراءاة مع الخدام والرفقاء ﴿فِي﴾ أيام ﴿الْحَجِّ﴾ إذ الحج كناية عن الموت الإرادي المنبئ عن الحياة الحقيقية، وهذه الأمور من أوصاف الأحياء بالحياة الطبيعية، فمن قصد الحج الحقيقي والحياة الحقيقية، فله أن يميت نفسه من لوازم الحياة الطبيعية المستعارة، الغير القارة؛ ليفوز بالحياة الحقيقية الأزلية والبقاء الأبدي السرمدي، وذلك لا يتيسر إلا بالخروج عن مقتضيات عقل الجزئي المشوب بالوهم والخيال، بل هو مقلوب منها محكوم لها دائمًا.

ولا يحصل ذلك إلا للسالك الناسك الذي جذبه الحق عن نفسه متدرجًا مرتقيًا من عالمٍ إلى عالمٍ من العوالم المنتخبة عنها ذاته إلى أن وصل إلى مقامٍ ومرتبةٍ طويت المراتب كلها عنده، وفنيت العوالم بأسرها فيها، وفني فيها أيضًا، وهي فناؤها أيضًا فيها، ولم ينزل فيها هابطًا أصلاً، بل تقرر وتمكن واطمأن فيها كما نشاهد مثلها متحسرين، متمنين لها من بعض بدلاء الزمان، مد الله ظلاله العالي على مفارق أهل اليقين والعرفان، وإبهام اسمه لإبهام شأنه، هيهات هيهات ما لنا وما لحتى حتى نتكلم عنه.

جعلنا الله من خُدَّام تُراب أقدامه.

وبعدما أمر سبحانه عباده بحج بيته تعظيمًا له ولبيته، حثهم على الخيرات، وبذل المال فيها وفي طريقها؛ لتقرر في نفوسهم هذه الخصلة الحميدة؛ إذ هو المانع من ميل القلوب إلى المحبوب الحقيقي وهو رأس كل فتنة فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ لرضاء الله ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ خالصٍ عن ثوب المنة والأذى، عارٍ عن العجب والرياء، سالمٍ عن وسوسة شياطين الأهواء ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ بالحضور؛ إذ أمثال هذه الخيرات جارٍ على الصراط المستقيم الذي هو صراط الله الأعظم الأقوم ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ للعبور على صراط الله بالتقوى عن الدنيا وما فيها ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ﴾ للعباد ليوم المعاد هو ﴿التَّقْوَى﴾ عن جميع الفساد ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ [البقرة:197] المتوجهين إلى لب اللباب، المتمايلين عن القشور العائقة عن الحضور، أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿جُنَاحٌ﴾ ضيق وتعب بعد اتقائكم من سخط الله وتزودكم بالتقوى ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ أي: كل منكم ﴿فَضْلاً﴾ من المعارف اليقينية واللذات الروحانية ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم﴾ أيها المؤمنون

﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ الذات المحيطة بجميع الصفات المرتبة لكم، جمعها باعتبار وصول كل من الواصلين إليها بطريق مخصوص، وإن كانت بعد الوصول واحدةً، وحدةً حقيقيةً ذاتيةً لا كثرة فيها أصلاً ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ المستجمع لذواتكم ﴿عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ أي: الصفات المحرمة ثبوتها لغير ذات الله، أفرده لاختصاص كلٍ بصفة مخصوصة يربيه ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ بتفويض الأمور كلها إليه، واتقائكم نحوه من وساوس الشياطين المضلة ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل إهدائه ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:198] التائهين في بيداء الضلالة، الناكبين عن الهداية الحقيقية.

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: 199-202].

﴿ثُمَّ﴾ لما تم توجهكم ووقوفكم بعرفة الذات وتحققكم بها ﴿أَفِيضُوا﴾ منها ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ إلى المراتب المترتبة إلى الصفات ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ المحيط بكم فيها ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ ساتر لرتبكم وتعيناتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:199] لكم بإيصالكم إلى مبدئكم الأصلي.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾[1] المأمور لكم من الاجتناب عن مقتضيات الحياة

---

(1) قال الشيخ نجم الدين أي: قضيتم مناسك وصلكم، وبلغتم محل الرجال البالغين من أهل الكمال الواصلين، فلا تأمنوا مكر الله ولا تهملوا وظائف ذكر الله، فاذكروا الله كذكركم آبائكم، كما تذكرون في حال طفوليتكم آباءكم للحاجة، والافتقار بالعجز والانكسار في حالة رجوليتكم تذكرون آباءكم للحجة، والافتخار بالمحبة، والاستظهار فاذكروا الله افتقارًا وافتخارًا؛ لأنه يمكن للطفل الاستغناء عن أبيه، وكذلك البالغ يحتمل أن يفتخر بغير أبيه ولكن العباد ليس لهم من دون الله من ولي ولا واق؛ ولهذا كان النبي ﷺ مع كمال بلاغته يفتقر إلى الله تعالى ويقول: «اللهم واقية كواقية الوليد»ويفتخر بافتقاره، ويقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر والفقر فخري».

الطبيعية والاتصاف بمقتضيات المعين الحقيقية ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الهادي لكم إلى هذه المرتبة ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ بلا ترددٍ وتشكيكٍ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بل ذكر الله أشد في الوضوح من ذكر الآباء؛ إذ يجري فيه التشكيك بخلاف ذكر الله المتفرع على الشهود، المستتبع للفناء فيه، فإنه خال عن وصمة الريب ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ يحصر التوجه والرجوع إلى الله والمناجاة معه للنشأة الأولى، و﴿يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ ما نحن محتاجون إليها من أمور المعاش ﴿وَ﴾ هو إن وصل إلى مبتغاه في الدنيا ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:200] نصيبٍ؛ لصرفه استعداده إلى ما لا يغنيه بل يضره.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ﴾ جامعًا بين الظاهر والباطن والأولى والأخرى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ترضى بها عنا فيها ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ توصلنا إلى توحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:201] أي: الإمكان المحوج إلى الذات الوهمية.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموفون الموحدون الجامعون بين مرتبتي الظاهر والباطن ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ حظ كامل ﴿مِّمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا التي هي مزرعة الآخرة من المعارف اللدنية والكشوف الإلهية ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بهم وبضمائرهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202][1] يحاسبهم ويجازيهم على ما كسبوا.

﴿ ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي: حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهده الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضًا حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضًا بحسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضًا حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صاف على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور، وقيل: حسنة الدنيا الإغراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عنك فهو مشئوم، وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة، وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء. وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم، وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك. ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أن تحرمنا ذكرك.

وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ [البقرة:203-206].

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بعد تتميمكم مناسككم ووقوفكم بعرفة ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ أي: استعجل للرجوع والنفر ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: في ثاني أيام التشريق ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ باستعجاله ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ أيضًا ﴿فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بتأخيره؛ يعني: أنتم مخيرون في استعجال النفرة وتأخيرها بعدما وصلتم، والفوز والعافية ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ إلى الله عن محارمه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع ما صدر عنكم، واستحفظوا منه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ بأجمعكم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203] ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَ﴾ من جملة الآداب الموضوعة فيكم بوضع الله المدبر لأموركم المهذب لأخلاقكم: الاجتناب عن الجلساء السوء، لذلك خاطب سبحانه نبيه ﷺ امتنانًا عليه وإرشادًا لكم، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المجبولين على البغض والنفاق، المستمرين عليه دائمًا بلا تصفية ووفاق ﴿مَن يُعْجِبُكَ﴾ يوقعك في العجب المحير العارض لنفسك بلا علمك بموجبه وسببه ﴿قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: مقوله المتعلق بأمور الدنيا وأسباب المعاش، بأن من تسلم أمور الدنيا وترتيبها يتوصل إلى الآخرة ولذاتها، كما هو المشهور بين أهل الدنيا، ويسمونه عقل المعاش ﴿وَ﴾ مع إغرائه وتغريره ﴿يُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ من حب الدنيا، ويدعي موافقة كلام الله وحكمه المودعة فيه على ما يدعيه، لا تغفل عنه ولا تسمع قوله ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة:204] وأشد العداوة والجدال معك ومع من تبعك من المؤمنين.

قيل: نزلت في الأخنس بن شريك الثقفي، وكان من بلغائهم وفصحائهم، له الوجاهة والحسن والطلاقة، يتردد إلى النبي ﷺ ويصاحب معه ويظهر المحبة والإخلاص، ويدعي الإيمان والانقياد.

﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر من عنده ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ الموضوعة للإصلاح والتعمير ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ بأنواع الفسادات ﴿وَ﴾ من جملة ذلك أنه ﴿يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ بالظلم والفسوق والعصيان المتجاوز للحد مثل: الزنا وقطع الطريق والخروج على الولاة القائمين بحدود الله المقيمين بأحكامه، كالمتمشيخة المبتدعة التي ظهرت في هذه الأمة بإفساد عقائد ضعفاء المسلمين بالشيخوخة، وترغيبهم إلى البدع والأهواء الباطلة المؤدية إلى تحليل المحرمات الشرعية، ورفع التكليفات الدينية والمعتقدات اليقينية، شتت الله شملهم وفرق جمعهم ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:205].

﴿وَ﴾ من غاية عتوه وعناده ونهاية استكباره ﴿إِذَا قِيلَ لَهُ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ عن أمثال هذه الفضائح واستح منه ﴿أَخَذَتْهُ﴾ هيجته وحركته ﴿الْعِزَّةُ﴾ المرتكزة في نفسه ﴿بِالْإِثْمِ﴾ الذي منع منه لجاجًا وعنادًا ﴿فَحَسْبُهُ﴾ وحسب أمثاله ﴿جَهَنَّمُ﴾ الإمكان الذي يلعبون بنيرانها، كفت مؤنة شرورهم وطغيانهم ﴿وَ﴾ الله ﴿لَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:206] مهدًا لإمكان المستلزم لمهد النيران.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة:207-210].

وأيضًا من جملة الآداب الموضوعة فيكم بل من أجلها: الرضا والتسليم بما جاء من قضاء الله ومقتضياته، لذلك قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ المتشمرين إلى الله بالرضاء والتسليم ﴿مَن يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ ويوقعها في المهلكة لا لداعية تنبعث من نفسها، بل ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طالبًا لرضائه، راضيًا بما قضاه ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بجميع الحالات ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:207] الصابرين في البلوى الطائعين إلى المولى، الراضين بما يحب ويرضى.

ثم لما كان الرضاء والتسليم من أحسن أحوال السالكين المتوجهين إلى الله العزيز العليم، وأرفعها مقدارًا ومنزلةً عنده، أمرهم بها امتنانًا عليهم وإصلاحًا لحالهم،

فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم الرضا والتسليم ﴿ادْخُلُوا﴾ أيها المستكشفون عن سرائر التوحيد ﴿فِي السِّلْمِ﴾ أي: الانقياد والإطاعة المتفرعين على الرضا والإخلاص المنبئين عن التحقق بمقام العبودية ﴿كَافَّةً﴾ أي: ادخلوا في السلم حالة كونكم مجتمعين كافين نفوسكم عما يضر إخلاصكم وتسليمكم ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا﴾ أيها المتوجهون إلى مقام العبودية والرضا إثر ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: الأهواء والآراء المضلة عن طريق الحق، المعبرة عنها في الشرع بالشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:208] [1] ظاهر العداوة والإضلال يضلكم عما يهديكم الحق إليه.

---

(1) ورد في التأويلات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:208] لهامعنيان: معنى عامًا، ومعنى خاصًا؛ فأما المعنى العام مع جميع من آمن في الظاهر ادخلوا في جميع شرائط الإسلام في الباطن كما دخلتهم في شرائعه في الظاهر من شرائطها، قال النبي ﷺ: «المسلم من سَلم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من أمن الناس بوائقه» وأما المعنى الخاص كخطاب حاضر مع شخص الإنسان، وجميع أجزائه الظاهرة كما أن لسانه دخل في الإسلام بالقول، فينبغي أن يدخل أركانه في الإسلام بالفعل، فالعين بالنظر، والأذن بالسمع، والفم بالأكل، والفرج بالشهوة، واليد بالبطش، والرجل بالمشي، ودخول كل واحد منها في الإسلام بأن يستسلم لأوامر الله تعالى، ويجتنب من نواهيه بترك ما لا يعنيه أصلاً، ويقع على ما لا بد له منه، ودخول أجزاء الظاهر في شرائع الإسلام ميسر للمنافق، فإنما إدخال معاني الباطن في شرائط الإسلام وحقائقه، فعريكة إبطال الدين، ومزلة الرجال البالغين، فدخول النفس في الإسلام بخروجها عن كفر صفاتها الذميمة، وعبورها عن طبعها في إيقاع الهوى، وترك ما لو فاتها، ومستحسناتها، ومستلذاتها، ونورها بنور الإسلام، وتتبع أحكامه، واطمئنانها بالعبودية؛ لتستحق بها دخول مقام العباد المخصوصين بخطابه تعالى إياها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27-30]، ودخول القلب في الإسلام بتصفيته عن رذائل أخلاق النفس وخساسة أوصاف الحيوان، وتحليته بشمائل أخلاق الروح، ونفاسة أوصاف الملك، ودخول أنوار الإيمان بكتابة الحق فيه، وتأيده بروح منه كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22]، ففي الحقيقة لا يدخل القلب في الإسلام ما لم يدخل الإيمان في القلب لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، ودخول الروح في الإسلام بتخلقه بأخلاق الله تعالى: وتسليم الأحكام الأزلية، وقطع النظر، والتعلق عما سوى الله بتصرفات الجذبات الألوهية ودخول السر في الإسلام بفنائه في الله، وبقائه بالله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:168]؛ أي: لا تكونوا على سيرته وصفته وهي الاستكبار والإباء فإنه ضد الإسلام وهو الكفر لقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74].

﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ وانصرفتم عن طريق الحق ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ المبينة الموضحة لكم طريقه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:209] لا ينتقم إلا بالحق.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظرون المزلون عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين ﴿إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ بعذابه المدرج المكنون ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ السحاب الأبيض المظل لهم، يتوقعون منه الراحة والرحمة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بجر سحب العذاب إليهم، فأنزل عليهم واستأصلهم بالمرة ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ المبرم المقضي عليه من عنده لانتقامهم كالأمم الماضية ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره من الوسائل والأسباب ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة:210] أولاً وبالذات، وإن تشكك أحد في الانتقام ونزول العذاب على المزلين المنصرفين عن طريق الحق بعد الوضوح والتبيين.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١) زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾ [البقرة:211-213].

قل يا أكمل الرسل نيابة عنا إلزامًا له: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: تذكر قصتهم ﴿كَمْ﴾ كثيرًا ﴿آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ مبينة في كتبهم، فأنكروا عليها ظلمًا وعدوانًا، فأخذناهم بظلمهم إلى أن استأصلناهم بالمرة ﴿وَ﴾ لا يختص هذا ببني إسرائيل، بل ﴿مَن يُبَدِّلْ﴾ ويطير ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ المستلزمة للشكر والإيمان كفرًا وكفرانًا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ الموضحة المبينة، فله من العذاب والنكال ما جرى عليهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:211] صعب الانتقام وسريع الحساب.

ثم ذكر سبحانه مساوئ أهل الكفر وسوء معاملتهم مع المؤمنين المخلصين؛ ليجتنب المؤمنون عن أمثاله، فقال على وجه الإخبار: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: حسن

في عيونهم وارتكز في قلوبهم ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: الحياة المستعارة المنسوبة إلى الدنيا ﴿وَ﴾ أدى أمرهم في هذا التزيين والتحسين إلى أن ﴿يَسْخَرُونَ﴾ ويستهزئون ﴿مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صار المؤمنون لفقرهم وعرائهم عن أمتعة الدنيا الدنية محل استهزائهم وسخريتهم، متى قصدوا الاستهزاء على مناقد الدنيا أخذوا منهم ﴿وَ﴾ الحال أن المؤمنين ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ عن الدنيا ومزخرفاتها الفانية الغير الباقية يكون ﴿فَوْقَهُمْ﴾ رتبة ومنزلة عند الله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد لجزاء الأعمال الصالحة في النشأة الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ الرزاق للكل ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده بالرزق الدنيوي ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:212] فيها، بل مستجبرين متكبرين مفتخرين بمزخرفاتها إلى النشأة الأخرى، فيحاسبهم فيها ويجازيهم عليها، ويرزق أيضًا من يشاء من عباده بالرزق الأخروي بغير حساب، لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى، بل صاروا في حمائه أزلاً وأبدًا لا يشوشهم الحساب ولا تتفاوت عندهم اللذة والعذاب، بل صاروا ما صاروا بلا سترة وحجاب.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿كَانَ النَّاسُ﴾ في الفطرة الأصلية والمرتبة الحقيقية الجبلية ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وملة واحدة مستوجهة إلى مبدئهم الحقيقي ومقصدهم الأصلي طوعًا، ثم اختلفت آراؤهم وتشتت أهواؤهم بشياطين القوى الحيوانية التي هي من جنود إبليس، فظهر بينهم العداوة والبغضاء والمجادلة والمراء ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمورهم ﴿النَّبِيِّينَ﴾ من بني نوعهم، المؤيدين من عند ربهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لهم طريق الإطلاق والتوحيد ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن الكثرة والتقييد ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ﴾ تصديقًا لهم ﴿الْكِتَابَ﴾ الجامع لما يبشر به وينذر عنه ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿لِيَحْكُمَ﴾ كل نبي به ﴿بَيْنَ النَّاسِ﴾ المنسوبين إليه ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من أمور معاشهم ومعادهم[1].

(1) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لمّا رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربه وصفاته وذلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلمّا اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعًا، فأهل الصفوة ساعدهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أي: في الكتاب المنزل إليهم بالتكذيب والإنكار أحد من الناس ﴿إِلَّا﴾ القوم ﴿الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب، وكان اختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحات المصدقات، بأنه منزل لهم من عند الله العليم الحكيم ﴿بَغْيًا﴾ خروجًا عن طريق الحق وحسدًا لأهله واقعًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من وساوس شياطينهم، من الجاه والرئاسة والعتو والاستكبار ﴿فَهَدَى اللَّهُ﴾ بلطفه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالنبي المبعوث، والكتاب المنزل معه ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الأمور الدينية مع المعاندين المنكرين، والحال أنه ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الصريح المطابق للواقع، واختلافاتهم أيضًا معهم إنما يكون ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره المنزل في كتابه ﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد لكل العباد إلى ما هم عليه ﴿يَهْدِي﴾ بفضله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213] الموصل إلى بابه بلا عوج وضلال.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ

مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:23]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمه هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضًا كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربه لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعًا في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادقوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادقوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتاهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء الهوية، وساروا في قفار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادقوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهذا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيمان والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم، ومن هاهنا تفرقت القلوب واشتقاقها عن الموبقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة. [عرائس البيان].

ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة:214-216].

أرجوتم وطمعتم أيها المحمديون المتوجهون إلى زلال التوحيد، وصفو التجريد والتفريد، أن تصلوا إليه بأنيتكم هذه بلا سلوكٍ ومجاهدةٍ، وسكرٍ وصحوٍ، وتلوينٍ وتمكينٍ، وقيدٍ وإطلاقٍ، ونفيٍ وإثباتٍ، وفناءٍ وبقاءٍ، وهيهات هيهات.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ تمنيتم متوقعًا ﴿أَن تَدْخُلُوا﴾ فجأة بهويتكم هذه بلا إفنائها أو فنائها في هوية الله ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي ارتفعت عندها الهويات، واضمحلت دونها الماهيات ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ أي: لم يأتكم ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ أي: شأنهم وقصتهم المشهورة المعروفة المنسوبة إلى الأحرار الأبرار الواصلين إلى دار القرار كيف ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ بأبدانهم وأجسادهم وهوياتهم الجسمانية ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ المذلة الدميمة المزمنة المزعجة المفنية لإتيانهم، وكيف مستهم أيضًا بأرواحهم المتكثرة بأشباحهم المترتبة على الأوصاف الذاتية الإلهية ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ المسقطة للإضافات كلها ﴿وَ﴾ بعد ما وصلوا إلى هذه المرتبة المعبرة بالقيامة والطامات الكبرى عند العارف ﴿زُلْزِلُوا﴾ اضطربوا وتلونوا وتذبذبوا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وكان حالهم بين الحيرة والحسرة يترددون ويتحيرون، إلى أن غلب عليهم المحبة والشوق، وانبعث من المحبة الخالصة والإرادة الصادقة العشق المفرط المنبعث من جذب المعشوق المائل بالطبع نحوه واحتاجوا إلى نصر الله وتوفيقه، وجذبه بلطف، فاضطروا في بين وبين، وأين إلى أين ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ المرشد إلى طريق التوحيد مناجيًا مع الله وأفعاله؛ إذ هم ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ مشايعين له في قوله ودعائه مشاركين معه في نهر الاشتياق والاستبطاء وقلة الصبر والجزع والفزع والاضطرار والمراقبة والانتظار ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ حتى يتخلص من التلون والتمكن والكون والتكون والظهور والإظهار والغيب والشهادة، وغير ذلك من الإضافات.

قيل لهم: وما لنا تعيين القائل؟ إذ لا قائل إلا هو، منبهًا مستقربًا مستعجبًا مستغربًا

﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الممدودة المتعددة المتنشئة من الأوصاف المحمودة الذاتية الأحدية المضافة بعضها إلى بعض ارفعوا إضافتكم عن البين وغشاوتكم عن العين، حتى اتصل العين بالعين، وارتفع البين عن البين وقولوا: وما أدري ها هنا أيضًا ما القائل وما المقول، وما القول وما المقول إليه، وما هذا وماذا؟.

أدركنا بلطفك عن حجاب الألفاظ وغشاوة العبارة.

﴿إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214] حاضر غير مغيبٍ لو تنبهتم إلى ذي ظلكم، والتنبه له محال إلا من كشف سبحانه عليه كيفية الظل والإظلال والاستعداد والتعدد الحاصل فيه، والكوائن الغير المتناهية، والمكونات الغير المحصورة الحاصلة فيه بأشخاصها وأنواعها وأجناسها إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَ﴾ بالجملة: لا تحوم الفهوم حول سرادقات عز جلاله حتى يشقق عن كائناته ومصنوعاته، ليس كمثله شيء ليقاس عليه ولا غيره حتى يسمع منه ويبصر به، وهو السميع البصير العليم، وليس وراء الله مرمى ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الهادي للكل عن الإنفاق وعما ينفق به، ويقولون: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ أي: أي شيء ينفق المنفق في سبيل الله؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿مَا أَنفَقْتُم﴾ سواء كانت تمرة أو كسرة أو حبة أو ذرة صادرة ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ خالص من ثوب المشوب المنة والأذى ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ إليكم نسبًا أولى إن كانوا مستحقين ﴿وَ﴾ بعد ذلك أولاهم ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا متعهد لهم ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم المذلة والهوان ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذين تعذر وصولهم إلى مملوكاتهم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ خالصًا لرضائه سبحانه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:215] لصدوره عنه وعن جريان حكمه وسنته[1].

---

(1) أخبر عن سؤالهم في إنفاق أموالهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة : 215]، والإشارة فيها: أن سؤالهم ماذا ينفقون من جنس الأدب لأهل الطلب لكيلا يتصرفوا في شيء من أموالهم، ويغيروا حالاً من أحوالهم بالهوى والطبع؛ بل بالأمر والشرع يوجب الرفعة والقربة، فليس للعبد تحرك إلا بإذن مولاه، ولا سكون إلا على وفق رضاه؛ لأن العبودية الوقوف حيث ما وفقك الأمر والصرف أينما صرفك الحق؛ فأجاب الله تعالى سؤالهم بقوله: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:215]، دنياوي وأخروي من مال وجاه علم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فابدوا ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:215]. كما أمر النبي ﷺ، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

ثم لما ظهر أمر الإسلام وعلا قدره وارتفع مناره، فرض الله سبحانه على المؤمنين الموقنين بطريق التوحيد المشاجرة والمقاتلة مع المخالفين، الناكبين عن طريق الحق بالشرك والإشراك؛ ليظهر شمس التوحيد على النفاق، ويضمحل شوب الكثرة والثنوية المنبعثة عن الكفر والنفاق، ويتميز الحق عن الباطل والوجود عن العدم العاطل، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْقِتَالُ﴾ مع مخالفيكم من أهل الكثرة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ﴾ مكروه مستهجن ﴿لَكُمْ﴾ مادمتم في أنانيتكم وهويتكم هذا، ومادمتم فيها مع تكثر الإضافات ولوازم الإمكان والإضافات ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ في النشأة الأولى ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ منها ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فيها ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى سواء السبيل ﴿يَعْلَمُ﴾ خيركم ويأمركم به وشركم فيحذركم عنه ﴿وَأَنتُمْ﴾ بهويتكم هذه ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216] شيئًا من الخير والشر، بل لكم الإطاعة والانقياد بما أمر ونهى والعلم عند الله العزيز العليم.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:217-218].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ هو من

[الشعراء:214]، وقال ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» على ترتيب الأمر ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:215] ثم جعل الخير عامًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215] يعني: من أي نوع من أنواع الخيرات مع كل ذي روح كما قال ﷺ: «في كل كبد حراء أجر»، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:215] أي: بالخير الذي تفعلون وبمن معه تفعلون، وبأي اعتقاد ونيته بالحق أو بالباطل بالرياء أو بالإخلاص بالطبع، أو بالشرع بالهوى، أو بالله عليم ومجازيكم عليه بقدرات استحقاقكم.

المحرمات الإلهية أم لا؟ وعن ﴿قِتَالٍ﴾ واقع ﴿فِيهِ﴾ أهو أيضًا من المحرمات أم لا؟ ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للسائلين نيابة عنا: هما من محرماته سبحانه، بل ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ ذنب ﴿كَبِيرٌ﴾ إذ هو خروج عن مقتضى حد الله الموضوع في هذا الشهر ﴿وَ﴾ مع كونه ذنبًا ﴿وَصَدٌّ﴾ منع وصرف للتجار ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المبيح لهم لكسب معاشهم ﴿وَ﴾ مع ذلك، العياذ بالله ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ أي: بالله بعدم إطاعة أمر الله.

روي أنه ﷺ بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية في جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد القفل الذي كان لقريش في جانب الشام، وفيهم عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه، فلما ظفروا عليهم قتلوا الحضرمي وأسروا اثنين واستاقوا العير نحو المدينة وفيها تجارة للطائف أيضًا، وكان ذلك غرة رجب وهم يظنونه من الجمادى.

فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام شهرًا يأمن فيه الخائف ويتردد فيه الناس إلى معاشهم، ثم لما سمع ﷺ بعير قريش قال لعبد الله: «ما أمرت لك القتال في الشهر الحرام وسوق العير فيه»، وشق على أصحاب السرية، وقالوا: ما نبرح حتى تنزل توبتنا فنزلت.

وردُّ رسول الله ﷺ العير والأسارى، فلاموه وعيروه على ما صدر عنه ﴿وَ﴾ قالوا: أنتوجه إلى ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ونمنع الزوار منه؟ ردُّ الله عليهم فقال: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام عدوانًا وعمدًا ﴿مِنْهُ أَكْبَرُ﴾ ذنبًا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ من منع الزوار، والقتل سهوًا أو خطأ ناشئًا من عدم التدبر في تعين الوقت؛ إذ الإخراج: افتتان بني المسلمين المستأهلين ببيت الله ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ إذ شرها عام ممد بخلاف القتل.

﴿وَ﴾ الحاصل أن الكفار المصرين على الكفر والعناد ﴿لاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ المنزل عليكم من ربكم هداية لكم ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ والحال إنه ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ الذي هو الإيمان والتوحيد ﴿فَيَمُتْ﴾ بعد الارتداد ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ساتر طريق الحق، تارك مشرب التوحيد ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الكافرون المرتدون عن طريق الإيمان والإسلام ﴿حَبِطَتْ﴾ هلكت وسقطت عن الاعتبار عند الله ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ بالمرة إضلالاً ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ لحرمانهم عن مصاحبة أهل الإيمان والفرقان ﴿وَ﴾ لا في ﴿الآخِرَةِ﴾ لإرجاعهم نفوسهم إلى قعر الإمكان المفضي إلى أسفل دركات النيران ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المحرومون عن لذة التوحيد

﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:217] إلى ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتوحيد الذاتي وأدى إيمانهم إلى أن وصلوا إلى مرتبة اليقين العلمي ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وتركوا ما يضاده وينازعه إلى أن وصلوا إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع نفوسهم إلى أن وصلوا بل اتصلوا باليقين الحقي ﴿أُولَئِكَ﴾ المقربون المدرجون في طريق الوصول ﴿يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ ما داموا في السلوك بأشباحهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ ساتر لهم أشباحهم عن عيون بصائرهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [البقرة:218] لهم، يوصلهم إلى ما يتوجهون إليه من جنة الذات بمنه وجوده.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)﴾ [البقرة:219-220].

﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ﴾ حرمة ﴿الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾[1] أهما من

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا﴾ [البقرة:219]، والإشارة فيها أن الخمر الظاهر كما يتخذ من أجناس مختلفة كالعنب والتمر والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك فكذلك خمر الباطن من أجناس مختلفة كالغفلة والشهوة والهوى وحب الدنيا وأمثالها، وهذا الخمور تسكر النفوس والعقول الإنسانية وفيها ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:219]، ولهذا كل مسكر حرام، وما يسكر كثيره فقليله حرام، ومنها ما يسكر القلوب والأرواح والأسرار وهو شراب الواودات وأقداح المشاهدات من ساقي تجلي الصفات، فإذا أدارت الكئوس انخمدت النفوس، وتسكر القلوب بالمواجيد عن المؤاعيد، والأرواح بالشهود عن الوجود، والأسرار بلحظ الجمال عن ملاحظة الكمال، فهذا شراب حل ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:219]، قال قائلهم:

فتهجرك من لفظي هو الوصل كله   وسكرك من لحظي فسح لك الشرب

فما مل ساقينا وما مل شارب   عقار لحاظ كأسها يسكر اللب

المحرمات الإلهية أم لا؟ ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ أمَّا في الخمر؛ فلكونه معطلاً مزيلاً للعقل الجزئي المودع في الإنسان، ليتوصل به إلى العقل الكل المتفرع إلى اسم العليم، الشامل لجميع ما كان ويكون، وهو اللوح المحفوظ والكتاب المبين وأمَّا في الميسر فلكونه متلفًا للمال الذي هو سبب تعمير البدن، الذي هو مخزن جوهر العقل المذكور الذي اختص به الإنسان، وبه استحق مرتبة الخلافة والنيابة.

﴿وَ﴾ فيهما ﴿مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: لبعضهم من المرض الذي لا يمكنهم العلاج بدون إزالة عقولهم، والتداوي لهم منحصر في الخمر عند المتطببين، ومن استغناء بعض السفلة من الناس واسترزاقهم بالميسر ﴿وَ﴾ لكن ﴿إِثْمُهُمَا﴾ عند أولي النهي واليقين ﴿أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ عندهم، بل لا نفع فيهما بالنسبة إليهم؛ إذ لا يبقى لهم رابطة مع أبدانهم ليصلحوا ويصححوا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا يا أكمل الرسل: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أي شيء ينفقون، على أي وجه ينفقون؟ ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا: أنفقوا ﴿الْعَفْوَ﴾ الفاضل من أموالكم؛ لئلا يتضرروا بالجهد، وليسهل عليكم التجاوز عنه، ولا يشق عليكم إنفاقه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: على الوجه الأحسن الأسهل ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ جميع ﴿الْآيَاتِ﴾ المنزلة عليكم إصلاح حالكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 219] رجاء أن تتأملوا:

﴿فِي﴾ الآيات المتعلقة لأمور ﴿الدُّنْيَا﴾ فتصفوا بما فيها ﴿وَ﴾ أيضًا تأملوا في الآيات المتعلقة لأمور ﴿الْآخِرَةِ﴾ فتحققوا بها، وتمكنوا عليها واطمأنوا بسببها؛ ليتم لكم تهذيب الظاهر والباطن، وبعد ذلك يترتب ما يترتب ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا ﴿عَنِ﴾ أحوال ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لم يبلغوا الحلم، ولا متعهد لهم من ذوي القربى ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ

فالعجب كل العجب أن قومًا أسكرهم الشراب، وقومًا أسكرهم شهود الساقي كقولهم:

وكان سكري من المدير ... فأسكرَ القومَ دورُ كأسِ

وإثم الإعراض عن كئوس الوصال في النهاية أكبر من نفع الطلب ألف سنة في البداية، وكما أن السكران ممنوع من الصلاة فسكران الغفلة والهوى ممنوع عن المواصلات، وأما إثم الميسر فهي إن آثار القمار هي شعار أكثر أهل الديار في سلوك طريق الحيل والخداع بالفعل والكذب والفحش في المقال، وإنه كبير عند الأخيار بعيد عن خصال الأبرار، وأما نفعه فعلم التفات إلى الكونين، وبذل نقوش العللين في قروانية نقش الكعبتين: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219] لأن إثمهما للعوام ونفعهما للخواص وقليل ما هم.

﴿لَهُمْ﴾ أحوالهم ﴿خَيْرٌ﴾ من إيقائهم في المذلة والهوان ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ من غاية المرحمة والإشفاق ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ في الدين، يجزيكم الله خيرًا إن كنتم قاصدين فيه إصلاحهم ورعايتهم، دون إفساد مالهم وعرضهم ﴿وَاللهُ﴾ المطلع بمقاصدكم ﴿يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ المبطل منكم ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ المحق، فيجازي كلاً منهم على مقتضى علمه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ المطلع لإفسادكم وإعناتكم أن يفسد عليكم ويعنتكم ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أذلكم وأفسدكم أشد من إفسادكم وإعناتكم إياهم ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:220] لا ينتقم بلا موجب.

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ [البقرة:221-223].

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام الموضوعة لإصلاحكم أن ﴿لاَ تَنكِحُوا﴾ أيها المؤمنون النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ الكافرات ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ لئلا يختلط ماؤكم بمائهن، وليوجد الولد على فطرة الإسلام ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ﴾ لكم أن تنكحوها ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ حرة ﴿مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ مالها وجمالها ﴿وَلاَ تُنكِحُوا﴾ أيتها المؤمنات ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ الكافرين ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ﴾ اعلمن أيتها المؤمنات ﴿لَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ لنكاحكن ﴿خَيْرٌ مِّن﴾ حر ﴿مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ماله وجماله؛ إذ لا كفاءة بين المؤمن والكافر ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المشركون والمشركات ﴿يَدْعُونَ﴾ أي: يريدون دعوتكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ المتفرعة على شركهم وكفرهم ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لكم إلى اختلاط المؤمنين والمؤمنات، الحافظ لمكافأتكم في النكاح والإنكاح ﴿يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ﴾ المتفرعة على الإيمان والتوحيد ﴿وَالْمَغْفِرَةِ﴾ المستلزمة لدفع الآثام والمعاصي ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بتوفيقه وإقداره ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه وآدابه وأخلاقه في كتابه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

[البقرة:221] رجاء أن يتذكروا ويتعظوا بها ليهتدوا إلى زلال التوحيد.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أيضًا ﴿عَنِ الْمَحِيضِ﴾ روي أن أهل الجاهلية كانوا لم يساكنوا الحيّض ولم يؤاكلوها كفعل اليهود والمجوس، واستمر ذلك إلى أن سألوا أبا الدحداح مع جمع من الصحابة عن ذلك فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ مؤذٍ يتأذى منه من يقربه ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالإتيان والوقاع لا بالمصاحبة والمخالطة والمؤاكلة ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ قاصدين فيه حكمة إبقاء نوع الإنسان المستخلف عن الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ عن الميل إلى خلاف ما أمر الله به ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:222] [1] عن الأدناس الظاهرة والباطنة.

﴿نِسَاؤُكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [2] أي: موضع حراثتكم ومحل إتيانكم ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ مقبلين أو مدبرين، روي أن اليهود كانوا يقولون: من جامع امرأته من جانب دبرها كان ولده أحول، رد الله عليهم بهذه الآية ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أيها المستكشفون عن سرائر الأمور من الحكم والأسرار المودعة في التلذذ والنزول

---

(1) قال نجم الدين كبرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:222]؛ أي: محافظي النفس عن المنهيات ويحب المتطهرين أي: مربي النفس بالمأمورات، فكما أن للنساء محيضًا في الظاهر، وهو سبب نقصان إيمانهن عن الصلاة والصيام، فكذلك للرجال محيض في الباطن هو سبب نقصان إيمانهم عن حقيقة الصلاة هي المناجاة وعن حقيقة الصيام، وهو الإمساك عن مشتهيات النفوس، وهو هوى النفس كما أن المحيض هو سيلان الدم عن الفرج، فكذلك الهوى هو غلبات دواعي الصفات البشرية والحاجات الإنسانية فكلما غلب الهوى تكدر الصفاء، وحصل الأذى وقيل: قطرة من الهوى تكدر بحرًا من الصفاء فحينئذ غلبة منعت النفس عن الصلاة والصوم في الحقيقة، وإن كانت مشغولة بها في الصورة فأذى الحيض الصوري إن الحائض ممنوعة عن القربات بالصورة لا بالمعنى، وأذى الحيض المعنوي إن الحائض ممنوع عن القربات بالمعنى لا بالصورة إذا نودي قلوب الرجال من سرادقات الجلال، فاعتزلوا النساء النفوس في المحيض غلبات الهوى حتى يطهرن أن يفرغن من قضاء الحوائج الضرورية للإنسان من المأكول والمشروب والمنكوح وغير ذلك، فإذا تطهرن بماء التوبة والاستغفار والإنابة رجعن إلى الحضرة في طلب القربة فأتوهن بالتصرف فيهن من حيث أمركم الله يعني: عند ظهور شواهد الحق بزهوق باطل النفس واضمحلال هواها إن الله يحب التوابين عن أوصاف الوجود، ويحب المتطهرين بأخلاق المعبود بل يحب التوابين عن بقاء الشهود.

(2) قال الشيخ ابن عجيبة: أي مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (182/1).

والانبعاث والشوقِ والانتعاش، وأنواع الكيفيات المستحدثة عند الوقاع لإيجاد النسل وإبقاء النوع، ولا تغفلوا عن سرائره، ولا تطمئنوا بمجرد قضاء الشهوة كالحيوانات العُجم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن الخيانة والخباثة، والإتيان إلى غير المآتي المأمورة في الشرع، وغير ذلك من المحظورات المسقطة لحرمات الله الواقعة في أمر الجماع والاجتماع؛ إذ هو منزلة إقدام أولي الأحلام من عظماء الأنام ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم﴾ بأجمعكم ﴿مُّلَاقُوهُ﴾ سبحانه فتزودوا بزادٍ يليق بجنابه ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:223] القائمين بحدود الله، المحافظين عليها دائمًا، الخائفين من خشية الله، الراجين من رحمة الله بأن لهم عند ربهم روضة الرضاء وجنة التسليم.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥) لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾ [البقرة:224-227].

﴿وَ﴾ من جملة الأخلاق المنزلة لكم أن ﴿لاَ تَجْعَلُوا﴾ اسم ﴿اللهَ عُرْضَةً﴾ وجهة ومعرضًا ﴿لأَيْمَانِكُمْ﴾ المتعلقة بكل دني خسيس وحقٍ وباطل؛ أي: لا تكثروا الحلف بالله في الأمور؛ إذ أنتم بشريتكم ما تخلون عن شوب الكذب والبطلان، ما لكم والتلفظ باسم الحق الحقيق بالحقية لترويج الأمور المزخرفة الباطلة ﴿أَن تَبَرُّوا﴾ افعلوا الخيرات وواظبوا على الطاعات، وتوجهوا إلى الله في عموم الأوقات وشمول الحالات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تَتَّقُوا﴾ اجتنبوا عن المحظورات، واحذروا عن المحرمات، وارجعوا نحو ربكم بإسقاط الإضافات ﴿وَ﴾ إن أردتم أن ﴿تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ تليينًا لقلوبهم، ادعوهم إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أقوم ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لإيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:224] بنياتكم فيجازيكم على مقتضى علمه بحالكم، هذا في الأيمان المثبتة للوقائع والأحكام، المقاربة للقصد والإرادة.

وأما الأيمان الجارية على ألسنة العوام بلا إثبات ونفي، بل على سبيل الاتفاق فمما يُعفى عنه، فلذلك قال سبحانه: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ﴾ الواقع ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بلا قصدٍ وإرادةٍ ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ بواسطة الأيمان الكاذبة من

الأمور الباطلة التي لا تطابق الواقع، فلبستم فيها وأثبتم بها ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لكم لو تبتم ورجعتم إليه عما كسبتم من الآثام ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:225] بالانتقام رجاء أن يتوبوا عنها.

ثم قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون أن يمتنعوا ﴿مِن﴾ وقاع ﴿نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: يلزم عليهم الانتظار إلى أن تنقضي مدة أربعة أشهر ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ أي: رجعوا في هذه المدة عن الحلف بأن جامعوا معهن، حنثوا ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ بحنثهم يتجاوز عنهم بالكفارة ﴿رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:226] لهم بإبقاء النكاح بينهم.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ بلا حنث الحلف ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع منهم الطلاق ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:227] بنفرة قلوبهم منهن.

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾ [البقرة:228-230].

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ المدخولات بهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: مضى مدتها والقروء: يطلق على الحيض والطهر، وأصل وضعه للانتقال من الطهر إلى الحيض، وهو المراد في الآية لأنه لاستبراء الرحم والدال على البراءة، هذا ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي: المطلقات المعتدات ﴿أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ مدة العدة من الحيض؛ لئلا يختلط النسب ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ﴾ العالم بالسرائر ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الذي تبلى فيه جميع السرائر والضمائر ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ﴾ أليق وأولى ﴿بِرَدِّهِنَّ﴾ إليهم ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي: في زمان التربص ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ أي: الأزواج ﴿إِصْلَاحاً وَ﴾ اعلموا أيها

المؤمنون ﴿لَهُنَّ﴾ عليكم من الرعاية والمحافظة على آداب الخدمة، والاستئناس وغير ذلك ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لكم ﴿عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من الحقوق والرعاية والمحافظة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فضيلة بحسب الخلق والعقل والتميز وكمال الإيمان والمحافظة على حدود الله وامتثال مأموراته ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ يعز من يشاء من عباده ويذل من يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:228] في فعله لا يُسأل عما يفعل.

﴿الطَّلاقُ﴾ الصادر من أولي العزائم وذوي الألباب ﴿مَرَّتَانِ﴾ مرة عند عروض النفرة المنافية للرغبة السابقة، المستلزمة للزواج والازدواج، المنبعث عن طبيعته المقتضية بالطبع للاختلافات والازدواجات الواقعة بين أسبابها، وهي الأوصاف الإلهية، ثم إذا رجع العازم عنه لا بد أن يكون رجوعه أيضًا عن رويةٍ وتدبرٍ، بأن يلاحظ أنه سبب انبعاث الرغبة السابقة واشتياقها ثانيًا، فيكذب نفسه ويرجع إليها، وإن طلقها بعد تلك المراجعة ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فعليه بعد الطلقة الثانية أحد الأمرين، ولا يتجاوز عنه إلى الطلقة الثالثة، وإلا لسقط عن زمرة العقلاء العازمين على الأمور الشرعية بالعزيمة الخالصة، إمّا إمساك بالمعروف، والمستحسن عند الله وعند المؤمنين، بل لا بد أن يكون هذا الإمساك أحسن من الإمساك السابق على الطلاق حين الوفاق ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾ وإطلاق وتبعيد مقارن ﴿بِإِحْسَانٍ﴾[1] من مالٍ وخلقٍ وكلمةٍ طيبة؛ ليرتفع غبار العداوة والبغضاء الواقعة بإغواء الشيطان بينهما.

﴿وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ﴾ أيها الحكام المقيمون للأحكام الشرعية أصلاً ﴿أَن تَأْخُذُوا﴾ من النساء ﴿مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من المهور والصداقات ﴿شَيْئًا﴾ وتردوه إلى أزواجهن ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا﴾ أي: الزوجان كل منهما على نفسه ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ الموضوعة من عنده سبحانه لإصلاح حالهما ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الحكام أيضًا ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ بينهما ﴿فَلاَ جُنَاحَ﴾ إثم ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على الرجل ﴿فِيمَا﴾ أخذ ﴿افْتَدَتْ بِهِ﴾ المرأة للخلاص والطلاق، وعلى المرأة لإعطائه له ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ الموضوعة فيكم أيها المؤمنون لإصلاح أحوالكم ﴿فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تتجاوزوا عنها

---

(1) قال ابن عجيبة: فإمساكٌ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد (1/188).

بالمخالفة وعدم الامتثال ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:229] المجاوزون عن حد الإنسانية إلى البهيمية، المضيعون لمقتضيات العقل الشريف المفاض عليهم من لدنه سبحانه.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي: إن وقع الطلاق بينهما بعد المرتين ﴿فَلاَ تَحِلُّ﴾ المرأة المطلقة ﴿لَهُ﴾ أي: للرجل المطلق ﴿مِن بَعْدُ﴾ أي: بعد وقوع الطلاق الثالثة ﴿حَتَّى تَنكِحَ﴾ تتزوج المرأة ﴿زَوْجاً﴾ ثانيا ﴿غَيْرَهُ﴾ أي: غير الزوج الأول ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ أي: يرجع كل من الزوج الأول والمرأة إلى الآخر بالزواج، ويلمس كل منهما عسيلة الزوج الثاني إن اشتهى، وذلك حين ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ بينهما ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 230] يعقلون ويفهمون حدوده ويعلمون بها بمقتضى العقل؛ إذ التكاليف الواقعة في الشرع الماضي لأجله.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232)﴾ [البقرة:231-232].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قرب انقضاء عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم بعدما قرب انقضاء مدة العدة أن تراجعوهن فيها وتمسكوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ وفارقوهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ حتى لا يتضررن بعدم الزواج وطول المدة ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ﴾ أي: ولا تراجعوهن ﴿ضِرَاراً﴾ أي: بمجرد أن تضروهن ﴿لِّتَعْتَدُواْ﴾ أي: تبقوا مدة طويلة بلا محبة ومودة حتى يأتيهن الموت كما يفعله الجهال غيرة وحمية ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الفعلة منكم ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بتعريضها على عقاب الله بإبطال حكمته وتعطيل محل خلقه وقدرته.

﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿آيَاتِ اللهِ﴾ النازلة عليكم ﴿هُزُواً﴾ تتهاونون عليها

وتأخذونها سهلاً، احذروا عن انتقامه ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ المنعمة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ واشكروا لها ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿مَا أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ لإصلاح حالكم ﴿مِنَ الكِتَابِ﴾ المبين لكم طريق المعاش في النشأة الأولى ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ الموصلة لكم إلى ذروة التوحيد في النشأة الأخرى لكي ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا به ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن مساخطته وانتقاماته ولا تتجاوزوا عن حدوده المبينة في كتابه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المحيط بكم وبحالاتكم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم من الخير والشر والنفع والضر العائد لنفوسكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:231] بالعلم الحضوري، لا يعزب عن علمه شيء مما ظهر وكان، ويظهر ويكون.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ﴾ بعد الطلاق ﴿أَجَلَهُنَّ﴾ من العدة المفروضة المقدرة لاستبراء الرحم ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ أي: لا تحبسوهن ولا تعيروهن إن أردن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ كما يفعله الجهال من الحمية الجاهلية ﴿ذَلِكَ﴾ التذكر والعظة المنزلة من عند الله ﴿يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ﴾ بجميع ما أنزل من الأحكام والمواعظ ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ بجميع ما فيه من النكال والعذاب والحساب والعقاب ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الأحكام والمواعظ والأخلاق والآداب ﴿أَزْكَى لَكُمْ﴾ لتزكية نفوسكم من الأهواء والآراء الباطلة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ لقلوبكم عن متابعتها ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ مصالح عباده ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:232] فعليكم الامتثال والانقياد على وجه التعبد.

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) ﴾ [البقرة:233-234].

﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ سواءً كانت مطلقات أو غيرها ﴿يُرْضِعْنَ﴾ ولا يضيعن ﴿أَوْلادَهُنَّ

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾[1] أي: يرضعن للأب الذي أراد إتمام إرضاع ولده ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: على الأب ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ أي: رزق المرضعات ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المتعارف ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إذ من سنته سبحانه أن لا يكلف عبده إلا بما يطيقه ويقدر عليه؛ لذلك ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بأن ألزم عليها بأنه ولدك لا بد لك أن تسترضعيه بلا أجرة ﴿وَلاَ﴾ يضار أيضًا ﴿مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ بأن حمل عليه ما ليس في وسعه من أجرة الرضاعة.

﴿وَ﴾ إن لم يكن المولود له موجودًا يجب ﴿عَلَى الْوَارِثِ﴾ الحائز لأمواله ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: ما يجب على المولود له لإرضاع ولده ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ المولود له والمرضعة قبل انقضاء الحولين ﴿فِصَالاً﴾ فطامًا صادرًا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ أي: شورة واقعة بينهما ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في هذا الفطام إن لم يتضرر الرضيع، وإن تضرر فللحاكم أن يمنعها؛ لإفضائه إلى تضييع الرضيع وتخريب بناء الله ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾ أي: تطلبوا المرضعة لإرضاع رضيعكم سواء كانت المرضعة أم الرضيع أم لا ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: لا ضيق ولا تعب عليكم أن تسلموا بالطريق المعروف المستحسن ما سميتم من الأجرة للإرضاع قبل انقضاء مدة الرضاع ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن تضييع الرضيع وتنقيص أجرة المرضعة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:233] يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ واحدة أو اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا فعليهن أن ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن ويعتددن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ حتى يعلم ويظهر أنهن حاملات أم لا ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ بأن تنقضي المدة

---

(1) قال نجم الدين: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ﴾ [البقرة:233]، والإشارة فيها أنها تدل من أولها إلى آخرها على أصناف ألطافه، وأوصاف إعطائه في الآية، وتعمائه مع عبيده، وأمانه أنه تبارك وتعالى أرحم بهم من الوالدات الشفيقة على ولدها في الحقيقة على أن غاية الرحمة التي يضرب بها المثل رحمة الأمهات، فالله سبحانه وتعالى أمر الأمهات بإكمال الرحمة، وإرضاع المولدات، وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:233] وفي قطع الرضاع على المولود قبل الحولين، إشارة إلى أن - رحمة الله- للعبد أتم من رحمة الأمهات، ثم رحم على الأمهات المرضعات.

المذكورة ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا﴾ أيها الحكام ﴿فَعَلْنَ﴾ إصلاح ﴿فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من طلب الخطبة والخاطب والناكح والتجسس عنه والعروض عليه إن صدر عنهن هذه الأمور ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن في الشرع والعرف، وإلا فعليكم الجناح أيها الحكام عند الله إن لم يمنعوهن ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها الحكام من التهاون في إجراء أحكامه وحفظ حدوده ﴿خَبِيرٌ﴾ [البقرة:234] يؤاخذكم عليه ويجازيكم بمقتضى خبرته.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾ [البقرة:230-237].

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِيمَا﴾ أي: في كلام وألفاظ ﴿عَرَّضْتُم بِهِ﴾ تعريضًا حسنًا وتلميحًا مليحًا خاليًا عن وصمة الفساد، ناشئًا ﴿مِنْ﴾ إرادة ﴿خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المعتدات للوفاة ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم وأخفيتم ﴿فِي أَنفُسِكُمْ﴾ إذ ﴿عَلِمَ اللهُ﴾ منكم وإن أخفيتم ﴿أَنَّكُمْ﴾ يميل طبيعتكم إليهن ﴿سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ فاذكروهن على الوجه الأحسن الأبعد عن التهمة ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أي: الوقاع والجماع؛ أي: لا تخالطوا معهن إلى حيث يرتفع الحجاب عنكم، فتتكلمون معهن بالكلمات التي جرت بين الزوج والزوجة ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ يومئ إلى خطبتكم إياهن إن خفتم أن يسبق عليكم الغير من الخطباء ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أي: لا تستعجلوا في العزيمة على العقد ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ أي: ما فرض في الكتاب؛ أي: من العدة المقدرة فيه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الخيانة في حدوده ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ لتنجوا من غضبه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لمن عزم

على المعصية ولم يفعل ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:235] لا يستعجل بالعقوبة على العاصين.

﴿لاَ جُنَاحَ﴾ لا وزر ولا إثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: لا تجامعوا معهن ﴿أَوْ﴾ لم ﴿تَفْرِضُوا﴾ تقدروا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مهرًا أو صداقًا ﴿وَ﴾ عليكم إن طلقتموهن ﴿مَتِّعُوهُنَّ﴾ بالإحسان جبرًا لما انكسر بالطلاق بعد العقد ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ أي: قدر وسعه ويسره ﴿وَ﴾ كذا ﴿عَلَى الْمُقْتِرِ﴾ المعسر ﴿قَدَرُهُ﴾ قدر إعساره وتقتيره ﴿مَتَاعًا﴾ أي: متعوهن متاعًا ملتبسًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ الذي يستحسنه الشرع والمروءة، ولذلك صار التمتيع المجان في الشرع ﴿حَقًّا﴾ لأنها ﴿عَلَى﴾ المؤمنين ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:236] الذين لا يريدون الأذى لأحدٍ من الناس وإن وقع منهم نادرًا، جبروا بالإحسان حفظًا للمودة والإخاء الدينية.

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَرَضْتُمْ﴾ سميتم ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ صداقًا ومهرًا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: فلزمكم أداء نصف ما سميتم من المهر إليهن ﴿إِلاَّ أَن يَعْفُونَ﴾ أي: المطلقات فلا يأخذن شيئًا اتقاء عن التهمة ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ ويرد جميع المهر إليها تبرعًا ﴿وَأَن تَعْفُوا﴾ أي: وعفوكم أيها المؤمنون في أمثال هذا ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ وأفضل عند المولى ﴿وَلاَ تَنسَوُا﴾ أي: لا تتركوا ﴿الْفَضْلَ﴾ والإحسان ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيها المحسنون بل أحسنوا بعضًا مما أحسن الله لكم إلى مستحقيكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المراقب لجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الفضل والإحسان ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:237] يجازيكم عليه بفضله.

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [البقرة:238-242].

ثم لما كان للعارف الحائر المستغرق في بحر الحيرة ميولاً وتوجهات متعددة بحسب تجددات أنفاسه ونفساته المستنشقة، المستمدة بها النفسات الرحمانية، المهبة

من يمن عالم اللاهوت، المتنشئة من الذات الأحدية، المتجلية بالتجليات الجمالية والجلالية، المعبرة بالأسماء والصفات الإلهية المتخالفة في الآثار والمقتضيات على حسب الكمال؛ أراد سبحانه أن ينبه عليه بمخالطته الميول والصلوات في الأوقات كلها؛ لئلا ينشغل عن الحق في وقت من الأوقات، فقال: ﴿حَافِظُوا﴾ وداوموا أيها المتوجهون إلى توحيد الذات ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ المكتوبة لكم في الأوقات المتعارفة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الصَّلاةِ الوُسْطَى﴾[1] التي هي عبارة عن التوجه الرفيق المعنوي بين كل نفسين من أنفاسكم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿قُومُوا﴾ أيها الأظلال الهالكة في نفسها المستهلكة في الذات الأحدية؛ إذ لا وجود لكم من ذواتكم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لكم من كتم العدم بامتداد أظلال أسمائه؛ ورش من بحر جود وجوده عليكم ﴿قَانِتِينَ﴾ [البقرة:238] متذللين خاضعين، مفنين هويتكم الظلية الغير الحقيقية بالكلية في الهوية الحقيقة الإلهية.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عن مقتضيات القوى البشرية ﴿فَرِجَالاً﴾ أي: فعليكم التوجه راجلين منسلخين عنها وعن مقتضياتها بالمرة ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ راكبين عليها بتسخيرها بالرياضيات الشاقة إلى حيث ينصرف بالكلية عن مقتضاها ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ من شرورها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ المفني للفرد والسوى مطلقًا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:239] لولا إنزاله سورة الإخلاص وكلمة التوحيد وغيرها من الآيات الدالة على التوحيد الذاتي.

---

(1) أخبر الحق عن وجدان الفضل وفقدانه بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:238]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أشار في حفظ الصلاة بصورة المفاعلة التي بين الاثنين وقال: حافظوا على الصلاة يعني محافظة الصلاة كما قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل» فمعناه أني أحافظكم بقدر التوفيق والإجابة والقبول والإنابة عليها، فحافظوا أنتم على الصلاة بالصدق والإخلاص والحضور والخشوع والمناجاة بالتذلل والانكسار والاستعانة والاستهداء والسكون والوقار والهيبة والتعظيم وحفظ القلوب بدوام المشهود، فإنما هي الصلاة الوسطى؛ لأن القلب هو الذي في وسط الإنسان ما هو واسطة بين الروح والجسد، ولهذا سمي القلب فالإشارة في تخصيص المحافظة على الصلاة الوسطى هي القلب بدوام الشهود، فإن البدن ساعة يحفظ أركان الصلاة وأبنيتها، وساعة يخرج منها فلا سبيل إلى حفظ صورتها يبعث الدوام ولا إلى حفظ معانيها بوصف الحضور والشهود، وإنما هو من شأن القلب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق:37].

﴿والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يستشرفون إلى الوفاة ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ بعدهم لزمهم أن يوصوا ﴿وَصِيَّةً﴾ مستخرجة من أموالهم ﴿لِأَزْوَاجِهِم﴾ ليتمتعن بها ﴿مَّتَاعًا إِلَى﴾ انقضاء ﴿الْحَوْلِ﴾ بعد موتهم ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ لهن من المسكن المألوف، وكان ذلك في أول الإسلام، ثم نسخت بتعيين المدة لعدة الوفاة من أربعة أشهر وعشرًا ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من مسكن الأزواج ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الحكام ﴿فِي مَا فَعَلْنَ﴾ من التطيب وترك الحداد وطلب الخطبة ﴿فِي﴾ إصلاح ﴿أَنفُسِهِنَّ﴾ إن كانت الأمور الصادرة منهن ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ مستحسن مشروع مرخص، وإن لم يكن كذلك فعليكم الجناح أيها الحكام ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على الانتقام، ينتقم من المتجاوزين عن حدوده، المتهاونين في إجراء أحكامه ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:240] في رعاية مصالح عباده.

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون أن ﴿لِلْمُطَلَّقَاتِ﴾ مطلقًا ﴿مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المشروع المستحسن لازم ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا ﴿عَلَى﴾ ذمة ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:241] المطلقين لهن ما دمن في العدة؛ أي: جميع مؤنتهن عليهم فيها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ذكر من أحكام الطلاق والأمور المتفرعة عليه ﴿يُبَيِّنُ اللهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ جميع ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:242] رجاء أن تتأملوا فيها وتفوزوا بالفوز العظيم من عنده.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة:243-240].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ وهم أهل «داوردا» قرية قبل «واسط» وقع فيهم طاعون فخرجوا هاربين ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ كثير ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ﴾ بعدما علم منهم الفرار عن قضائه: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا بالمرة ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بدعاء حزقيل عليه السلام حين مر على تلك القرية، فأبصروا قد عريت عظامهم وتفرقت أجسامهم فتعجب من ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، ناد فيهم: أن قوموا بأمر الله ومشيئته،

فنادى فقاموا يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ وإحسان ﴿عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:243] فضله وإحسانه.

وبوجه آخر ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها المغتر المعتبر الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ المألوفة المأنوسة وهي بقعة الإمكان ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ متألفون فيها مع بني نوعهم ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الإرادي ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ﴾ الهادي إلى توحيد الذات بلسان مرشديهم: ﴿مُوتُوا﴾ عن إنابتكم وهويتكم أيها المتوجهون إلى بحر الحقيقة، فماتوا عن مقتضيات القوى البشرية، ولوازم الحياة الطبيعية بالكلية ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ الله بالحياة الحقيقية والعلم اللدني والوجود العيني الحقي، والبقاء الأزلي السرمدي ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتكفل لأمور عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ الناسين منزلهم الأصلي ومقصدهم الحقيقي بإيصالهم إلى ما هم عليه قبل نزولهم إلى فضاء الإمكان ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:243] ولا يعقلون ولا يفهمون نعمة الوصول إلى الموطن الأصلي والمقام الحقيقي حتى يقوموا بشكره ويتواظبوا عليه.

﴿وَ﴾ إن أردتم أيها المؤمنون أن تكونوا من الشاكرين لنعمه الفائزين بفضله وإحسانه ﴿قَاتِلُوا﴾ مع الكفرة التي هي القوى الحيوانية ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ المفني للغير مطلقًا، واعلموا إن متم فإلى الله تحشرون، وإن عشتم فإلى الله تبعثون، وما لكم أيها المؤمنون ألّا تقاتلوا مع جنود الشياطين حتى تنجوا من مهلكة الإمكان، وتصلوا إلى فضاء الوجوب ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم المتعلقة بعدم الجهاد ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:244] بنياتكم المترتبة على الحياة الطبيعية.

﴿مَن ذَا﴾ العارف ﴿الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ﴾ أي: يفوض ويسلم هوية الإمكان وماهية الكوني والكياني إلى الله المسقط للهويات مطلقًا ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ تفويضًا سلسًا نشطًا فرحانًا بلا مضايقة ولا مماطلة، راضيًا بما قضى عليه، صابرًا على عموم البلوى المقربة إليه ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ بعدما فني عن هويته فيه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ لا يحيط بكنهها إلا هو؛ إذ المحدث قرن بالعديم، وترتب عليه ما ترتب عليه بل سقط الاثنينية بالكلية، وارتفع غبار الأغيار بالمرة ﴿وَاللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿يَقْبِضُ﴾ إلى ذاته ما ينشر

﴿وَيَبْسُطُ﴾[1] من أظلال أسمائه وصفاته وآثار تجلياته الذاتية ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:245] أيها الأظلال والآثار طوعًا وكرهًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 246-247].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين كانوا معرضين عن القتال في حياة موسى - صلوات الله عليه - كيف اضطروا إليه ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ وفاة ﴿مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾ هو يوشع أو شمعون أو أشمويل حين ظهرت العمالقة عليهم، وخربوا ديارهم ونهبوا أموالهم وأسروا أولادهم: ﴿ابْعَثْ﴾ عيّن ﴿لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ﴾ مع أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي: أتوقع جبنكم وتقاعدكم ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ من عند الله ﴿أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا﴾ أي: أيُّ شيء عرض لنا ﴿أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ بسبب ترك القتال، لو لم نقاتل بعد لاستؤصلنا بالمرة ﴿فَلَمَّا

(1) قال الشيرازي في «عرائس البيان»: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضًا يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلّى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العاشقين في حجال الأُنس، فيتجلّى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة. ويقال: القبض ستره والبسط كشفه. ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين. ويقال: القبض للمشتاقين والبسط للعارفين، ويقال: القبض لمَنْ تولى عن الحق، والبسط لمَنْ تجلي له الحق. ويقال: يقبضك إياه، ويبسطك إياه، قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويبسطك فيما عليه. وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات ليصغرهم، يبسطهم بالنظر إلى الكرام.

﴿كُتِبَ﴾ فُرض ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنه ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ ثلاثمائة وثلاثة عشر بعدد أهل بدر ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:246] المجاوزين عن أوامره.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بإلهام الله ووحيه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبِّر لأموركم ﴿قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ﴾ من المرتجلات العجمية ﴿مَلِكًا﴾ يولي أموركم ويقاتل مع عدوكم ﴿قَالُوا﴾ مستكبرين مستنكرين: ﴿أَنَّى﴾ من أين ﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ وهو من سفلة الناس، كيف يستأهل هذا المنصب؟ ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ حتى يقوى به، وإنما استحقروه؛ لأنه كان فقيرًا راعيًا أو سقَّاء أو دباغًا، وكان من أولاد بنيامين، ولم يكن في أولاده النبوة والملك، إنما كانت النبوة في أولاد لاوي والملك في أولاد يهوذا، وكان فيهم من أسباطهما خلق عظيم.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المعز لأذلة عباده ﴿اصْطَفَاهُ﴾ واختاره للملك ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مع فقره وسقوط نسبه ﴿وَ﴾ بعدما اختاره ﴿زَادَهُ بَسْطَةً﴾ حيطة وشمولاً ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ المتعلق لتدبير المملكة ﴿وَ﴾ قوة عظيمة في ﴿الْجِسْمِ﴾ لمقاومة العدو ومدافعته ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ من عباده على مقتضى علمه منهم وحكمته من غير التفات إلى فقرهم ونسبهم ﴿وَاللهُ﴾ الحكيم العليم ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:247] في حكمه وعدله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، بلا سبق علل وأغراض.

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة:248-249].

﴿وَ﴾ بعدما آيسوا من تغيير قضاء الله وتبديل رضاه، أتوا يطلبون الدليل والعلامات على ملكه ﴿قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ بوحي الله وإلهامه إياه: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الذي ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي: فيه ما يوجب سكينتكم وطمأنينتكم وقراركم على الحرب؛ إذ هو صندوق التوراة المنزل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لإصلاح أموركم ﴿وَ﴾ أيضًا من آية ملكه أن يأتيكم ﴿بَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ قيل: هي رخامة الألواح وعصا موسى وعمامة هارون، وكان أنبياء بني إسرائيل يتوارثون إلى أن ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بأمر الله وتوصله إلى طالوت ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَةً لَّكُمْ﴾ على ملكية طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:248] بالله وبما جاء من عنده على أنبيائه، وبعدما آتاه الله الملك والعلامات الدالة عليه تجهز بتوفيق الله، وخرج نحو العدو.

روي أنه قال وقت خروجه: لا يخرج معي إلا الشباب الخالي عن الحيل، الفارغ عن الأمل، النشيط للأجل، الفرحان للمقاتلة والشهادة.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ وكان في شدة الحر والعبور على مفازة لا ماء فيها، ناجى مع الله كل من جنوده في نفسه أن يظهر عليهم نهرًا في تلك المفازة؛ خوفًا من شدة العطش، ألهم الله مناجاتهم إلى قلب طالوت ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ ومجربكم في هذه المفازة ﴿بِنَهَرٍ﴾ عظيم ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من أتباعي وأعواني وظهيري ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ ولم يذقه ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ لا لتسكين العطش، بل لشكر نعمة الله وإنجاز وعده وتعديد إحسانه وفضله، ولما وصلوا إليه ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ من النهر ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ معدودين، قيل: ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: ثلاثة آلاف، وقيل: ألف.

وإياك أيها المبتلى بنهر الدنيا في فضاء الوجود أن تشرب منها خوفًا من عطش حرارة العشق المفني للعاشق والعشق في المعشوق الحقيقي بالمرة، حتى لا يخرج عن زمرة المحبين المحترقين بنيران المحبة إلى أن خلصوا عن هوياتهم بالكلية، وأن يطعم ويذوق من مستلذاتها ومشتهاتها حتى لا يحرم من مرتبة أولي النهى واليقين، الفائزين بجنة اللقاء وروضة التسليم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: بعضهم لبعض خفية: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لقوتهم وشوكتهم ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ بربهم ظنًا حسنًا، بل يعلمون يقينًا ﴿أَنَّهُم﴾ بعد انخلاعهم عن ملابس الإمكان ﴿مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ بلا سترة الثنوية وحجاب الهوية: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ من العقل والنهى

﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ من جنود النفس والهوى ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بتوفيقه وتيسيره ﴿وَاللهُ﴾ المختبر لعباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249] لبلواه ينصرهم على من يعاديهم بحوله وقوته، وما النصر إلا من عند الله.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة:200-202].

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ ظهروا ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ودنوا منهم ﴿قَالُوا﴾ متوجهين إلى ربهم متضرعين له مستمدين منه: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ نصبر به عند نزول بلائك ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فيه رضاء لقضائك ﴿وَانصُرْنَا﴾ لتنفيذ حكمك وإمضائك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:250] لآلائك ونعمائك، إنك أنت العزيز الحكيم.

﴿فَهَزَمُوهُم﴾ كسروهم وهزموهم ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بعونه ونصره ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ قيل: كان أيضًا أشعيا في عسكر طالوت مع ستة من بنيه، وكان داود سابعهم، وكان صغيرًا يرعى الغنم، فأوحى إلى نبيهم أنه الذي يقتل جالوت، فطلبه من أبيه، فجاء، وقد كلمته في الطريق ثلاثة أحجار، وقالت له: إنك بنا تقتل جالوت فحملها في مخلاته، ورماه بها، فقتله، ثم زوجه طالوت بنته ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ أي: ملك بني إسرائيل، ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿وَ﴾ آتاه ﴿الْحِكْمَةَ﴾ أي: دعوة الخلق إلى طريق الحق بالحكمة المؤتاة له من قبل ربه ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من العلوم والحكمة والمعجزات وخوارق العادات بالجملة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ﴾ الرقيب الحفيظ لحدوده بين عباده ﴿النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: ظلم بعض الظالمين بتقوية بعض المظلومين ونصره عليهم ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ التي هي منشأ الهون والفساد ومعدن الظلم والعناد ﴿وَلَٰكِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال العباد ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ كثير ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:251] ليعتدل ويتمكن كل من ساكنيها على ما خلقهم الله لأجله بلا مزاحمة

بعضهم بعضًا ظلمًا وزورًا.

﴿تلك﴾ المذكورات ﴿آياتُ اللهِ﴾ الدالة على توحيد ذاته وتعظيم شأنه ﴿نتلوها عليكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿بالحقّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَإنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252] المتلوين عليهم آياتنا؛ امتنانًا لهم بل من أفضلهم وأكملهم إذ:

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [البقرة:203-204].

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾[1] المخصوص بالوحي والإلهام والإنزال ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بأنواع الفضائل والكمالات ﴿مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ﴾ معه، وهو موسى صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ منهم من ﴿رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ وهم ما ذكرهم الله سبحانه في كتابه بقوله في مواضع: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم:57] ورفعناه كذا في وصف أنبيائه فعليك استقصاؤها، ﴿وَآتَيْنَا﴾ من نبيهم ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة الدالة على نبوته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ المنزه عن رذائل الأغيار مطلقًا، وهو الذات البحت الخالص عن جميع الاعتبارات.

وكم بيّن فضيلة عيسى ﷺ، وفضل نبينا ﷺ؛ إذ قال سبحانه في حقه: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:87] وفي شأنه ﷺ في مقام الامتنان له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:1] أيها المظهر الكامل بذاتنا، المقدس عن السوى مطلقًا: ﴿وَوَضَعْنَا

---

(1) قال الشيخ البقلي في «العرائس»: فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غيرة الحق، وأيضًا حتى لا يسكتوا عن طلب زيادة المقامات والدرجات، وأيضًا حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئًا إلا متفاضلاً متفاوتًا أقدارهم حتى الرسل.

عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:2] أي: هويتك التي بها انفصالك عنا ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح:3] قبل انكشافك بذاتنا، كما أنقض ظهور جميع المخلوقات الباقية وراء الحجاب وبعد ذلك ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:4] أي: إن وصلت إلينا ورفعت الاثنينية بنا لذلك قلت: «من أطاعني فقد أطاع الله»[1]، وقلت أيضًا: «من رآني فقد رأى الحق»[2] وقلنا لك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] وغير ذلك من الرموز والإشارات الواردة في القرآن والحديث.

ولم يقدر أحد من الأنبياء أن يتفوه عن الرؤية سوى نبينا ﷺ، فإنه يقول: «رأيت ربي في ليلة المعراج»[3]، لذلك نزل في شأنه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:3] وقوله ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]، وغير ذلك من الآيات والأحاديث المشعرة للتوحيد الذاتي، المسقط للإضافات والاعتبارات مطلقًا.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الهادي للكل هداية جميع الناس ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ﴾ آمنوا لهم ﴿مِن بَعْدِهِم﴾ خصوصًا ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموضحة لهم طريق الرشاد والمستخلفة فهم بين أممهم لإرشادهم، ولكن جرت عادة الله وسنته أن يختلفوا ويقتتلوا بحسب اقتضاء أوصافه المتقابلة لذلك ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ﴾ بنبي بُعث إليهم ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هدايتهم ﴿مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ الفاعل المختار ﴿يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253] لا يُسأل عن فعله، إنه حكيم حميد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم قطع العلائق عما سوى الله الحق خصوصًا عن مزخرفات الدنيا المانعة من الميل الحقيقي ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ابتلاءً

---

(1) أخرجه البخاري (1080/3، رقم 2797)، ومسلم (1466/3، رقم 1835)، والنسائي (154/7، رقم 4193)، وابن أبي شيبة (418/6، رقم 32529)، وأحمد (252/2، رقم 7428)، وابن ماجه (954/2، رقم 2859).

(2) أخرجه البخاري (2568/6، رقم 6596).

(3) أخرجه أحمد (368/1، رقم 3484)، والترمذى (367/5، رقم 3234)، وقال حسن غريب. وعبد بن حميد (ص 228، رقم 682)، بنحوه.

(4) أخرجه الحاكم (670/2، رقم 4221)، وقال: صحيح على شرط مسلم، والبيهقي (192/10، رقم 20572)، والديلمي (12/2، رقم 2098).

لكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ولا معاوضة ولا تجارة حتى يحصلوا فيه ما فوتم لأنفسكم ﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ حتى تتعاونوا بها وتستظهروا ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ مقبولة من أحد حتى تستشفعوا منه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ الساترون هوية الحق بهوياتهم الباطلة، المضيفون نعم الله إليها ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:254] المتجاوزون عن حدود الله عنادًا واستكبارًا، المعتقدون أصالتهم في الوجود واستقلالهم في الآثار الصادرة عنهم، مع كونهم هالكين مستهلكين في وجود الحق وهويته إذ:

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة:200].

﴿اللَّهُ﴾ أي: الذات الثابت الوجود والكائن الحق الحقيقي بالحقيقة والتحقق والثبوت، إياك أن تقصد بالألفاظ محتملاتها؛ إذ الغرض من التعبير التنبيه، وإلا فكيف يعبر عنه وهو أجل من أن يحيط به العقول فيعبر عنه، أو يورد في قالب الألفاظ الذي ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا موجود، وإن شئت قل: لا وجود ولا تحقق ولا كون ولا ثبوت ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هذا هو نهاية ما تنطق عنه ألسنة التعبير عن الذات الأحدية؛ إذ كل من التعبيرات والإدراكات والمكاشفات والمشاهدات، إنما ينتهي إليه، وبعد انتهائه إليه تكل وتجهل وتعمى وتدهش، ما للعباد ورب الأرباب حتى يتكلموا عنه، سوى أن الحق سبحانه لما ظهر لهم بذاته جميع أوصافه وأسمائه، أنزل عليهم على قدر عقولهم المودعة فيهم كلامًا جامعًا نبههم على مبدئهم بعد توفيق منه وجذب من جانبه؛ إذ أسهل الطريق بالنسبة إلى المحجوبين هو الألفاظ المنبهة عن غيب الذات؛ إذ هو خال عن المواد الغليظة والكدورات الكثيفة المزيحة لصفاء الوحدة، ومع ذلك أيضًا لا ينجو عن ثوب الكثرة.

والحاصل أن من اطلع باطلاع الله وإلهامه على أن فيه مبدأ التكاليف الذي هو العقل المتشعب من العلم الحضوري الحقي، فلا بد أن يصرفه امتثال ما أمر واجتناب ما نهى، ليكون في مرتبة العبودية مطمئنًا راضيًا مستدرجًا من الحياة الصورية إلى الحياة المعنوية التي هي ﴿الْحَيُّ﴾ الأزلي الأبدي السرمدي الدائم ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي ﴿لَا

﴿تَأْخُذُهُ﴾ فتور وفترة وتعطيل وغفلة لا ﴿سِنَةٌ﴾ نعاس لا ينتهي إلى حد النوم ﴿وَلاَ نَوْمٌ﴾ يتجاوز عنها قدمها، مع أن المناسب للترقي تأخيرها اهتمامًا بشأنها؛ لكونها أقرب نسبة إلى الله سبحانه تعالى من النوم بالنسبة إلى أولي الأحلام السخيفة من المجسمة وغيرها[1]، هو الذي ﴿لَّهُ﴾ محافظة ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: سموات الأسماء

(1) قال الشيخ البقلي في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بما أبده من وصف أُلوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره أُلهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل. سُئل ابن منصور عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك. وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من هجرانه. وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة. وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمه، فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق. قيل لأبي الحسن النوري: لمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقى به ضدًا. وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك. ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿الْحَيُّ﴾ الذي تتهممهم به الأنفاس، و﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيما أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿الْحَيُّ﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و ﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلّي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه. وقيل في قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم. وقيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته. وقال سهل: ﴿الْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل

والصفات الذاتية التي هي أول كثرة ظهرت من الغيب إلى الشهادة الإضافية ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: طبيعة العدم التي هي آخر كثرة عادت من الشهادة الحقيقية إلى الغيب الإضافي الذي هو قلب الإنسان، وهو البرزخ بين الغيب الحقيقي والشهادة الحقيقية ﴿مَن ذَا﴾ من الأنبياء والأولياء ﴿الَّذِي يَشْفَعُ﴾ يهدي ويرشد للناقصين المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿عِندَهُ﴾ بعد ظهوره له بهو هو ﴿إِلاَّ﴾ من يرشدهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بوحيه على قلبه ورقائق مناسباته التي لا يمكننا التعبير عنها الذي هو ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ حالة إذ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أزلاً وأبدًا ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ﴾ قليل ﴿مِّنْ عِلْمِهِ﴾ الحضوري ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾[1] وتعلق إرادته ومشيئته عليه.

من هذا يتفطن العارف أن العالم ما هو إلا مظاهر ذات الحق وأظلال أسمائه وآثار أوصافه؛ إذ الموجود هو، والوجود هو، والحي هو، والقيوم هو، والرقيب المحافظ الملازم على محافظة ما ظهر في الأولى والأخرى هو، والعالم المدبر بالحضور مصالح جميع ما ظهر وبطن هو، والعلم والإدراكات الصادرة من المظاهر هو على العلم الحضوري.

فلم يبق للعالم إلا مناسبة الظلية والانعكاس والمظهرية؛ إذ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ مجلاه ومظاهره ﴿السَّمَوَاتِ﴾ المذكورة ﴿وَالأَرْضَ﴾ المذكورة ﴿وَلاَ يَئُودُهُ﴾ يثقله ﴿حِفْظُهُمَا﴾ وإن كانت سموات الأسماء وأرض الطبيعة غير متناهية، بل وإن فرضت بأضعافها وآلافها أمورًا متعددة غير متناهية لا يثقله؛ إذ كل من تحقق بمرتبة قلب الإنسان المنعكس من الذات الأحدي المائل نحوها بالميل الحبي الشوقي المتلذذ دائمًا بوجوده وحضوره، تحقق عنده من الوسعة ما لا يمكن التعبير عنه مطلقًا.

كما سمح سلطان العارفين وبرهان الواصلين - عمت بركات أنفاسه الشريفة

شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

(1) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد مِن العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه. وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

على الفقراء المتوجهين نحو فضاء التوحيد - حيث قال: «لو أن العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحسن».

جاء بعده رأس الموحدين، ورئيس أرباب التحقيق واليقين، محيي الملة والدين، الذي هيّج بحر التوحيد تهييجًا شديدًا إلى حيث يترشح من تيار قلبه الزخار رشحات المعارف والحقائق، على قلوب أولي العزائم الصحيحة المقتفية إثر طريقه - قدس الله روحه وأرواحهم وشكر سعيهم وسعيه - حيث قال: هذا وسع أبي يزيد في عالم الأجسام، بل أقول: «لو أن ما لا يتناهى وجوده قدر انتهاء وجوده مع العين الموجدة له في زاوية من زوايا قلب العارف، ما أحسن بذلك في علمه». انتهى.

أقول: والحديث القدسي مغنٍ عن أمثالهم إن قوله سبحانه: «وسعني قلب عبدي المؤمن»[1] وسعة عجز عنها التعبير مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ما لكم أيها العباد ومعرفة الذات غير هذا ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته تعالى عن أن تدركه عقول العقلاء وتنزه عن أن تصفه ألسنة الفصحاء ﴿الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:255] بآثار أسمائه وصفاته الممتدة على صفحات الإعدام، وهو في ذاته على حرافة وحدته، هو ولا شيء سواه.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة:206-207].

﴿لاَ إِكْرَاهَ﴾ أي: لا جبر ولا تهديد ولا إلجاء ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي: في الانقياد بدين الإسلام والإطاعة له بعد ما ظهر الحق؛ إذ ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ وتميّز ﴿الرُّشْدُ﴾ والهداية ﴿مِنَ الْغَيِّ﴾ والضلالة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ التي هي النفس الأمارة المضلة عن طريق الحق ﴿وَيُؤْمِن بِاللّهِ﴾ الهادي إلى سواء السبيل ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ﴾ بل تمسك وتشبث ﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ التي هي حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات ﴿لاَ انفِصَامَ﴾ ولا انقطاع ﴿لَهَا﴾ أصلاً ﴿وَاللّهُ﴾ الهادي للكل ﴿سَمِيعٌ﴾ بذاته لأقواله

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (100/2).

﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:256] بحكمه ومصالحه المودعة فيها، فانظروا ما أنتم أيها الهلكى.

﴿اللهُ﴾ أي: الذات المستجمع لجميع الأسماء والصفات ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله يربيهم حسب شموله وإحاطته ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الطبيعة وظلمة الإمكان وظلمة الإضافة ﴿إِلَى النُّورِ﴾ صفاء الوحدة الخالصة عن رين الإضافة الخالية عن شين الكثرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ التي هي عَلَم الجنس للنفوس البهيمية التي هي الطواغيت المضلة عن الهدي الحقيقي ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ أي: المرآة الصقيلة المجلوة القابلة لأن يتراءى فيها جميع ما في العالم ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الكثرة وظلمة التعيين وظلمة الغفلة ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن ساحة الوحدة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي: نار الخذلان وسعير الإمكان ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:257] (1) دائمون إلى ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ

---

(1) قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لوجدهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدسهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثة ويقربهم إلى بساط الجزية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية. وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فيندرج صفاتهم تحت صفاته، كما اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائمًا بالحق مع الحق للحق.

وقال أيضًا: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى منهما من علامة التوفيق والانتهاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذاك لنفي الظلمات عنه بها، نوّره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور صفاته وما سبق لهم من متابعه. وقال أيضًا: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا، والصدق والمحبة وغيرها. وقال الثوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاين كالمخبر. وقال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أوصافهم إلى أنوار صفاته. قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال.

﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة:208-209].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ الكافر العابد للطاغوت وهو نمرود اللعين المعاند ﴿الَّذِي حَاجَّ﴾ جادل مكابرة مع ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ صلوات الرحمن عليه ﴿فِي﴾ شأن ﴿رَبِّهِ﴾ حين ﴿أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ وأبطره عليه وغيره بملكه وذلك وقت ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ إلزامًا له حين أخرجه من السجن، فسأل عن ربه الذي يدعي الدعوة إليه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي﴾ يُوجِدُ من العدم ﴿وَيُمِيتُ﴾ يرد إليه بعد إيجاده ﴿قَالَ﴾ مكابرة ومجادلة: ﴿أَنَا﴾ أيضًا ﴿أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بالعفو والقصاص ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ تصريحًا لإلزامه من غير التفات إلى كلام: ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ القادر على ما يشاء ﴿يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ﴾ أيها المعاند المكابر ﴿بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ بالله بالمعارضة معه فصار مبهوتًا متحيرًا ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258] المجاوزين عن حقوق الله وآداب العبودية معه.

﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ أي: ألم تر إلى الشخص الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هي البيت المقدس في زمان خربها بُخْتُنَصَّر فرآها ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ﴾ محاجًا مجادلاً مبعدًا للحشر والنشر: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: كيف يقدر على إحياء أهلها وهم قد انقرضوا واندرسوا إلى حيث لم يبق منهم أثر؟ ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ﴾ فجأة؛ إظهارًا لقدرته وتبيينًا لحجته، وألبثه ﴿مِائَةَ عَامٍ﴾ ميتًا كالأموات الأخر ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ إحياءً بعد تلك المدة، ثم سأله هاتف بأن ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في هذا المكان ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ والتفت إلى الشمس فرآها باقية قال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ﴾ السائل: ما تعرف مدة لبثك ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ﴾ أيها المبعد للحشر الجسماني بنظر العبرة إلى كمال قدرة الله ﴿إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير مع سرعة تغييره ﴿وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾

كيف تفرقت عظامه وتفتت أجزاؤه مع بطء تغيره وبعد ما نظرت إليهما تذكر قولك حين مرورك على القرية: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فألزم.

ثم قيل له من قبل الحق: ﴿وَ﴾ إنما فعلنا ذلك معك أيها المبعد للحشر الجسماني ﴿لِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ ودليلاً وحجة ﴿لِلنَّاسِ﴾ القائلين بالحشر الجسماني على المنكرين المبعدين لها ﴿وَ﴾ بعدما تحققت حالك ﴿انظُرْ﴾ بنظرة العبرة ﴿إِلَى العِظَامِ﴾ الرفات التي تعجبت من كيفية إحيائها وأنكرت عليها ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نركب بعضها مع بعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بعد تتميم تركيب العظام ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أمر الحشر ألزم وسلم و﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ يقينًا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ القادر ﴿عَلَى﴾ إحياء ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ مبدئًا مبدعًا ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:259] [1] على إحيائه معيدًا.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة:260-261].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ أبوك ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ صلوات الرحمن عليه حين أراد أن يتدرج ويرتقي من العلم إلى العين ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي المَوْتَى﴾[2] قال له ربه تنشيطًا له على الترقي: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ تذعن وتوقن بأني

---

(1) قال الشيخ النيسابوري: لم يتغير . وأصله من السنة أي لم يأت عليه السنون لأن مرّ السنين إذا لم يغيره فكأنها لم تأت عليه. وعلى هذا فالهاء إما للسكت بناء على أن أصل سنة سنوة بدليل سنوات في الجمع وسنية في التحقير، وقولهم «ساتيت الرجلَ مساناة» إذا عامله سنة. وإما أصلية على أن نقصان سنة هو الهاء بدليل سنيهة في التصغير، وقولهم «أجرت الدار مسانهة». وقيل: أصله لم يتسنن إما من السن وهو التغير قال تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:26] أي متغير متن. وإما من السنة أيضًا بناء على ما نقل الواحدي من أن أصل سنة يجوز أن يكون سنة بدليل سنينة في تحقيرها وإن كان قليلاً. [تفسير النيسابوري (127/2)].

(2) قال الشيخ البقلي: وقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

قادر على الإعادة كما أني قادر على الإيجاد الإبداعي ﴿قَالَ بَلَى﴾ آمنت يا ربي بأنك على كل شيء قدير ﴿وَلَكِن﴾ سألتك المعاينة ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بها ويزيد بصيرتي بسببها، ويزداد حيرتي منها ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاووس مزخرفات الدنيا الدنية، وديك شهواتها وغراب الآمال الطويلة فيها، وحمام الأهواء الباطلة المتعلقة بها، وبعدما أخذتها ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أمسكهن، اضممهن إلى نفسك بحيث تجد جميع أجزائك في نفسك على التفصيل بلا فوت جزء، ثم جزئهن أجزاء

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل ﷺ بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه أُلقي في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاء بذبح الولد وما أشبهه. وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِي﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله ﷺ في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ومقصود الحق - سبحانه وتعالى- في ذلك أن بديع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعزير ﷺ، محمد ﷺ. وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى ﷺ ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي ربِّ، من متى أنت؟». وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة». هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا اسأل الخليل ﷺ مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في وسائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة. وأيضًا قال: ﴿أَرِنِي﴾ حقيقة بطنان الألوهية والربوبية، وهذا من الخليل ﷺ غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد. وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى منزه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ إنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق أسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بعد رؤية جنابي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد ﷺ في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، ولهذا السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ بأن موسى ﷺ سأل كشف المشاهدة، والخليل ﷺ سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل ﷺ أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

هوائية هبائية.

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال المشهورة لك في نفسك ﴿مِنْهُنَّ جُزْءًا﴾ إلى حيث تخيلت فناءها بالمرة، واطمأننت عن شرورها بالكلية ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ فارضًا وجودهن، مستحيلاً إيجادهن ﴿يَأْتِينَكَ﴾ بأجمعهن ﴿سَعْيًا﴾ ساعيات مسرعات بلا فوات جزء ونقصان شيء ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بها واستكشفت عنها ﴿اعْلَمْ﴾ يقينًا بل عيانًا ﴿أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ غالب قادر لكل ما أراد ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260] ذو حكمة بالغة في كل ما يفعل ويريد.

وإنكار الحشر والنشر إنما نشأ من العقل الجزئي، المشوب بالوهم والخيال القاصر عن إدراك رقائق الارتباطات الواقعة بين الحق وأجزاء العالم المستمدة منه، وإنما متجددة مبتدئة معادة، وإلا فمن خلص عقله المودع فيه عن مزاحمة الأوهام والخيالات، واتصل بالعقل الكل المدرك بالحضور جميع ما كان ويكون من المكونات، وتأمل في عجائب المصنوعات وغرائب المبدعات، والمخترعات الواقعة في الآيات التي هو فيها، انكشف له بلا سترة وحجاب أمر الحشر والنشر وجميع الأمور المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى، لا ينكر شيئًا منها، بل يؤمن ويوقن بجميعها.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ المنسوبة إليهم بنسبة شرعية ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ طلبًا لمرضاته ﴿كَمَثَلِ﴾ باذر ﴿حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ﴾ حسب قدرته الكاملة تلك المضاعفة بأضعاف غير متناهية ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من خلص عباده بحسب إخلاصهم في نياتهم وإخراجهم نفوسهم عن البين، وتفويضهم الأمور كلها إلى الله أصالة ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿وَاسِعٌ﴾ لا ضيق في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:261] بحال من توجه نحوه وأنفق لرضاه مخلصًا، لا يعزب عن علمه شيء.

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:262-264].

ويشّر يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ معتقدين أنهم مستخلفون عن الله فيها لا مالكون لها ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى﴾ لاعتقادهم الاستخلاف والنيابة ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ المستخلف لهم لا يدرك مقداره وكيفيته أحد من خلقه ﴿وَ﴾ بعدما أنفقوا على الوجه المذكور ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الحساب والعقاب الأخروي ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:262] من فوات الأجرة بل لهم عند ربهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ رد جميل للسائل ناشئ من حسن الخلق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ من الله بعد رده متحسرًا على نعمة الإنفاق ﴿خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ إذ بذلك القول يرجى الثواب، وبتلك الصدقة يستحق العقاب ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم بالمن والأذى للفقراء الذين هم من عيال الله ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:263] [1] لا يعجل بمؤاخذة من يمن ويؤذي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله الغني الحليم مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم﴾ عند الله ﴿بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ حتى لا تعاقبوا عليها بأشد العقاب ﴿كَ﴾ الكافر ﴿الَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَ﴾ الحال أنه ﴿لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أي: مثل المرائي في إنفاقه في يوم الجزاء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجرٍ أملسٍ ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ اجتمع من هبوب الرياح فطرح فيه البذور لتنبت وتثمر ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس كما كان، وذهب بالبذور والتراب إلى حيث ﴿لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى﴾ تحصيل ﴿شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ويذروا عليه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:264] المبطلين بالمن والأذى حكمة الله المتعلقة لتربية الفقراء وتقوية العجز والضعف، فلا بد للمؤمن أن يجتنب عن أمثاله.

(1) القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل، ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة:260-266].

﴿وَ﴾ بعدما مثّل سبحانه إنفاق المرائي المبطل مثّل أيضًا إنفاق المؤمن المحق بقوله: ﴿مَثَلُ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في سبيل الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لا لعوض ولا لغرض فضلاً عن الرياء وعن المن والأذى ﴿وَتَثْبِيتًا﴾ لهم ناشئًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ليثبتوا على ما أمرهم الله به واستخلفهم فيه بقوله: أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان واقع ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ موضع مرتفع من الأرض ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر عظيم القطر ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا﴾ ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مما في الأرض المنخفضة بإصابة الوابل ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: إن لم يصبها وابل يكفي في إضعاف ثمرتها، طل: رطوبة رقيقة تنزل على الأرض في المواضع المرتفعة؛ لصفاء هوائها عن جميع الكدورات، كأراضي بيت المقدس شرفها الله.

والمعنى: إن إنفاق المؤمن المخلص في الإنفاق، الطالب لرضاء الحق، المائل عن المن والرياء، الراغب لامتثال الأمر وتثبيت النفس وتقريره على أمر تلك الجنة، بل هي الجنة الحقيقية المثمرة للفواضل والإحسانات التي لا يدرك نموها ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بجميع أعمالكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإخلاص والرياء والمن والأذى ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265] لا يغيب شيء عن بصارته وحضوره.

ثم حثّ سبحانه عموم عباده على الإخلاص ورغبهم عن الرياء والمن والأذى على أبلغ وجه وآكده كأنه استدل عليه فقال: ﴿أَيَوَدُّ﴾ ويحب ﴿أَحَدُكُمْ﴾ أيها المؤمنون المنتشرون في فضاء الدنيا ﴿أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ مملوءة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بل ﴿لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ المتنوعة المتلونة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَا﴾ أي: الجنة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح عاصف تستدير عند هبوبها فيرى لغبرتها مثل العمود الممدود نحو

السماء ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ متكونة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فيها، والتقطها من شعل النار فسقطت النار فيها ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ بالمرة ولم ينتفع منها أصلاً، كيف يحرم هو؟!

وحرمانكم في النشأة الأخرى أيها المراءون أشد من حرمانه؛ لإحراقكم جنة الأعمال الصالحة المشتملة على نخيل التوحيد، وأعناب التسليم تجري من تحتها أنهار المعارف والحقائق المتنشئة من النفحات الإلهية المثمرة ثمرات الإنفاق والصدقات، والمتشعبة من الرضا المشعر بمقام العبودية، المسقط للإضافات كلها بإعصار الرياء والمن والأذى، المشتمل على نيران الأنانية والغيرية، المشعرة بعدم التحقق بمقام الرضا والتسليم، فاحترقت بالمرة.

والحال أنكم مبطلون على الكسب، وقواكم الكاسبة قد رجعت إلى بدء رجوع القهرى ضعفاء مطلعين مثلكم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 266] فيها وتدخرون الزاد ليوم لا كسب فيه ولا مكسب، ولا زرع ولا حصاد.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة:267-269].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا﴾ لرضاء الله ﴿مِن طَيِّبَاتِ﴾ جيدات ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: ما كسبتم في النشأة الأولى بأيديكم بالتجارة والصناعة ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ بلا عمل منكم من الحبوب والثمار والمعدنيات وغير ذلك ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا﴾ أي: لا تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الردي، ﴿مِنْهُ﴾ أي: مما كسبتم، ومما أخرجنا لكم حال كونكم ﴿تُنفِقُونَ﴾ للفقراء ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿لَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ من الغير ﴿إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ تسامحوا في أخذه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿غَنِيٌّ﴾ عن إنفاقكم وتصدقكم، وإنما يأمركم به لانتفاعكم إذ هو ﴿حَمِيدٌ﴾ [البقرة:267] شكور، فما أنتم وإنفاقكم.

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾[1] في الإنفاق ويخوفكم منه ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: البخل المتجاوز عن الحدود ﴿وَاللهُ يَعِدُكُم﴾ فيه ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم ناشئة ﴿مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾[2] زائدًا على وجه التبرع والإكرام خلفًا لما أنفقتم لطلب رضاه ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾

---

(1) أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه. وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة. وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيما وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وهذا من وسوسة العدو، وليس لهم بإحراز العلوم والخوف من المعدوم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد. وزيَّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمور وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشباه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة.

﴿يَعِدُكُم وَاللهُ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ معرفته تطهر قلوب الأشحاء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره لهؤلاء العباد الذين اصطفاهم لمحبته وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته. وأيضًا المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل. وأيضًا المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون. وقيل: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله. وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة، وهو الفقر الحاضر. وقيل: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة. وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً. قال محمد بن علي: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ وهو عمارة داره ﴿يَعِدُكُم وَاللهُ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه. وقال بعضهم: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ تحذيرًا للموحدين لا تفريقًا للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا نسي القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزين

لا ضيق في فضله وإحسانه ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268] بنية من أنفق.

﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ﴾ أي: سرائر جميع الأعمال المأمورة لعباده ﴿مَن يَشَاءُ﴾ بفضله وجوده ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ﴾[1] من العباد ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لا يحيط بكثرته إلا

للخلق، وأصل الكفر منازعة القدرة، وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه، وتضعه في غير حقه.

(1) قال الشيخ روزبهان: الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب، والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهذيب خلق الإنساني، وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق، وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن، ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. ومَنْ يؤت هذه الدرجات فقد أوتي خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضًا: صرف الحكمة إدراك مراد الحق من رموز خطابه، وامتثال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلتفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام والإشارات الإلهية، والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضًا: شهود السر على أسرار شواهد الملكوت ورؤية غرائبها. وأيضًا: الحكمة عند العارفين ولوح السر قباب الغيب واطلاعه على خزائن الملكوت برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه باقتباس أنوار القرب وانفساخه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات، وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الألوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه الخاصة الذاتية القدمية، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبدًا من عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى تصير ربانية صمدية مطلعة على جميع الأشياء ظاهرًا وباطنًا، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه كلها مستفادة من قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي». فإذا كان

هو ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: ما يتعظ ويتذكر بهذه الآية ﴿إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269] الواصلون إلى لب الأمور، المائلون عن قشورها المتوجهون إلى الله بالعزائم الصحيحة، المعرضون عن الرخص المؤدية إلى الجرائم.

﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ [البقرة:270-272].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أن ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ يؤدي على الإنفاق في سبيل الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الناظر لعباده في كل الأمور ﴿يَعْلَمُهُ﴾ بعلمه الحضوري، ويجازي عليه بأضعافه ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المجاوزين عن حدوده، بمتابعة

جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى. وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام. وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله. وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك، وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية. وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص. وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة. وقال معروف الكرخي: من حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

الشيطان المضل عن سبيل الله ﴿مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:270] ينصرهم عند انتقام الله إياهم على ما صدر عنهم من الفسوق والعصيان، والتبذيرات الواقعة فيها.

﴿إِن تُبۡدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ أيها المؤمنون وتظهروها ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي: نعم شيئًا إبداؤها عند الله وعند المؤمنين ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا﴾ أي: تعطوها خفية من الناس ﴿الۡفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ من إبدائها لعرائها عن وصمة الرياء، وعن ثوب المن والأذى، وعن لحوق العار على الفقراء ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمۡ﴾ لستركم ذلة الفقراء الذين يذلون عند أخذها منكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من الخيرات ﴿خَبِيرٌ﴾ [البقرة:271] يكفيكم خبرته بمجازاتكم عليه.

ثم قال سبحانه مخاطبًا لنبيه كلامًا خاليًا عن السترة، ناشئًا عن عين الحكمة: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُدَاهُمۡ﴾ أي: أن تجعلهم مهديين إلى طريق الحق، بل ما عليك إلا الإرشاد والتنبيه على مسالك التوحيد، والترغيب على محاسن الأوامر المتعلقة به، والترهيب عن مفاتح المناهي المنافية له ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي للكل ﴿يَهۡدِي﴾ بتوفيقه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده إلى صراطه لتوصلهم إلى بابه ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿مَا تُنفِقُوا مِنۡ خَيۡرٍ﴾ صدقة أو نذر ﴿فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: فهو لكم ونفعه عائد إليكم، فلا تبطلوا نفعه بالمن والأذى ولا تنفقوا الرديء الخبيث؛ لئلا تنقصوا من نفعكم وانتفاعكم.

﴿وَ﴾ قل لهم أيضًا: خير إنفاقكم أنكم ﴿مَا تُنفِقُونَ﴾ شيئًا ﴿إِلَّا ابۡتِغَاءَ وَجۡهِ اللَّهِ﴾ طالبًا لرضاه، شاكرًا لنعمه، عاريًا عما يشغلكم عن الحق، مائلاً عن مطلق الجزاء؛ إذ لا جزاء أعظم من مطالعة وجهه الكريم ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِنۡ خَيۡرٍ﴾ على هذا الوجه ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ﴾ جزاؤه فوق ما يصفه ألسنة مصنوعاته أو يدرك عقولهم ﴿وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:272] لا تنقصون وتخسرون في هذه المعاملة مع الله.

﴿ لِلۡفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحۡصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبًا فِي الۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ الۡجَاهِلُ أَغۡنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَاهُمۡ لَا يَسۡأَلُونَ النَّاسَ إِلۡحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنۡ خَيۡرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَالَهُم بِاللَّيۡلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ [البقرة:273-274].

ومتى عرفتم خير الإنفاق، فعليكم أن تعرفوا خير من ينفق إليه فاجعلوا إنفاقكم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ العرفاء الأمناء ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ تمكنوا واستغرقوا وتحيروا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مشمرين للفناء فيه بحيث ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ من غاية استغراقهم في مطالعة جماله ﴿ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾ لطلب الرزق الصوري ومن غاية استغنائهم عن الدنيا وما فيها ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ﴾ أجل ﴿التَّعَفُّفِ﴾ المرتكز في جبلتهم ﴿تَعْرِفُهُم﴾ وتتنبه على حالهم أيها المؤمنون المنفق لرضاء الله ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ من ضعف القوى ورثاثة الحال، وهم من غاية رجوعهم وركونهم عن الدنيا نحو المولى ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ إلمامًا متمنين راجين بما عندهم، بل رزقهم الله المتجلي في الآفاق يرزقهم من حيث لا يحتسب، وبعدما سمعتم أوصاف هؤلاء الوالهين في مطالعة جمال الله وجلاله، بادروا إلى تقوية مزاجهم ليسعدوا بالسعادة العظمى التي لا مرتبة أعلى منه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ خصوصًا لهؤلاء ﴿فَإِنَّ اللهَ بِهِ﴾ بذاته ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:273] يجازيكم بمقتضى علمه.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

بشر يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم﴾ المنسوبة إليهم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ أي: في جميع أوقاتهم وحالاتهم، طالبًا لرضاه، هاربًا عما شغل من الحق وابتلاه ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بقدر قابليتهم واستعدادهم ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من التضييع والإحباط ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:274] من سوء المنقلب والمآب.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:270-277].

بشر أيضًا يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ وهو تنمية المال بأخس الطرق، والإضرار بأخيه المسلم، وإتلاف ماله مجانًا بلا رعاية غبطة بأنهم ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ في البعث ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ﴾ الشخص ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ في النوم، كيف يقوم صرعى حيارى، مضطربًا منهتكًا مشوشًا هائلاً بلا سبب ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر الفظيع الهائل ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ﴾ في التنمية ﴿مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهم يسوون بين البيع والربا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ﴾ لأن غبطة المشتري مرعي فيه حالاً ومآلاً، وهو يرضاه بلا اضطرار، بخلاف الربا فإن غبطة الآخذ غير مرعية فيه، بل إنما ارتكبه اضطرارًا ﴿وَ﴾ لذلك ﴿حَرَّمَ﴾ الله العليم الحكيم ﴿الرِّبَا﴾ لئلا يتلف أموال المسلمين مجانًا بلا عوض ولا رضا ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بلغه ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ قبل ﴿مِّن رَّبِّهِ﴾ في أثناء ما يربو به ﴿فَانتَهَى﴾ نفسه بإسماعها في الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أخذ وقبل الموعظة لا يسترده الشرع ﴿وَأَمْرُهُ﴾ مفوض ﴿إِلَى اللهِ﴾ يجازيه على الانتهاء إن كان من أهل القبول والإنابة، ويعاقب عليها إن كان من أهل التزلزل والاضطراب ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعدما سمع وانتهى ﴿فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:275] دائمون مستمرون ما شاء الله.

ومن سنته سبحانه أنه ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب بركته، ويهلك المال الذي يدخل هو فيه ﴿وَيُرْبِي﴾ يزيد وينمي المال الذي يخرج منه ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ ويضاعف ثوابها ويبارك على صاحبها، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «ما نقصت زكاة من مال قط»[1] ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي بالتجلي الجلي ﴿لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ ستار مصر على تحليل المحرمات ﴿أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276] بارتكاب المحظورات مجترئ على ترك المأمورات.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله الواحد القهار الأحد الفرد الوتر في ذاته ﴿وَ﴾ آمنوا أيضًا بجميع رسله المرسلة من عنده، وبجميع ما جاء به من الأوامر والنواهي ﴿عَمِلُوا﴾ جميع ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ المفروضة لهم بكتاب الله ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ المكتوبة عليهم فيه ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من ترقب مؤلم ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:277] من فوت ملذ مسربل، لهم ما لهم بالفعل بلا انتظار وترقب.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (1/158).

تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:278-281].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: مقتضى إيمانكم اختيار التقوى والعزيمة الخالصة في جميع الأعمال المأمورة لكم، والاجتناب عن الرخص فيها ﴿وَذَرُوا﴾ اتركوا ﴿مَا بَقِيَ﴾ لكم ﴿مِنَ الرِّبَا﴾ عند الغرماء ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278] موقنين بحرمة الربا وسر حرمته.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تمتثلوا بما أُمروا، ولم يتيقنوا لسر ما مُنعوا منه ﴿فَأْذَنُوا﴾ انتظروا واعلموا ﴿بِحَرْبٍ﴾ عظيم نازل ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المتجلي باسم المنتقم ﴿وَرَسُولِهِ﴾ التابع له المتخلق بأخلاقه ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء والإنماء على هذا الطريق الأخس الأخبث ﴿فَلَكُمْ﴾ في دينكم ﴿رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ﴾ بأخذ الزيادة وإتلاف مال الغريم بلا عوضٍ ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:279] تتضررون بالمطل والتسويف وتعويق الأداء وتأخيرها.

﴿وَإِن كَانَ﴾ الذي عليه رءوس أموالكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ لا يقدر على أدائها رخصة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي: فعليكم أن تنتظروا إلى وقت يساره ثم تأخذوا ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ أي: تصدقكم بها على ذي عسرة ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ عند ربكم يجازيكم به جزاء لا يُدرك كنهه إلا هو؛ إذ إدخال السرور في قلب المؤمن يوازي عند الله عمل الثقلين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:280].

﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ المسقط لجميع الإضافات منسلخين عن جميع ما أنتم عليه في الدنيا، مؤاخذين عليها؛ ليحاسبوا ويجازوا على نقير وقطمير ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ تجزى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على مقتضى ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر وظلم وجور ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:281] أصلاً، لا بتنقيص الثواب ولا بتضعيف العقاب بل كل نفس فيها رهينة بما كسبت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام، وقال:

«ضعها في رأس المائتين والثمانين من البقرة»[1] وعاش رسول الله ﷺ بعدها إحدى وعشرين يومًا وقيل: إحدى وثمانين، وقيل: سبعة أيام، وقيل: ثلاث ساعات.

عليك أيها المؤمن المتوجه إلى تصفية الذات أن تدخر لنفسك هذه الآية كزاد آخرتك ما لا يسعه المطولات ولا يتدرج في المجلدات، ولا يفي باستقصائها التعبيرات والإشارات، وهي محتوية على جميع الأسرار الباعثة للإرسال والإنزال والتبشير والإنذار، لذلك ختم به الوحي، وانقطع به الإنزال.

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة:282].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم المحافظة على الحدود خصوصًا ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ﴾ أي: يعطي بعضكم بعضًا مبلغًا، ويأخذه أن يؤديه له ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر معلوم بتقدير الأيام والشهور والأعوام لا بوقت الحصاد وقدوم الحاج وغير ذلك ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ لئلا يقع بينكم العداوة والبغضاء المؤدية إلى النزاع والمراء، المنافية للإيمان والتوحيد ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ على الوجه الذي وقع بلا زيادة ولا نقصان،

(1) ذكره القرطبي في التفسير (61/1).

والحاصل أن تكتب المراضاة التي جرت بينكم حين الإعطاء والأخذ بلا تفاوت حتى تتذكروا به لدى الحاجة ﴿وَلاَ يَأْبَ﴾ لا يمتنع ﴿كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ أي: لا يوجز إيجازًا مخلاً منقصًا، ولا يطنب إطنابًا مملاً مزيدًا؛ لئلا يؤدي إلى النزاع والمناكرة عند الأداء ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكاتب العادل.

﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ على الكاتب المديون ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ لأنه المعترف بالأداء ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ حين الإملاء عن فوت شيء من الحقوق ﴿وَلَا﴾ خصوصًا ﴿يَبْخَسْ﴾ لا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ هذا التخصيص بعدما دل عليه الكلام السابق؛ لزيادة التأكيد والاهتمام في الاجتناب عن حق الغير ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل من أهل التبذير ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ في الرأي والقوة كالصبي والهرم ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ﴾ هو بنفسه ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخرس أو لجهل باللغة ﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ لأجله ﴿وَلِيُّهُ﴾ أي: من يولي أمره شرعًا ﴿بِالْعَدْلِ﴾ برعاية الجانبين بلا ازدياد ولا تبخيس.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿اسْتَشْهِدُوا﴾ على دينكم ومراضاتكم من الجانبين ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ حاضرين في مجلس المراضاة ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ لكمال عقلهم ودينهم ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي: فعليكم أن تستشهدوا بدل الرجلين برجل وامرأتين دفعًا للحرج، هذا مخصوص بالأموال دون الحدود والقصاص؛ لقلة عقلهن وضعف تأملهن ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أنتم أيها العاملون ﴿مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ الذين ثبت عندكم عدالتهم وديانتهم، وإنما خص هذا العدد لأجل ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تنسى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ بمرور الزمان ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا﴾ الذاكرة ﴿الأُخْرَى﴾ الناسية؛ لئلا يبطل حقوق المسلمين.

﴿وَلاَ يَأْبَ﴾ لا يمتنع ﴿الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ لأداء الشهادة أو تحملها مع الاستشهاد والإشهاد ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ﴾ أي: الكتاب الشامل على مراضاتكم ومعاملاتكم المؤجلة ﴿صَغِيرًا﴾ كان الحق ﴿أَو كَبِيرًا إِلَى﴾ وقت حلول ﴿أَجَلِهِ﴾ المسمى عند الأخذ ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: الكتاب على الوجه المذكور ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل معاملاتكم ﴿عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ﴾ أعون ﴿لِلشَّهَادَةِ﴾ أي: لأدائها ﴿وَأَدْنَى﴾ أقربُ الطرق وأحفظُها في أن ﴿أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ فيما جرى بينكم من المعاملة نسيئة، فعليكم أن تحافظوا عليها ولا تجاوزوا عنها ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا﴾ تداولونها ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يدًا بيد ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ذنب ﴿أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ لبعدها من التنازع ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ إن لم تكتبوا ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ احتياطًا؛ إذ البشر لا يخلو من الضرر والإضرار ﴿وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ﴾ هذه الصيغة تحتمل البنائين وكلاهما مراد.

أمّا بناء الفاعل، فلا بد أن يضرهم الكاتب المعاملين بترك الإجابة والحضور عند المملي، والزيادة والنقصان في المكتوب وغير ذلك، والشاهد المدعو إلى التحمل والأداء بترك الإجابة والتهاون والإنكار وغير ذلك.

أمّا بناء المفعول، فلا بد ألّا يضر الكاتب بمنع أجرته واستعجاله عن مصالحه وكذا الشاهد.

﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ أشياء مما نهي عنه ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ خروج عن حدود الله لاحق به ضرره ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن مخالفة حدوده وأحكامه ﴿وَ﴾ خصوصًا بعدما ﴿يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ المدبر لمصالحكم ما ينبغي لكم ويليق بحالكم ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي بصفة الجمال والجلال ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:282] يجازيكم على مقتضى علمه.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة:283-284].

﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المتداينون ﴿عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ أي: فعليكم في أمثال هذه المعاملة رهن مقبوض من الديون إلى أجل مسمى ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم﴾ أيها الدائنون ﴿بَعْضاً﴾ من المديونين بلا ارتهان اعتمادًا على أمانته ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ المديون ﴿الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ اعتمادًا ﴿أَمَانَتَهُ﴾ أي: دينه عند انقضاء أجله المسمى ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ في الإنكار والخيانة والبخس والمماطلة ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿الشَّهَادَةَ﴾ الحاضرة الحاصلة عندكم، المتعلقة بحقوق الناس سواء كنتم من المستشهدين أو الشاهدين على أنفسكم، المعترفين بما في ذمتكم من حقوق الغير ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ إنكارًا وعنادًا ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ أي: يأثم قلبه، ومن كان إثمه من قلبه لا يرجى منه الفلاح والفوز بالنجاح ﴿وَ﴾ المحيط بحيلكم ومخايلكم ﴿اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الإنكار والخيانة وكتمان الشهادة ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:283] ينتقم منكم بكل ما جرى

في نفوسكم منها.

﴿لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الحي، الحقيق بالحقية، القيوم المتفرد بالقيومية، الدائم الظاهر بالديمومية مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الأسماء الذاتية والصفات الفعلية ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة العدمية القابلة لمظهرية آثار الصفات الذاتية، المحدثة المظهرة للكائنات الكونية والكيانية، والواردات الغيبية والواضحات العينية ﴿وَ﴾ بعدما ظهر ما ظهر وما بطن ﴿إِن تُبْدُوا﴾ تظهروا أيها الأظلال والعكوس ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأنانية والأصالة في الوجود والاستقلال بالآثار ﴿أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ الجامع بجميع الأسماء، المحيط بجميع الأشياء، بل الأشياء كلها مستهلكة في وجوده، فانية في ذاته ﴿فَيَغْفِرُ﴾ يستر ذنب الأنانية ومعصية الغيرية ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من عباده بفضله وجوده ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ بقهره وطرده إرادة واختيارًا؛ إظهارًا لقدرته وقلعًا لشوكته ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مما شاء ويشاء ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284] بالقدرة الأزلية الأبدية المتصرف مطلقًا في جميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حضوره ذرة، ولا يشغله فترة.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:280-286].

لذلك: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ﴾ الفاني في الله، الباقي ببقائه، المستغرق بمطالعة لقائه ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ، المتجددة بتجددات التجليات، المتنشئة ﴿مِن رَّبِّهِ﴾ الذي يربيه؛ لاستخلافه ونيابته وتحمل أسرار أعباء نبوته ورسالته ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المتبعون له، المسترشدون منه المقتفون أثره ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ المتفرد والمتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ المرسومين بصفات الذات والأسماء ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المنزلة على ألسنة رسله للهداية والإهداء ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المنبهة على أولي البصائر والنهى مما في آياته الكبرى من السرائر والأسرار التي تفنت دونها الآراء،

واضمحلت الأهواء، قائلين حالاً ومقالاً: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ بعدما ظهر الكل منه ورجع إليه ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا بالله وإحاطته ﴿قَالُوا﴾ طوعًا ﴿سَمِعْنَا وَ﴾ سمعًا ﴿أَطَعْنَا﴾ بجميع ما جاءوا به؛ إذ الكل من عندك نرجو ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بملابس الإمكان، المفضي بالطبع إلى الخذلان والخسران ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا هادي الكل لا إلى غيرك؛ إذ لا غير معك ﴿الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285] في الإعادة عن شيطان الإمكان.

ثم نبه سبحانه على خلص عباده ما يؤول أمرهم إليه وينقطع سعيهم دونه بقوله: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ﴾ الهادي لعباده نحو جنابه ﴿نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما في وسعها وطاقتها واستعدادها مما عينه الله في سابق علمه الحضوري لأجله، فظهر أن ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخيرات باستعداده الفطري الجبلي ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشرور بمتابعة قوى النفس في الإمكان التي هي منشأ جميع الفسادات، ثم لما أشار سبحانه إلى سر التكليف أراد أن يشير إلى الإتيان بما كلف به لا يكون إلا بتوفيقه وجذب من عنده، لذلك لقنهم الدعاء والاستعانة والمناجاة بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك لقبول تكليفاتك لنصل إلى صفاء توحيدك وتقديسك ﴿لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا﴾ إتيان ما تكلفنا بسبب إمكاننا ﴿أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فيها لقصور إدراكنا ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ حجابًا غليظًا وغشاوة كثيفًا، يعمي بصائر قلوبنا عن إدراك نور توحيدك ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا﴾ من متاعب الرياضات ومشاق التكليفات الفائقة لدرن الإمكان ورين التعلقات ﴿مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ﴾ امح بفضلك ﴿عَنَّا﴾ مقتضيات أوصافنا الإمكانية ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر لنا ربنا أنانيتنا وهويتنا عن نظرنا ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿ارْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾ ومولى نعمنا ﴿فَانصُرْنَا﴾ بعونك ونصرتك في ترويج توحيدك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:286] الساترين بغيوم هوياتهم الباطلة شمس الحق الظاهرة على الآفاق.

حققنا بلطفك بحقيتك وتوحيدك، يا خير الناصرين، ويا هادي المضلين.

خاتمة سورة البقرة

عليك أيها المحمدي المتوجه نحو توحيد الذات - شرح الله صدرك ويسر أمرك - أن تأخذ لنفسك حسب قدرتك وطاقتك من هذه السورة المشتملة على جميع المطالب الدينية والمراتب اليقينية، فلك أن تشمر أولاً ذيلك عن الدنيا وما فيها، معرضًا عن لذاتها وشهواتها، متوجهًا بوجه قلبك إلى توحيد ربك، مستفتحًا لما في صدرك من

خزائن جوده ودفائن وجوده، طاويًا كشح حالك وفعالك عما لا يعنيك، هاربًا عن مصاحبة ما يضرك ويغويك، طالبًا الوصول إلى معارج التوحيد ومدارج التجريد والتفريد، راغبًا عما سوى الحق من أسباب الكثرة والتقييد، مستنشقًا من نسمات أنسه ونفحات قدسه، مستروحًا بنفسات رحمته، مستكشفًا عن أسرار ربوبيته، مستهديًا من زلال هدايته بمتابعة نبيه المخلوق على صورته، المبعوث على جميع بريته، مسترشدًا من كتابه المنزل عليه، الجامع لما في الكتب السالفة من الحكم والمواعظ والعبر والرموز والإشارات الواردة منه عنده؛ لإهداء التائهين في فضاء وجوده، المستغرقين في تيار بحار إحسانه وجوده.

فعليك أيها المريد القاصد لسلوك طريق الحق أن تلازم هذا الكتاب الذي لا ريب في هدايته لمن آمن في غيب الهوية، وأدام التوجه نحوه، صارفًا عنان عزمك عن كل ما يشغلك عن ربك، مقبلاً بشأنك نحو مقصدك ومطلبك، معرضًا على نفسك ما فيه من الحقائق والمعارف والحكم والأحكام والقصص والتذكيرات؛ إذ ما من حرف من حروف هذا الكتاب إلا هو ظرف المعاني إلى ما شاء الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم.

فلا بد لك عند تلاوة القرآن أن تطهر ظاهرك وباطنك عن جميع لوازم بشريتك، بحيث تغيب عنك نفسك، وتفنى هويتك وشأنك، وأنطقك ربك بنطقه وكلامه، ومتى رسخت هذه الحالة فيك وصارت خلقك وشيمتك، فزت بحظك من تلاوته، وإياك أن تغفل عند قراءته عن محض إشارته والتدقيق في روايته ودرايته.

ومتى صفت سريرتك عن العوائق كلها، وخلصت طويتك عن العوائق برمتها، صح لك أن تسترشد منه حسب ما قدر الله لك ووفقك في سابق علمه، إنه على ما يشاء قدير، وبإجابته حقيق جدير.

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة آل عمران

لا يخفى على الراسخين المتأملين في كلمات الكتب المنزلة من عند الله، المتعلقة بتهذيب الظاهر عن الكدورات البشرية ومشابهاتها، المصفية للباطن بالنسبة إلى أولي العزائم الصحيحة عن جميع الأوهام والخيالات الفاسدة، المنافية لصرافة الوحدة الذاتية والهوية السارية في جميع المظاهر حسب تعدادات التجليات المترتبة على الأوصاف والسماء الذاتية، أن ستر الإنزال والإرسال، والوحي على الأنبياء والإلهامات والإرهاصات الواردة على قلوب المخلصين من الأولياء، إنما هو للتفطن والتنبه على كيفية انبساط الظل الإلهي الممتد على طبيعة العدم، المقابل للوجود، القابل لانعكاس أشعة أنواره الفائضة حسب التجليات الجمالية والجلالية، وكيفية ارتباط الأظلال والعكوس الغير المحصورة على المبدأ الوحداني الذي هو الوحدة الذاتية التي لا تعدد فيه أصلاً إلا بجسب الأوصاف والشئون، كما قال سبحانه في وصف ذاته المنزه عن شوب الكثرة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1] وقال في شأنه المقتضي للتعدد: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:29].

وقال في ارتباط الأظلال ورجوعه إلى الوحدة: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود:56] وقال أيضًا بلسان الأظلال: ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156]، وقال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء:93] وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:25] إلى غير ذلك من الآيات والأخبار الواردة في هذا الباب، والشهودات والكشوفات الصادرة من أرباب الولاء، أنار الله براهينهم.

ولما كان الإنسان الكامل قابلاً لمظهرية جميع الأوصاف الإلهية، لائقًا للخلافة والنيابة عنه، أنزل عليه من عنده كتابًا مشتملاً على ما كان ويكون من رطب ويابس، ونقير وقطمير، كما قال سبحانه في محكم تنزيله: ﴿وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59] وقال في وصف كتابه لآياته: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42].

فلا بد للمسترشد الخبير منه أن يتعمق في طلب دفائن أسراره الكامنة في أغواره، ويغوص في ذخائر بحاره حتى يفوز بفرز فوائده ودرر فرائده، ويتحقق بمقام التخلق بأخلاق الله حتى يتصف بالخلافة والنيابة ويستحق الخطاب الإلهي.

ولهذا خاطب سبحانه رسوله الذي هو أكمل الكاملين وأتم المخلوقين - صلوات الله عليه - متبركًا:

﴿بِسْمِ اللهِ﴾ الذي أنزل الكتب وأرسل الرسل؛ إرشادًا لعموم العباد إلى طريق المعاد ﴿الرَّحْمَنِ﴾ عليهم بإنزال المحكمات المعدة لفيضان اليقين والعرفان ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليهم بإنزال المتشابهات المتضمنة بسبب التوحيد عند أهل التحقيق والإيقان.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ [آل عمران: 1-6].

﴿الـم﴾ [آل عمران:1] أيها الإنسان الكامل الأحدي الأوحدي الأقدسي، اللائح على صورة الرحماني، الملازم الملاحظ لمقتضيات الأوصاف والسماء الإلهية، المتفرعة عليها جميع المظاهر الكونية المشتمل عليها، المحيط بها.

﴿اللهُ﴾ أي: الذات الصمد المبدع المظهر الموجد الذي ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا مظهر ولا موجد ﴿إِلاَّ هُوَ الحَيُّ﴾ الدائم الثابت، الذي لا يقدر حياته الزمان ولا يحصره المكان، ولا يشغله شأن عن شأن ﴿القَيُّومُ﴾ [آل عمران:2] الذي لا يعرضه الفتور، ولا يعجزه كر الأعوام ومر الدهور.

هو الذي: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا مظهر الكل امتنانًا لك ﴿الكِتَابَ﴾ أي: القرآن الجامع الشامل لما في الكائنات أعلاها وأدناها أولاها وأخراها ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السالفة المنزلة على الأنبياء الماضين

﴿وَأَنزَلَ﴾ أيضًا ﴿التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:3] على موسى وعيسى - عليهما السلام - مصدقين لما مضى من الكتب السابقة.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل إنزالهما عليهما ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يهديهم إلى توحيده الذاتي عند ظهور خلافه من الغي والضلالة ﴿وَ﴾ بعدما ظهر الضلال ﴿أَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ أي: الكتاب السماوي الفارق بين الهداية والضلالة؛ ليتميز الحق عن الباطل، وآيات الله عن تسويلات الشياطين ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ بعد ظهوره ونزوله، وكذبوا من أنزل إليهم من الكتب والآيات ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو الطرد والحرمان عن ساحة التوحيد بسبب إنكارهم الآيات الهادية لهم إلى طريقه ﴿وَاللهُ﴾ الهادي إلى توحيده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4] عظيم وتعذيب شديد على من كفر بآياته واستكبر على من أنزل عليه الآيات، وكيف لا؟.

﴿إِنَّ اللهَ﴾ المحيط بجميع ما كان ويكون ﴿لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ مما حدث ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ﴿وَلاَ﴾ ما حدث ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران:5] من الإيمان والكفر والهداية والضلالة، وغير ذلك من الأعمال والأحوال الصادرة من العباد.

فكيف يخفى عليه؛ إذ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾ بقدرته ابتداء ﴿فِي الأَرْحَامِ﴾ بعد انصبابكم من أصلاب آبائكم إليها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: كيف تتعلق مشيئته وإرادته بلا مزاحمة ضد، ومشاركة أحد من شريك وند؛ إذ ﴿لاَ إِلَهَ﴾ أي: لا مصور ولا موجد ﴿إِلاَّ هُوَ﴾ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا منازع له ولا مخاصم دونه بل هو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يشاء ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:6] المتقن في كل ما يريد.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)﴾ [آل عمران:7-9].

﴿هُوَ الَّذِي﴾ اصطفاك يا أكمل الرسل لرسالته واجتباك لنيابته وخلافته، بأن ﴿أَنزَلَ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿عَلَيْكَ﴾ من عنده لتصديقك وتأييدك ﴿الْكِتَابَ﴾ المعجز

لجميع من تحدى وتعارض معك تعظيمًا لشأنك، وفصله بالسور والآيات الدالة على الأمور المتعلقة لأحوال العباد، وفي النشأة الأولى والأخرى؛ إذ ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ متعلقة بعموم أحوال العباد على اختلاف طبقاتهم في معاشهم ومعادهم من الأحكام والمعاملات والمعتقدات الجارية فيما بينهم بحسب النشأتين ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ واجبة الاقتداء والامتثال لكافة الأنام ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ متعلقة بالمعارف والحقائق المترتبة على الحكم والمصالح المودعة في إيجاب التكليفات، والطاعات والعبادات المؤدية إليها بالنسبة إلى أولى العزائم الصحيحة المتوجهة إلى بحر التوحيد.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل وعدول عن طريق الحق الجامع بين الظاهر والباطن ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ ويتركون الامتثال بمحكماته جهلاً وعنادًا، ولم يعلموا أن الوصول إلى المعارف والحقائق إنما تنال بتهذيب الظاهر بامتثال المحكمات، وليس غرضهم من تلك المتابعة ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أي: طلب إيقاع الفتنة بين الناس إفساد عقائدهم عن منهج التوحيد ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ إلى ما يرتضيه عقولهم وتشتهيه نفوسهم، كالمبتدعة خذلهم الله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ على ما ينبغي ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ المنزل؛ إذ تأويل كلامه لا يسع لغيره إلا بتوفيقه وإعانته ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ اللدني المؤيدون من عنده بإلهامه ووحيه بمعارف وحقائق لا تحصل بمجرد القوة البشرية إلا بتأييد منه، وجذب من جانبه ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أي: أيقنا وأذعنا بمحكمات الكتاب ومتشابهاته جميعًا؛ إذ ﴿كُلٌّ﴾ منزل ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ ومالنا أن يتفاوت فيه ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ويتيقظ منه ﴿إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:7] المجبولون على لب التوحيد، المعرضون عن قشوره التي هي من مقتضيات القوى النفسانية، التي هي من جنود شياطين الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة.

﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك على نشأة توحيدك ﴿لاَ تُزِغْ﴾ ولا تمل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن طريقك ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ عليه بإنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ وتفضل علينا ﴿مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ علمًا وعينًا وحقًا ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:8] بلا إعراض وأغراض.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ بذاتك وأوصافك وأسمائك ﴿جَامِعُ﴾ شتات ﴿النَّاسِ لِيَوْمٍ﴾ شأنه ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ ولاشك في وقوعه لإخبارك بوقوعه على ألسنة رسلك، وإنزالك في كتبك ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الجامع لشتات العباد في المعاد ﴿لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:9]

الذي وعده في كتابه، بل أنجزه على مقتضى إنزاله ووحيه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران:10-13].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، وأعرضوا عن كتبه ورسله وأصروا عليه اغترارًا بمزخرفاتهم الباطلة من الأموال والأولاد ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وترفع ﴿عَنْهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ﴾ غضب ﴿اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ﴾ المصرون المعاندون فيها ﴿هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران:10] أي: أجسامهم وقود نار الحسرة والخذلان دأبهم وديدنتهم في النشأة الأولى.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزل على رسلنا المستخلفين من عندنا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ باسمه المنتقم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ الصادرة منهم من التكذيب والإنكار والعناد والاستكبار، فاستأصلهم بالمرة في النشأة الأولى، وأحرقهم بالنار في النشأة الأخرى جزاء بما كسبوا في الأولى ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على ما يشاء ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران:11] لكل من عاندوا واستكبروا.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك إخبارًا لهم عما سيجري عليهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ بقهر الله وغضبه في يوم الجزاء ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بين يدي الله، وتحاسبون عنده سبحانه عما جرى عليهم في النشأة الأولى، وبعد ذلك تساقون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان مطرودين مهانين ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:12] ما مهدوا فيها بما اقترفته نفوسهم من الاستكبار على الأنبياء والإصرار على ما هم عليه من الكفر والضلالة، بعد ظهور آيات الإيمان وعلامات الهدى؛ إذ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها الضالون في تيه الحرمان ﴿آيَةٌ﴾ ظاهرة دالة على الهدى

الحقيقي ﴿فِي﴾ التقاء ﴿فِئَتَيْنِ﴾ حين ﴿الْتَقَتَا﴾ إحداهما ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته وإظهار توحيده ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ تقاتل مع الموحدين مكابرة وعنادًا، ومع كونكم أيها الكافرون المعاندون بأضعاف المؤمنين الموحدين، وكثرة عددكم وعُددكم ﴿يَرَوْنَهُم﴾ أي: الموحدون ﴿مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ أي: في بادي النظر ويرهبون منهم رهبة شديدة بتأييد الله ونصره ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بجميع ما جرى في ملكه ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ﴾ العزيز ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده المخلصين في إطاعته وانقياده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التأييد والنصر مع ظهور عكسه ﴿لَعِبْرَةً﴾ تبصرة وتذكرة ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13] المستبصرين بنظر الاعتبار عن سرائر الأمور وأسرارها بلا التفات إلى مزخرفات الدنيا الدنية من شهواتها ولذاتها، لا للمنهمكين المستغرقين في بحر الغفلة والغرور إذ:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) ﴾ [آل عمران:14-18].

﴿زُيِّنَ﴾ حبب وحسن ﴿لِلنَّاسِ﴾ المغرورين بزخرفة الدنيا ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: مشتهياتها المنحصرة أصولها في هذه المذكورات ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ اللاتي هن لمن اشتهاها؛ إذ هن للوقاع الذي هو من ألذ الملذات النفسانية ﴿وَالْبَنِينَ﴾ للمظاهرة والمفاخرة والغلبة على الخصوم ﴿وَالْقَنَاطِيرِ﴾ الأموال الكثيرة ﴿الْمُقَنطَرَةِ﴾ المجتمعة المزخرفة ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ لكونها وسائل إلى المشتهيات التي مالت القلوب إليها بالطبع ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة المنسوبة إليهم ليركبوها ويبطروا عليها ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم ليحملوها، ويأكلوا منها ويزرعوا بها ﴿وَالْحَرْثِ﴾ ليقتاتوا بها ويعيشوا بأكلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأصول المذكورة ﴿مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الفانية

المانعة من الوصول إلى الجنة، المأوى التي هي دار القرار والخلود، وموعد لقاء الخلاق الودود ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الصواب ﴿عِندَهُ﴾ لمن توجه نحوه واستقبل جنابه ﴿حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران:14] وخير المنقلب والمئاب.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين، للمخلصين في عبادة الله، الراغبين إلى جزيل عطائه، الطائرين إلى فضاء فنائه، الطالبين الوصول إلى شرف لقائه، الفانين في الله؛ ليفوزوا بشرف بقائه تحريكًا لهم سلسة الشوق والمحبة ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أيها الحيارى في صحارى الإمكان، الموثقون بقيود الأكوان، المحبوسون في مضيق الجدران بسلاسل الزمان والمكان ﴿بِخَيْرٍ﴾ مراتب ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ملتم إليها واشتهيتم إلى نيلها في هذه النشأة، حاصل واصل إليكم في النشأة الأخرى ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ منكم عن محارم الله وتوجهوا إلى الله في الدنيا، ولم يرتكبوا ما نهاهم الله على ألسنة رسله ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بتوفيقه على ترك المحظورات واجتناب المكروهات ﴿جَنَّاتٌ﴾ معارف وحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أنهار الكشوف والشهود ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ أعمال وحالات ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ خالصة عن كدر الرعونة والرياء خالية عن الميل إلى البدع والأهواء ﴿وَ﴾ مع ذلك لهم ﴿رِضْوَانٌ﴾ عظيم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ ليحققهم في مقام العبودية والرضاء بما جرى عليهم من القضاء، بحيث لا ينسبون شيئًا من الحوادث إلى الأسباب والوسائل، بل لا يرون الوسائط في البين أصلاً ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي للكل ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:15] الراضين بقضائه، المرضيين بإنفاذه وإمضائه؛ يعني:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ بألسنتهم موافقًا لما في قلوبهم عند مناجاتهم مع ربهم ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ بمقتضى توفيقك بوحدانيتك وبكتبك ورسلك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ بلطفك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ التي صدرت عنا من أنانيتنا واستر عيوبنا التي كنا عليها قبل انكشافنا بتوحيدك ﴿وَقِنَا﴾ بلطفك، واحفظنا بفضلك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:16] المعد لأصحاب البعد والخذلان عن ساحة عز حضورك، واجعلنا بفضلك من:

﴿الصَّابِرِينَ﴾ على عموم ما أصابهم من البأساء والضراء في طريق توحيدك ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ عن الكذب مطلقًا في أقوالهم المعتبرة، المعربة عن أفئدتهم المطمئنة بالإيمان ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الخاضعين الخاشعين إليك بظواهرهم وبواطنهم ﴿وَالْمُنفِقِينَ﴾ من طيبات ما رزقت لهم؛ طلبًا لمرضاتك بلا شوب المنة والأذى ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ لك الخائفين من سخطك وجلالك، الراجين منك العفو في عموم أوقاتهم خصوصًا

﴿بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:17] الخالية عن جميع الموانع العائقة عن التوجه إلى جنابك الشاهدين بوحدانيتك بما: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ به لذاته، وهو ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا موجود ولا وجود ولا كون ولا تحقق ولا كائن ولا ثابت ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الحي الحقيق بالحقية، الوحيد بالقيومية، الفريد بالديمومية، لا شيء سواه ﴿وَ﴾ بما شهد بوحدته ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: الأسماء والصفات القائمة بالذات الأحدية؛ إذ الكل قائم به ثابت له لا مرجع لها سواه ﴿وَ﴾ بما شهد به ﴿أُولُوا الْعِلْمِ﴾ من مظاهر المخلوقات على صورته المتأثرة من أوصافه وأسمائه، وإن كانت شهادة كل منها راجعة إلى شهادته؛ لكون الكل ﴿قَائِمًا﴾ مقومًا متحققًا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل الإلهي المنبسط على ظواهر الكائنات أزلاً وأبدًا؛ إذ ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ أي: لا مظهر لها ﴿إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على إظهارها ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18] المتقن في تربيتها وتدبيرها، القائلين طوعًا ورغبة بعدما تحققوا بمقام العبودية:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران:19-20].

﴿إِنَّ الدِّينَ﴾ القويم والشرع المستقيم المقبول المرضي ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ الهادي للعباد إلى طريق الرشاد هو ﴿الْإِسْلَامُ﴾ المنزل من عنده إلى خير الأنام سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ المعاندون المنكرون لدين الإسلام من ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ اليقيني في كتبهم المنزلة من عند الله بأنه سيظهر النبي الحق، والدين الحق الناسخ لجميع الأديان السابقة، وعلموا حين ظهوره حقيته بالدلائل والعلامات المبينة في كتابهم، ومع ذلك ينكرونه ﴿بَغْيًا﴾ حسدًا ثابتًا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ ناشئًا من طلب الرئاسة والاستكبار والعتو والإصرار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بأمثال هذه الأباطيل المموهة يجازيهم على كل منها بلا فوت شيء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:19] لا يعزب عن علمه شيء، شديد العقاب لمن أنكر آياته بعد ظهور حقيتها.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ جادلوك يا أكمل الرسل بعد ظهور حقية دينك وكتابك عندهم مكابرة وعنادًا، لا تجادل معهم بل أعرض عنهم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ﴾ أي: فوضت وسلمت أمري في ظهور ديني، ووجهت ﴿وَجْهِيَ﴾ صورتي المخلوقة على صورة الله المستجمع للكل ﴿لِلَّهِ﴾ ظاهرًا وباطنًا ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ فعليهم الانقياد والتسليم إلى الله في جميع الأمور ﴿وَقُلْ﴾ يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿وَالأُمِّيِّينَ﴾ الذين لا يأتيهم الكتاب والدعوة: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ بدين الإسلام المبين لتوحيد الله كما أسلمت أنا ومن اتبعني بعدما ظهر لكم دلائل حقيته، أم لم تسلموا بغيًا وعنادًا؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ﴾ بعد دعوتك وعرضك لهم طريق الهداية ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ إلى طريق الحق كما اهتديت أنت ومن تبعك ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن دعوتك عنادًا واستكبارًا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ أي: لم يضروك بإعراضهم بل ما عليك من حسابهم من شيء، ولا عليهم من حسابك من شيء، فأعرض عنهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بهم وبضمائرهم ﴿بَصِيرٌ﴾ خبير ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:20] وأحوالهم وأعمالهم، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: 21-22].

وقل لهم أيضًا تذكيرًا واستحضارًا حكاية عن حال أسلافهم الماضين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ ينكرون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة على أنبيائه بعد ظهور صدقها وحقيتها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين أنزل عليهم الآيات من عنده سبحانه ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصة شرعية أي: موافقة بشرع ودين ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ أيضًا ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ الذين يتبعون شرائعهم وينقادون بأديانهم، ويمتثلون بأديانهم ويمتثلون بأوامرهم وأحكامهم، جرى عليهم في الدنيا ما جرى، في الآخرة ما جرى بأضعاف ذلك لعلهم يتنبهوا ويمتنعوا، وإلا ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:21] جزاء لإصرارهم وعنادهم.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المصرون المعاندون هم ﴿الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ضاعت بالمرة ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾

كلها بحيث لا ينفع لهم عند الله لا ﴿فِي الدُّنْيَا وَ﴾ ولا في ﴿الآخِرَةِ وَمَا لَهُم﴾ عند ربهم من يشفع لهم أو يعين عليهم ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:22] الذين يدعون الاقتداء بهم ويستنصرون منهم لكونهم ضالين منهمكين في الغفلة، لاحظ لهم من الهداية أصلاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)﴾ [آل عمران:23-20].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ أي: إلى إصرار اليهود وعنادهم مع كونهم ﴿أُوتُوا نَصِيباً﴾ كاملاً ﴿مِّنَ الكِتَابِ﴾ أي: التوراة في زعمهم حين ﴿يُدْعَوْنَ﴾ في الوقائع ﴿إِلَى﴾ رجوع ﴿كِتَابِ اللهِ﴾ الذي يدعون الإيمان والعمل بمقتضاه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ بمقتضى ما أمر الله في كتابه كيف يتكاسلون ويتهاونون ﴿ثُمَّ﴾ يترقى تكاسلهم وتهاونهم إلى أن ﴿يَتَوَلَّى﴾ يستدبر وينبذ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الكتاب وراء ظهورهم ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران:23] عنه وعن أحكامه بالمرة.

روي أنه ﷺ دخل مدارس اليهود، فقال لهم نعيم بن عمرو والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: «على دين أبي إبراهيم عليه السلام»، فقال: إن إبراهيم يهودي، فقال ﷺ: «هلموا كتابكم ليحكم بيننا وبينكم، فأنكرا عليه وامتنعا عن إحضاره فنزلت»:

﴿ذَلِكَ﴾ التولي والإعراض من كثرة الخصلة الذميمة والديدنة الخبيثة، المرتكزة في نفوسهم المنسوبة إلى دينهم افتراء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ اعتقدوا ﴿قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ المعدة لجزاء العصاة ﴿إِلاَّ أَيَّامًا﴾ قلائل ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ سواء كانت ذنوبنا كثيرة أو قليلة، صغيرة أو كبيرة ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:24] أي: جراهم على الذنب والعصيان ما يفترون في شأن دينهم من أمثال هذه الهذيانات، منها قولهم هذا، ومنها اعتقادهم أن آباءهم الأنبياء سيشفعون لهم، وإن عظمت ذنوبهم، ومنها أن يعقوب عليه السلام ناجى مع الله ألا يعذب أولاده إلا تحلة القسم.

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿فَكَيْفَ﴾ لا تمسهم النار، اذكر لهم ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ إلينا بعد تفريقهم منا لكسب المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات ﴿لِيَوْمٍ﴾ شأنه ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ عند من يكاشف له ﴿وَ﴾ بعد جمعنا إياهم ﴿وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من الحقائق والعرفان والمعاصي والخذلان ﴿وَهُمْ﴾ أي: كل منهم في ذلك اليوم مجزي بما كسبت ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:25] فالنيل والوصول لأرباب الفضل، والقبول والويل كل الويل لأصحاب الطرد والخمول.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [آل عمران:26-28].

﴿قُلِ﴾ يا أيها المتحقق بمقام الشهود الذاتي، المكاشف بوحدة الحق دعاء صادرًا من لسان مرتبتك الجامعة الشاملة لجميع المراتب ﴿اللهُمَّ﴾ يا ﴿مَالِكَ المُلْكِ﴾ أي: المتصرف المستقل في مظاهر ذاتك ﴿تُؤْتِي﴾ تعطي وتكشف بلطفك ﴿المُلْكَ﴾ أي: التوحيد الذاتي ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من خواص مظاهر صفاتك وأسمائك ﴿وَتَنزِعُ﴾ تمنع وتستر بقهرك ﴿المُلْكَ﴾ المذكور ﴿مِمَّن تَشَاءُ﴾ من عوامهم؛ تتميمًا لمقتضيات أوصاف جمالك وجلالك ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ بالوصول إلى فضاء فنائك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ وراء حجاب سرادقات جلالك، وبالجملة: ﴿بِيَدِكَ﴾ وقدرتك وسلطانك ومشيئتك وإرادتك ﴿الخَيْرُ﴾ أي: كله الوجود، وظهوره على أنحاء شتى ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر وجودك ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:26] لا تنتهي قدرتك أصلاً.

ومن جملة مقدوراتك: إنك ﴿تُولِجُ﴾ تدخل وتدرج ﴿اللَّيْلَ﴾ أي: العدم ﴿فِي﴾ صورة ﴿النَّهَارِ﴾ أي: الوجود إظهارًا لقدرتك وجمالك ﴿وَتُولِجُ﴾ أيضًا ﴿النَّهَارَ﴾ نور الوجود ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ أي: مشكاة العدم؛ إظهارًا لقدرتك وجلالك ﴿وَتُخْرِجُ﴾ تظهر

﴿الحَيِّ﴾ والحق الحقيق مع غاية صفائها وظهورها ﴿مِنَ المَيِّتِ﴾ العدم الأصلي الذي هو مرآة التعينات ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿تُخرِجُ المَيِّتَ﴾ أي: العدم الجامد الذي ما شم رائحة الحياة أصلاً بامتداد أظلال أسمائك وصفاتك عليه ﴿مِنَ الحَيِّ﴾ الذي لا يموت أبدًا وهو ذاتك ﴿وَتَرزُقُ﴾ بلطفك ﴿مَن تَشَاءُ﴾ من مظاهرك من موائد فضلك وإنعامك ونوال جودك وإحسانك ﴿بِغَيرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:27] تفضلاً لهم وامتنانًا عليهم بلا مظاهرة أحد.

هب لنا بلطفك من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ثم لما بين سبحانه أن الهداية إلى طريق التوحيد والإضلال عنه بقدرته واختياره، يؤتي ملك توحيده من يشأ من عباده ويمنعه عمن يشاء، أراد أن ينبه على خلص توحيد عباده ما يقربهم إلى الهداية ويبعدهم عن الضلال فقال تحذيرًا لهم: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ المُؤمِنُونَ﴾ المتوجهون نحو توحيد الذات، الطالبون إفناء ذواتهم في ذات الله؛ ليخوضوا في لجج بحر التوحيد، ويفوزوا بدرر المعارف والحقائق الكامنة فيها ﴿الكَافِرِينَ﴾ الساترين بهوياتهم الكثيفة المظلمة نور الوجود ﴿أَولِيَاءَ﴾ ولا يصاحبون معهم، ولا يجالسون موالاة لهم ومؤاخاة معهم لقرابة طينية وصداقة جاهلية، مع كونهم خالين معهم ﴿مِن دُونِ﴾ حضور ﴿المُؤمِنِينَ﴾ المظاهرين لهم؛ لئلا يسري كفرهم ونفاقهم إليهم؛ إذ الطبائع تسرق والأمراض تسري، سيما الكفر والفسوق؛ إذ الطبائع مائلة إليها ﴿وَمَن يَفعَل ذَلِكَ﴾ ولم يترك مصاحبتهم ولا موالاتهم ﴿فَلَيسَ مِنَ﴾ ولاية ﴿اللهِ﴾ وطريق توحيده ﴿فِي شَيءٍ﴾ بل ملحق بهم معدود من عداوتهم بل أسوءهم حالاً وأشدهم جرمًا عند الله بعدما نهاهم الله ولم ينتهوا ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنهُم﴾ وتخافوا ﴿تُقَاةً﴾ توجب الموالاة والمصاحبة ضرورة من إتلاف النفس والمال والعرض، وعند ذلك المحذور موالاتهم جائزة ومؤاخاتهم معذورة مداهنة ومداراة ﴿وَ﴾ مع وجود تلك الضرورة المستلزمة للموالاة الضرورية ﴿يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ أي: يحذركم يا أهل العزائم عن نفسه على وجه المبالغة، حتى لا تأمنوا عن سخطه ولا تغفلوا عن غضبه، ولا تميلوا عنه سبحانه بارتكاب ما نهيتم عنه ﴿وَ﴾ اعلموا أن المحذورات كلها راجعة ﴿إِلَى اللهِ﴾ إيجادًا وإظهارًا؛ إذ إليه ﴿المَصِيرُ﴾ [آل عمران:28] في الخير والشر والنفع والضر، لا مرجع سواه ولا منتهى إلا إياه.

﴿قُل إِن تُخفُوا مَا فِي صُدُورِكُم أَو تُبدُوهُ يَعلَمهُ اللهُ وَيَعلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران:29-32].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيرًا وعظة وتنبيهًا على ما في فطرتهم الجبلية: ﴿إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ من محبة أقاربكم ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ المحيط بظواهركم وبواطنكم ﴿وَيَعْلَمُ﴾ أيضًا بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من الكائنات والفاسدات أزلاً وأبدًا ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ منها لا يغيب عن علمه مما لمع عليه نور وجوده ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي لذاته بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهر تجلياته ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:29] بلا فتور وقصور، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، يجازيهم على مقتضى علمه وقدرته في النشأة الأخرى.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيرة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ في النشأة الأولى ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ إحسان وإنعام وعمل صالح ويقين وعرفان ﴿مُحْضَرًا﴾ بين يديه يستحضره ويود استعجاله ﴿وَ﴾ كذا تجد كل نفس شديدة ﴿مَا عَمِلَتْ﴾ فيها ﴿مِن سُوءٍ﴾ غير صالح وكفر ونفاق وشرك وشقاق محضرًا بين يديه، مشاهدًا بين عينيه تستأخره وتتمنى بعده ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ وزمانًا متطاولاً، بل يتمنى ألّا تلقاه أصلاً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ﴾ بهذا التذكير والتنبيه ﴿نَفْسَهُ﴾ وقدرته على الانتقام وزيادة قهره وغضبه على من استكبر عن أوامره ونواهيه ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر على انتقام العصاة ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق ﴿بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:30] الذين يترصدون إلى الله بين طرفي الخوف والرجاء، معرضين عن جانبي القنوط والطمع.

﴿قُلْ﴾ يا أيها المخلوق على صورتنا، المجبول على مقتضيات جميع أوصافنا وأسمائنا، المتخلق بجميع أخلاقنا، لمن أراد إرشادهم وتبلغهم من البرايا ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها الأظلال المنهمكون في بحر الغفلة والضلال ﴿تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: تدعون محبة الله المظهر لكم من العدم، وتطلبون التوجه إلى جنابه والتقرب نحو بابه ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ بأمره وحكمه ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يقربكم إلى جنابه، ويوصلكم إلى شرف لقائه ﴿وَيَغْفِرْ﴾ يستر، ويضمحل ﴿لَكُمْ﴾ عن أبصاركم وبصائركم ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي حجبتم بها عن

مشاهدة جمال الله وجلاله، ومعاينة أسمائه وصفاته ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لكم إلى صراط توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لكم يرفع موانع وصولكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:31] لكم يوصلكم إلى مطلوبكم.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا أجل أعمالكم وأفضلها إطاعة أمر الله وإتباع رسوله المرسل إليكم ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في امتثال جميع أوامره وأحكامه، واجتناب جميع نواهيه ومحظوراته مما فاز به المؤمنون ﴿وَ﴾ أطيعوا ﴿الرَّسُولَ﴾ المبلغ لكم كتاب الله، المبين لكم المراد منه، فإن أطاعوا فازوا مما فاز به المؤمنون ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن إطاعة الله ورسوله، فقد كفروا فلهم ما سيجري عليهم من عذاب الله وغضبه في النشأة الأخرى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:32] منهم لا يقربهم ولا يرضى عنهم، بل يعذبهم ويبعدهم عن عز حضورهم.

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:33-37].

ثم لما وقف سبحانه محبته ورضاه لعباده على متابعة حبيبه ورسوله المصور على صورته، المتخلق بأخلاقه، صار مظنة أن يتوهم أن نسبة ظهوره إلى المظاهر كلها على السواء، فما وجه التخصيص باختيار بعض بالمتابعة؟ أشار سبحانه إلى دفعه، بأن من سنتنا تفضيل بعض مظاهرنا على بعض فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ اختار واجتبى ﴿آدَمَ﴾ بالخلافة والنيابة، وأمر الملائكة الذين يدعون الفضيلة عليه بسجوده وكرمه على جميع مخلوقاته ﴿وَ﴾ أيضًا اصطفى ﴿نُوحًا﴾ بالنجاة والخلاص، وإغراق جميع من في الأرض بدعاته ﴿وَ﴾ كذا اصطفى ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أهل بيته بالإمامة والخلافة، لذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربه بألا يخرج الزمان عن إمامة ذريته إلى يوم القيامة

﴿وَ﴾ كذا اختار ﴿آلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:33] بإرهاصات ومعجزات لم يظهر من أحد مثلها، مثل: إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والولادة بلا أب وغير ذلك.

ثم إن اصطفاء الله إياهم ليس مخصوصًا بهم بل اصطفى منهم ﴿ذُرِّيَّةً﴾ أخلافًا فضلاء ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: أعلى رتبة من بعض في الفضيلة كما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة:253] ﴿وَاللَّهُ﴾ المحيط بسرائر عباده المتوجهين نحو بابه ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم الصادرة من ألسنة استعداداتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:34] بما يليق لهم من المراتب العلية.

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مناقب آل عمران وقت ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ﴾ حين ناجت ربها في سرها بلسان استعدادها وقت ظهور حملها، بإلقاء الله إياها: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بحولك وقولك ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً﴾ معتقًا عن أمور الدنيا كلها، خالصًا لعبادتك وخدمة بيتك لا أشغله شيئًا سواه، وكان من عادتهم تحرير بعض أولادهم الذكور لخدمة بيت المقدس شرفها الله ﴿فَتَقَبَّلْ﴾ بلطفك ﴿مِنِّي﴾ ما نذرت لك للتقرب إليك يا رب ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وصفاتك وأسمائك ﴿أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لمناجاتي ﴿الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران:35] بحاجاتي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أنثى آيست ﴿قَالَتْ﴾ متحسرة متحيرة مشتكية إلى ربها في نذرها: ﴿رَبِّ إِنِّي﴾ وإن بالغت في إخلاص النية في نذري لم تقبله مني يا رب أن ﴿وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ والأنثى لا تصلح لخدمة بيتك ﴿وَ﴾ لما امتدت في إظهار التحزن، وبث الشكوى والتحسر نودي في سرها: لا تجزعي ولا تحزني؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المطلع لإخلاص نيتك ﴿أَعْلَمُ﴾ منك ﴿بِمَا وَضَعَتْ﴾ وما ظهرت منها من البدائع والغرائب والإرهاصات الخارقة للعادات ﴿وَلَيْسَ﴾ مطلق ﴿الذَّكَرُ﴾ الذي حرر لخدمة هذا البيت ﴿كَالْأُنْثَى﴾ التي هي هذه؛ إذ يترتب على وجود عجائب صنع الله وبدائع قدرته لما سمعت بسمع سرها ما سمعت قالت نشطة فرحانة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ليكون اسمها مطابقًا لمسماها؛ لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، ولما تحققت عندها بإلهام الله وقاية الله إياها وذريتها، قالت مفوضة إلى الله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أيضًا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:36] لتكون هي وهم في حفظك وحمائك من إغوائه وإضلاله.

الناظرين بنور الله في تجددات تجليات الوجود الإلهي.

ثم لما تفطن زكريا من هذا الكلام ما تفطن ﴿قَالَ﴾ مسترعًا مستنشطًا: ﴿رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿اجْعَل لِّي﴾ بفضلك ﴿آيَةً﴾ علامة أعرف بها الحمل؛ ليفرح بها قلبي ويخلص عن الانتظار ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أي: لا تطيق التكلم معهم؛ لعدم مساعدة آلاتك عليه مدة ﴿ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾ ولا تعلمهم حوائجك ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ إشارة بيد ورأس وغير ذلك ﴿وَ﴾ عند حبسك عن الكلام والتنطق ﴿اذْكُر رَّبَّكَ﴾ في نفسك ذكرًا ﴿كَثِيراً وَسَبِّحْ﴾ نزهه عن جميع النقائص تسبيحًا مقارنًا ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ أي: جميع الليل ﴿وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران:41] أي: جميع النهار لتستوعب جميع أوقاتك بذكره.

من هذا تفطن العارف أن الداعي المستجيب من الله لا بد له أولاً أن يفرغ قلبه عن غير الله ويستوعب أوقاته بذكره، بل يكل لسانه عن ذكر غيره مطلقًا، حتى يفوز بمطلوبه ويجيب له بفضله وطوله.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:42-46].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدائح آل عمران واصطفاه الله إياهم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ﴾ بأمر الله ووحيه لمريم - رضي الله عنها - ملهمين لها، مشافهين معها، منادين على سرها: أبشري ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ﴾ اختارك لخدمة بيته مع أنه لم يعهد منه اختيار النساء للخدمة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ بفضله عن جميع الخبائث والأدناس العارضة للنسوان ﴿وَاصْطَفَاكِ﴾ خيرك وفضلك بهاتين الخصلتين الحميدتين ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:42] وإنما خصصها بما خصصها؛ لتكون آية لما يترتب عليها ويظهر بسببها من بدائع أودعه الله سبحانه في إيجادها من حبلها بلا مباشرة أحد، بل

بمجرد كلمة ملقاة من عنده ومعجزات وخوارق ظهرت من ابنها لم يظهر مثلها من أحد.

ثم لما أخبرت الملائكة بإصفائه سبحانه إياها، نادتها الملائكة ثانيًا بأمر الله أيضًا؛ تعليمًا لها التوجه والرجوع إلى الله على وجه الخضوع والتذلل والإخبات والخشوع ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ المختارة المقبولة عند الله ﴿اقْنُتِي﴾ توجهي وتضرعي ﴿لِرَبِّكِ﴾ الذي رباك بلطفه وقبلك نذيرة من أمك، واصطفاك على نساء العالمين بأنواع الفضائل شكرًا لما تفضل عليك ﴿وَاسْجُدِي﴾ واخضعي وتذللي نحوه ملقية جباهك على الأرض؛ لأداء شيء من حقه ﴿وَارْكَعِي﴾ دائمًا؛ لخدمة بيته وتطهيرًا من الأوساخ والأدناس ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران:43] المحررين المنحنين قامتهم دائمًا على خدمة الله وخدمة بيته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من اصطفاه الله آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران، وخصوصًا قصة مريم وأمها وزكريا وزوجه وابنه ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أي: من الأخبار المغيبة المجهولة عندك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل مع خلاء خاطرك وضميرك عنها، ولا معلم لك سوى وحينا وإلهامنا مع كونك أميًا عن مطالعة القصص والتواريخ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كُنتَ﴾ لهويتك الشخصية ﴿لَدَيْهِمْ﴾ وقت ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ أي: الأحبار ﴿أَقْلَامَهُمْ﴾ للاقتراع في أنهم ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يحفظ ﴿مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ أيضًا ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:44] في أمرها وحفظها.

وإنما نوحيه إليك؛ ليكون آية لك على صدقك في دعواك النبوة والرسالة، والإنكار على أمثال هذه الأخبارات والإنباءات الصادرة عن الأنبياء والأولياء، المستندة إلى محض الوحي والإلهام النازلة من عند الله، إنما نشأ من العقل القاصر المموه المضل عن طريق الكشف واليقين، وإلا فمن صفات عقله المفاض له من حضرة العلم المحيط الإلهي عن كدورات الوهم والخيال، وانكشفت سريرة سره بسرائر الأقوال والأفعال والأحوال، ظهر عنده بلا سترة وحجاب أن من النفوس البشرية من ترقب في هذه النشأة من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، واتصلت بالمبادئ العلية التي هي الصفات الإلهية، واضمحلت ناسوتها وغلبت اللاهوتية عليها.

وحينئذ ظهرت منها على اتفاق من الحضرة العلية الإلهية، وإرادة غيبية ومكاشفات عينية متعلقة بعضها بالغيب وبعضها بالشهادة، كالإخبار عن الوقائع الماضية والمستقبلية، كما نسمع ونشاهد أمثال ذلك من بعض بدلاء الزمان، أدام الله بركته على مفارق أهل اليقين والعرفان، في حالتي قبضه وبسطه حكايات وكلمات

متعلقة بوقائع وقعت في البلاد البعيدة.

ونحن نجزم بوقوع بعضها كما نسمع منه، ونجزم أيضًا بأنه ما هو حاضر عند وقوعها، وأيضًا نجزم بأنه لم يسمع من أحد لانسلاخه عن الاستخبار والاستفسار على الوجه المعتاد بين الناس، وسمع منه مدخله أيضًا عن الأحوال التي جرت بيننا وبينه بمدة متطاولة نستحضره في خلواته، ويتلفظ بها بلا فوت دقيقة، ونحن إذا راجعنا وجداننا لم نستحضر الأمور التي جرت علينا في يومنا هذا بلا فوت شيء.

وأمثال ذلك من جنابه - أدام الله بركته - كثيرة، ومن له أدنى بصيرة وإيمان صادق بطريق المكاشفة والوحي والإلهام الإلهي لم يشك في أمثال هذه الخوارق من الأنبياء والأولياء أصلاً، بل يعلم يقينًا أن الحكمة والمصلحة في إظهار نوع الإنسان وإرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هي لهذا التفطن والتدبر، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40].

اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من مدائحها وقت ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ منادين على سرها مبشرين لها: ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ المختارة المصطفاة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتفضل عليك بأنواع اللطف والكرم ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ صادرة ﴿مِّنْهُ﴾ مكونة لك منك ابنًا بلا أب؛ إظهارًا لقدرته ليكون معجزة لابنك، وإرهاصًا لك ﴿اسْمُهُ﴾ من عنده ﴿الْمَسِيحُ﴾ لفظ سرياني معناه: المبارك؛ لأنه سبحانه بارك عليه، وعلمه الشخصي بين الأنام ﴿عِيسَى﴾ وهو من الأعلام العجمية، وكنيته ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إذ لا أب له حتى يكنى به، وهو مع كونه بلا أب ﴿وَجِيهًا﴾ مشهورًا معروفًا مرجعًا للأنام ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالنبوة والرسالة، يتوجه إليه الناس في أمور معاشهم ومعادهم ﴿وَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ أيضًا لرجوعهم إليه للشفاعة ﴿وَ﴾ كيف لا يشفع للعصاة وهو ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:45] عند الله.

﴿وَ﴾ علامة تقربه أنه ﴿يُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بما يتعلق بأمور الدنيا والدين حال كونه طفلاً ﴿فِي الْمَهْدِ وَ﴾ حال كونه ﴿كَهْلًا﴾ على طريق واحد بلا تفاوت زيادة ونقصان ﴿وَ﴾ هو لنجابة عرقه في حالتي الطفولة والكهولة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:46] للرسالة والنبوة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [آل عمران: 47-50].

فلما سمعت مريم ما سمعت تضرعت إلى ربها واشتكت حيث ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ يا من رباني بالستر والصلاح والعبادة والفلاح ﴿أَنَّى﴾ من أين ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ﴾ وأنت تعلم يا رب أني ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ ومن سنتك إيجاد الولد بعد مباشرة الزوج؟ ﴿قَالَ﴾ سبحانه إشفاقًا لها وإزالة لشكها: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ أي: مثل حالتك التي تعجبين منها، وهي ولادتك بلا مساس أحد وجود جميع الأشياء الظاهرة من كتم العدم ظهورًا إبداعيًا؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿يَخْلُقُ﴾ يظهر جميع ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلا سبق مدة ومادة بل ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ أراد ﴿أَمْرًا﴾ إيجاد أمر وإظهاره من الأمور المكانية الثابتة في حضرة العلم ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ تنفيذًا لقضائه مجرد كلمة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:47] بلا تراخ ولا مهلة، بلا توقف على شرط وارتفاع مانع، وحالك التي تتعجبين منها وتستبعدين وقوعها من هذا القبيل.

ولا تحزني ولا تخافي من التهمة والفضيحة والتعيير والتشنيع؛ إذ لابنك خصائص ومعجزات رفعت عنك جميع ما يعيبك ويشينك؛ إذ لا يشتبه على ذي عقل إن ولد الزنا لا يتصف بأمثال هذه الخصائل والخوارق ﴿وَ﴾ من جملتها أنه ﴿يُعَلِّمُهُ﴾ من لدنه بلا تعليم أحد ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: العلوم المتعلقة بالأمور الظاهرة والتدابير الملكية الشهادية ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: العلوم الباطنة المتعلقة بالحقائق الغيبية ﴿وَ﴾ يعلمه أيضًا ﴿التَّوْرَاةَ﴾ المنزل على موسى صلوات الله عليه ﴿وَ﴾ ينزل عليه خاصة ﴿الْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران:48] من عنده.

﴿وَ﴾ بعد إنزال الإنجيل يرسله ﴿رَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يدعوهم إلى طريق الحق ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويؤيده بالآيات الساطعة والمعجزات الباهرة الظاهرة من يده الدالة على تصديقه إلى حيث يقول: ﴿أَنِّي﴾ بأمر ربي ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ دالة على نبوتي ورسالة نازلة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي ﴿أَنِّي أَخْلُقُ﴾ أصور وأقدر

﴿لَكُم﴾ بين أيديكم بإقدار الله إياي ﴿مِّنَ الطِّينِ﴾ الجماد صورة ﴿كَهَيْئَةِ﴾ كصورة ﴿الطَّيْرِ﴾ ومثاله جمادًا بلا حس وحركة ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في ذلك المثال ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ حيوانًا طيارًا مثل سائر الطيور، ذلك التقدير والنفخ يصير صادرًا مني ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بقدرته وإرادته ﴿وَ﴾ كذا ﴿أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ المكفوف العينين ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ الذي لا يرجى برؤهما ﴿وَ﴾ أعظم من جميع ذلك أن ﴿أُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ القديمة كل ذلك ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقدرته وإرادته، فهو إجمالاً لا إطلاع لكم على لميته بعد وقوعها أيضًا ﴿وَ﴾ مما لكم إطلاع عليه بعد وقوعه ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من الطعام والفواكه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ منها ﴿فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من المعجزات والخوارق التي ما جاء به أحد ﴿لَآيَةً﴾ ظاهرة دالة على نبوتي ورسالتي ﴿لَّكُمْ﴾ لإهدائكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:49] بالله وإرسال الرسل وإنزال الكتب.

﴿وَ﴾ مع هذه الآيات والمعجزات الظاهرة الباهرة جئتكم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ المنزل على موسى - صلوات الرحمن عليه - بل على جميع الكتب المنزلة على الأنبياء الماضين - صلوات الله عليهم أجمعين - وأديانهم وشرائعهم؛ إذ من جملة أمارات النبوة تصديق الأنبياء الذين مضوا من قبله ﴿وَ﴾ جئتكم أيضًا ﴿لِأُحِلَّ لَكُم﴾ في دينكم، وملتكم المنزلة من عند الله علي ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في الأديان الماضية؛ إذ من سنته سبحانه نسخ بعض الأديان ببعض، وإن كان الكل نازل من عنده، ولمية أمر النسخ ما مر في سورة البقرة في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106] ﴿وَ﴾ الحاصل أني ﴿جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ قاطعة ساطعة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دالة على توحيده سبحانه، أفردها من عنده باعتبار أن كل واحد من المذكورات يكفي لثبوت نبوته، وبعدما ظهر منه الكل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاحذروا الله من غضبه ألا تؤمنوا بعد وضوح الدلائل ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:50] في جميع ما جئت به من عنده سبحانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:51-54].

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح المدبر لحالي وحالكم ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أحسن تربيتي بفضله ولطفه وتربيتكم بأن أرسلني إليكم، وإذا سمعتم ما جئت به وأطعتم بمضمونه ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ حتى تعرفوه واعلموا أن ﴿هَذَا﴾ أي: العبادة والإيمان ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران:51] إلى اليقين والعرفان، فعليكم أن تسلكوه على الوجه الذي أمرتم به، والله المستعان، يوصلكم إلى غاية متمناكم، ونهاية مقصدكم ومرماكم.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى﴾ أي: شعر وأدرك بنور النبوة ﴿مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وعدم تأثرهم بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ﴿قَالَ﴾ مستفسرًا مستبشرًا، إظهارًا للمحبة معهم اختبارًا لهم على مقتضى وفق النبوة ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾ في إهداء المضلين ﴿إِلَى﴾ سبيل ﴿اللَّهِ﴾ ينصرني ويعينني عليه؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ أي: الجماعة من أصحابه المنسوبة إلى الحور الذي هو البياض؛ لصفاء قلوبهم وعقائدهم عن كدورة النفاق والشقاق، وخلوص طويتهم بالوفاق: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ﴾ رسول ﴿اللَّهِ﴾ ننصرك بقدر وسعنا وطاقتنا في إجراء أحكام الله وتنفيذ أوامره؛ لأنا ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ المرسل للرسل، المنزل الكتب بتبليغك إيانا ﴿وَاشْهَدْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق لنا يوم العرض الأكبر عند الملك المقتدر ﴿بِأَنَّا﴾ مع إيماننا وإخلاصنا فيه ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:52] منقادون مطيعون لما جئت به من عند ربنا لإصلاح حالنا.

ثم لما اعترفوا بالإيمان بالله وبنصرة رسوله المبلغ لأحكامه، وأشهدوا على إيمانه وإسلامهم، ناجوا مع الله مخبتين مخلصين في سرهم حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿آمَنَّا﴾ بتوفيقك وبإرشاد رسلك ﴿بِمَا أَنزَلْتَ﴾ من الكتاب المبين لأحكامك المنبهة المتعلقة لتوحيدك ﴿وَ﴾ مع الإيمان به ﴿اتَّبَعْنَا﴾ في امتثال ما أمرت له فيه ﴿الرَّسُولَ﴾ المنزل عليه، المتمثل بجميع أوامره الموصلة إلى الكشف والشهود ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ بفضلك ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:53] الذين لا يشهدون في الوجود سوى شمس ذاتك وتجلياتها.

﴿وَمَكَرُوا﴾ احتالوا؛ أي: الكافرون المحسوسون بالكفر في قتل عيسى عليه السلام بأن وكلوا عليه من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ معهم في إنجائه ورفعه إلى السماء، وإلقاء شبهه على من اغتال عليه حتى قتل مجانًا على مظنة أنه هو، مع أنه رفع إلى السماء ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم عن من ظلم لأجل من ظلم ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54] أي: أقوى المحتالين لمن اغتال عليه لقتله.

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾
[آل عمران:55-58].

اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ إعلامًا لعيسى عليه السلام حين هموا بقتله وعينوا من اغتال عليه وهو غافل عن كيدهم: ﴿يَا عِيسَى إِنِّي﴾ بغلبة لاهوتيتي عليك ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مصفيك عن ناسوتيتك المانعة عن الوصول إلى مقر العز ﴿وَ﴾ بعد تصفيتك عن كدورة ناسوتيتك ﴿رَافِعُكَ﴾ بعد ارتفاع موانعك ﴿إِلَيَّ﴾ إذ لا مرجع لك غيري ﴿وَ﴾ بعد رفعك ﴿مُطَهِّرُكَ﴾ ومزكيك ﴿مِنَ﴾ حجاب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا بغيوب أنانيتك الباطلة شمس الذات الظاهرة على جميع الذرات ﴿وَ﴾ إني بعد رفعك إليّ ﴿جَاعِلُ الَّذِينَ﴾ آمنوا بك و ﴿اتَّبَعُوكَ﴾ في جميع ما جئت به لإصلاح حالهم ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: أعلى رتبة وأشرف منزلة ومكانة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بحيث ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:61] ولهم عذاب أليم.

وبعد ظهور عيسى عليه السلام لم يتفق غلبة اليهود أصلاً، بل كانوا منكوبين منكوسين دائمًا إلى الآن ﴿ثُمَّ﴾ قال سبحانه بلسان التوحيد على وجه التنبيه لعيسى ولمن آمن له، ولمن أنكر عليه وكفر: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جميعًا في النشأة الأخرى أيها المختلفون في أمر الدين والإطاعة والإيمان والكفر في النشأة الأولى ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بعد رجوعكم إليّ ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران:55] على مقتضى علمي وإرادتي.

ثمّ فصل سبحانه حكمه بقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا سبيل الحق الظاهر عن مشكاة النبوة والرسالة؛ عنادًا واستكبارًا، وكذبوا الأنبياء، وأنكروا ما جاءوا من الأحكام والمواعظ والحكم والعبر وأصروا عليها ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أطردهم وأبعدهم ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالمذلة والصغار والإجلاء وضرب الجزية ﴿وَ﴾ في ﴿الْآخِرَةِ﴾ بجهنم البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿وَمَا لَهُم﴾ بعد ظهور الدين الناسخ

للأديان الماضية ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:56] من الأنبياء الذين يدعون الإيمان بهم، ويدعونهم بدينهم وكتابهم، ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله؛ لتركهم العمل بالناسخ.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالدين الناسخ والكتاب الناسخ، واتبعوا النبي الذي جاء به من عند ربه ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة فيه؛ انقيادًا وامتثالًا ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ أي: في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ أي: يوفي عليهم أجور أعمالهم بأضعاف ما عملوا؛ تفضلاً عليهم بمحبة الله إياهم بسبب امتثال أوامره وإطاعة رسله ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي للعباد ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:57] الخارجين عن حدوده المنزلة على رسله، المكاشفين تحقيق توحيده، وما يحصل لهم الظلم والخروج إلا بمتابعة عقولهم السخيفة بظلام الوهم المضل عن الطريق المستبين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من نبأ عيسى ﷺ وغيره الذي ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل مع كونك خالي الذهن عنه ولم تتعلم من معلم بشري، والحال أنك أمي، إنما هي ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ المنزلة عليك من عندنا الدالة على نبوتك ورسالتك ﴿وَ﴾ من ﴿الذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:58] الكلام المجيد المحكم المشتمل على الحكم المتقنة والأحكام المبرمة الصادرة عن محض الحكمة، لا يأتيه الباطل ولا يقربه النسخ والتبديل.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [آل عمران:59-63].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي: شأنه وقصته الغريبة الخارقة للعادة، وهي وجوده بلا أب ﴿عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ﴾ كشأن ﴿آدَمَ﴾ في إبداعه سبحانه وإيجاده، بل قصة آدم أغرب من قصته؛ إذ لا أب له ولا أم بل ﴿خَلَقَهُ﴾ قدره وصوره سبحانه ﴿مِن تُرَابٍ﴾ جماد ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن﴾ بشرًا حيًا ﴿فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59] بالفور حيوانًا ذا حس وحركة إرادية وإدراك وفهم.

هذا الكتاب المتلو عليك يا أكمل الرسل هو ﴿الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل إليك؛ لتأييدك ونصرك في دعواك الرسالة ﴿مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن﴾ في حقيته ﴿مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران:60] الشاكين بمقتضى عقولهم السخيفة.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جادلك وخاصمك ﴿فِيهِ﴾ أي: في أمر عيسى وشأنه من النصارى ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المستنبط من الكتاب المنزل من عندنا، المبين لشأنه وإيجاده بلا أب ﴿فَقُلْ﴾ لهم حين خاصموك ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا أيها المجادلون المدَّعون ابنية عيسى لله، المفرطون في أمره ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ ونجتمع بعد ذلك في مجمع عظيم ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ أي: نتباهل بأن يتضرع ويدعو كلٌّ منَّا ومنكم إلى الله ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]، حتى يظهر الصادق من الكاذب، ويتميز الحق عن الباطل.

روي أنهم لما دعوا إلى المباهلة، قالوا: حتى ننظر ونتأمل، فلما خلوا مع ذي رأيهم قالوا: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: والله، لقد عرفتم أنه هو النبي الموعود في كتابكم، ولقد جاءكم بالفصل في أمر صاحبكم، والله، ما باهل قوم نبيًا إلا هلكوا، فإن أبيتم إلا إلف دينكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا.

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضنًا الحسين، آخذًا بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعلي خلفها وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا»[1]، فقال أسقفهم: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهًا لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، فأذعنوا للرسول ﷺ، وبذلوا الجزية ألفي حُلة حمراء وثلاثين درعًا من حديد، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده لو باهلوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي نارًا، ولاستأصل الله نجران، وأهله حتى الطير على الشجر»[2].

قل لهم يا أكمل الرسل نيابة عنا: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور من نبأ عيسى ومريم عليهما السلام ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَ﴾ لا تكفروا بابنية عيسى لله وزوجية مريم، ولا تقولوا بالتثليث والأقانيم؛ إذ ﴿مَا مِنْ إِلَهٍ﴾ معبود بالحق في الوجود ﴿إِلاَّ اللهُ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص:3] ولم يتخذ

(1) أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (284/1).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة (426/7، رقم 37014).

صاحبة ولا ولدًا ﴿وَإِنَّ اللهَ﴾ الحق الحقيق بالحقية، المتصف بالديمومية، المتحد بالقيومية ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر، القاهر للأغيار مطلقًا ﴿الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:62] في إظهارها على مقتضى إرادته واختياره.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الحق بعدما ظهر دلائله وشواهده، أعرض عنهم ولا تجادل معهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المنتقم لمن أعرض عن سبيله ﴿عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران:63] الذين يفسدون في الأرض بإفساد عقائد ضعفاء العباد بالإعراض عن طريق الحق، والإلحاد عن الصراط المستقيم.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [آل عمران: 64-66].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح كلامًا صادرًا عن لسان الحكمة والتوحيد، خاليًا عن وصمة الغفلة والتقليد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الذين يدعون الإيمان بتوحيد الله وكتبه ورسله ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا نتفق ونرجع ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾ حق صحيحة ﴿سَوَاءٍ﴾ حقيتها وصحتها ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ مسلمة ثبوتها عندنا وعندكم بلا خلاف منا ومنكم، وهي ﴿أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ﴾ المعبود بحق، المستحق للعبادة بالأصالة ﴿وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ﴾ في عبادته ﴿شَيْئاً﴾ من مصنوعاته ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً﴾ واجب الإطاعة والانقياد ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ المتوحد بالألوهية، المنفرد بالمعبودية، وإن قبلوا ما قلت لهم عليه وانقادوا وأطاعوا فقد آمنوا ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عن الكلمة الحقة المسلمة المتفقة عليها ﴿فَقُولُوا﴾ إلزامًا وتبكيتًا ﴿اشْهَدُوا﴾ أيها المنكرون الكافرون ﴿بِأَنَّا﴾ لا أنتم ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:64] موحدون، مؤمنون، منقادون.

ثم قل لهم إلزامًا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ وتجادلون ﴿فِي﴾ شأن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بأنه يهودي أو نصراني ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ﴾ المبيّن لليهودية

﴿وَالإِنجِيلُ﴾ المبيّن للنصرانية ﴿إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾ بمدة متطاولة ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:65] أنتم أيها الكافرون المكابرون في هذه الدعوى.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها الحمقى العميان في أمور الدين ﴿هَؤُلاءِ﴾ الضالون المصرون على الكفر والعناد ﴿حَاجَجْتُمْ﴾ جادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مذكور مثبت في كتابكم من بعثة سيدنا محمد ﷺ وأوصافه فتغيرونه وتحرفونه عنادًا بعدما ظهر عندكم حقيته ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ مثبت مذكور في كتابكم من يهودية إبراهيم ونصرانيته، فتفترون وتنسبون إلى كتابكم ما لم يذكر فيه؛ مكابرة وعنادًا ﴿وَاللّهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ﴾ ما حرفتم وما افتريتم ويعاقب على مقتضى علمه ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:66] ولا تعتقدون بعلمه على ما فرطتم فيه.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران:67-71].

ثم قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا﴾ لأن موسى إنما جاء بعده بألف سنة ﴿وَلاَ نَصْرَانِيًّا﴾ لأن عيسى ؏ إنما جاء بعده بألفي سنة ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن إفراط اليهود والنصارى في عزير وعيسى وتفريطهم في إنكار سيدنا محمد ﷺ ﴿مُسْلِمًا﴾ منقادًا معتدلاً، مستويًا على صراط التوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67] الضالين عن طريق الحق بنسبة الحوادث إلى الأسباب والوسائل.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ وأقربهم دينًا، وأولاهم محبة ومودة ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ من أمته، وتدينوا بدينه، وامتثلوا بما جاء به من عند ربه ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث من شيعته، المنتسب إلى ملته، المنشعب من أهل بيته وزمرته ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا النبي، وبما جاء به من الكتاب الناسخ للكتب السالفة، المبين لطريق التوحيد الذاتي ﴿وَاللّهُ﴾ الهادي لعباده إلى جادة توحيده ﴿وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:68] الموحدين الذين يريدون وجه الله في جميع حالاتهم، يولي أمور دينهم بحيث لا يشغلهم عن التوجه إليه

مزخرفات الدنيا الشاغلة عن المولى.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لخباثة نفوسهم وبغضهم المرتكز في قلوبهم؛ حسدًا لظهور دين الإسلام ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي: يضلونكم ويحرفونكم عن جادة الشريعة وسبيل الإيمان والتوحيد، نزلت في اليهود لما دعوا حُذيفة وعمارًا ومعاذًا إلى اليهودية ﴿وَ﴾الحال أنهم ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بهذا الضلال ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ لتضعيف العذاب عليهم بسبب هذا الإضلال ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران:69] بهذا الضرر والنكال.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين الإيمان بموسى وعيسى - عليهما السلام - والتصديق بكتابهما ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ المنزلة فيهما الناطقة على بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران:70] فيهما أوصافه ونعوته، وتنتظرون إلى ظهوره وبعثته، وبعدما ظهر وبُعث، لِمَ أنكرتم عليه عنادًا، وكفرتم استكبارًا؟ ومع ذلك غيرتم وحرفتم كتابكم ظلمًا وزورًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المحرفين لكتاب الله ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ﴾ الظاهر البيّن المكشوف المنزل من عند الله ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ المموه المزخرف المفترى من عند أنفسكم ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ الذي هو بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:71] حقيته في نفوسكم ولا تظهرونه؛ حسدًا وبغيًا.

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران:72-74].

﴿وَ﴾ من غاية حسدهم ونهاية بغضهم أنهم احتالوا واستخدعوا لإضلال المسلمين حيث ﴿قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لأصحابه وجلسائه على وجه الحيل والمخادعة: ﴿آمِنُوا﴾ استهزاءً وتسفيهًا ﴿بِالَّذِي﴾ يدعون أنه ﴿أُنزِلَ﴾ عليه موافقة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ به ﴿وَجْهَ النَّهَارِ﴾ أي: أول بدو النهار؛ ليفرحوا ويسروا بموافقتكم إياه ﴿وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ أي: اتركوه وأنكروا عليه في آخر النهار، معللين بأنا لم نجد محمدًا

على الوصف الذي ذكر في كتابنا؛ ليترددوا ويضطربوا بمخالفتكم، افعلوا كذلك دائمًا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:72] رجاء أن يرجعوا عن دينهم وإيمانهم.

﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تخلصوا عن صميم القلب، ولا تظهروا تصديقكم ﴿إِلاَّ لمن تبع دِينَكُمْ﴾ من إخوانكم وأصحابكم المتدينين بدين آبائكم وأسلافكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل ردًا لمخادعتهم ودفعًا لحيلتهم كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ الْهُدَى﴾ الموصل إلى سواء السبيل ﴿هُدَى اللهِ﴾ الهادي لعباده، يهدي من يشاء إلى طريق توحيده، ويُضِل عنه من يشاء، وإنما دبرتم وخادعتم ﴿أَن يُؤْتَى﴾ أي: لأنْ يؤتى ﴿أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من الكفر والإنكار بمحمد ﷺ ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ﴾ أي: يغلبوكم بهذا الخداع والتدبير ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على زعمكم الفاسد واعتقادكم الباطل ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل: لا تغتروا بمزخرفات عقولكم، ولا تطمئنوا بمقتضياتها؛ إذ هو قاصر عن المعرفة خصوصًا عند تزاحم الوهم، بل ﴿إِنَّ الْفَضْلَ﴾ والهداية ﴿بِيَدِ اللهِ﴾ بقدرته ومشيئته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ بلا معاينة العقل ونصرته ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وهدايته، لا حصر لطريق إلهامه وعلمه ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:73] باستعدادات عباده، يوصل كلاً منهم إلى توحيده بطريق يناسب استعداده.

بل ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ الواسعة الشاملة لجميع الفضائل والكمالات ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من خلّص عباده؛ تفضلاً عليه من عنده من استعداداتهم ما لا يدرك غوره، ولا يكتنه طوره ﴿وَاللهُ﴾ المتجلي بجميع الكمالات ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران:74] واللطف الجسيم على بعض مظاهره من الأنبياء والأولياء الذين فنيت هوياتهم البشرية بالكلية في بحر الوحدة، وتجردوا عن جلبابها بالمرة.

﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران:75-77].

﴿وَ﴾ من تفاوت الاستعدادات، واختلاف القابليات الفطرية ترى ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ ثقة عليه واعتمادًا له ﴿بِقِنطَارٍ﴾ مال كثير مفضل مخزون ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ على الوجه الذي ائتمنت عليه بلا تغيير وخيانة؛ لصفاء فطرته وحسن استعداده وقابليته ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ أو أقل ﴿لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لخباثة طينته وقبح قابليته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ دائمًا مطالبًا أمانتك منه على وجه الإلحاح والإتمام، نزلت في عبد الله بن سلام حين استودعه قريشي ألفًا ومائتي أوقية ذهبًا، فأداه إليه، وفنخاص بن عاذوراء استودعه أيضًا قريشي آخر دينارًا، أنكر عليه وجحد، مع اتفاقهما في الكفر والضلال، وانهماكهما في الإصرار والفساد.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ترك البعض اليهودي ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم استحلوا مال من ليس على دينهم ﴿قَالُوا لَيْسَ﴾ في كتابنا المنزل ﴿عَلَيْنَا﴾ من ربنا ﴿فِي﴾ حق ﴿الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أي: طريق معاتبة ومؤاخذة؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب ﴿وَ﴾ هم بهذا القول ﴿يَقُولُونَ﴾ ويفترون ﴿عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ لأنه ليس في كتابهم هذا الباطل بل يفترونه عنادًا ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:75] أنه افتراء منهم، وعن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: **«كذب أعداء الله، ما من شيء في الجاهلية إلا هو تحت قدمي إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»**[1].

﴿بَلَى﴾ للحق سبيل معاتبة وانتقام معهم في حق كل واحد من عباده على أي دين كان وملة كانت إذا صدر عنهم التعدي إلا ﴿مَنْ أَوْفَى﴾ منهم ﴿بِعَهْدِهِ﴾ الذي عهد مع الله ومع عباده ﴿وَاتَّقَى﴾ من غضب الله بعدم الوفاء، فهو من المحبوبين عند الله ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:76] ويرضى عنهم، يوفيهم أجورهم، ويزيدهم من فضله.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ الذي عهدوا مع رسوله ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ المغلظة الصادرة منهم على وفائه، كقولهم: والله، ليؤمنن به ولينصرنه ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من متاع الدنيا، مثل: أخذ الرشاوى وإبقاء الرئاسة ﴿أُوْلَئِكَ﴾ المستبدلون الخاسرون هم الذين ﴿لاَ خَلاقَ﴾ لا نصيب ولا حظ ﴿لَهُمْ فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ التي هي دار الوصول والقرار ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ﴾ تكليمه من استخلفه عن

(1) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره (297/13).

مقتضيات جميع أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بنظر الرحمة حتى ينعكس بروق أنوار الوحدة الذاتية المتلألئة المشعشعة من عالم العماء التي هي السواد الأعظم المشار إليه في الحديث النبوي - صلوات الله على قائله - على مرائي قلوبهم ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يثني عليهم ولا يلتفت إليهم حين ثنائه.

والتفاته على خلص عباده المستصقلين مرايا قلوبهم عن صداء الالتفات إلى الغير مطلقًا؛ لينعكس فيها أشعة التجليات الجمالية والجلالية اللطفية والقهرية، حتى تعتدلوا وتستقيموا على الصراط المستقيم الذي هو صراط توحيد الله ﴿وَلَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿عَذَابٌ﴾ طرد وخذلان ﴿أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:77] مؤلم لا إيلام أعظم منه؛ إذ حرمان الوصول إلى غاية ما يترتب على الوجود والحصول من أشد المؤلمات والمؤذيات.

نعوذ بالله من غضب الله، لا حول إلا بالله.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)﴾ [آل عمران:78-80].

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ لغاية بغضهم وعداوتهم مع النبي ﷺ ﴿لَفَرِيقًا﴾ جماعة وفئة من المحرفين الذين يحرفون اسمه ونعته في التوراة، يقصدون تشهير المحرف وترويجه على ضعفاء العوام؛ إضلالاً لهم حيث ﴿يَلْوُونَ﴾ يطلقون ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ بالمحرف إطلاقهم ﴿بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ﴾ أي: ليظن السامعون أنه ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المنزل لا نصًا ولا أخذًا ولا تأويلاً ﴿وَ﴾ مع ذلك يفترون ﴿يَقُولُونَ هُوَ﴾ المحرف منزل ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بل من تسويلات نفوسهم الخبيثة، والباعث عليها أهويتهم الباطلة من حب الجاه والرئاسة ﴿وَ﴾ لترويج أباطيلهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فيه ينسبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ افتراء ﴿وَهُمْ﴾ في ضمائرهم

وبواطنهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:78] يقينًا أنه فرية صدرت عنهم؛ مكابرة وعنادًا.

ومع ادعائهم الإيمان والتوحيد والكتاب والرسل، وحصرهم الدين والشريعة على دينهم وشرعهم، لم يتفطنوا ولم يعلموا أن البشر وإن أُرسل وأُنزل وخُصص بفضائل جليلة وخصائل جميلة، لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقًا، حتى يتصف بالألوهية، بل لا يزال العبد عبدًا والرب ربًا.

غاية ما في الباب أن الأشخاص البشرية في التجريد عن لوازمها تتفاوت، فمن كان تجريده أكثر كان إلى الله أقرب، وإلى الفناء أميل، وإلى البقاء أشوق، وإلا فالسلوك لا ينقطع أبد الآبدين، كما قال ﷺ في الحديث القدسي عن الله ﷻ: «**ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي**»[1] ما للعباد ورب الأرباب، فعيسى - صلوات الرحمن عليه - وإن ارتفع قدره وعلت رتبته عند الله، وأظهر بنصر الله خوارق خلت عنها الأنبياء - عليهم السلام - لكن لا ينسلخ عن لوازم البشرية مطلقًا، وهم يدعون انسلاخه ويعبدونه كعبادته سبحانه وتعالى، وينسبونه إلى الله بالبنوة - والعياذ بالله - وما قدروا الله حق قدره.

لذلك رد الله عليهم على سبيل التنبيه والتعليم بقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِبَشَرٍ﴾ خصه لرسالته ونيابته ﴿أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ﴾ ينزله ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين له الشرائع ﴿وَالْحُكْمَ﴾ المحفوظ فيها، المتعلق بأحوال العباد في معاشهم ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ المقتبسة منها، المتعلقة بأحوالهم في معادهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما اصطفاه الله واختاره بالتشريف الأتم الأكمل ﴿يَقُولَ لِلنَّاسِ﴾ المرسل إليهم تجبرًا واستكبارًا: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾ اعبدوني عبادة خاصة ﴿مِن دُونِ﴾ عبادة ﴿اللهِ﴾ وما هي إلا شرك غليظ، كيف صدر أمثال هذه الهذيانات من مشكاة النبوة، تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿وَلَكِن﴾ قولهم وأمرهم عليهم هو كذا: ﴿كُونُوا﴾ أيها الموحدون ﴿رَبَّانِيِّينَ﴾ مخلصين، ولا تكونوا شيطانيين مشركين ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ أي: تعلمون أنتم من ﴿الْكِتَابَ﴾ من أمور دينكم ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران:79] تعلمونه لغيركم من تلامذتكم، وما يأمر ويوحي الأنبياء إلا مثل هذا.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ نبيكم إضلالاً لكم مع كونه هاديًا ﴿أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ﴾

---

(1) ذكره الغزالي في «الإحياء» (8/3).

المرسلين لكم من عند الله بوسيلة الملائكة ﴿أَرْبَابًا﴾ آلهة موجودين أصالة غير الله ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ أتظنون أن يأمركم النبي المرسل لهدايتكم إلى طريق التوحيد ﴿بِالْكُفْرِ﴾ بالشرك ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:80] موحدون برسالته، أفلا تعقلون؟.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) ﴾ [آل عمران: 81-84].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن خاصمك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: عهودهم الوثيقة، المتعلقة بالأمثال، والمحافظة ﴿لَمَا﴾ أي: الذي ﴿آتَيْتُكُم﴾ تفضلاً عليكم ﴿مِّن كِتَابٍ﴾ مبيّن لكم ولأمتكم الأحكام الظاهرة المتعلقة بالمعاملات ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ مورثة لكم ولهم الأخلاق المرضية، الموصلة إلى التوحيد الذاتي ﴿ثُمَّ﴾ أخذ الله مواثيقهم أيضًا بأنه متى ﴿جَاءَكُمْ﴾ وعلى أمتكم ﴿رَسُولٌ﴾ مرسل من عندنا على التوحيد الذاتي ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من توحيد الصفات والأفعال ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ أنتم، ولتبلغن على أمتكم أن يؤمنوا له، وتصدقوه ﴿وَ﴾ لا تكتفون أنتم وأممكم بمجرد الإيمان والتصديق، بل ﴿لَتَنصُرُنَّهُ﴾ فيما جاء به، وهو التوحيد الذاتي؛ إذ مرجع جميع الملل والنحل إليه، لذلك ختم ببعثته ﷺ أمر الإنزال والإرسال.

وبعد أخذ المواثيق ﴿قَالَ﴾ سبحانه مستفهمًا على سبيل التقرير وتأكيدًا: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ أيها الأنبياء أنتم ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ من أممكم المتسبون إليكم ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ عهودكم ومواثيقكم ﴿إِصْرِي﴾ أي: حلفي وعهدي الثقيل الذي يوجب نقضه أنواعًا من العذاب والنكال؟ ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ بعهودك ومواثيقك سمعًا وطاعة، وأخذنا أيضًا من

أمننا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ أي: فاحفظوا المواثيق، ولا تغفلوا عنها ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران:81] الحاضرين المطلعين لحفظكم ووفائكم ﴿فَمَن تَوَلَّى﴾ أعرض منكم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد الوثيق ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المعرضون ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:82] الخارجون عن طريق التوحيد الذاتي الجامع لجميع الطرق.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ﴾ الذي هو التوحيد الذاتي ﴿يَبْغُونَ﴾ تطلبون أيها المعرضون الفاسقون ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُ أَسْلَمَ﴾ انقاد وتذلل ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ من أرباب الشهود والمكاشفات ﴿وَ﴾ من في ﴿الأَرْضِ﴾ من أصحاب العلوم والمعاملات ﴿طَوْعًا﴾ تحقيقًا ويقينًا ﴿وَكَرْهًا﴾ تقليدًا وتخمينًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران:83] رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل بلسان الجمع ﴿آمَنَّا﴾ أذعنًا وأيقنًا ﴿بِاللهِ﴾ الواحد الأحد، المتفرد بالتحقيق والوجود ﴿وَ﴾ صدقنا ﴿مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من عنده من الكتاب المبين لتوحيده ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ أيضًا في سالف الزمان ﴿عَلَى﴾ أسلافنا ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ أولاد يعقوب وأحفاده ﴿وَ﴾ صدقنا أيضًا ﴿مَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ﴾ الموجودون الملهمون ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ على مقتضى استعداداتهم ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بالإطاعة والتصديق ﴿وَ﴾ كيف نفرق ونخصص؛ إذ ﴿نَحْنُ﴾ المتدينون بدين الله المتجلي في الآفاق ﴿لَهُ﴾ باعتبار تفرده وإحاطته وظهوره في المظاهر كلها بأوصافه وأسمائه بلا تفاوت ﴿مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:84] مؤمنون موقنون.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ (85) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ (86) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (88) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (89) ﴾ [آل عمران:85-89].

﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ يطلب ويتدين ﴿غَيْرَ الإِسْلاَمِ﴾ المنزل على خير الأنام ﴿دِينًا﴾ وشريعة ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يوم الدين القويم، المستجمع لجميع الأديان، الناسخ لها هو

الإسلام؛ لابتنائه على التوحيد الذاتي المسقط للإضافات والخصوصيات مطلقًا ﴿وَهُوَ﴾ أي: المتدين بغير دين الإسلام ﴿فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ وقت حصاد كل ما يزرعه في النشأة الأولى ﴿مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:85] خسرانًا مبينًا.

نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

ثم قال سبحانه مستفهمًا مستبعدًا على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بوحدانية الله ﴿وَ﴾ بعد أن ﴿شَهِدُوا﴾ أقروا واعترفوا وصدقوا ﴿أَنَّ الرَّسُولَ﴾ المبيّن لهم طريق التوحيد، المرشد إليه مرسل ﴿حَقٌّ﴾ من عند الله صادق في دعواه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ﴾ الدالة على صدقه، فقبلوا جميعه ثم ارتدوا، العياذ بالله ﴿وَاللهُ﴾ الهادي للكل إلى سواء السبيل ﴿لاَ يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:86] الخارجين عن حدوده.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الظالمون الضالون عن منهج الصدق والصواب ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ المتفرع على ضلالهم هو ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ﴾ وطرده وتخذيله إياهم ثابت لهم مستقر أزلاً وأبدًا ﴿وَ﴾ لعنة ﴿المَلائِكَةِ﴾ المستغفرين للمؤمنين ﴿وَ﴾ لعنة ﴿النَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران:87].

﴿خَالِدِينَ﴾ هؤلاء ﴿فِيهَا﴾ أي: في اللعنة ولوازمها من أنواع العذاب والنكال بحيث ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ﴾ المتفرع عليها أصلاً ﴿وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: 88] ينتظرون تخفيفه.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ منهم في النشأة الأولى ﴿مِن بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الارتداد والضلال ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ أحوالهم بالتوبة والإخلاص والاستغفار والندامة على ما صدر عنهم ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ الموفق لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ يستر جرائمهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:89] مشفق بتجاوز عن زلاتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران:90-92].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ارتدوا، العياذ بالله ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ ثم لم يتوبوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يتندموا بل ﴿ازْدَادُوا كُفْراً﴾ أو إصرارًا وعتوًا واستكبارًا ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ بعدما عاندوا ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المعاندون المصرون ﴿هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: 90] المقصورون على الضلالة في بدء الفطرة، لا يرجى منهم الفلاح أصلاً بل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مدة أعمارهم ﴿وَمَاتُوا وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ كُفَّارٌ﴾ كما كانوا ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[1] أي: لن تقبل توبتهم عند الله وإن أنفق وافتدى كل واحد منهم ملء الأرض ذهبًا رجاء أن تقبل توبته، بل ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الهالكون في تيه الضلال ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دائمًا مستمرًا ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:91] من أنواع النصر من الشفاعة والإنفاق والعمل الصالح والحج المبرور وغير ذلك.

ثم لما سجل سبحانه عليهم العذاب بحيث لا يخفف عنهم أصلاً، ولا تقبل توبتهم وإن أنفق كل واحد منهم ملء الأرض ذهبًا، نبه على المؤمنين طريق الإنفاق، وخاطبهم على وجه التأكيد والمبالغة فقال:﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أي: لن تصلوا ولن تبلغوا أيها المؤمنون مرتبة الأبرار الأخيار عند الله مطلقًا ﴿حَتَّى تُنفِقُوا﴾ امتثالاً لأمره وطلبًا لرضاه ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي: من أحسن ما عندكم وأكرمه ﴿وَ﴾اعلموا أن ﴿مَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ﴾ ولو حبة أو ذرة أو كلمة طيبة خالصًا لرضاه بلا شوب المنة والأذى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ونياتكم ﴿بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:92] لا يغيب عن علمه شيء فيجازيكم على مقتضى علمه.

﴿ ۞ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ

---

(1) أي: بملء الأرض ذهبًا، فإن قيل نفى قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدى به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرًا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبًا، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغًا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل اعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (234/2).

﴿أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران:93-90].

ثم لما ادعى اليهود أن ما حرم في ديننا كان حرامًا في دين إبراهيم أيضًا، وأنتم أيها المدعون موافقة دينكم وملتكم دين إبراهيم وملته، لم تحلون ما حرم في دينه؟

رد الله عليهم وكذبهم بقوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾ الذي به يقتات الإنسان ويتغذى ﴿كَانَ حِلاًّ﴾ حلالاً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إذ الأصل في الأشياء الحل ما لم يرد الشرع بتحريمه ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ على سبيل النذر بلا ورود الوحي؛ إذ كان له عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل ما هو أحب الطعام عنده واللذة، وهو لبن الإبل ولحمه فشفي، ولم يأكل بعده منها ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ ثم لما ظهر أنواع الخبائث والقبائح من اليهود، وحرم الله عليهم في التوراة طيبات أحلت لهم قبلها بسبب خباثتهم وكثافتهم، فإن أنكروا عليها وقالوا: لسنا أول ما حرم عليه هذه الأشياء المحرمة فيها، بل حرم لمن قبلنا ونحن نقتدي بهم ﴿قُلْ﴾ لهم إلزامًا: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ على رءوس الأشهاد ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93] في دعواكم، وإلا فقد افتريتم على كتاب الله ما ليس فيه.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ﴾ ظهور ﴿ذَلِكَ﴾ الدليل والبرهان ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾المفترون المنهمكون في العتو والعناد ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران:94] الخارجون عن مسالك التوحيد، المتمردون عن ربقة الإيمان.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿صَدَقَ اللهُ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون ألا حرمة لهذه الأشياء في دين إبراهيم عليه السلام، بل أول من حرم عليهم أنتم أيها اليهود، وإن أردتم استحلالها ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي هي الإسلام المنزل على خير الأنام؛ لأنه كان ﴿حَنِيفاً﴾ طاهرًا عن الخبائث والرذائل المؤدية إلى تحريم الطيبات؛ إذ هو على صراط التوحيد وجادة الاعتدال، بعيد عن طرفي الإفراط والتفريط المؤديان إلى الشرك ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:95] أصلاً لصفاء فطرته ونجابة طينته.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران:96-99].

ثم لما كان إبراهيم - صلوات الرحمن عليه - مستقيمًا على صراط التوحيد، مستويًا عليه ما وضع سبحانه أول معبد للموحدين إلا لأجله كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ ليعبدوا فيه الله ويتوجهوا إلى جنابه ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ للبيت الذي بمكة قبل وضع المسجد الحرام، قبل وضع البيت المقدس بأربعين سنة، والحال أنه وضع ﴿مُبَارَكًا﴾ كثير الخير والنفع لساكنيه وطائفيه، يرشدهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96][1] يوصلهم إلى التوحيد الذاتي لو كوشفوا بسرائر وضعه وتشريعه إذ: ﴿فِيهِ آيَاتٌ﴾ دلائل وشواهد ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ واضحات دالة على توحيد الذات منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو مقام الرضا والتسليم ﴿وَمَن دَخَلَهُ﴾ ضيفًا مسلمًا مفوضًا ﴿كَانَ آمِناً﴾[2] عن وسوسة الأنانية ودغدغة الغيرية، متصفًا بصفة الخلة ﴿وَلِلَّهِ﴾ أي: للوصول إلى توحيده وللتحقق بمقام عبوديته وإحسانه وجب ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ الممثل عن قلب الخليل اللائق لخلعة الخلة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ منكم أيها الحيارى في صحارى الإمكان ﴿إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من

---

(1) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟! ويقال: لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك، ويقال: شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيزٍ كان له، ويقال: ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون بِقَدَمِهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم. انظر: تفسير القشيري (357/1).

(2) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهَاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة: الحكم باقٍ، وإن من وجب عليه حدٌ أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج، ولكن يُضيَّق عليه، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (310/1).

أمرنا رشدًا ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ولم يحج إنكارًا وعنادًا ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المستغني في ذاته عن جميع مظاهره ومصنوعاته ﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97] لم يبال بهم وبعباداتهم. وإنما أظهرهم وأوجب عليهم العبادة والرجوع إلى جنابه والتوجه نحو بابه؛ ليتحققوا في مرتبة العبودية، ويتقرروا فيها حتى يستحقوا الخلافة والنيابة المتفرعة على سر الظهور والإظهار.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر شعائر الإسلام ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين للإيمان بوحدانية الله ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ الدالة على توحيده المنزلة على نبيه الذي جاء من عنده بالتوحيد الذاتي ليكون مرسلاً إلى كافة البرايا رحمة للعالمين؟ ﴿وَ﴾ لا تخافون من غضب الله وسخطه؛ إذ ﴿اللهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر ﴿عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:98] من الإنكار والاستكبار والتحريف والاستسرار.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ المدعين الاتباع بالكتب والرسل المنزلة من عند الله ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تصرفون وتحرفون ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ الذي هو دين الإسلام وهو الصراط المستقيم إلى صفاء الوحدة ﴿مَنْ آمَنَ﴾ انقاد وتدين به ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ حال كونكم طالبين أن توقعوا فيه عوجًا وانحناء وضعفًا حتى يضعف اعتقاد المسلمين، ويتزلزل آراؤهم في أمور دينهم كما في زماننا هذا ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ مطلعون عن مطالعة كتبكم المنزلة من عند الله على ظهور دين الإسلام وارتفاع قدره وقدر من أوتي به ومع ذلك حرفتم الكتب وأنكرتم له عنادًا واستكبارًا ﴿وَ﴾ لا تغفلوا عن غضب الله وانتقامه؛ إذ ﴿مَا اللهُ﴾ العالم بالسرائر والخفيات ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99]من التلبيس والعناد والتحريف والتغيير.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (102) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) ﴾ [آل عمران:100-103].

ثم لما وبخ سبحانه الكافرين القاصدين إضلال المؤمنين بما وبخ وبالغ توبيخهم بما بالغ، أراد أن يحذر المؤمنين عن مخالطتهم وموافاتهم، فناداهم؛ لأنه دخل في قبول النصح فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفقوا على تشريف الإيمان، مقتضى إيمانكم الاجتناب عن مخالطة الكفار ومؤاخاتهم وادعاء المحبة والمودة معهم؛ لأنكم ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ طائعين قاصدين إطاعتهم وانقيادهم ﴿يَرُدُّوكُم﴾ البتة ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وتوحيدكم ﴿كَافِرِينَ﴾ [آل عمران:100] مشركين ما أنتم عليه في جاهليتكم.

نزلت في فرقة من الأوس والخزرج كانوا يجتمعون ويتحدثون ويتناشدون، فمر على اجتماعهم شاس بن قيس اليهودي، فغاظه مؤاخاتهم ومخالطتهم، فأمر بشاب من اليهود أن يجلس إليهم، ويذكرهم يوم بعاث، وينشدهم بعض ما قيل فيه، وكان الظفر في ذلك اليوم للأوس ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا إلى أن تغاضبوا وتخاصموا، وصاحوا: السلاح! واجتمع من الجانبين خلق عظيم.

وتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال لهم: «أتدعون الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد، إذ أكرمكم الله بالإسلام وشرفكم بالإيمان والتوحيد الرافع لجميع الخصومات»[1] فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فألقوا السلاح واستغفروا وتعانقوا وتحابوا، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ.

﴿وَ﴾ لذلك قال لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يا أيها المؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿فِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ المرسل إليكم المولي لأموركم ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾ منكم ﴿بِاللهِ﴾ ويتبع رسوله المنزل من عنده بتوحيده الذاتي ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ واهتدى ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران:101] يوصله إلى صفاء الوحدة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ معظم أموركم في محافظة الإيمان المؤدي إلى الكشف والعيان، التقوى والاجتناب عن محارم الله ومنهياته، والتحلي بأوامره ومرضياته ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[2] خالية عن الميل والرياء والبدع والأهواء

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (304/1).

(2) قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ تلف النفس في مواجبه. وقال القاسم: بذل المجهود، -

المفضية إلى الإلحاد والزندقة ﴿وَ﴾ اجتهدوا أيها المؤمنون أن ﴿لاَ تَمُوتُنَّ﴾ عن هويتكم ﴿إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:102] مخلصون في الاعتصام بحبل التوحيد والإيمان، مخلصون عن ربقة التقليد والحسبان.

﴿وَ﴾ بعد موتكم عن أنانيتكم ﴿اعْتَصِمُوا﴾ أيها المخلصون الموقنون ﴿بِحَبْلِ اللهِ﴾ الممتد من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، وارفعوا أنانيتكم وهويتكم عن البين ﴿جَمِيعاً﴾ حتى لا يبقى توهم الغير والسوى مطلقًا، وتخلص نفوسكم عن مشتهياتها ومستلذاتها الفانية، وتصل إلى الحياة الأزلية والبقاء السرمدي ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ أي: لا تتفرقوا بمقتضيات أوهامكم المتفرعة على هوياتكم الباطلة عن الحقية الحقيقية ﴿وَ﴾ بعدما وصلتم بمقام الجمعية والوحدة الذاتية ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها العكوس والأظلال ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾ المتجلي فيكم بذاته المتفضل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بلا عوض ولا غرض ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً﴾ بعداء متروكين في ظلمة العدم.

﴿فَأَلَّفَ﴾ سبحانه بتجلياته الجمالية على مرآة العدم ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ في فضاء الإمكان، بأن يجعلكم أزواجًا وبنين وحفدة، متظاهرين بعضكم ببعض على مقتضى الإضافات، ورقائق المناسبات الرافعة بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿فَأَصْبَحْتُم﴾ بعدما تيقظتم عن منام الإمكان ﴿بِنِعْمَتِهِ﴾ التي هي التوفيق والإقدار على طلب الرشد والرشاد ﴿إِخْوَاناً﴾ مجتمعين في فضاء الوحدة بلا توهم الكثرة المستدعية للعداوة والخصومة.

﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿كُنتُمْ﴾ في طغيان الإمكان ﴿عَلَى شَفَا﴾ طرف ﴿حُفْرَةٍ﴾

واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف. وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه. وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه. وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى، وأيضًا قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص، وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يقبل أحدًا بعلة ولا يَرُدُّ أحدًا بعلة. انظر: تفسير القشيري (364/1)، وعرائس البيان (219/1) بتحقيقنا.

مُلثث ﴿مِّنَ النَّارِ﴾ مشرفين بالوقوع فيها، وهي حفرة العدم المباين لفضاء الوجود، المملوءة بنيران البعد والخذلان ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ الله؛ أي: أنجاكم وخلصكم ﴿مِّنْهَا﴾ بلطفه، بأن أودع فيكم العقل الجزئي المتشعب من العقل الكلي العائد إليه ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ﴾ الهادي ﴿لَكُمْ﴾ دائمًا مستمرًا إلى توحيده الذاتي ﴿آيَاتِهِ﴾ آثار أسمائه وأوصافه الدالة على ذاته ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:103] رجاء أن تهتدوا منها إليها لغاية ظهورها ووضوحها.

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) ﴾ [آل عمران:104-108].

﴿وَ﴾ بعدما وفقتم للإيمان، ونبهتم للتوحيد والعرفان ﴿لْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ ملتزمة للإرشاد والتكميل ﴿يَدْعُونَ﴾ الناس ﴿إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي: إلى التوحيد وإسقاط الإضافات ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن في طريق التوحيد ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المستقبح فيه، المانع عن الوصول إليه ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الراشدون، المهديون، المرشدون، الهادون ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104] الفائزون من عنده بالمثوبة العظمى، والدرجة العليا التي هي طريق مقام الجمعية والرضا.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المحمديون المتحققون بمقام الجمعية ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الدالة على الجمعية والاتفاق، ولم يتنبهوا منها إلى التوحيد الذاتي ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الأشقياء الهالكون في تيه الخذلان والحرمان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:105] في جهنم البعد والإمكان وسعير الشرك والطغيان.

اذكر لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ بقبول النور من الوجه الباقي ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ ببقائها في سواد الإمكان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ ولم يرتفع غشاوة هوياتهم، وكثافة ماهياتهم عن أعينهم وأبصارهم، ولم تصف مرآة قلوبهم عن

صداء الكثرة وشوب التنويه، لذلك قيل تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ أيها الهالكون في بقعة الإمكان من ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بوجوب الوجود، ووجوب الرجوع إليه ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: الطرد والحرمان ﴿بِمَا﴾ أي: بأنانيتكم ﴿كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران:106] وتسترون، وتستبدلون به نور الوجود وصفاء التوحيد الخالص عن الكدورات مطلقًا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ عن دنس التعليقات ورين الإضافات، واضمحلت هوياتهم في هوية الحق، وارتفعت الحجب والأستار المانعة عن الوصول إلى دار القرار عن عيون بصائرهم وأبصارهم ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ﴾ التي وسعت كل شيء، مستغرقون في بحر توحيده، غائصون، سابحون لا يخرجون منها أبدًا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:107] دائمون، مستمرون ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿تِلْكَ﴾ المواعيد والوعيدات المذكورة للأولياء والأعداء ﴿آيَاتُ اللهِ﴾ الدالة على كمال قدرته وتفرده في ألوهيته، واستقلاله في ربوبيته ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ تفضلاً وامتنانًا ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ لاشك في وقوعها ﴿وَمَا اللهُ﴾ المنتقم في يوم الميعاد ﴿يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:108] بل يجازيهم على مقتضى ما صدر عنهم في النشأة الأولى، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا فيها يره فيها، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا فيها يره فيها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: 109-111].

﴿وَ﴾ لا يتصور الظلم والتعدي من جانبه سبحانه؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ لظهوره واستوائه على عروش ذرائر الكائنات بالقسط والاعتدال الحقيقي محافظة ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: ما ظهر في عالم الغيب وعالم الأرواح ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عالم الشهادة والأشباح ﴿وَإِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير ﴿تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109] المتعلقة بالمظاهر كلها؛ إذ هو الفاعل المطلق لا فعل لسواه، بل لا سواه ولا

رجوع إلا إياه.

﴿كُنتُمْ﴾ أيها المحمديون ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ في علم الله مستوية على صراط التوحيد، معتدلة بين طرفي الإفراط والتفريط ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي: قدرت ظهوركم؛ لتكميل الناقصين من الناس، حتى ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المفروض في سلوك طريق التوحيد ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المحظور فيه ﴿وَ﴾ ذلك الأمر والنهي إنما يصدر منكم؛ لكونكم ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ توقنون ﴿بِاللهِ﴾ المستوي على عروش ذرائر الكائنات، بالاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بأجمعهم بدينكم وملتكم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾ ينجيهم عن ورطتي الإفراط والتفريط، ويوصلهم إلى صراط مستقيم، وإن كان القليل ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الداخلون في حصار الإيمان مع المؤمنين ﴿وَ﴾ لكن ﴿أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:110] الخارجون عن حدوده وأحكامه.

لا تبالوا أيها الموحدون بفسقهم وكفرهم؛ إذ ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ﴾ ضرارًا فاحشًا ﴿إِلاَّ أَذًى﴾ صدرت من سقطات ألسنتهم من التقريع والتشنيع ﴿وَإِن﴾ بالغوا في العداوة إلى أن ﴿يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ﴾ اضطرارًا وإلزامًا ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران:111] بالكبر عليكم بعد الفر منكم، بل ينصركم الله عليهم بنصره العزيز، ويخذلهم ويذلهم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:112-110].

لذلك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ والصغار والهوان ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ وجدوا، صاروا مهانين، صاغرين ﴿إِلاَّ﴾ المعتصمين منهم ﴿بِحَبْلٍ﴾ موفق ﴿مِّنْ﴾ عند ﴿اللهِ﴾ وهو الانقياد لدين الإسلام ﴿وَحَبْلٍ﴾ عهد وثيق، وذمة ﴿مِّنَ النَّاسِ وَ﴾ بعدما ﴿بَاءُوا﴾ رجعوا عن تصديق دين الإسلام المنزل لخير الأنام، استحقوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل عظيم

﴿مِّنَ اللَّهِ وَ﴾ لا يمكنهم دفعه؛ إذ ﴿ضُرِبَتْ﴾ تمكنت وتقررت ﴿عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ المذمومة الناشئة من خباثة طينتهم، لا ترجى عزتهم أصلاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ضرب الذلة والمسكنة، والصغار والهوان عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا﴾ في أوان عزتهم وعظمتهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يكذبون ويستهزئون ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكفر والقتل الصادر منهم ﴿بِمَا عَصَوا﴾ أي: بسبب عصيانهم وخروجهم عن إطاعة أمر الله، والانقياد لأحكامه عتوًا وعنادًا ﴿وَ﴾ متى عصوا ﴿كَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:112] يتجاوزون عن حدود الله بالمرة، ويقتلون من يقيمها استكبارًا.

﴿لَيْسُوا﴾ أي: ليس جميع أهل الكتاب ﴿سَوَاءً﴾ مستوية الأقدام في الاعتدال والإنكار، بل ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أيضًا ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مستقيمة على صراط العدل ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ أي: جميع آنائه ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران:113] يصلون خاضعين، متذللين، واضعين جباههم على تراب المذلة؛ تعظيمًا له، وخوفًا من خشيته، ورجاء من سعة رحمته.

وذلك لأنهم ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: بوحدانيته ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بصدقه وحقيته ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمبرات المؤدية إلى إسقاط الإضافات وقطع التعليقات المستلزمة لرفع التعينات الحاجبة عن شهود الذات ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ المتصفون منهم بهذه الصفات ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:114] لسلوك طريق الحق، المستحقين للوصول إلى سواء التوحيد الذي هو السواد الأعظم، المشار إليه في الحديث النبوي، صلوات الله على قائله.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾ هؤلاء الموصوفون منهم ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ طالبين فيه رضاء الله، راجين ثوابه حقًا خائفين من عقابه ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ أي: لن ينقصوا من أجره، بل يزادوا ويضاعفوا ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لجميع العباد ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:115] منهم، فيجازيهم على مقتضى علمه، وحسب لطفه وكرمه.

أدركنا بلطفك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران:116-117].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله في النشأة الأولى؛ عتوًا واستكبارًا، مفتخرين بأموالهم وأولادهم متظاهرين بها ﴿لَن تُغْنِيَ﴾ وتدفع ﴿عَنْهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ﴾ غضب ﴿اللهِ شَيْئًا﴾ قليلاً ﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ المستكبرون، المفتخرون، هم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لا يخلصون، ولا يخرجون منها بل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116] مخلدون، لا ترجى نجاتهم وتخفيف عذابهم أصلاً، ولا ينفع لهم إنفاقهم وإحسانهم الذي صدر عنهم في دار الدنيا؛ لعدم مقارنته بالإيمان.

بل ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ رياءً وسمعةً واشتهارًا ﴿فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لا لمثوبة أخروية؛ لعدم اعتقادهم بالآخرة ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ﴾ عاصف ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ برد شديد ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والفسق والعصيان ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ بالمرة، وصاروا آيسين، قانطين من نفعها، وشكوا من الله بما لا يليق بجنابه من نسبة الظلم والتعدي، تعالى عن ذلك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران:117] أي: ولكن هم يظلمون أنفسهم بكفرهم وفسقهم، ولم يتفطنوا له ونسبوه إلى الله، وما الله يريد ظلمًا للعباد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:118-120].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ صديقًا وصاحب سر، تستودعون سرائركم عنده ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي: الكفار دون المؤمنين، واعلموا أنهم ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ﴾ لا يمنعون عنكم ولا يقصرون في شأنكم ﴿خَبَالاً﴾ ضررًا وفسادًا، بل

﴿وَدُّوا﴾ رجوا دائمًا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ضرركم وهلاككم، ومن غاية ودادتهم ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ ظهرت ﴿الْبَغْضَاءُ﴾ المكنونة في نفوسهم ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بلا قصد واختيار ﴿وَ﴾ لاشك أن ﴿مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ قصدًا واختيارًا ﴿أَكْبَرُ﴾ مما تبدي أفواههم وألسنتهم هفوة واضطرارًا ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ أوضحنا ﴿لَكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْآيَاتِ﴾ المتعلقة لأمور معاشكم ومعادكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:118] تفهمون مقاصدها، وتتعظون بها، وتعملون بمقتضاها.

﴿هَا أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أُولَاءِ﴾ الخاطئون، المغفلون الذين ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ محبة صادقة ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ إلا تلبيسًا ونفاقًا ﴿وَ﴾ أنتم ﴿تُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجميع الكتب النازلة من عند الله على رسله، وهم لا يؤمنون بكتابكم الجامع لما في الكتب السالفة، ﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم معكم ﴿إِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا﴾ تلبيسًا وتقريرًا: ﴿آمَنَّا﴾ بدينكم وكتابكم ورسولكم ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ مضوا عنكم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ﴾ غاية ﴿الْغَيْظِ﴾ وعدم القدرة على الانتقام والتشفي ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا، مخاطبًا لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿مُوتُوا﴾ أيها المنافقون ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾ المتزايد المترقى يومًا فيومًا، حسب ارتفاع قدر الإسلام وعلو شأنه، ولا تأمنوا عن مكر الله وانتقامه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:119] يعلم ما تخفون فيها من الكفر والنفاق، ويجازي على مقتضى علمه، ولا يغرب عن علمه شيء.

ومن غاية حسدهم ونهاية بغضهم ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ وتحيط بكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ مسرة مفرحة لنفوسكم ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتشق عليهم من كمال عداوتهم ونفاقهم ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ مملة مؤلمة ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ تشفيًا وتفرجًا، شامتين بها، سارين عليها ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ على غيظهم وأذاهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ وترجعوا إلى الله مفوضين أموركم إليه يحفظكم عن جميع ما يؤذيكم، بحيث ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ مكرهم وحيلتهم ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائرهم وضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الحيل والمخايل ﴿مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:120] لا يشذ عن علمه شيء ولو خطرة وطرفة.

وعلى قراءة «تعملون» بالخطاب، كان المعنى: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الموفق لكم على دين الإسلام ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الصبر والتقوى، والتفويض والرضوخ إلى المولى ﴿مُحِيطٌ﴾ حاضر، غير مغيب عنكم وعن عملكم.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ

هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [آل عمران:121-124].

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ غَدَوْتَ﴾ خرجت أنت مسرعًا في الغداة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ عائشة - رضي الله عنها - حال كونك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تعينهم، وتهيئ لهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ أمكنة ومواقف ﴿لِلْقِتَالِ﴾ وبعض منهم مع جميع المنافقين يتقاعدون عنه، ويسوفونه، معللين بعلل ودلائل ضعيفة وبعض آخر يريدون الخروج، ويرغبونك عليه ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر الفريقين ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:121] بنياتهم.

رُوي أن المشركين نزلوا بأُحد يوم الأربعاء في عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن أبي، ولم يدعه قبل، فقال هو وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة ولا تخرج، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا أحد إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا، فدعهم فإن أقاموا أقاموا شر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين، وأشار بعضهم إلى الخروج، فقال ﷺ: «رأيت في منامي بقرة مذبوحة حولي، فأولتها خيرًا، ورأيت في ذباب سيفي ثلمًا فأولته هزيمة، ورأيت كأني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم»[1].

فقال رجال من المسلمين فاتهم بدر، وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، فبالغوا حتى دخل ولبس لأمته، فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم، فقالوا: اصنع يا رسول الله ما شئت، فقال ﷺ: «لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل»[2]، فخرج بعد صلاة الجمعة، وأصبح بشعب من أُحد، ونزل في عدوة الوادي، وجعل ظهر عسكره، وسوّى صفهم، وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة؛ وقال: «انضحوا

---

(1) ذكره البيضاوي في التفسير (384/1).

(2) رواه البخاري في «الصحيحح» (191/24).

عنا بالنبل لا يأتونا من ورائنا»[1]، وحين استوى الصفوف، وبلغوا الشرط، قال ابن أُبي: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فانصرف فوقع الخلاف بين المؤمنين فتزلزلوا.

﴿إِذْ هَمَّت﴾ قصرت في تلك الحالة ﴿طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناح العسكر ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ تنهزما ضعفاء وجبناء، وتتبعا أثر ابن أبي فعصمهما الله عن متابعة الشيطان وجنوده، فمضيا مع رسول الله يستغفرون عمّا جرى عليهما ﴿وَ﴾ كيف لا يعصمهما عن مخالفته؛ إذ ﴿اللهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ومولي أمورهما أرشدهما إلى ما هو أصلح لحالهما ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ المدبر لمصالح عباده لا على غيره من الأظلال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:122] حتى يتحققوا بمقام العبودية والرضا والتفويض.

﴿وَ﴾ بعدما ظهرتم على العدو، لا تيأسوا من نصر الله وتأييده، ولا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تبالوا بكثرتهم وعددهم، بل اذكروا وتذكروا ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿بِبَدْرٍ﴾ موضع بين مكة والمدينة، يتسوق فيها العرب مع قوافل الحجاج ﴿وَ﴾ الحال أنكم ﴿أَنتُمْ﴾ في تلك الوقعة ﴿أَذِلَّةٌ﴾ ضعفاء في العَدد والعُدد، وعدوكم على عكسكم، هكذا بأن أنزل عليكم من الملائكة جنودًا لم تروها ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ اليوم عن الفرار والانهزام ومخالفة الرسول ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران:123] تلك النصرة فيما مضى.

اذكر لهم يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ أنت يوم بدر ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين حدث في قلوبهم الرعب من العدو؛ ولكونه على ثلاثة أضعافهم قولاً استفهاميًا على سبيل التبكيت والإسكات، بعدما ظهر عندك الأمر بالوحي الإلهي: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:124].

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف (1/318).

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: 120-129].

ثم أوحى إليك بأن قلت: ﴿بَلَى﴾ يكفيكم هذا القدر، أن تستغيثوا وتستلجئوا إلى الله؛ رغبًا وترهيبًا من العدو، ولكن ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ في مقابلتهم ومقاتلتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن الاستدبار والانهزام، وتصيروا فرّارين، كرارين مرارًا، طالبين رضا الله وإمضاء حكمه، وإنفاذ قضائه، يزيد عليكم ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: ساعتهم الحاضرة التي هي هذه ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم﴾ أجرًا؛ لصبركم وتقواكم ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:125] معلمين، معلومين، ممتازين عن البشر.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى زلال توحيده، أمثال هذه الإمدادات والإرهاصات الواردة في أمثال هذه الوقائع ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ يبشركم بمقام التوكل والتفويض والرضا والتسليم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: لتكونوا مطمئنين بالله، فانين ببقائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿مَا النَّصْرُ﴾ والانهزام ﴿إِلَّا﴾ مقدرين ﴿مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ العليم العلام ﴿الْعَزِيزِ﴾ القادر والغالب على الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:126] المتقن في فعله على أتم الوجه، وأكمل النظام.

وإنما جعله وبشر به ﴿لِيَقْطَعَ﴾ وليستأصل ﴿طَرَفًا﴾ جملة وجماعة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن طريق التوحيد، فينهزم الباقون ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: يخزيهم ويرديهم ﴿فَيَنقَلِبُوا﴾ جميعًا ﴿خَائِبِينَ﴾ [آل عمران:127] خاسرين، نادمين.

وإذا كان الكل من عند الله العزيز الحكيم ﴿لَيْسَ لَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: شيء من أمورهم، بل الأمر كله لله، فله أن يفعل معهم ما شاء وأراد، إما أن يستأصلهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ توبة تنجيهم من أنانيتهم ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ دائمًا؛ جزاء لظلمهم وكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:128] مستقرون على الظلم ماداموا في الحياة الدنيا.

﴿وَ﴾ كيف لا تكون أمورهم مفوضة إلى الله؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ خاصة مستقلة بلا مزاحم ومشارك ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ﴾ يستر ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ جريمة المخالفة لطريق التوحيد بعد رجوعه وإنابته إليه سبحانه ﴿وَيُعَذِّبُ﴾ بها ﴿مَن يَشَاءُ﴾ في جهنم البعد والخذلان ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن تاب واستغفر ﴿رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:129] لمن استحى وندم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران:130-134].

ثم خاطب سبحانه المؤمنين، منادبًا لهم بما يتعلق برسوخهم في طريق التوحيد من الخصائل الجميلة والشيم المرضية، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله، مقتضى إيمانكم ﴿لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ سيما إذا كان ﴿أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ بحيث يستغرق مال المديون مجانًا ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ المنتقم الغيور، ولا تجاوزوا عن حدوده ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:130] تفوزون بامتثال مأموراته ومرضياته.

﴿وَاتَّقُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ﴾ هُيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131] أصالة وللمقتفين إثرهم؛ تبعًا، ويعملون معاملتهم؛ استنكارًا واستكبارًا.

﴿وَ﴾ إن أردتم الفلاح ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ المبيّن لكم طريق إطاعة الله ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران:132] من عند الله، إن أخلصتم في انقيادكم وطاعتكم.

﴿وَ﴾ لا تتكئوا، ولا تتكلوا إلى طاعاتكم وعباداتكم، ولا تزنوها عند الله، بل ﴿سَارِعُوا﴾ بادروا وواظبوا ﴿إِلَى﴾ طلب ﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ستر ومحو لهوياتكم ﴿وَ﴾ وصول ﴿جَنَّةٍ﴾ منزل ومقر ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ﴾ أي: الأسماء والصفات الإلهية القائمة بذات الله ﴿وَالأَرْضُ﴾ أي: طبيعة العدم القابل لانعكاس أشعة تلك الأسماء والصفات، إنما ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهُيئت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:133] من أهل التوحيد، وهم الذين يرفعون غشاوة الغيرية وغطاء التعامي عن نور الوجود مطلقًا. لذلك هم: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ من طيبات ما كسبوا من رزق صوري ومعنوي للمستحقين من أهل الله، سواء كانوا ﴿فِي السَّرَّاءِ﴾ أي: حين الفراغة عن الشواغل العائقة عن التوجه الحقيقي ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ عند عروض العوارض اللاحقة عن لوازم البشر ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أي: الماسكين، الكافين غيظهم عند ثوران القوة الغضبية، وهيجان الحمية البشرية الناشئة عن مقتضيات القوى الحيوانية ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ الذين يعفون

ويتركون عقوبة من يسوءهم ويظلمهم؛ لتحققهم في مقر التوحيد المسقط للإضافات والاختلافات مطلقًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:134] منهم بجميع أنواع الإحسان، خصوصًا بكظم الغيظ والعفو عند القدرة.

وعن النبي ﷺ: «إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله، وقد كانوا كثيرًا في الأمم التي مضت»[1].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران:130-139].

﴿وَ﴾ من جملة المتقين والمعدودين من زمرتهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلة قبيحة صغيرة كانت أو كبيرة، صدرت منهم هفوة خطأ ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بأن صدرت عنهم عن قصد وتعمد، ثم ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ خائفًا من بطشه وانتقامه ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ منه راجين العفو والستر ﴿لِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم عمدًا أو خطأً ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾ مطلقًا من العباد ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ غير الله الذي يغفر ما دون الشرك لمن يشاء من عباده إرادةً واختيارًا ﴿وَ﴾ بعد استغفارهم ﴿لَمْ يُصِرُّوا﴾ ولم يرجعوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ بل تركوه بالمرة، ولم يرجعوا عليها أصلاً ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿هُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135][2] قبحه ووخامة عاقبته.

---

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور (430/2).

(2) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المتذكرون، المستغفرون ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم، غطاء ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لإخلاصهم في الإنابة والرجوع ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ كشوف وشهود ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظمؤون منها أبدًا، بل يطلبون دائمًا مزيدًا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:136] تلك الغفران والجنان.

بادروا أيها المؤمنون إلى الطاعات، وداوموا على الأعمال الصالحات، ولا تغفلوا عن الله في عموم الحالات، واعملوا ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ في القرون الماضية ﴿سُنَنٌ﴾ وقائع هائلة بين الأمم الهالكة، المنهمكة في بحر الضلال والخسران، وإن أردتم أن تعتبروا منها ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة أيها المفردون، السائحون في ملكوت السموات والأرض ﴿فَانظُرُوا﴾ في آثارهم وأظلالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:137] بتوحيد الله وبرسله، المبينين له، وإذا نظرتم وتأملتم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿هَذَا﴾ أي: في تذكر سنتهم وسيرهم ﴿بَيَانٌ﴾ ودليل واضح ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المستكشفين عن غوامض مسالك التوحيد الذاتي من أهل الإرادة ﴿وَهُدًى﴾ أي: لأهل الكشف والشهود من أرباب المحبة والولاء ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:138] من عموم المؤمنين.

﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ أي: ولا تضعفوا أيها المؤمنون من متاعب مسالك الفنا ﴿وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ من المكروهات التي عرضت عليكم من مقتضيات الأوصاف البشرية في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم ﴿أَنتُمُ﴾ أيها المحمديون أنتم ﴿الأَعْلَوْنَ﴾ في دار البقاء؛ أي: المقصورون، المنحصرون على أعلى المراتب إذ لا دين ولا نبي أعلى من دينكم ونبيكم؛ لظهوره على التوحيد الذاتي، لذلك ختم به ﷺ أمر النسخ والتبديل،

الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (337/1).

وظهر سر قوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:29]، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139] محققين بتلك المرتبة.

آتنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران:140-143].

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾ ويصبكم أيها المجاهدون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمته ﴿قَرْحٌ﴾ ضيق ومشقة من أعداء الله يوم أُحد، لا تبالوا به ولا تضعفوا بسببه، ولكم أن تذكروا يوم بدر ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ العدو ﴿قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ بل أشد من ذلك، ومع ذلك لم يضعفوا ولم يجبنوا، مع كونهم ساعين على الباطل، وأنتم أحقاء بألّا تجبنوا ولا تضعفوا؛ لكونكم مجاهدين في طريق الحق، ساعين لترويجه ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿تِلْكَ الأَيَّامُ﴾ أي: أيام النصر والظفر والفرح والغنيمة أيام وأزمان ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ﴾ جميع ﴿النَّاسِ﴾ محققهم ومبطلهم، مؤمنهم وكافرهم؛ ليعلموا أنهم جميعًا تحت حيطة أوصافنا الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ﴾ أي: ينبه ويرشد خصوصًا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله بأمرهم على الجهاد طريق الفناء فيه؛ ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَتَّخِذَ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿شُهَدَاءَ﴾ واصلين، أحياء دائمين ﴿وَاللهُ﴾ المتوحد بذاته ﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:140] المتجاوزين عن طريق توحيده المائلين عن صراطه المستقيم.

﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿اللهُ﴾ بلطفه قلوب ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تيقنوا وتحققوا بصفاء التوحيد ﴿وَيَمْحَقَ﴾ ويهلك في ظلمة البعد والإمكان ﴿الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141] الساترين بهوياتهم الباطلة، المظلمة الكثيفة نور صفاء الوجود.

أتحسبون وتطمعون أيها المريدون، القاصدون سلوك طريق التوحيد، أنكم مستوون عند الله في السلوك ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ الوحدة الذاتية ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ

﴿الله﴾ أي: لم يفرق، ولم يميز الله بعلمه الحضوري ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ في سبيله ظاهرًا وباطنًا، وبذلوا جهودهم فيها إلى أن بذلوا مهجهم فتفانوا في الله حتى صاروا شهداء حضراء أمناء عند الله، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون عن المتقاعدين المتكاسلين ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿يَعْلَمَ﴾ وليميز منكم ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:142] المتمكنين في مرمى القضاء الرضا بما جرى عليهم من سهام التقدير، بلا إقدام ولا إحجام.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ﴾ أيها المحمديون، المستكشفون عن سرائر التوحيد الذي ﴿تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾ الموصل إلى مرتبة اليقين العيني والحقي عند وصولكم إلى مرتبة اليقين العلمي، مسرعين عليها؛ شوقًا واستلذاذًا ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ متى ظهرت أمارات التوحيد، ولمع سراب الفناء، وبرق صوارم القضاء المفضية إلى هلاك الغير والسوى مطلقًا ﴿وَأَنتُمْ﴾ أيها الطالبون للوصول إلى جنة الذات ﴿تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143] تبطئون وتغترون.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران:144-146].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المسترشدون ﴿مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من الرسل، هادٍ لكم إلى التوحيد الذاتي ينبهكم على طريقه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ أي: قبل ظهوره ﴿الرُّسُلُ﴾ الهادين إليه مثله، المنبهين لطريقه في ضمن توحيد الصفات والأفعال، وما لهم وله إلا التبليغ والتنبيه، فعليكم أن تتنبهوا وتتحققوا بمقام التحقيق واليقين، معرضين عن التقليد والتخمين، أتؤمنون به وتسترشدون منه أيها المريدون حال حياته؟.

﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ غير واصلين إلى فضاء التوحيد ﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ منكم ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بلا وصول إلى الغاية ﴿فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ بنقصان أو

زيادة؛ إذ هو مستوٍ على عرشه كما كان، بلا تبديل ولا تغيير، بل ما يضر إلا نفسه بعدم إيصالها إلى غايتها الممكن لها، وبذلك حط عن رتبة الشاكرين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿سَيَجْزِي اللَّهُ﴾ بلطفه بالجزاء الجميل والإحسان الجزيل ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:144] منكم، الصادقين جميع القوى والجوارح إلى ما خلق لأجله الصابرين على ما أصابهم في سبيله، الباذلين مهجهم في إعلاء كلمة توحيده، الراجين منه الوصول إلى زلال تجريده وتفريده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون بقضاء الله وقدره ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ﴿أَن تَمُوتَ﴾ بقتل أو حتف أنفه ﴿إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ بتقديره ومشيئته، الثابت المثبت في قضائه، السابق له ﴿كِتَابًا﴾ جامعًا بجميع ما يجري عليه في عالم الشهادة، حياته وموته ورزقه ﴿مُّؤَجَّلاً﴾ بوقت معين لا يتأخر عنه ولا يتقدم ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ التي هي أدنى مرتبة الإنسان، وأنزل منزلته من المفاخرة بالمال والجاه والحسب والنسب ﴿نُؤْتِهِ﴾ نعطه ﴿مِنْهَا﴾ مقدار ما يقدر لنا في سابق علمنا، ونحاسبه عليها في يوم الجزاء في النشأة الأخرى.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ منكم ﴿ثَوَابَ الآخِرَةِ﴾ من الحقائق والمعارف والمواهب العلية التي هي المقصد الأقصى، والمطلب الأعلى من وجوده ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ مقدار ما يقتضي استعداده الفطري ﴿وَ﴾ اعملوا أيها المؤمنون ﴿سَنَجْزِي﴾ بفضلنا وجودنا بلا وساطة ووسائل ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:145] المنسلخين عن الإرادة؛ بل عن جميع الأمور المرادة، الراضين بما قسم لهم، وقدر عليهم في سابق علمنا بروضة الرضا وجنة التسليم.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ﴾ يجاهد في سبيل الله؛ لترويج توحيده ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ ربانيون مخلصون ﴿كَثِيرٌ﴾ منهم قتلوا وأصيبوا ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وما جبنوا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ من القرح ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ من محاربة أعداء الله ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وتضرعوا إليهم؛ استبقاء واستخلافًا، بل كانوا كرّارين جرّارين، بحيث لا يرى عليهم أمارات الجبن والخوف أصلاً، صابرين على ما أصابهم من القرح والجرح، وقتل الأقارب والعشائر ﴿وَاللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:146] منهم في البلوى، الطائرين شوقًا إلى المولى، الراضين بما يحب لهم ويرضى.

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [آل عمران:147-150].

﴿وَ﴾ من غاية تصبرهم وتمكنهم على الجهاد في سبيل الله ﴿مَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ عند عروض المكروهات والمصيبات فيه ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ مستغفرين، مسترجعين إلى الله، خائفين من ضعف الإخلاص في امتثال أوامره: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا في مضيق الإمكان بأنواع اللطف والإحسان ﴿اغْفِرْ لَنَا﴾ بفضلك ﴿ذُنُوبَنَا﴾ خواطرنا التي خطرت في نفوسنا من خوف أعدائك بعدما أمرتنا إلى مقاتلتهم.

﴿وَ﴾ اغفر لنا أيضًا يا ربنا: ﴿إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي: ميلنا وتجاوزنا إلى طرفي الإفراط والتفريط عن حدودك التي وضعت لنا في الغزو والجهاد ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ على جادتك التي وضعت له في علمك ﴿وَ﴾ بعد ثبوتنا بتثبيتك ﴿انصُرْنَا﴾ بحولك وقوتك ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:147] الساترين نور الوجود بأباطيل هوياتهم وماهياتهم، المائلين عن طريق التوحيد بمتابعة عقولهم المموهة بشياطين الأوهام الباطلة.

وبعدما أخلصوا لله، واستغفروا لذنوبهم، والتجأوا لحوله وقوته ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ﴾ مجازيًا لهم؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة، والفوز بالفتح، والظفر على الأعداء، والسيادة والرئاسة على الأولياء على أحيائهم ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ من المشاهدة والرضا والمكاشفة، واللقاء على شهدائهم الذين قتلوا في سبيل الله، متشوقين إلى الفناء فيه؛ ليتحققوا ببقائه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾ [آل عمران:169] عن الآية، ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى فضله في معاده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:148] منهم، ويرضى عنهم، خصوصًا الذين أحسنوا في سبيل الله ببذل المهج وإعطاء الروح.

ربنا اجعلنا من خدامهم وتراب أقدامهم.

ثم لمّا أراد سبحانه تثبيت المؤمنين على قواعد الإسلام، ورسوخهم على

مقتضى شعار الدين والإيمان، حذرهم عن إطاعة الكفار ومخالطتهم، والاستعانة منهم، والاستكانة إليهم، فقال مناديًا لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا﴾ وتنقادوا وتستنصروا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله؛ عنادًا، وأعرضوا عن كتبه ورسله؛ استكبارًا ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ البتة بعد إهدائكم إلى الإيمان ﴿عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ التي أنتم فيها من الكفر والطغيان قبل انكشافكم بالإيمان، وإن انقلبتم ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:149] خسرانًا عظيمًا، فعليكم أن تتركوا موالاتهم وموافاتهم.

﴿بَلِ﴾ يكفي ﴿اللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿مَوْلَاكُمْ﴾ يولي أموركم، ويعينكم عليهم متى اضطررتم ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المضطرون في الوقائع ﴿هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:150] فاستنصروا منه وتوكلوا عليه، وما النصر إلا من عند الله العزيز العليم.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)﴾ [آل عمران:101-102].

وحين استرجعتم إلينا، واستغنيتم بنا مخلصين ﴿سَنُلْقِي﴾ بقهرنا وغضبنا ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿الرُّعْبَ﴾ والمخافة مع كونكم مستضعفين، وإنما نلقيهم الرعب ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ المنزه عن الأشباه والأنداد ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ أي: أصنامًا وآلهة ما لم ينزل الله بسببها عليهم ﴿سُلْطَانًا﴾ حجة تلجئهم إلى عبادتها وإطاعتها، بل ما اتخذوها آلهة إلا من تلقاء أنفسهم؛ ظلمًا وعدوانًا، تعالى عما يقول الظالمون ﴿وَ﴾ ليس ﴿مَأْوَاهُمُ﴾ في النشأة الأخرى إلا ﴿النَّارُ﴾ الموعود لمن أظلم على الله، واتبع هواه ﴿وَبِئْسَ﴾ المثوى والمأوى ﴿مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:151] الخارجين عن حدود الله وشعائر توحيده.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعْدَهُ﴾ الذي وعده لكم من النصر والظفر وقت ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: العدو، ويحفظ كلاً منكم المكان الذي عينه رسول الله ﷺ

﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بإذن الله ووحيه بلا ميل إلى الغنيمة والنهب ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ ملتم إلى الغنيمة، وخالفتم حكم الله ورسوله ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: أمر التبادر والتسابق إلى الغنيمة ﴿وَعَصَيْتُم﴾ تركتم إطاعة رسول الله ﷺ ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم﴾ أمارات ﴿مَّا تُحِبُّونَ﴾ وتطلبون، وتوعدونه من النصر والظفر المشروط بالتقرر والتمكن، وبعد رؤيتكم أنفسكم قسمين: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ حطام ﴿الدُّنْيَا﴾ فترك المركز وخالف الأمر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فثبت على المركز وحفظ الأمر، ولم يضطرب عن مكانه.

﴿ثُمَّ﴾ لما غيرتم ما في نفوسكم من عقد الله ورسوله ﴿صَرَفَكُمْ﴾ أي: بعدكم ﴿عَنْهُمْ﴾ وعن أموالهم خائبين، فارين ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ويختبركم ببلاء الهزيمة، هل تستقرون وتثبتون على الإيمان وتصبرون على المصائب الحادثة في حفظه أم لا؟ ﴿وَ﴾ بعدما خالفتم أمر الله وأمر رسوله، وملتم إلى الغنائم بعدما ورد النهي عن الله ورسوله ﴿لَقَدْ عَفَا﴾ الله ﴿عَنكُمْ﴾ ذنوبكم بعد ندامتكم واستغفاركم؛ تفضلاً عليكم وإن كان مقتضى جريمتكم استئصالكم بالمرة ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:152] تجاوز عن سيئاتكم، وإن عظمت بعدما تابوا واستغفروا.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)﴾ [آل عمران:103-104].

واذكروا أيها المؤمنون قبح صنيعكم، واستحيوا من الله، وتندموا عما صدر منكم وقت ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تذهبون إلى الأباعد؛ خوفًا من العدو، فارين من الزحف، متخالفين لرسول الله ﷺ ﴿وَ﴾ عند ذهابكم وفراركم ﴿لَا تَلْوُونَ﴾ لا تلتفتون على أعقابكم، ولا تنتظرون ﴿عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ من إخوانكم ﴿وَالرَّسُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ ويناديكم صارخًا: إليّ عباد الله، وكان الرسول ﷺ ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾ ساقتكم وعصيانكم، ولم يلتفت أحد منكم إلى عقبه لإجابة دعائه ﷺ.

ومع ذلك لم تنجوا سالمين ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أورثكم الله، المصلح لأحوالكم؛ تأديبًا لكم، متصلاً ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ آخر، حيث أحاطت بكم الغموم من القتل والجرح والإرجاف بقتل الرسول ﷺ، وإنما فعل بكم ما فعل ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النهب والغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من الفرار والهزيمة، ولتتمكنوا أو تتمرنوا في مقام الرضا والتسليم، ولا تخالفوا أمر الله ورسوله ﴿وَاللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:153] بمقتضى تسويلات نفوسكم الأمّارة بالسوء، فيجازيكم بها؛ لكي تتنبهوا وتسلموا أموركم إلى الله وتتحققوا بالتوحيد الذاتي.

﴿ثُمَّ﴾ لما تبتم ورجعتم إلى الله، وندمتم عمّا فعلتم ﴿أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ امتنانًا لكم وتفضلاً ﴿مِّن بَعْدِ الْغَمِّ﴾ المفرط ﴿أَمَنَةً﴾ طمأنينة ووقارًا، حيث تورث ﴿نُّعَاسًا﴾ رقدة ونومًا ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المتحققون بمقام العبودية، الراضون بما جرى عليهم من القضاء، لا يشوشهم السراء والضراء ﴿وَطَائِفَةٌ﴾ من منافقيكم ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: أوقعتهم نفوسهم وأمانيهم في الهموم والغموم المبعدة عن مقام التفويض والتسليم إلى حيث ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ ظنًا باطلاً ﴿غَيْرَ﴾ ظن ﴿الْحَقِّ﴾ بل ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث ﴿يَقُولُونَ﴾ لرسول الله استكشافًا ظاهرًا، أو استنكافًا خفيةً: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ﴾ أي: أمر الله الذي وعدتنا والنصر والظفر ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أم الأمر للعدو دائمًا، واليد له مستمرًا؟

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ﴾ أي: أمر جميع ما كان وما يكون ﴿كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أولاً، وبالذات بلا رؤية الوسائط والوسائل في البين، وهم من غاية عماهم ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم﴾ من البغض والنفاق ﴿مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ بل يبدون لإخوانهم، إذا خلا بعضهم بعضًا حتى ﴿يَقُولُونَ﴾ متهكمين، مستهزئين: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ مهانين، مظلومين ﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة: لا مرد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، بل يجري في ملكه ما ثبت في علمه.

واعلموا أنكم ﴿لَّوْ كُنتُمْ﴾ متمكنين ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ غير خارجين منها للقتال ﴿لَبَرَزَ﴾ لظهر وخرج البتة ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ قدر وفرض في الأزل ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ في

هذه المعركة، مسرعين ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ ومقاتلهم في الوقت الذي قدر بلا تأخير ولا تقديم ﴿و﴾ إنما فعل بكم ما فعل ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾ ويختبر ويمتحن ﴿اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أهو من الرضا والإخلاص؟ أم من الشقاق والنفاق؟ ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يطهر ويصفي ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الإيمان والتوحيد عن الكفر والنفاق ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائركم وضمائركم ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:154] أي: الأمور المكنونة فيها.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (157) ﴾ [آل عمران:100-107].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ استدبروا وتخلفوا ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون، ترهيبًا وجبنًا، بلا كفر ونفاق ﴿يَوْمَ﴾ وقت ﴿الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الصفّان للقتال ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وأزال قدمهم عن التثبت والتفرد ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بشؤم بعض ما كسبوا، بتسويلات نفوسهم التي هي من جنود الشيطان ﴿وَ﴾ بعدما ندموا واستغفروا، وأخلصوا الرجوع إلى الله ﴿لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بلطفه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ العفو عن ذنوب عباده ﴿غَفُورٌ﴾ ستّار لهم ما صدر عنهم من الآثام ﴿حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:155] لا يعجل بالبطش والانتقام؛ ليتوبوا ويرجعوا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم أن تحافظوا على مقتضى الإيمان والتوحيد، ولا تنسبوا الحوادث إلى غير الله، بل تفوضوا جميعًا إلى الله أصالة حتى ﴿لَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله بانتساب الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين ماتوا في حقهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ سافروا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للتجارة والسياحة ﴿أَوْ﴾ قتلوا، أو ﴿كَانُوا غُزًّى﴾ غازين في سبيل الله، طالبين رتبة الشهادة:

﴿لَّوْ كَانُوا﴾ هؤلاء الميتين والمقتولين متوكلين، متمكنين ﴿عِندَنَا مَا مَاتُوا﴾ في الغربة ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ في يد العدو، معتقدين أن ما أصابهم، إنما أصابهم من الغزو

والغربة لا من الله، وإنما أخطرهم سبحانه بهذا الرأي، وأقولهم بهذا القول ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ﴾ المنتقم منهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحزن والأسف ﴿حَسْرَةً﴾ مستمكنة ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وتمرضهم وتضعفهم بها في الدنيا، وتعذبهم في الآخرة ﴿وَاللَّهُ﴾ القادر المقتدر، المستقل في الإحياء والإماتة ﴿يُحْيِي﴾ بلطفه ﴿وَيُمِيتُ﴾ بقهره بلا مظاهرة ولا مشاركة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيها المؤمنون ﴿بَصِيرٌ﴾ [آل عمران:156] ناقد خبير، يميز ويصفي إخلاصكم من الرعونة والرياء، وأعمالكم من الميل إلى البدع والأهواء.

﴿وَ﴾ الله أيها المؤمنون المتوجهون إلى الله، الطالبون الوصول إلى زلال توحيده ﴿لَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طالبين لرضاه ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ قبل موتكم، سالكين، سيّاحين في طريق الفناء فيه ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ سترة ساترة لأنانيتكم، ناشئة ﴿مِّنَ﴾ ضرب ﴿اللَّهِ﴾ لكم إلى توحيده الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فائضة منه، مفنية لهوياتكم بالمرة في هويته ﴿خَيْرٌ﴾ لكم ﴿مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:157] وتدخرون أنتم لأنفسكم بهوياتكم الباطلة، وإن كنتم خيرين فيها.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران:108-160].

﴿وَ﴾ الله أيها الموحدون المخلصون ﴿لَئِن مُّتُّمْ﴾ في طريق الفناء ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فيه في يد الأعداء ﴿لَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره؛ إذ لا غير ﴿تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:158] ترجعون رجوع الظل إلى ذي ظل.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ أي: فبرحمة نازلة لك يا أكمل الرسل ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ المرسل لك؛ رحمةً للعالمين ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ حين مخالفتهم عن إطاعتك واتباعك ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾ سيء الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسيه ﴿لَانفَضُّوا﴾ بفتنوا وتفرقوا البتة ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وإن آذوك؛ جهلاً وغفلةً ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ تلطفًا وترحمًا على مقتضى نبوتك.

﴿وَ﴾ بعد عفوك ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ من الله ليغفر زلتهم؛ لأنك مصلحهم ومولي أمرهم ﴿وَ﴾ بعد عفوك عما لك، واستغفارك عما لله ﴿شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الرخص

المتعلقة لترويج الدين والإيمان بعدما تركت المشورة معهم؛ بسبب جريمتهم ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فالعزيمة لك خاصة، بلا مشورة الغير ﴿فَتَوَكَّلْ﴾ في عزائمك ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ واتخذه وكيلاً، ولا تلتفت إلى الغير مطلقًا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:159] المتخذين الله وكيلاً، المفوضين أمورهم كلها إليه.

قل يا أكمل الرسل إمحاضًا للنصح: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ﴾[1] المولي لأموركم بعزته وسلطانه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: لا أحد يغلبكم ويخاصمكم؛ لكونكم في حمى الله وكنف حوله وقوته ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ بقهره وسخطه ﴿فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد قهره وبطشه ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ المعز المذل القوي المتين ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:160] في جميع أمورهم حتى خلصوا وأخلصوا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(1) قال الشيخ البقلي الشيرازي: نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمته وكبريائه، فلما تلبّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف، وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»، وحقائقه مشروحة في ترقي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك» نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحبين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المداناة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار علوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات، قال بعضهم: إنما يدرك نصر الله مَنْ تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه، قال الإستاذ: نصرته بالتوفيق يلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح. ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر، ويقال: النصرة إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر على تهزم دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:161-164].

ثم لما نسب المنافقون إلى رسول الله ﷺ ما برأه الله ذيل عصمته عنه من الخيانة والغلول، رد الله عليهم في ضمن الحكمة الكلية، الشاملة لجميع الأنبياء؛ إذ مرتبة النبوة مطلقًا مصونة عن أمثال هذه الخرافات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وما جاز ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء، خصوصًا خاتم النبوة والرسالة ﷺ ﴿أَن يَغُلَّ﴾[1] يخون ويحيف بالنسبة إلى أحد ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾ أحدًا من الناس ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: تأتي مغلولة مع ما غل فيه على رءوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ مطيعة أو عاصية جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يعطي جزاء ما كسبت وافيًا ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161] لا ينقصون من أجورهم؛ إذ لا ظلم فيها، بل يزاد عليها تفضلاً وامتنانًا.

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ﴾ انقاد وأطاع ﴿رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ أي: رضاه، ورضي الله عنه؛ لتحققه بمقام الرضا ومأواه جنة التسليم ﴿كَمَن بَاءَ﴾ رجع وقصد بكفر وظلم مستلزم ﴿بِسَخَطٍ﴾ عظيم ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بسببه ﴿مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ البعد والطرد ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:162] والمنقلب مصير أهل الكفر والظلم وحاشا ليسوا كمثلهم.

بل ﴿هُمْ﴾ أي: المتابعون رضوان الله ﴿دَرَجَاتٌ﴾ عالية عظيمة ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ حسب درجات أعمالهم الصالحة ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لحالات عباده ﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل

---

(1) للآية تفسيران: الأول أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا بتصفية الطباع وإسقاط الوسواس ومنعه من أن يرد على القلوب، فإن الشيطان مشغول بالعذاب، فلا يتفرغ لإلقاء الوسواس فلم يكن بينهم إلا التوادد والتعاطف. عن علي كرم الله وجهه: إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم. الثاني: أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقص ، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى إن صاحب الدرجة الناقصة لا يحسد صاحب الدرجة الكاملة فيكون هذا في مقابلة ما ذكره الله تعالى من تبريء بعض أهل النار من بعض ولعن بعضهم بعضاً وليس هذا ببديع ولا بعيد من حال أهل الجنة، فإن أولياء الله تعالى في دار الدنيا أيضًا بهذه المثابة بحسن توفيق الله تعالى ونور عنايته، وهدايته كل منهم قد قنع بما حصل له من نعيم الدنيا وطيباتها لا يميل طبعه إلى زوجة لغيره أحسن من زوجته ولا إلى لا مشتهى ألذ مما رزقه الله ، وكل هذا نتيجة ملكه الرضا بالقضاء والتسليم لأمر رب الأرض والسماء، فيموتون كذلك ويحشرون على ذلك وفقنا الله لنيل هذا المقام ببركة أولئك الكرام. [تفسير النيسابوري (3/ 422)].

عمران:163] يجازيهم على مقتضى عملهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

والله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ منة عظيمة ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ﴾ لهدايتهم ﴿رَسُولاً﴾ مرشدًا لهم، ناشئًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يرشدهم بأنواع الإرشاد ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾ ويسمعهم أولاً ﴿آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدة ذاته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ثانية عن وسوسة شياطين الأهواء، المضلة عن طريق التوحيد ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ ثالثًا ﴿الْكِتَابَ﴾ المبيّن لهم طريقة تصفية الظاهر، وما يتعلق بعالم الشهادة ﴿وَ﴾ رابعًا يعلمهم ﴿الْحِكْمَةَ﴾ المصفيّة للباطن عن الميل إلى الغير والسوى، الموصلة إلى سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل انكشافهم بالمراتب الأربعة ﴿لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:164] وخذلان عظيم.

نبهنا بفضلك عن نومة الغافلين.

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)﴾ [آل عمران:160-168].

﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: أتيأسون وتقنطون من فضل الله عليكم أيها المؤمنون حين أصابتكم مصيبة يوم أحد، ولا تذكرون نصره يوم بدر؛ إذ ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ فيه ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ إذ قتلتم سبعين وأسرتم سبعين؟ ﴿قُلْتُمْ﴾ من غاية حزنكم وأسفكم: ﴿أَنَّى هَذَا﴾ أي: من أين حدث لنا هذه الحادثة الهائلة ونحن قد وعدنا النصر والظفر؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بعدم تثبتكم وتصبركم على المكان الذي عينكم رسول الله ﷺ، وعدم وفائكم على العهد الذي عاهدتم معه، أو من الفدية التي أخذتم يوم بدر، مع أن الأولى قتلهم واستئصالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع مخايلكم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المصيبة والإصابة ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:165].

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون، الموقنون بقدرة الله على عموم الإنعام والانتقام أن

﴿مَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ الصفَّان يوم أُحد ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ﴾ المنتقم منكم؛ لتغييركم ما في ضميركم من نية التقريب بالميل إلى زخرفة الدنيا، واتباع الهوى ﴿وَ﴾ إنما يبتليكم الله بما ابتلاكم ﴿لِيَعْلَمَ﴾ وليميز ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:166] الذين ثبتوا على الإيمان، واستقروا على شعائر الإسلام من غيرهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ ويفصل أيضًا ﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أظهروا النفاق مع الله ورسوله ﴿وَ﴾ ذلك حين ﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع أعداء الله إلى أن تستأصلوهم ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ ضررهم عن المسلمين ﴿قَالُوا﴾ في الجواب على مقتضى نفاقهم المكنوز في قلوبهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ﴾ مساواة بينكم، أو مضاعفتهم إياكم بمثلين فنسمي ﴿قِتَالاً﴾ فإذن ﴿لاَتَّبَعْنَاكُمْ﴾ بل هم بأضعفكم عَددًا وعُددًا وما أنتم عليه، إنما إلقاء النفس في التهلكة لا المقاتلة، فكيف اتبعناكم؟.

﴿هُمْ﴾ بإظهار هذا القول ﴿لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ لأن القول مناسب، مطابق لكفرهم المكنون في قلوبهم دون إيمانهم، مجرد القول الذي ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ تلبيسًا وتغريرًا ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من القبول والإذعان ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿أَعْلَمُ﴾ منهم، فهم ﴿بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:167] في قلوبهم من الكفر والنفاق يجازيهم على مقتضى علمه.

هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ من غاية نفاقهم وشقاقهم ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: في حق إخوانهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقتلوا ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿قَعَدُوا﴾ في مساكنهم، وتخلفوا عن رسول الله ﷺ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ هؤلاء المقتولون في القعود والتخلف ﴿مَا قُتِلُوا﴾ كما لم نقتل، واعتقادهم أن القعود سبب النجاة، والخروج بسبب القتل، ولم يعلم أن للموت أسباب، وللنجاة أسباب لا يدركها إلا هو، وكم من قاعد قد مات وقتل، وكم من خارج قد نجا وإن اقتحم، والعلم عند الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا إن قدرتهم على الدفع: ﴿فَادْرَءُوا﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ المقدر لكم من عند الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:168] أيها الكاذبون.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران:169-173].

وبعدما بيَّن سبحانه جرائم المؤمنين يوم أُحد، وذلتهم ومتابعتهم للمنافقين في التخلف عن رسول الله، والميل إلى الغنيمة، وترك المركز مع كونهم مأمورين على خلافها، أراد أن ينبه عليهم سرائر الغزو والشهادة فيه، وبذل المهج في سبيله، فقال مخاطبًا لرسوله على طريق الكف والنهي؛ لينبه من يقتدي به من المؤمنين؛ لأن أمثال هذه الخطابات والتنبيهات إنما يليق لمن وصل إلى ذروة مسالك التوحيد، وتحقق بنهاية مراتب التجريد والتفريد بقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ باذلين أرواحهم في طريق الفناء؛ ليفوزوا بشرف البقاء ﴿أَمْوَاتاً﴾ منقطعين عن الحياة والحركة، كالأموات الأخر ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءٌ﴾ ذو أوصاف وأسماء أزلية أبدية، مقربين بها ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الجامع لجميع الأوصاف والأسماء ﴿يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169][1] بها من عنده.

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ﴾ من موائد المعرفة والإحسان بواسطتهما ﴿مِن فَضْلِهِ﴾

---

(1) من لطائف ما ذكره البقلي في «العرائس» قوله عند تفسيره هذه الآية: نبه الخلق أن مَنْ قُتِلَ في سبيل العشق بسيوف العشق انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأولية واتصف بصفة الأزلية، يصير منعوتًا بنعت الأخروية موصوفًا بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلَّ سلطانه واحدة في الوحدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، فيضها في الأفعال تفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، ومحل أن وصل نور الصفة فيكون خارجًا عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فمَنْ كان نعته أولية فيكون نعته أخروية، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حيًا باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنديته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القربة والعندية، ومَنْ يكون في العندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصافه ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق، ومَنْ قُتِلَ بسيف الإرادة فهو باقٍ بنور القربة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المحبة فهو باقٍ في سنا المشاهدة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المعرفة فهو باقٍ في أنس الوصلة، ومَنْ قُتِلَ بسيف التوحيد فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغيرة العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم، قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

دائمًا، خالدين فيها ﴿وَ﴾ مع تلك اللذة والفرح ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يطلبون البشارة والشفاعة من الله ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من إخوانهم الذين بقوا من خلفهم في دار الدنيا التي هي دار الخوف والعناء، محل الخطر والفناء، قابلين لهم منادين، منبهين أن ﴿أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لم يلحقوا بنا ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران:170] لم يخلصوا عن الدنيا ولوازمها.

بل ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دائمًا لأنفسهم ولإخوانهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ جزاء لما جاهدوا في سبيله وفضل مع عطاء منه، وامتنانًا عليهم من لطفه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها العاملون؛ لرضاء الله، المجاهدون في سبيله ﴿أَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:171] الذين بذلوا جهدهم في محبة الله ومحبة رسوله ﷺ خصوصًا.

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ طلبوا الإجابة ﴿لِلهِ وَالرَّسُولِ﴾ حين دعاهم الله ورسوله إلى المقاتلة ﴿مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ من العدو بلا مماطلة وتسويف، بل رغبتهم أشد من الكرة الأولى.

وذلك أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من المدينة، فبلغوا الروحاء ندموا وقصدوا الرجوع؛ ليستأصلوهم، فبلغهم الخبر إلى رسول الله ﷺ فندب أصحابه للخروج في طلبهم، وقال: لا يخرج معنا اليوم إلا من كان معنا أمس.

فخرج ﷺ مع جماعة من المؤمنين حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه الفرح والسرور، متلهفين، متحسرين للشهادة، متشوقين إلى مرتبة إخوانهم الذين استشهدوا في سبيل الله، فمر بهم معبد الخزاعي، وكان مشركًا يومئذ، فقال: يا محمد، لقد عز علينا ما أصابك وأصحابك، ثم خرج فلقي أبا سفيان بالروحاء، فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج مع أصحابه، يطلبونكم على مهور لم أر مثلهم في الجراءة أحدًا، يتحرقون عليكم تحرقًا لو لقيتم، قال أبو سفيان: ويلك! ما تقول؟ قال: والله، ما أراك تحل حتى ترى نواحي الخيل، قال: فوالله لقد أجمعنا للكرة عليهم؛ لنستأصل بقيتهم، قال: فإني والله، أنهاك عن ذلك.

فألقى الله الرعب في قلوبهم، فرجعوا مستوحشين منهم، لذلك قال سبحانه في حق المؤمنين ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ ببذل المهج في سبيل الله، بالخروج مع رسوله ﴿مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا﴾ عن مخالفة أمر الله ورسوله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:172] لا أجر أعظم منه،

وهو الفوز بالبقاء الأبدي والحياة السرمدية، وهم من كمال إيمانهم بهم.

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ المخبرون لهم؛ ترحمًا وتحذيرًا: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ يعني: أبو سفيان وأصحابه ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ ليكروا عليكم ويستأصلوكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ حتى لا يلحقكم شر العدو ثانيًا ﴿فَزَادَهُمْ﴾ قول المخبرين ﴿إِيمَانًا﴾ إطاعة وانقيادًا وتسليمًا وإحسانًا ﴿وَقَالُوا﴾ في جوابهم من غاية رضاهم ونهاية تفويضهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وكافينا، يكفينا عنايته لنا في حياتنا ومماتنا ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:173] هو لمصالحنا، نفوض أمورنا كلها إليه، نعتصم به من سخطه وغضبه.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (175) وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177)﴾ [آل عمران:174-177].

ولما فوضوا أمورهم إلى الله، واعتصموا له، واستنصروا منه، وتوكلوا عليه، قذف في قلوب عدوهم الرعب فهربوا ﴿فَانقَلَبُوا﴾ رجعوا من حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ جزاء ما صبروا ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة عطاء لهم تفضلاً وامتنانًا؛ لتحققهم في مقام الرضاء بما أصابهم من القضاء ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أصلاً بعدما أصابوا يوم أُحد، بل صاروا غالبين دائمًا على الأعداء ﴿وَ﴾ ذلك لأنهم ﴿اتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ ومتابعة رسوله بلا ميل منهم إلى هوية نفوسهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:174] ولطف جسيم على من هو من أهل الرضا والتسليم.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ المخبرون، المخوفون لكم، هم ﴿الشَّيْطَانُ﴾ وأتباعه، ما ﴿يُخَوِّفُ﴾ من الأعداء إلا ﴿أَوْلِيَاءَهُ﴾ وهم المنافقون ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون؛ إذ الله معكم يحفظكم عما يضركم ﴿وَخَافُونِ﴾ من إطاعة الشيطان ومتابعته، حتى لا يلحقكم غضبي وسخطي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175] موقنين بقدرتي على الإنعام والانتقام.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ ضرر ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ﴾ يوقعون أنفسهم ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ سريعًا في

المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴿إِنَّهُمْ﴾ إذ هم بسبب كفرهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ بل ضرر كفرهم إنما يعود إليهم، لاحق بهم ﴿يُرِيدُ اللهُ﴾ المقدر لكفرهم ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿فِي﴾ النشأة ﴿الآخِرَةِ﴾ لذلك أقدرهم على الكفر ﴿وَ﴾ هيأ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:176] هو عذاب الطرد والخذلان، والحسرة والحرمان؛ جزاء لكفرهم ونفاقهم.

ثم برهن عليه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ استبدلوا ﴿الكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ من غاية نفاقهم ﴿لَن يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا﴾ بسبب هذا الاستبدال والاختيار، بل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:177] مؤلم في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء، وفي الآخرة بالحرمان عن مرتبة الإنسان.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران:178-180].

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ﴾ المفسر بقراءة: «ولا تحسبن» يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: إمهالنا إياهم في النشأة الأولى ﴿خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾ ولهم فيه نفع وعزة، بل ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ موجبًا للعذاب ﴿وَلَهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:178] مذل ومخز؛ جزاء لاستكبارهم واستعدائهم في الدنيا.

ثم لما اختلط المنافقون مع المؤمنين، وتشاركوا في إظهار الإيمان، والقول به على طرفي اللسان بلا اعتقاد منهم وإخلاص، أراد سبحانه أن يبيّن ويميّز المؤمن من المنافق، والمخلص من المرائي فقال: ﴿مَا كَانَ اللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لِيَذَرَ﴾ وليترك ﴿المُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين ﴿عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من الالتباس والمشاركة مع أهل الكفر والنفاق بحسب الظاهر، بل يختبر ويمتحن إخلاصكم بأنواع البليات والمصيبات ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ ويفصل ﴿الخَبِيثَ﴾ المنافق، المصر على النفاق ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن،

الموقن بتوحيد الله، الراضي بما جرى عليه من قضائه.

﴿وَ﴾ بعد تميزه وفصله سبحانه ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ﴾ أي: جميعكم ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾[1] الذي هو الاطلاع على خفيات ضمائر عباده ﴿وَلَكِنَّ اللهَ﴾ المحيط بجميع القابليات ﴿يَجْتَبِي﴾ ويختار ﴿مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ بأن يوحي إليه، ويلهمه التمييز بين استعدادات عباده للإيمان والكفر، وإذا كان أمركم عند الله ورسله ﴿فَآمِنُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿بِاللهِ﴾ المميز لكم أصالة ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الملهمين بالتميز بأمره تبعًا ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾ وتحافظوا على شعائر الإيمان بعدما آمنتم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن مخالفاته ﴿فَلَكُمْ﴾ عند الله ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:179] هو إيصالكم إلى التحقيق بمقام العبودية والتوحيد؛ إذ لا أجر أعظم منه.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور التي يجب الاتقاء والتحرز عنه: البخل ﴿لاَ يَحْسَبَنَّ﴾ البخلاء ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ اختيارهم تدخيرًا أو توريثًا لأولادهم ﴿هُوَ﴾ أي: البخل ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ ينفعهم عند الله، ويثيبهم به أو يدفع عنهم العذاب بسببه

---

(1) إنَّ لله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر، أمَّا غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطَّلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، فرؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد، وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيمان، وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين، وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين، وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطَّلع عليها أسرار الخليقة أبدًا، وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾؛ فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصدِّيقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزَّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26،27] قيل: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنَّما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:26-27] هو الفاني من أوصافه، المتَّصف بأوصاف الحق.

﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ يستجلب العذاب عليهم؛ إذ هم ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ ويسلسلون مع ﴿مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويسحبون على وجوههم إلى نار البعد والحرمان؛ جزاء لبخلهم الذي كانوا عليها.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره؛ إذ لا غير ﴿مِيرَاثُ﴾ أي: حيازة وإحاطة ما في ﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَ﴾ ما في ﴿الأَرْضِ﴾ أي: عالم الأجسام تملكًا وتصرفًا، لا ينازعه في ملكه، ولا يشارك في سلطانه، له الحكم، وإليه الرجوع في جميع ما كان ويكون ﴿وَاللَّهُ﴾ المتوحد، المتفرد في ملكوته وجبروته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من التصرفات الجارية ﴿خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:180] لا يغيب عن شيء من أفعالكم وأقوالكم.

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾ [آل عمران:181-184].

كما أخبر سبحانه عن علمه بقول اليهود وبقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ استهزاءً وسخريةً حين نزل: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ﴾ [الحديد: 11] ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ﴾ استقرض منا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ويعدما سمعنا منهم ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي: قولهم هذا ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فيما مضى في صحائف أعمالهم، في نظم واحد، ونجازي عليهم يوم الجزاء ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم وقت جزائهم: ﴿ذُوقُوا﴾ أيها المفرطون، المسيئون للأدب مع الله ورسله ﴿عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران:181] المحرق غاية الإحراق، بحيث يذوق إحراقه أجسامكم وجميع قواكم.

ولا تنسبونا في هذا التعذيب إلى الظلم والعدوان؛ إذ ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ واقترفت ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ من المعاصي العظيمة التي هي من جملتها: قولكم هذا، وقتلكم الأنبياء فيما مضى ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المنتقم من عباده ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ بذي

ظلم ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:182] أي: للذين ظلموا في دار الدنيا، بل يجازيهم وينتقم منهم على مقتضى ظلمهم بلا زيادة ونقصان؛ عدلاً منه.

والمعذبون بالعذاب الحريق هم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ افتراءً على الله في تعليل عدم إيمانهم برسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ في التوراة، وأوصانا ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ﴾ نقر ﴿لِرَسُولٍ﴾ أي: لكل رسول يدّعي الرسالة من عنده، ويُظهر المعجزات وفق دعواه ﴿حَتَّى يَأْتِيَنَا﴾ في أظهرنا وبين أيدينا ﴿بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ﴾ تحيله ﴿النَّارُ﴾ النازلة من السماء؛ وذلك أنهم ادعوا أن أنبياء بني إسرائيل يتقربون إلى الله بقربان، فيقوم النبي يدعو، والناس حوله، فتنزل نار من جانب السماء فتحيل القربان إلى طبعها فجأة، وإحالته نارًا علامة قبول الله قربانهم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحة، الدالة على رسالاتهم ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ مع إتيانهم بما اقترحتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:183] بأن إيمانكم موقوف على هذه المعجزة.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وأنكروا عليك يا أكمل الرسل فلا تبال بتكذيبهم وإنكارهم ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ ذو معجزات كثيرة، وآيات عظام ﴿جَاءُوا﴾ على من أرسل إليهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ أي: الصحف المثبتة فيها الأحكام فقط ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين فيه الأحكام والمواعظ والرموز والإشارات ﴿الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184] على كل من استنار منه واستشرد، ومع ذلك ينكرونهم، فمضوا هم ومنكروهم.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: 180-187].

إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ خيرة كانت أو شريرة ﴿ذَائِقَةُ﴾ كأس ﴿الْمَوْتِ﴾ عند حلول الأجل المقدر له من عندنا ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ﴾ تعطون؛ أي: جزاء أعمالكم خيرًا كان أو شرًا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التي هي يوم الجزاء ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ بعد منكم بعمله الصالح ﴿عَنِ النَّارِ﴾ المعدة للفجرة والفساق ﴿وَأُدْخِلَ﴾ بها ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي أعدت للسعداء ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فوزًا عظيمًا، ومن لم يزحزح عن النار؛ لفساد عمله، وأُدخل فيها بسببه، فقد خسر خسرانًا مبينًا ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المكلفون بالإيمان والأعمال الصالحة المتفرعة عليه: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ التي أنتم فيها تعيشون ﴿إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:185]، يغركم بلذاتها الفانية الغير القارة عن النعيم الدائم والسرور المستمر، وأنتم أيها المغرورون بمزخرفاتها لا تنتبهون.

والله أيها المؤمنون ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ ولتختبرن ﴿فِي﴾ إتلاف ﴿أَمْوَالِكُمْ﴾ التي هي من حطام الدنيا ﴿وَ﴾ إماتة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾(1) وأولادكم التي هي الهالكة، المستهلكة في ذواتها ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ممن لا كتاب لهم ولا نبي ﴿أَذًى كَثِيراً﴾ يؤذيكم سماعها؛ كل ذلك لتوطنوا أنفسكم على التوحيد، وتتمكنوا في مقام الرضا والتسليم وتستقروا في مقام العبودية، متمكنين، مطمئنين بلا تزلزل وتلوين ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أيها الموحدون بأمثالها ﴿وَتَتَّقُوا﴾

---

(1) النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحانًا للعاشقين، فمَنْ نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بـ﴿أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:24]، وذلك مكر القدم واستدراجه، ومَنْ نظر إلى ربوبية وفنيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدَّس الله روحه العزيز- بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى ؑ؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:30]، نطق بصفته عن فعله، ومَنْ نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان- صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومَنْ نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمَنْ كان محتجبًا بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجًا عن نعوت الفردانية والوحدانية، قال ابن زانيار: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أموالكم بجمعها منعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد. وقيل: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذًا وإعطاءً.

عن الإضرار بها ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران:186] أي: الأمور التي هي من عزائم أرباب التوحيد، فعليكم أن تلازموها وتواظبوا عليها، إن كنتم راسخين فيه.

ثبتنا بلطفك على نهج الاستقامة، وأعذنا من موجبات الندامة يوم القيامة.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن يؤذيك، ومتبعيك من أهل الكتاب وقت ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب ﴿مِيثَاقَ﴾ أي: العهد الوثيق ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: أحبار اليهود والنصارى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ أي: الكتاب صريحًا واضحًا، بلا تبديل ولا تغيير ﴿لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ شيئًا مما فيه من القصص والعبر والرموز والإشارات، وخصوصًا من أوصاف النبي ﷺ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ بعدما عهدوه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وإن كان المعهود عند أولي العزائم الصحيحة أن يكون نصب عيونهم ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ أي: اختاروا بدله ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشى من مترفيهم ومستكبريهم؛ حفظًا لجاههم ورئاستهم ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:187] تلك الرشى بدل ما يكتمونه من أوصاف سيدنا محمد ﷺ.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 188-191].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أيها الكامل في أمر الرسالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ من الخداع والنفاق مع المؤمنين، وإظهار الإيمان على طرف اللسان ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا﴾ عند إخوانهم ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من الإخلاص مع أهل الإيمان، وهم وإن خلصوا عن أيدي المؤمنين، ظاهرًا انخداعهم ونفاقهم ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ﴾ منجاة ومخلص ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ المعدّ لهم في يوم الجزاء، بل ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:188] مؤلم عن رؤيتهم المؤمنين، المخلصين في النعيم الدائم واللذة المستمرة.

﴿وَ﴾ إن اغتروا بإمهال الله إياهم في النشأة الدنيا، لا يمهلون في الآخرة؛ إذ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ أي: عالم الأرواح ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: عالم الطبيعة، وله التصرف فيهما بالاستقلال، كيف يشاء؟ متى يشاء؟ بطشًا وإمهالاً ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفرد، المتوحد في ملكه وملكوته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:189] إكثارًا وتقتيرًا.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ أي: الأسماء والأوصاف الفعالة الفياضة ﴿وَالأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة القابلة، المستعدة لقبول الفيض ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ﴾ أي: آثار القبض والجلال ﴿وَالنَّهَارِ﴾ أي: آثار البسط والجمال ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلائل وعلامات دالة على رقائق المناسبات، ودقائق الارتباطات الواقعة بين الأسماء والصفات، المستدعية لظهور التجليات الظاهرة في الآفاق بحسب القوابل والمظاهر ﴿لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190] الواصلين إلى لب التوحيد، المنخلعين عن قشوره بالمرة.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ المتوحد في ذاته في جميع حالاتهم ﴿قِيَامًا﴾ قائمين ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾[1] مضطجعين، متكئين ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ دائمًا ﴿فِي

---

(1) قال الشيخ البقلي: إنَّ الله سبحانه لمَّا خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوقعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمَّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيمان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت التسرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً ومحبةً وغيرة، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191] قيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في الحالات، ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر

﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى أن سكروا، وترقى سكرهم إلى أن تحيروا، بعد تحيرهم استغرقوا، وبعدما استغرقوا تاهوا، وبعدما تاهوا فانوا، وحينئذ انقطع سيرهم، فمنهم من تمكن في تلك المرتبة واستقر عليها، ومنهم من صحى عن سكره ورجع إلى بدنه مستكملاً، قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ المحسوس، المُشاهد ﴿بَاطِلاً﴾ بلا طائل ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ننزهك يا ربنا عن مدركات عقولنا وحواسنا ﴿فَقِنَا﴾ واحفظنا بلطفك ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:191] التي هي غفلتنا عن مطالعة وجهك الكريم.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران:192-194].

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ جعلته في مضيق الإمكان محبوسين، معذبين، مطرودين، فظلموا أنفسهم بالالتفات إلى غيرك ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المستقرين، نفوسهم في ظلمة الإمكان ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران:192] ينصرونهم ويخرجونهم منها، سوى من أيدت من عندك بإخراجهم من الأنبياء والأولياء، بعد توفيقك إيانا بإرسال الرسل.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ مشفقًا، هاديًا، مرشدًا؛ إذ هو ﴿يُنَادِي﴾ ويرشد

القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسرمد الذكر الذي وافق الكشف من الأسماء والصفات والنعوت والذات، سبحان مَنْ خصّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الآزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، ومَنْ غاب منهم عن حقيقة القدم، صار متصفًا بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذاكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل، وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، ومَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، ومَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

﴿لِلإِيمَانِ﴾ بتوحيدك قائلاً: ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ أيها التائهون في ظلمة الإمكان ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بنور الوجود ﴿فَآمَنَّا﴾ فامتثلنا أمره يا ﴿رَبَّنَا﴾ فتحققنا بإرشاده في مرتبة اليقين العلمي بوحدة ذاتك، وبعد تحققنا فيها ﴿فَاغْفِرْ﴾ استر ﴿لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أنانيتنا التي صرنا بها محرومين عن ساحة حضورك، حتى يتحقق بلطفك وتوفيقك في مرتبة اليقين العيني بمعاينة ذاتك ﴿وَ﴾ بعد تحققنا فيها ﴿كَفِّرْ﴾ طهّر ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أوصافنا التي تُشعر بالاثنينية بالكلية، حتى نتحقق بفضلك وجودك في مرتبة اليقين الحقي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿تَوَفَّنَا﴾ في فضاء الفناء ﴿مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:193] الفانين في الله، الباقين ببقائه.

﴿رَبَّنَا﴾ ثبتنا في مقام عبوديتك ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى﴾ لسان ﴿رُسُلِكَ﴾ من الكشوف والشهود وسائر ما جاءوا به، وأخبروا عنه ﴿وَلاَ تُخْزِنَا﴾ تحرمنا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حين لقيناك عما وعدتنا من شرف لقائك ﴿إِنَّكَ﴾ بلطفك وفضلك على عبادك ﴿لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:194] الذي وعدت من سعة رحمتك وجودك على عبادك.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران:190-197].

ولما تضرعوا إلى الله، والتجأوا إليه، وندموا عمّا هم عليه ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فاستقبل عليهم بالإجابة قائلاً: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ﴾ مخلص ﴿مِّنكُم﴾ سواء كان ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾ إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ ناشئ ﴿مِّن بَعْضٍ﴾ ذكركم من أنثاكم، وأنثاكم من ذكركم في الإنسانية والمظهرية الجامعة اللائقة للخلافة، ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ منكم من دار الغرور، طالبًا الوصول إلى دار السرور ﴿وَأُخْرِجُوا﴾ بسبب هذا الميل ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾[1] المألوفة التي هي بقعة الإمكان ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ بسبب قطع

(1) المظلومُ منصورٌ، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:52]، وقد يجري من النَّفسِ وهواجِسِها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ، وأهل القصةِ - ظُلْمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ

التعلقات، وترك المألوفات ﴿وَقَاتَلُوا﴾ مع القوى الحيوانية ﴿وَقُتِلُوا﴾ في الجهاد الأكبر.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ لأمحونّ وأطهرنّ ﴿عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي هي ذواتهم الباطلة، الهالكة ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ﴾ ملاحظات ومكاشفات ومشاهدات ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار المعارف والحقائق دائمًا، متجددًا ﴿ثَوَابًا﴾ نازلاً ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المستجمع شتات العباد ﴿عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:195] وخير المنقلب والمآب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: انتقالهم وارتحالهم ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران:196] لاستجلاب المنافع والمتاجر.

إذ هو ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ لذة يسيرة في مدة قصيرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان، خالدين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران:197] مهد نيران الحرمان.

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران:198-200].

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ عن الاشتغال بزخرفة الدنيا وأمتعتها، منيبين إليه، متوجهين نحوه ﴿لَهُمْ﴾ عنده ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات من اللذة الروحانية ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ من العلوم اللدنية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ حين وصلوا إليه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا عِندَ اللَّهِ﴾ من المثوبات المستمرة واللذات الدائمة ﴿خَيْرٌ

-

القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءً، وتستولي غاغةُ النّفس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (200/5)].

﴿لِلْأَبْرَارِ﴾[1] [آل عمران:198] المتوجهين إلى دار القرار.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ المنزل للكتب المرسلة للرسل ﴿وَ﴾ لا يفرق بين الكتب والرسل أصلاً، بل يؤمن بجميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ من القرآن والرسول الذي هو سيدنا محمد ﷺ ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ من التوراة والإنجيل، المنزلين على موسى وعيسى - عليهما السلام - وكذا على سائر الكتب المنزلة من عنده؛ لتحققهم في مقام العبودية والتوحيد، وهم في هذا الإيمان والإذعان ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له.

وعلامة خشوعهم وإخلاصهم أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: بتبديلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من الرشى، مثل أحبار اليهود ومتفقهة هذه الأمة في هذا العصر - خذلهم الله - وهم الذين يحتالون في أحكام الشريعة الغراء على مقتضى هويتهم الفاسدة، ويأخذون الرشى؛ لأجل حيلهم الباطلة، ويسمونها حيلة شرعية، كأنه ظهر ما قال ﷺ: «بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا»[2]، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المخلصون، الخاشعون ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوفيهم أجورهم من حيث لا يحتسبون ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:199] يحاسب أعمالهم، ويجازيهم عليها سريعًا، بل يزيد عليهم؛ تفضلاً وامتنانًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيد الله، مقتضى إيمانكم الصبر على متاعب مسالك

---

(1) قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ بيّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القربة وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النعيم في الجنة، وأيضًا صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتّقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبيّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة. وأيضًا: أعجبوا الأبرار بما وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عنده لهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وأيضًا لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون، فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقربتي ومشاهدتي. قيل: ما عنده لهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

(2) أخرجه مسلم (130/1 ، رقم 145)، وابن ماجه (1319/2، رقم 3986)، وأبو يعلى (52/11 ، رقم 6190).

التوحيد ﴿اصْبِرُوا﴾ على مشاق التكليفات الواقعة فيها ﴿وَصَابِرُوا﴾[1] غالبوا على القوى النفسانية العائقة عن الرياضات المزكية للأهوية الفاسدة ﴿وَرَابِطُوا﴾ قلوبكم على المشاهدات والمكاشفات الواردة من النسمات الإلهية والنفسات الرحمانية ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن جميع ما يعوقكم ويشغلكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:200] تفوزون منه بما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ربنا أفرغ علينا صبرًا، وتوفنا مسلمين، واحشرنا مع الصابرين المرابطين، هب لنا من لدنك رحمة إنك أرحم الراحمين.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المترصد لفيضان الكشف والشهود واليقين، ونزول الاطمئنان والتمكين أن تتصبر بما جرى عليك من المصيبات والبليات المشعرة للاختبارات الإلهية، وابتلائه عن رسوخ قدمك في جادة التوحيد، وصدق عزيمتك في مسلك الفناء، وعلو همتك في التحقق بدار البقاء.

وتربط قلبك بحقك الذي هو أصلك وحقيقتك، مقبلاً عليه، متوجهًا إليه، مجتنبًا عن جميع ما يعوقك عنه من لوازم ماهيتك وهويتك التي لا حقيقة لها عند التحقيق والإقرار لما يترتب عليها وعلى لوازمها؛ إذ هي أعراض متبدلة، وأظلال باطلة، وإعدام صرفة زائلة لا تحقق لها، ولا آثار لها أصلاً سوى أن الوجود الحق انبسط عليها، وامتد إليها بجميع كمالاته، فانعكس منه فيها ما انعكس، فيتراءى العكوس والأظلال مشعشعة متجددة دائمًا بمقتضى تجدد تجليات الأوصاف والأسماء، فظن المحجوبون أنها متناصلات، وهي عند التحقيق تجلٍ واحد على هذا المنوال.

ارزقنا بلطفك حلاوة معرفتك وتوحيدك.

فلك أن تصفي ضميرك عن جميع ما يؤدي إلى التقليد والتخمين، وتفرغ خاطرك

(1) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصًا لشدته، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهي معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة. [تفسير حقي (2/ 393)].

وسترك عن كل ما يوهم التعدد والكثرة، حتى انشرح صدرك واتسع قلبك؛ لتصير منزلاً لسلطان الوجود الذي هو منبع جميع الكمالات والجود، وقبلة الواجد والموجود، والحوض المورود، والمقام المحمود.

وإياك إياك أن تقتفي أثر وساوس مقتضيات نفسك التي هي أعدى عدوك، وأشد ما يغويك ويضلك، بل جميع شياطينك إنما انتشأت منها، واستتبعت عليها، فعليك أن تلتجئ في الاجتناب من غوائلها بالرشد الكامل الذي هو القرآن المنزل من عند الله على خير الأنام، المؤيد من عند العليم العلّام؛ ليهدي المضلين جادةَ التوحيد عن متابعة الشيطان المَريد، ويوصلهم إلى صفاء التجريد وزلال التفريد بتوفيق من الله وجذبٍ من جانبه.

وفقنا بلطفك وكرمك بما تحب عنا وترضى.

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة النساء

لا يخفى على المتوحدين، المتأملين في كيفية انبساط الوحدة الذاتية على صفائح الأعيان الممكنة الفانية للحصر، أن للحق - جل جلاله وعم نواله - بحسب وحدته الذاتية ظهورًا في كل ذرة من ذرائر الكائنات؛ ليظهر منها أوصافه وأسماءه الكائنة في غيب هويته حسب استعداداتها وقابلياتها.

والمظهر الكامل، الجامع الذي تلوح منه جميع آثار الأسماء والصفات الإلهية على التفصيل، هو الإنسان الكامل؛ لذلك خلقه سبحانه على صورته، واستخلفه من بين بريته، وكرمه على جميع خليقته ورزقه من طيبات معارفه وحقائقه، والتفت بذاته نحو تخميره، ورباه بإرسال رسله وإنزال كتبه؛ ليظهر منه جميع ما أودع فيه من الكمالات المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، حتى يتمكن في مرتبة الخلافة والنيابة، ويتقرر على مقر التوحيد، لذلك ناداهم امتنانًا عليهم؛ ليقبلوا إليه، وأوصاهم بالتقوى؛ ليتخذوه وقاية وحسبًا.

فقال متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ الذي أظهر على من استخلفه بجميع كمالاته؛ إظهارًا لقدرته ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عليه بنشر رتبه وتوريث مرتبته ﴿الرَّحِيمِ﴾ عليه بإهدائه مبدأه ومعاده.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾ [النساء: 1-3].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الذين نسوا الموطن الأصلي، والمنزل الحقيقي بزخرفة الدنيا المانعة من الوصول إليه، عليكم الاتقاء من غوائلها، والاجتناب عن مخايلها، حتى لا تنحطوا عن مرتبتكم الأصلية ومكانكم الحقيقي ﴿اتَّقُوا﴾ أي: اجتنبوا والتجئوا ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي﴾ رباكم بحسن التربية، بأن ﴿خَلَقَكُم﴾ أظهركم وأوجدكم أولاً ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي المرتبة الفعالة، المحيطة بجميع المراتب الكونية والكيانية، وهي المراتب الجامعة المحمدية، المسماة بالعقل الكلي، والقلم الأعلى؛ تكميلاً لباطنكم وغيبكم.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ بالنكاح المعنوي والزواج الحقيقي الواقع بين الأوصاف والأسماء الإلهية ﴿زَوْجَهَا﴾ التي هي النفس الكلية القابلة الفيضان عموم الآثار الصادرة من المبدأ المختار؛ تتميمًا لظاهركم وشهادتكم، حتى استحقوا الخلافة والنيابة بحسب الظاهر والباطن ﴿وَ﴾ بعد جعلهما زوجين كذلك ﴿بَثَّ﴾ بسط ونشر ﴿مِنْهُمَا﴾ أيضًا بتلك النكاح المذكور ﴿رِجَالاً كَثِيرًا﴾ فواعل مفيضات ﴿وَنِسَاءً﴾ قوابل مستفيضات كل لنظيرتها، على تفاوت دقائق المناسبات الواقعة بين التجليات الحبية على الوجه الذي بينتها الكتب والرسل.

ولما كان الرب من الأسماء التي تتفاوت بتفاوت المربوب، صرح بألوهيته المستجمعة لجميع الأوصاف والأسماء بلا تفاوت؛ تأكيدًا ومبالغةً لأمر التقوى، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أي: واحذروا عمّا يشغلكم عنه سبحانه، مع أنه أقرب إليكم من حبل وريدكم؛ إذ هو ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ﴾ تتساءلون وتتنافسون ﴿بِهِ﴾ وتتوهمون بعده من غاية قربه ﴿وَ﴾ احفظوا ﴿الأَرْحَامَ﴾ المنبئة عن النكاح المعنوي والزواج الحبي على الوجه الذي ذكره ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المحيط بكم وبأحوالكم ﴿كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ دائمًا ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء:1] (1) حفيظًا يحفظكم عمّا لا يغنيكم إن أخلصتم التوجه.

---

(1) قال العارف البقلي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾. وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدتي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرتها بمشاهدتي، وأسمعتها خطاب أزليتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة. وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدتي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حدثيةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ. وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرنَّ بي؛ فإنك لي لا لك.

ومن جملة الأمور التي يجب المحافظة عليها أيها المأمورون بالتقوى: حقوق اليتامى، فعليكم أيها الأولياء والأوصياء أن تحفظوا مال اليتيم حين موت أبيه أو جده، وتزيدوه بالمرابحة والمعاملة، وتصرفوا بقدر الكفاف.

﴿وَ﴾ بعد البلوغ ﴿آتُوا الْيَتَامَى﴾ قبل البلوغ؛ إذ لا يتم بعد البلوغ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ المحفوظة، الموروثة من آبائهم ﴿وَ﴾ عليكم حين الأداء أن ﴿لاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ الرديء من أموالكم ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ الجيِّد من أموالهم ﴿وَ﴾ أيضًا، عليكم إن أردتم التصرف في أموالهم مقدار معاشهم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم مختلطين ﴿إِنَّهُ﴾ أي: التصرف في أموالهم بلا رعاية غبطتهم ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:2] إثمًا عظيمًا، مُسقطًا للمروءة بالمرة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ ولا تعدلوا ﴿فِي﴾ حفظ ﴿الْيَتَامَى﴾ النساء اللاتي لهن مال وجمال ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ البالغة مقدار ما يسكن ميلكم إلى اليتامى وشهوتكم إليهن ﴿مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أي: اثنين اثنين، وثلاث ثلاث، وأربعة أربعة، على تفاوت ميولكم إن حفظتم العدالة بينهن.

وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقةٌ من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث. وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفيتكم بمشاهدتي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ﴾ [الإسراء:70]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب، ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك. والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقي وعتابي. وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه. وقال جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله ممَّن عرفه، إنه من الإنسان الذي خصَّ خلقته بما خصَّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:42]، وسمو همته مما خصَّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: فلكم نكاح الواحدة؛ لتأمنوا من الفتنة، سواء كانت من الحرائر ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من الإماء، ثم لمّا لم يكن في الإسلام رهبانية؛ لأن الحكمة تقتضي عدمها، كما أشار إليه ﷺ بقوله: «**لا رهبانية في الإسلام**»[1]، نبه سبحانه على أقل مرتبة الزواج الصوري، المنبئ عن النكاح المعنوي والارتباط الحقيقي بقوله بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الواحدة، والقناعة بالإماء ﴿أَدْنَى﴾ مرتبة الزواج على الذين يخافون ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:3] أي: من كثرة العيال.

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء:4-6].

﴿وَ﴾ إذا أردتم النكاح أيها المسلمون ﴿آتُوا النِّسَاءَ﴾ الحرائر، والإماء لغيركم ﴿صَدُقَاتِهِنَّ﴾ أي: مهورهن ﴿نِحْلَةً﴾ بتةً مؤبدًا بلا حيلة وخديعة ﴿فَإِن طِبْنَ﴾ هن ﴿لَكُمْ﴾ لإفراط محبتكم في قلوبهن ﴿عَن شَيْءٍ﴾ كلٍ أو بعضٍ ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من المهر ﴿نَفْسًا﴾ رغبةً ورضًا، لا كرهًا واستحياء ﴿فَكُلُوهُ﴾ أي: الشيء الموهوب من المهر ﴿هَنِيئًا﴾ حلالاً ﴿مَّرِيئًا﴾ [النساء:4] طيبًا؛ تقويمًا لمزاجكم؛ لإقامة القسط والعدل الذي هو من حدود الله المتعلقة بالتقوى.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الحقوق المتعلقة بالتقوى أيها الأولياء أن ﴿لاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ سواء كانوا من أصلابكم وما ينتمي إليكم، وهم الذين خرجوا عن طور العقل ومرتبة التدبير والتكليف ﴿أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ﴾ ملكًا ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء المكلفون ﴿قِيَامًا﴾ سببًا لقيامكم على الطاعة والعبادة ﴿وَ﴾ لكن ﴿ارْزُقُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا طعامهم وسائر حوائجهم في مدة أعمالهم ﴿فِيهَا﴾ في ربحها ونمائها ﴿وَاكْسُوهُمْ﴾ أيضًا منها

(1) قال العجلوني في كشف الخفاء (377/2): قال ابن حجر لم أره بهذا اللفظ لكن في حديث سعد بن أبي وقاص عند البيهقي أن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة.

﴿وَ﴾ إن كان منهم له أدنى شعور بأمر الإضافة والتمليك، ولكن لا ينتهي إلى التدبير والتصرف المشروع ﴿قُولُوا لَهُمْ﴾ لهؤلاء المخطئين من مرتبة العقلاء ﴿قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:5] مستحسنًا عقلاً وشرعًا؛ لئلا ينكسر قلوبهم.

﴿وَ﴾ أيضًا من جملة الأمور التي وجب حفظها: ابتلاء أو رشد اليتامى قبل أداء أموالهم إليهم ﴿ابْتَلُوا﴾ اختبروا وجربوا أيها الأولياء عقول ﴿الْيَتَامَى﴾ وتدابيرهم في التصرفات الجارية بين أصحاب المعاملات ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أي: السن المعتبر في باب النكاح، وهو خمسة عشر عند الشافعي - رحمة الله عليه - وثمانية عشر عند أبي حنيفة ﴿فَإِنْ آنَسْتُم﴾ أي: أشعرتم وأحسستم ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ تدبيرًا كافيًا، وافيًا للتصرفات الشرعية ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ على الوجه المذكور بلا مماطلة وتأخير، وإن لم تؤنسوا الرشد المعتبر فيهم لا تدفعوها، بل تحفظوها إلى إيناس الرشد.

لكن ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ مسرفين في أجرة المحافظة ﴿وَبِدَارًا﴾ مبادرين في أكلها، خوفًا ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ ويخرجوها من أيديكم ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم أيها الأولياء ﴿غَنِيًّا﴾ ذو يسر ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ من أكلها، والتعفف منها خير له في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿فَقِيرًا﴾ ذا عسر ﴿فَلْيَأْكُلْ﴾ منها ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعتدل، لا ناقصًا من أجرة حفظ، ولا زائدًا عليها؛ حفظًا للغبطتين ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾ أيها الأولياء بعدما آنستم الرشد المعتبر منهم ﴿إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا﴾ فأحضروا ذوي عدل من المسلمين ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ليشهدوا فيما جرى بينكم وبينهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:6] أي: كفى الله حسيبًا فيما جرى بينكم وبينه سبحانه في مدة المحافظة، يحاسبكم ويجازيكم على مقتضى حسابه.

ومن خطر هذه التصرفات، كان أرباب الولاء من المشايخ - قدس الله أسرارهم - يمنعون أهل الإرادة عن أمثالها؛ لأن البشر قلّما يخلون عن الخطر، خصوصًا في أمثال هذه المزالق.

ثبت أقدامنا على جادة توحيدك، وجنبنا عن الخطر والتزلزل منها بمنّك وجودك.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ

﴿تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء:7-10].

ثم لمَّا أمر أولاً سبحانه عباده بالتقوى على وجه المبالغة والتأكيد، وقَرَنَ عليه حفظ الأرحام ومراعاة الأيتام، ومواساة السفهاء المنحطين عن درجة العقلاء، أراد أن يبين أحوال المواريث والمتوارثين مطلقًا، حتى لا يقع التغالب والتظالم فيها كما في الجاهلية الأولى؛ إذ روي أنهم لا يرثون النساء معللين بأنهن لا يحضرن الوغى ولا يدفعون العدو.

رد الله عليهم وعيَّن لكل واحد من الفريقين نصيبًا مفروزًا مفروضًا، فقال: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ سواء كانوا بالغين أم لا، عقلاء أم سفهاء ﴿نَصِيبٌ﴾ بينهم مفروض مقدر ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ﴾ أيضًا بالغات، عاقلات أم لا ﴿نَصِيبٌ﴾ مقدر ﴿مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ المتروك ﴿أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7] مقدرًا في كتاب الله، كما يجيء بيانه وتعيينه من قريب.

﴿وَ﴾ من جملة الأمور المترتبة على التقوى: تصدق الوارثين من المتروك ﴿إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: وقتها ﴿أُولُوا الْقُرْبَىٰ﴾ المقلين، المحجوبين عن الإرث ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد لهم ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾ الفاقدين وجه المعاش ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: فاعطوهم أيها الوارثون من المقسم المتروك مقدار ما لا يؤدي إلى تحريم الورثة ﴿وَقُولُوا لَهُمْ﴾ حين الإعطاء ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:8] خاليًا عن وصمة المنِّ والأذى.

﴿وَلْيَخْشَ﴾ من سخط الله وغضبه الأوصياء أو الحضَّار ﴿الَّذِينَ﴾ حضروا عند من أشرف على الموت أن يلقنوا له التصدق من ماله على وجه يؤدي إلى تحريم الورثة، وعلى الحضَّار أن يفرضوا ﴿لَوْ﴾ ماتوا أو ﴿تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً﴾ أخلافًا ﴿ضِعَافًا﴾ بلا مال ولا متعهد ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ البتة ألَّا يضيعوا، فكيف لا يخافون على أولئك الضعاف الضياع؟! بل المؤمن لا بد أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه بل أولى منه ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أولئك الحضَّار أو الأوصياء عن التلقين المخلّ لنصيب الورثة ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ له ويلقنوا عليه ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء:9] معتدلاً بين طرفي الإفراط

والتفريط؛ رعاية للجانبين، وحفظًا للغبطتين.

ثم قال سبحانه توبيخًا وتقريعًا على الظالمين المولعين في أكل أموال اليتامى من الحكام والأوصياء والمتغلبة من الورثة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ بلا رخصة شرعية ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ﴾ ويدخرون ﴿فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ معنويًا في النشأة الأولى، مستتبعًا النار الصوري في النشأة الأخرى، وهي نار البعد والخذلان ﴿وَ﴾ هم فيها ﴿سَيَصْلَوْنَ﴾ أي: سيدخلون ﴿سَعِيرًا﴾ [النساء:10] لا ينجو منها أحد.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:11].

ثم لما قدر سبحانه على المتوارثين نصيبًا مفروضًا على وجه الإجمال، أراد أن يفصل ويعين أنصباءهم، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ أي: يأخذ منكم العهد ويأمركم بمحافظته ﴿فِي﴾ حق ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ المستخلفين بعدكم، وهو أن يُقسَّم متروك المتوفى منكم بينهم ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: لأن كل ذكر لا بد له من أنثى أو أكثر ليتزوجها، حتى يتم أمر النظام الإلهي والنكاح المعنوي، ويجب عليه جميع حوائجها، وكذا لكل أنثى لا بد لها من ذكر ينكحها بعين ما ذكر، ويأتي بحوائجها، فاقتضت أيضًا الحكمة الإلهية أن يكون نصيبهما بقدر كفافهما واحتياجهما؛ لذلك عينه سبحانه هكذا.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ أي: الوارثات ﴿نِسَاءً﴾ خلصًا ليس بينهن ذكور، هن ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوارثة بنتًا ﴿وَاحِدَةً﴾ فقط ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ مما ترك المتوفى، وإن كانتا بنتين فقط، فقد اختلف فيهما، فقال ابن عباس: حكمهما حكم الواحدة، وقال الباقون: حكمهما حكم ما فوق الاثنين، وعلى هذا يكون لفظة: ﴿فَوْقَ﴾ مقحمًا، كما في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال:12] وكذا عيَّن سبحانه نصيب الأبوين، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: لأبوي المتوفى ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ المتوفى ﴿إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ذكرًا أو أنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ

﴿أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي، هذا إذا لم يكن له غير الأب والأم وارث.

﴿فَإِن كَانَ لَهُ﴾ للمتوفى ﴿إِخوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ أي: تردون الأم من الثلث إلى السدس بخلاف الأب، فإنهم لا يرثون معه هذه القسمة والأنصباء المعينة ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ إخراجه ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾ من ماله للفقراء ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ كان في ذمته، وهما أيضًا بعد تجهيزه وتكفينه، ثم أشار سبحانه إلى أن أمر الميراث وتعيين الأنصباء أمر تعبدي، ليس لكم أن تتخلفوا عنها؛ لمقتضى ميلكم وظنكم، إلى أن تورثوا بعض الورثة وتحرموا الآخر، بل لكم ألَّا تفاوتوا بينهم، سواء كانوا ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾.

إذ ﴿لاَ تَدْرُونَ﴾ ولا تعلمون جزمًا ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً﴾ في الدار الآخرة عند الله، فعليكم ألَّا تتجاوزوا عن قسمة الله، بل انقادوا لها واعتدوها ﴿فَرِيضَةً﴾ مقدرة ﴿مِّنَ﴾ عند ﴿اللهِ﴾ صادرة عن محض العلم والحكمة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:11] في ترتيبها وتدبيرها.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [النساء:12].

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الذكور ﴿نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ من الإناث ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ منكم أو من غيركم، أو ولد ولدٍ وإن سفل ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ أو ولد ولدٍ كما ذكر ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هن أيضًا ﴿مِن بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا﴾ للفقراء ﴿أَوْ﴾ أداء ﴿دَيْنٍ﴾ لازم عليهن ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي: للنساء الوارثات ﴿الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ منها أو من غيرها، أو ولد ولدٍ مثل.ما مر ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ على التعميم المذكور ﴿فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ ذلك أيضًا ﴿مِّن بَعْدِ﴾ تنفيذ ﴿وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا﴾ تقربًا إلى الله ﴿أَوْ﴾ قضاء ﴿دَيْنٍ﴾ لزم على ذمتكم.

﴿وَإِن كَانَ﴾ المتوفى ﴿رَجُلٌ يُورَثُ﴾ منه، وكان ﴿كَلَالَةً﴾ ليس لها والد ولا ولد ﴿أَوِ امْرَأَةٌ﴾ كذلك ﴿وَلَهُ﴾ للرجل ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ لأم؛ لأن حكم الأخ والأخت من الأبوين أو من الأب سيجيء في آخر السورة، فلا بد أن يصرف ها هنا إلى ما صرف ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ من ماله ﴿فَإِن كَانُوا﴾ أي: الإخوة وللأخوات من الأم ﴿أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ﴾ بأجمعهم ﴿شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ على السوية؛ لاشتراك السبب بينهم، ذلك أيضًا ﴿مِن بَعْدِ﴾ إخراج ﴿وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ يُقضى فعليكم أيها الحكام أن تتخذوا هذه القسمة ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً﴾ عهدًا صادرًا، ناشئًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لإصلاح أحوال عباده ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلحُ بين عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَلِيمٌ﴾ [النساء:12] لا يعجل بالانتقام على من امتنع عن حكمه.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:13-14].

﴿تِلْكَ﴾ المذكورات من الأمور المتعلقة بأحوال الأموات ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الموضوعة بينكم أيها المؤمنون بالله ورسوله ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في جميع ما جاء به من عند ربه من الأمور المتعلقة؛ لتهذيب الظاهر والباطن من الكدورات البشرية والعلائق الدينية ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله بفضله ولطفه ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات التوحيد وهي اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف الجزئية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهم لا يتحولون عنها، بل صاروا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الخلود فيها، هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:13] والفضل الكريم، طوبى لمن فاز من الله بالفوز العظيم.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ﴾ بإنكار الأوامر، والإصرار على النواهي ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بالتكذيب والإيذاء وعدم الإطاعة ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ الموضوعة بين عباده ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله باسمه المنتقم ﴿نَارًا﴾ هي نار البعد والطرد عن كنفه وجوده، فصار ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أبدًا ﴿وَلَهُ﴾ بعصيانه وإصراره عليه ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:14] يبعده عن ساحة عن الحضور.

أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف.

ثم لمّا بيّن سبحانه أحكام المواريث وأحكام أحوال المتوارثين، وعين سهامهم وأنصباءهم، أراد أن يحذر المؤمنين عن الزنا التي هي هتك حرمة الله الموضوعة بين الإزواجات الحبية الإلهية، واختلاط الأنساب المصححة للأحكام المذكورة، وبالجملة: هي الخروج عن السنة الإلهية التي سنّها بين عباده على طريق الحكمة والمصلحة الإلهية الصالحة، المصلحة لأصل فطرتهم التي خُلقوا عليها، وهي التوحيد الذاتي.

والزنا يتصور بين المرء والمرأة الأجنبية المحرمة؛ لذلك قدم سبحانه أمر النساء، وبيّن أحكامهن وأحال حكم الرجال على المقايسة؛ لقباحتها وشناعتها، كأنه استبعد سبحانه عن أهل الإيمان أمثال هذه الآثام والجرائم العظام الأخر الناقصات؛ ولأنهن في أنفسهن شباك شياطين، يصطادون بهن ضعفاء المؤمنين وأقوياءهم أيضًا، على ما نطق به حديث النبي - صلوات الله على قائله -: «ما آيس الشيطان من ابن آدم إلا ويأتيهم من قبل النساء»[1].

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:15-17].

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة التي هي الزنا، وهن ﴿مِن نِّسَائِكُمْ﴾ وفي حجركم ونكاحكم، فأخبرتم بها - العياذ بالله - فعليكم في تلك الحالة ألّا تبادروا إلى رميها ورجمها، بل ﴿فَاسْتَشْهِدُوا﴾ اطلبوا الشهداء من المخبر؛ ليشهدوا ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ بالزنا، والمعتبر أن يكون ﴿أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ أي: من عدول رجالكم، بشرط ألّا يسبق منهم تجسس وترقب، بل وقع منهم النظر بغتة على سبيل الاتفاق، فيرون ما يرون، كالميل في المكحلة، مستكرهين، مستعجبين.

(1) ذكره الحافظ في المطالب العالية (268/9)، عن أبي بكر بن أبي شيبة مرفوعًا، وأخرجه الخرائطي في اعتلال القلوب (210)، عن سعيد بن المسيب.

﴿فَإِن شَهِدُوا﴾ هؤلاء الشهود على الوجه المعهود، فعليكم أيها المؤمنون، المستحفظون لحدود الله ألّا تضطربوا، ولا تستعجلوا في مقتهنّ وإخراجهنّ، بل عليكم الإمساك ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ التي أنتم فيها بلا مراودة إليهن؛ كيلا يلحق عليكم بالإخراج عار آخر، بل اتركوهن فيها ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ الطبيعي ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ﴾ أي: يحكم الله ﴿لَهُنَّ﴾ أي: في حقهن ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:15] حكمًا مبرمًا، هذا في بدء الإسلام، ثم نُسخ بآية الرجم والجلد.

﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا﴾ أي: الفعلة القبيحة التي هي اللواطة، وهما الآتي والمأتي ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الرجال وهذا أفحش من الزنا؛ لخروج كلٍّ منهما عن حد الله، وانحطاطهما عن كمال الإنسان؛ لارتكابهما شيئًا لا يقتضيه العقل والشرع بخلاف الزنا، ولشناعتها وخباثتها لم يعيّن لها سبحانه حدًا في كتابه المبيّن لأخلاق الإنسان، كأن هؤلاء ليسوا من الإنسان، بل من البهائم، بل أسوأ حالاً منها، لذلك قال: ﴿فَآذُوهُمَا﴾ إيذاءً بليغًا، وتعزيرًا شديدًا حتى يمتنعوا ﴿فَإِن تَابَا﴾ وامتنعا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ ما أفسد بالتوبة والندامة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ مستغفرين لهما من الله، مستشفعين عنهما، غير موبخين ومقرعين عليهما ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لأحوال عباده المذنبين ﴿كَانَ تَوَّابًا﴾ لهم، يرجعهم عمّا صدر عنهم نادمين ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:16] يعفو عنهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ﴾ أي: ما التوبة المبرورة المقبولة إلا التوبة الناشئة من محض الندامة المتفرعة على تنبيه القلب عن قبيح المعصية، وهي المصححة، الباعثة ﴿عَلَى﴾ قبول ﴿اللَّهِ﴾ إياها، النافعة ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي: للمؤمنين الذين ﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ الفعلة الذميمة لا عن قصد وروية، بل ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ عن قبحه ووخامة عاقبته ﴿ثُمَّ﴾ لمّا تأملوا وأدركوا قبحها ﴿يَتُوبُونَ﴾ يبادرون إلى التوبة والرجوع ﴿مِن﴾ زمانٍ ﴿قَرِيبٍ﴾ أي: قبل الانتهاء إلى وقت الإلجاء ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ التائبون، المبادرون على التوبة قبل حلول الأجل ﴿يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يقبل توبتهم بعدما وفقهم عليها، ولقنهم بها ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع على ضمائرهم ﴿عَلِيمًا﴾ بمعاصيهم في سابق علمه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:17] في إلزام التوبة عليهم؛ ليجبروا بها ما انكسروا على نفوسهم.

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: 18-19].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ الصادرة حين الإلجاء والاضطرار نافعة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في مدة أعمارهم، مسوفين التوبة فيها ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الملجئ إليها ﴿قَالَ﴾ متحسرًا، متأسفًا مضطرًا بعدما آيس من الحياة، وأبصر أمارات الموت في نفسه على السكرات: ﴿إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ على وجه التأكيد والمبالغة، وهي لا تنفع له وإن بالغ، والسر في عدم قبول الله إياها؛ لأن الإنابة والرجوع إلى الله لا بد أن يكون عن قصد واختيار، حتى يعتبر عند الله ويُقبل، لا عن الإلجاء والاضطرار؛ إذ لا يتصف التائب حينئذ بالعبودية والإطاعة وقصد التقرب إلى الله.

بل ﴿وَلَا﴾ فرق بينهم وبين الكافرين ﴿الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ﴾ في حال الموت ﴿كُفَّارٌ﴾ كما كان ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المسوفون، المقصرون في أمر التوبة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ هيأنا باسمنا المنتقم في النشأة الأخرى ﴿لَهُمْ عَذَابًا﴾ حرمانًا وطردًا ﴿أَلِيمًا﴾ [النساء: 18] مؤلمًا؛ لرؤيتهم التائبين المبادرين عليها في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ على الإنعام والانتقام.

تُب علينا بفضلك، إنك أنت التواب الرحيم.

ثم لمّا كانت العادة في الجاهلية إيراث النساء كرهًا، وذلك أنه لو مات واحد منهم وله عصبة، ألقى ثوبه على امرأة الميت، فكانت في تصرفه وحمايته، وله اختيارها، سواء تزوجها بالصداق الأول أو إكراهًا أو طوعًا، ويضر عليها، ويمنعها إلى أن تُقدِّم له مثل صداقها، ثم أطلقها، نبّه سبحانه على المؤمنين ألّا تصدر عنهم أمثال هذا فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله اتركوا جميع ما كان عليكم في جاهليتكم قبل الإيمان، سيما إيراث النساء، واعلموا أنه ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ في دينكم وشرعكم ﴿أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾ أي: نساء أقاربكم ومورثكم، وتزوجوهن أو تفدوا منهن ﴿كَرْهًا﴾ حال كونكم مكرهين، أو هن كارهات لتزويجكم.

﴿وَ﴾ أيضًا من الحدود المتعلقة بأمور النساء أن ﴿لَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ مطلقًا؛ أي: لا يحل أن تضيقوا على نسائكم حين انقضت محبتكم إياهن، وقلّ وقعهن عندكم إلى أن

تلجئوهن بالفدية والخلع ﴿لِتَذْهَبُوا﴾ حين الطلاق ﴿بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أو كلها حين النكاح ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ﴾ - العياذ بالله تعالى - ﴿بِفَاحِشَةٍ﴾ فعلةٍ قبيحةٍ، محرمةٍ عقلاً وشرعًا ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ثابتةٍ ظاهرةٍ ﴿وَ﴾ إن لم يأتين بشيءٍ من الفواحش ﴿عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً وشرعًا ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ طبعًا عليكم أن تكذبوا طباعكم المخالفة للعقل والشرع؛ إذ هي من طغيان القوة البهيمية، لا تبالوا بها وبمقتضاها ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ بمقتضى طبعكم ﴿وَ﴾ لا تعلمون أن ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ بمقتضى حكمته ومصلحته ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:19] نافعًا لكم ولغيركم.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء:20-22].

﴿وَإِنْ﴾ غلب عليكم بمقتضى طبعكم ﴿أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ منكوحةٍ جديدةٍ ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ قديمةٍ أردتم تطليقها، فعليكم في دينكم ألَّا تأخذوا من المطلقة شيئًا ﴿وَ﴾ إن ﴿آتَيْتُمْ﴾ حالة النكاح ﴿إِحْدَاهُنَّ﴾ أي: كل واحدةٍ منهن إن كن أكثر من واحدةٍ ﴿قِنطَارًا﴾ مالاً كثيرًا منضدًا، مخزونًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ﴾ من القنطار ﴿شَيْئًا﴾ قليلاً نزرًا يسيرًا ﴿أَتَأْخُذُونَهُ﴾ أي: من مهورهن أيها المفرطون في متابعة الطبيعة ﴿بُهْتَانًا﴾ تفترونه عليهن ﴿وَ﴾ تكسبون به ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:20] عظيمًا عند الله وعند المؤمنين.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ﴾ ولا تعلمون ﴿وَ﴾ تستحضرون أنه ﴿قَدْ أَفْضَىٰ﴾ وصل بالمهر ﴿بَعْضُكُمْ﴾ ذكوركم ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إناثكم ﴿وَأَخَذْنَ﴾ عهدهن ﴿مِنكُم﴾ من أجلكم ورعاية غبطتكم ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:21] عهدًا وثيقًا لا ينفصم أصلاً، وهو ألَّا يأتين بفاحشةٍ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، وأن يقصرن نظرهن عليكم، ويخدمن ويحسن المعاشرة، إلى غير ذلك من الحدود والحقوق.

﴿وَ﴾ أيضًا من الحدود المتعلقة بأمر النساء أن ﴿لَا تَنكِحُوا﴾ أي: لا تطئوا ولا تجامعوا أيها المؤمنون ﴿مَا نَكَحَ﴾ ما وطئ ﴿آبَاؤُكُم﴾ أسلافكم سواء كانوا مؤمنين أو

كفارًا ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ سواءً كن أمهاتكم أم لا، حرائر ورقيقات لاستهجان هذا الأمر عقلاً وشرعًا ومروءةً بل طبعًا، بناء على ما حكي عن بعض الحيوانات أنه لا يجامع مع أمه البتة كالفرس النجيب وغيره، ومن أتى ما نهي عنه فقد استحق مقت الله وطرده ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ سبق من وقوعه قبل ورود النهي ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي نكاح منكوحة الأسلاف ﴿كَانَ﴾ صار ﴿فَٰحِشَةً﴾ عظيمة من الفواحش التي منعها الشرع ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿مَقْتًا﴾ حرمانًا وطردًا عن مرتبة الإنسانية، لذلك سمى العرب من حصل منه: المقتى ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء:22] لمن أتى به سبيل البعد والخذلان عن ساحة الحضور.

عصمنا الله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [النساء:23].

ومن شدة شناعته وعظيم قبحه عند الله، قدمه سبحانه على جميع المحرمات ثم فرعها عليه بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في دينكم ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أي: نكاحها مطلقًا ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ مع من يتفرع عليهن ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾ أنفسهن ﴿وَخَالاتُكُمْ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَبَنَاتُ الأَخِ﴾ من الأبوين أو من الأب أو من الأم ﴿وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ أيضًا كذلك ﴿وَ﴾ أيضًا حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُكُمُ﴾ من الأجنبيات ﴿اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ مصة أو مصتين ﴿وَ﴾ حرمت أيضًا ﴿أَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ إذ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب غالبًا ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ لحرمة المصاهرة ﴿وَ﴾ أيضًا حرمت عليكم ﴿رَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ حال كون تلك الربائب ﴿مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق ﴿عَلَيْكُمْ﴾ في تزويجهن ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم في دينكم ﴿حَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ﴾ حصلوا ﴿مِنْ أَصْلابِكُمْ وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿أَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾ في

زمانٍ واحد ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أمثال هذا منكم قبل إيمانكم فإنكم لا تؤاخذون عليه ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لذنوبكم بعد إنابتكم واستغفاركم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:23] لكم يقبل توبتكم وإن عظمت زلتكم.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء:24].

﴿وَ﴾ حرمت أيضًا عليكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الأجنبيات اللاتي أحصنهن أزواجهن ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من المسبيات اللاتي لهن أزواج كفار؛ إذ بالسبي يرتفع النكاح، فصار تلك المحرمات ﴿كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: من الأمور التي حرمه الله عليكم حتمًا مقضيًا ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما سوى المحرمات المذكورة، وإنما أحل لكم ما أحل ﴿أَن تَبْتَغُوا﴾ أي: لأن تطلبوا ﴿بِأَمْوَالِكُم﴾ أزواجًا حلائل مصلحات لدينكم، صالحات لإبقاء نوعكم حال كونكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ بهن دينكم ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أي: مجتنبين عن الزنا المؤدي إلى إبطال حكمة الله وإفساد مصلحته ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم﴾ أي: فمن انتفعتم واجتمعتم ﴿بِهِ﴾ بسبب المهر حين العقد ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: من النساء اللاتي أحلهن الله لكم أيها المؤمنون ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم أن تدفعوا إليهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن معتقدين أداءها ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: مما فرض الله لكم في دينكم واجبة الأداء شرعًا وعقلاً؛ إذ الإفضاء إنما هو بسببه كما مر، هذا إذا كانت المرأة طالبة كمال مهرها.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أي: لا مؤاخذة ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ﴾ من الأخذ والترك والزيادة والنقصان بعدما حصل التراضي من الجانبين ﴿مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ المقدرة الواجبة الأداء، هذا الحكم مما يقبل التغيير بعد المراضاة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ في سابق علمه بصلحهم ومراضاتهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:24] في إصدارها عنهم إصلاحًا لمعاشهم.

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[النساء:20-26].

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً﴾ اقتدارًا وغنى ﴿أَن يَنكِحَ﴾ به ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ المتعففات الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي: فعليكم أن تنكحوا ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾ أي: إمائكم ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ المقرات بكلمتي الشهادة ظاهرًا ﴿وَاللّهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ وإيمانهن وكفرهن وكلكم في أنفسكم أمثال أكفاء؛ إذ ﴿بَعْضُكُم﴾ يا بني آدم قد حصل ﴿مِّن بَعْضٍ﴾ والتفاضل بينكم إنما هو في علم الله، وإن اضطررتم إلى نكاح الإماء ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أربابهن ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أعطوهن أجور مهورهن المسماة لهن بإذن أهلهن ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ إعطاء مستحسنًا عقلاً وشرعًا بلا مطلٍ وتسويفٍ واضطرارٍ وتنقيصٍ حال كونهن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عفائف ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ زانياتٍ مجاهراتٍ غير حاجزاتٍ ﴿وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ وأخلانٍ.

﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ وأنكحن بعد وجود الشرائط المذكورة المستحسنة عند الله وعند المؤمنين ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ﴾ بعدما أحصن ﴿بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ الحرائر ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي حد الله لهن في كتابه سوى الرجم؛ إذ لا يجري التنصيف فيه لذلك لم يشرع في حد الرقيق ﴿ذَلِكَ﴾ أي: نكاح الإماء إنما يرخص ﴿لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي: الوقوع في الزنا أيها المؤمنون المجتنبون عن المحرمات ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ﴾ أيها الفاقدون المؤمنون لوجه المعاش وترتاضوا نفوسكم بتقليلِ الأغذية المستمنية المثيرة للقوة الشهوية الموقعة للمهالك، وتدفعوا أمارة إثارتكم بالقاطع العقلي والواضح الشرعي، وتتمرنوا على عفة العزوبة، وتسكنوا نار الطبيعة بقطع النظر والاتقاء عن المخاطر فهو ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من نكاح الإماء بل من نكاح أكثر الحرائر أيضًا سيما في هذا الزمان ﴿وَاللّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾

لذنوب من صبر ولم ينكح لقلة معاشهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [النساء:25] له يحفظه عن الفرطات والعثرات في أمر المعاش.

عصمنا الله من المهالك المتعلقة بالمعاش بفضله وطوله.

إنما ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بتعيين المحرمات وبتبيين المحللات ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون طريق الرشد والغي والهداية والضلالة ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ أي: يرشدكم ويوصلكم ﴿سُنَنَ الَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾[1] من أرباب الولاء والمكاشفات بسر التوحيد ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يرجعكم عن ميل المزخرفات الدنية الدنيوية؛ ليوصلكم إلى المراتب العلية الأخروية ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم الموصلة إليه ﴿حَكِيمٌ﴾ [النساء:26] في إلقائها إليهم في ضمن العظة والعبر والقصص والتواريخ والرموز والإشارات ليرتاضوا بها نفوسهم حتى تستعد قلوبهم لنزول سلطان التوحيد المفني للغير والسوى مطلقًا.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:27-30].

ثم كرر سبحانه ذكر التوبة والرجوع عن المزخرفات الباطلة المانعة من الوصول إلى دار السرور حثًا للمؤمنين إليها؛ ليفوزوا بمرتبة التوحيد بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ المرشد لكم إلى توحيده الذاتي ﴿يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يوفقكم على التوبة التي هي الرجوع

---

(1) إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (416/1)].

عما سوى الحق مطلقًا، ومتى انفتح عليكم باب التوبة انفتح باب الطلب المستلزم للترقي والتقرب نحو المطلوب، إلى أن يتولد من الشوق المزعج إلى المحبة المفنية لغير المحبوب مطلقًا، بل نفس المحبة بل نفس المحبوب أيضًا، كما حكي عن مجنون العامري أنه وله يومًا من الأيام واستغرق في بحر المحبة إلى أن اضمحلت عن بصره غشاوة التعيينات مطلقًا، بل ارتفع حجب الاثنينية رأسًا، وفي تلك الحالة السريعة الزوال تمثل ليلى قائمة على رأسها فصاحت عليه صيحة: عمن اشتغلت يا مجنون؟ فقال: طاب وقته وعنى على حالٍ فإن حبك شغلني عنك وعني.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ﴾ يضلونكم عن طريق التوحيد المسقط لجميع الرسوم والعادات بوضع طرقٍ غير طريق الشرع مبتدعًا أو منسوبًا إلى مبتدع، وعينوا فيه اللباس والكسوة المعنية، ومع ذلك ﴿يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ ويبيحون المحرمات، ويرتكبون المنهيات إرادة ﴿أَن تَمِيلُوا﴾ وتنحرفوا عن جادة التوحيد بأمثال هذه الخرافات والهذيانات ﴿مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء: 27] وانحرافًا بليغًا لا يستقيم لهم أصلاً.

﴿يُرِيدُ اللهُ﴾ المدبر لأحوالكم ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أيها المؤمنون أثقالكم التي هي سبب احتياجكم وإمكانكم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ﴾ في مبدأ الفطرة ﴿ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] لا يحتمل تحمل أثقال الإمكان مثل الحيوانات الأخر.

خفف عنا بفضلك ثقل الأوزار، واصرف عنا شر الأشرار بمقتضى جودك وارزقنا عيشة الأبرار.

ثم نبه سبحانه على المؤمنين بما يتعلق بأمور معاشهم مع بني نوعهم؛ ليهذبوا به ظاهرهم، فقال مناديًا لهم ليهتموا باستماعها وامتثالها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه عليكم أن ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: بعضكم مال بعض بلا رخصةٍ شرعية بل ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ ظلمًا وزورًا سواء كانت سرقةً أو غصبًا، أو حيلةً منسوبة إلى الشرع افتراءً أو ربًا أو تلبيسًا وتشيخًا كما يفعله المتشيخة، ويأخذون بسببها حطامًا كثيرة من ضعفاء المؤمنين، واعلموا أيها المؤمنون أن مال المؤمن على المؤمن في غير العقود المتبرعة حرام ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ معاملة ومعاوضة حاصلة ﴿عَن تَرَاضٍ﴾ مراضاة ﴿مِّنكُمْ﴾ منبعثة عن اطمئنان نفوسكم عليها بلا اضطرار وغرر.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ ولا تلقوها بأيديكم في المهالك التي جرت بين أرباب المعاملات من الربا والخداع والتغرير والتلبيس وغير ذلك من أنواع الحيل؛ حتى لا

تنحطوا عن مرتبتكم الأصلية ومنزلتكم الحقيقية التي هي مرتبة العدالة؛ إذ لا خسران أعظم من الحرمان منها - أدركنا بلطفك يا خفي الألطاف - ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنبه عليكم بأمثال هذه التدبيرات الصادرة عن محض الحكمة والمصلحة ﴿كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:29] مشفقًا عليكم، مريدًا إيصالكم إلى ما خلقكم لأجله وأوجدكم لحصوله.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما يحذر عنه من المهالك ويمقت نفسه بالعرض عليها لا عن جهل ساذج بل عن جهل مركب اعتقدها حقًا ﴿عُدْوَانًا﴾ مجاوزًا مائلاً عن الحق إصرارًا ﴿وَظُلْمًا﴾ خروجًا وميلاً عن طريق الشرع الموضح سبيل التوحيد ﴿فَسَوْفَ﴾ ننتقم عنه في يوم الجزاء ﴿نُصْلِيهِ﴾ ندخله ﴿نَارًا﴾ حرمانًا دائمًا عن ساحة عز الحضور وطردًا سرمديًا عن فضاء السرور، بك نعتصم يا ذا القوة المتين ﴿وَ﴾ لا تغفلوا أيها المنهمكون للاقتحام في المهالك المتعلقة لأمر المعاش عن انتقام الله القادر القدير الغيور إياكم، ولا تعتقدوا عسره بالنسبة إليه، إذ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ الانتقام عن تلك الآثام ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الميسر لكل عسير ﴿يَسِيرًا﴾ [النساء:30] وإن استعسرتم في نفوسكم؛ إذ لا راد لإرادته ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ [النساء:31-33].

ثم قال سبحانه امتنانًا على المؤمنين، تفضلاً وإشفاقًا وجلبًا من جانبه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا﴾ وتجوزوا أيها المحبوسون في مهادي الإمكان ومضيق الحدثان ﴿كَبَائِرَ﴾ أعاظم ﴿مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] وهي الشرك بالله بأنواعه من إثبات الوجود لغيره، وإسناد

---

(1) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشِّرْكُ بالله وعلى بيان الإشارة أيضًا الشِّرْكُ الخَفِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قبولهم والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد عن التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك

الحوادث إلى الأسباب وغير ذلك ﴿نُكَفِّرْ﴾ نمحو ونتجاوز ﴿عَنكُمْ﴾ تفضلاً عليكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ خطاياكم اللاحقة لنفوسكم من لوازم بشريتكم ومقتضى طبيعتكم ﴿وَ﴾ بعدما غفرناكم ﴿نُدْخِلْكُم﴾ بمحض جودنا ولطفنا ﴿مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:31] هو فضاء التوحيد الذي ليس فيه هواء ولا ماء ولا غدو ولا مساء، بل فيها إفناء وبقاء ولقاء، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى.

وفقنا بكرمك وجودك لما تحبه عنا وترضى.

﴿وَ﴾ من مقتضى إيمانكم أيها المؤمنون المحمديون المتوجهون نحو توحيد الذات من محجة الفناء والرضا بما نفذ عليه القضاء، فعليكم أن ﴿لاَ تَتَمَنَّوْا﴾ تمني المتحسر المتأسف حصول ﴿مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ﴾ في النشأة الأولى ﴿بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ من الجاه والمال والمكانة الرفيعة في عالم الصورة؛ إذ هي ابتلاء واختبار لهم وفتنة تبعدهم عن طريق الفناء، وتوقعهم في التكثر والتشتت، والموحدون المحمديون لا بد لهم أن يقتفوا أثر نبيهم ﷺ في ترك الدنيا وعدم الالتفات نحوها إلا ستر عورة وسد جوعة؛ إذ الإضافة والتمليك مطلقًا مخل بالتوحيد، والغنى المطغي جالب للعذاب الأخروي.

ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا.

واعلموا أيها المحمديون السالكون سبيل الفناء لتفوزوا بجنة البقاء أن لكم عند ربكم درجات ومداخل متفاوتة بتفاوت استعداداتكم المترتبة على ترتيب الأسماء والصفات الإلهية؛ إذ ﴿لِّلرِّجَالِ﴾ أي: للذكور الكمل لكل منكم على تفاوت طبقاتهم ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ من التوحيد الذاتي هو مقرهم وغاية مقصدهم حاصل لهم ﴿مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ من الرياضات والمجاهدات المعدة لفيضان المكاشفات والمشاهدات ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلنِّسَاءِ﴾ منكم مع تفاوت طبقاتهن ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ في تلك الطريق؛ إذ كل ميسر لما خلق له وعليكم التوجه نحو مقصدكم ﴿وَاسْأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ﴾ يا عباده لييسر لكم ما يعينكم ويجنبكم عما لا يعنيكم ويغويكم ﴿إِنَّ اللهَ﴾ الميسر لأمور عباده ﴿كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما صدر عنهم من صلاح وفساد ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:32] بعلمه الحضوري،

نَفَسك، فإذا شاهدت نَفْيها تخلّصت من أسر المحن [تفسير القشيري (472/21)].

يصلح لهم وييسر عليهم الهدى بقدر استعداداتهم وقابلياتهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الأسلاف الذين مضوا ﴿جَعَلْنَا﴾ عن محض جودنا وحكمتنا ﴿مَوَالِيَ﴾ أخلافًا يولونهم ويوالونهم ويأخذون ﴿مِمَّا﴾ أي: من الأموال التي ﴿تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ﴾ كذا مما ترك ﴿الْأَقْرَبُونَ﴾ من ذوي الأرحام ﴿وَ﴾ كذا من متروكات ﴿الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ بالنكاح والزواج على الوجه المشروع ﴿فَآتُوهُمْ﴾ أيها الحكام ﴿نَصِيبَهُمْ﴾ أي: نصيب كل من الولاة على الوجه المفروض ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحوادث الكائنة ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء: 33] حاضرًا مطلقًا.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)﴾ [النساء:34-35].

ثم نبه سبحانه على تفضيل ﴿الرِّجَالُ﴾ المعتدلة المزاج المستقيمة العقول ﴿قَوَّامُونَ﴾ حافظون ﴿عَلَى النِّسَاءِ﴾ إذ لا بد لهن لضعفهن من حفيظ يرقبهن عما يشتهين؛ صيانة لعفتهن ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ﴾ به ﴿بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: بعض بني آدم على بعض، وهو الحمية المنبعثة من كمال العقل ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ لهن ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ التي حصلت لهم من مكاسبهم ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ العفائف من النساء ﴿قَانِتَاتٌ﴾ مطيعات لأزواجهن، خادمات لهم ظاهرًا ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ أي: لحقوقهم المخفية الباطنة عنهم، تابعات ممتثلات ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾[1] لهن من رعاية أزواجهن وعدم الخيانة في حقوقهم.

(1) قال في عرائس البيان: أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطلع عليهن أحد؛ حياءً من الله وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حلة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33] ولما رقَّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في

﴿وَ﴾ النساء ﴿اللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عصيانهن وعدم حفظهن بحقوق الزواج من أمارات ظهرت منهن ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: فعليكم أيها الأزواج أن تعظوهن رفقًا بما وعظ الله لهن من رعاية حقوق الله وحقوق الأزواج لعلهن يفطن ويتركن ما عليهن ﴿وَ﴾ إن لم يتركن ﴿اهْجُرُوهُنَّ﴾ اتركوهن ﴿فِي الْمَضَاجِعِ﴾ وحيدة فلا ترجعوا إليهن، بل اعتزلوا عنهن لعلهن يتأثرن بها ﴿وَ﴾ إن لم يتأثرن بها أيضًا ﴿اضْرِبُوهُنَّ﴾ ضربًا مؤلمًا غير متجاوز عن الحد ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ بامتثال هذه التأديبات ﴿فَلاَ تَبْغُواْ﴾ لا تطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ لطلاقهن وإخراجهن ﴿سَبِيلاً﴾ استعلاء وترفعًا ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿كَانَ عَلِيًّا﴾ في شأنه ﴿كَبِيرًا﴾ [النساء:34] في أحكامه، لا ينازع في حكمه، ولا يُسأل عن أمره.

﴿وَإِنْ﴾ تطاولت الخصومة والنزاع بينهما حتى ﴿خِفْتُمْ﴾ وظننتم أيها الحكام ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ وآيستم عن المصالحة والوفاق ﴿فَابْعَثُواْ﴾ أي: فعليكم أيها الحكام أن تبعثوا ﴿حَكَمًا﴾ مصلحًا ذا رأي ﴿مِّنْ أَهْلِهِ﴾ أي: من أقاربه ﴿وَحَكَمًا﴾ مثل ذلك ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ليصيرا وكيلين عنهما يصلحا صلاحًا وطلاقًا وخلعًا وفداء، ثم ﴿إِن يُرِيدَا﴾ أي: الحكمان ﴿إِصْلاَحًا﴾ لأمرهما ورفعًا لنزاعهما ﴿يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا﴾ إن رضيا بمصالحتهما وإلا فليرفعا عقد النكاح بينهما على أي طريق كان ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بنزاعهما ابتداء ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:35] بما يؤول إليه النزاع.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾

البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير» ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:10] وأيضًا: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحد. وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار. قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ [النساء:36-37].

﴿وَ﴾ بعدما هذبتم ظواهركم أيها المؤمنون بهذه الأخلاق ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الموحد في ذاته ووجوده، المستقل في أفعاله وآثاره المترتبة على أوصافه الذاتية ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[1] من مصنوعاته؛ أي: لا تثبتوا الوجود والأثر لغيره؛ إذ الأغيار مطلقًا معدومة في أنفسها مستهلكة في ذاته سبحانه ﴿وَ﴾ افعلوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سبب ظهوركم عادة ﴿إِحْسَانًا﴾ قولاً وفعلاً ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿بِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ المتمين إليهما بواسطتهما ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿الْيَتَامَىٰ﴾ الذين لا متعهد لهم من الرجال ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر في زاوية الهوان ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ هم الذين لهم قرابة جوار بحيث يقع الملاقاة في كل يوم مرتين ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ هم الذين لهم بعد جوار، بحيث لا يقع التلاقي إلا بعد يوم أو يومين أو ثلاثة.

﴿وَ﴾ عليكم رعاية ﴿الصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ أي: الذي معكم وفي جنبكم في السراء

---

(1) قال في عرائس البيان: أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطّلع عليهن أحدٌ؛ حياءً من الله وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:33] ولما رقّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير» ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:10] وأيضًا: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحد. وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار. قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

والضراء يصاحبكم ويعينكم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ المتباعدين عن الأهل والوطن لمصالح دينية، مثل طلب العلم وصلة الرحم وحج البيت وغير ذلك ﴿وَ﴾ أيضًا من أهم المأمورات لكم رعاية ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ من العبيد والإماء والحيوانات المنسوبة إليكم، وعليكم ألَّا تتكبروا على هؤلاء المستحقين حين الإحسان، ولا تتفوقوا عليهم بالامتنان ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً﴾ متكبرًا يمشي على الناس خيلاء ﴿فَخُورًا﴾ [النساء:36] بفضله وماله أو نسبه.

وهم: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ من أموالهم التي استخلفهم الله عليها، معللين بأنا لم نجد فقيرًا متدينًا يستحق الصدقة ﴿وَ﴾ مع بخلهم في أنفسهم ﴿يَأْمُرُونَ النَّاسَ﴾ أيضًا ﴿بِالْبُخْلِ﴾ لئلا يلحق العار عليهم خاصة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَكْتُمُونَ﴾ من الحكام والعملة ﴿مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من الأموال؛ خوفًا من إخراج الزكاة والصدقات، ومن عظم جرم هؤلاء الخيلاء البخلاء أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه وغير الأسلوب، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: هيأنا من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لنعمنا كفرانًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق ﴿عَذَابًا﴾ طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلاً وإذلالاً ﴿مُّهِينًا﴾ [النساء:37].

﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء:38-41].

﴿وَ﴾ منهم، بل أسوأ حالاً: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ لا لامتثال أمر الله وطلب رضاه بل ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ ليعتقدوا لهم ويكسبوا الجاه والرئاسة بسبب اعتقادهم ﴿وَ﴾ مع هذا الوهم المزخرف ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ﴾ الرحيم التواب الكريم الوهاب ﴿وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء العصاة الغواة حتى يتوب عليهم ويغفر زلتهم وهم من جنود الشيطان وقرنائه ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ يحمله على أمثال هذه الأباطيل الزائفة ويوقعه في المهاوي الهائلة ﴿فَسَاءَ﴾ الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ [النساء:38] أيها المتوجهون إلى الله، الراغبون عما سواه، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

ثم قال سبحانه توبيخًا لهم وتنبيهًا لغيرهم: ﴿وَمَاذَا﴾ يعرض ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ويلحق لهم من المكروه ﴿لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد بالقيومية ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعد ليرى فيه كل جزاء ما عمل من خير وشر ﴿وَأَنفَقُوا﴾ ما أنفقوا ﴿مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ خالصًا لرضاه بلا شوب المن والأذى والسمعة والرياء ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع ﴿بِهِمْ﴾ وبجميع أحوالهم ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:39] بضمائرهم، لا يعزب عن علمه شيء مما كان ويكون، وكيف يعزب عن علمه شيء من أحوالهم؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي لأعمالهم ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ عليهم ولا ينقص من أجورهم ﴿مِثْقَالَ﴾ مقدار أجر ﴿ذَرَّةٍ﴾ صغيرة قريبة من العدم جدًا ﴿وَإِن تَكُ﴾ تلك الذرة ﴿حَسَنَةً﴾ صادرة عنهم مقارنة بالإخلاص ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ حسب فضله وطوله إلى سبعة بل إلى سبعين بل إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع تضعيفها ﴿يُؤْتِ﴾ للمخلصين ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ امتنانًا عليهم وتفضيلاً ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40] هو الفوز بمقام الكشف والشهود.

آتنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

﴿فَكَيْفَ﴾ لا تفوزون أنتم أيها المحمديون ما تفوزون؟ إنا ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ في يوم الجزاء ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ نبي مرسل إليهم ومهد لهم إلينا بإذن منا بطريق مخصوص ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا أكمل الرسل، الجامع لجميع المراتب والطرق من توحيد الصفات والأفعال ﴿عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ الأمناء الخلص ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء:41] أرشدتهم إلينا بالدين الناسخ لجميع الأديان.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ [النساء:42-43].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ جئنا بك شهيدًا على المؤمنين ﴿يَوَدُّ﴾ يحب ويتمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ الأمي المبعوث إلى كافة الأنام بدين الإسلام أن ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ﴾ تغطى ﴿بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ في تلك الساعة، وصاروا نسيًا منسيًا لكان خيرًا

لهم من المذلة التي عرضت لهم في تلك الحالة ﴿وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:42] أي: لا يمكن كتمان حديث نفوسهم بهذا من الله في تلك الحالة، فكيف كتمان أعمالهم الصادرة عنهم؟!

ثم لما حضر بعض المؤمنين المسجد لأداء الصلاة سكارى حين إباحة الخمر، وغفلوا عن أداء بعض أركانها وتعديلها، وغلطوا في القراءة وحفظ الترتيب، نبه سبحانه عليهم ونهاهم ألّا تبادروا إلى المساجد قبل أن تفيقوا، فقال مناديًا ليقبلوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم حفظ الآداب، سيما عند التوجه نحو الحق فعليكم أن ﴿لاَ تَقْرَبُوا﴾ ولا تتوجهوا ﴿الصَّلاَةَ﴾ أي: لأداء الصلاة، هي عبارة عن التوجه نحو الذات الإلهية بجميع الأعضاء والجوارح، المقارن بالخضوع والخشوع، المنبئ عن الاعتراف بالعبودية والإذلال، المشعر عن العجز والتقصير، فلا بد لأدائها من فراغ الهم وخلاء الخاطر عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَنتُمْ﴾ في أدائها ﴿سُكَارَى﴾ لا تعلمون ما تفعلون وما تقرأون بل اصبروا ﴿حَتَّى﴾ تفيقوا ﴿تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ وما تفعلون في أدائها من محافظة الأركان والأبعاض والأركان والهيئات وغير ذلك.

﴿وَ﴾ عليكم أيضًا أن ﴿لاَ﴾ تقربوا الصلاة ﴿جُنُبًا﴾ حالة كونكم مجنبين بأي طريق كان؛ إذ استفراغ المني إنما هو من استيلاء القوة الشهوية التي هي أقوى القوى الحيوانية وأبعدها عن مرتبة الإيمان والتوحيد، وحين استيلائها تسري خبائثها إلى جميع الأعضاء الحاملة للقوى الدراكة وتعطلها عن مقتضياتها بالمرة، فحينئذ تتحير الأمزجة وتضطرب لانحرافها عن اعتدال الفطرة الأصلية بعروض الخباثة السارية، فتكون الخباثة أيضًا كالسكر من مخلات العقل، فعليكم ألّا تقربوها معه ﴿إِلاَّ﴾ إذا كنتم ﴿عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: على متن سفر ليس لكم قدرة استعمال الماء؛ لفقده أو لوجود المانع، فعليكم أن تتيمموا وتصلوا جنبًا ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ وتتمكنوا من استعماله.

﴿وَ﴾ كذا ﴿إِن كُنتُم﴾ مقيمين ﴿مَّرْضَى﴾ تخافون من شدة المرض في استعماله ﴿أَوْ﴾ راكبين ﴿عَلَى﴾ متن ﴿سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: من الخلاء محدثين ﴿أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: جامعتم معهن أو لعبتم بهن بالملامسة والمساس ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ في هذه الصورة ﴿مَاءً﴾ لإزالة ما عرض عليكم من الجنابة ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فعليكم أن تقصدوا عند عروض هذه الحالات بالتراب الطيب من صعيد الأرض بأن تضربوا أيديكم عليها، وبعدما ضربتم ﴿فَامْسَحُوا﴾ باليدين المغبرتين

﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ مقدار ما يغسل ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ أيضًا كذلك، جبرًا لما فوتم من الغسل بالماء، إذ التراب من المطهرات خصوصًا من الصعيد المرتفع ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿كَانَ عَفُوًّا﴾ لكم مجاوزًا عن أمثاله ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:43]يستر عنكم ولا يؤاخذكم عليها إن كنتم مضطرين فيها، بل يجازيكم خيرًا تفضلاً وامتنانًا.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء:44-46].

ثم قال سبحانه مستفهمًا مخاطبًا لمن يتأتى منه الرؤية عن حرمان بعض المعاندين عن هداية القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى﴾ قبح صنيع القوم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الجامع لجميع الكتب، الهادي للكل لكونهم موجودين عند نزوله، سامعين الدعوة، فممن أنزل إليه ﷺ كيف يحرمون أنفسهم عن الهداية إلى حيث ﴿يَشْتَرُونَ﴾ يختارون لأنفسهم ﴿الضَّلَالَةَ﴾ بدل هدايته ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون عليه بل ﴿يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا﴾ ترتدوا ويظلموا عليكم أيها المؤمنون ﴿السَّبِيلَ﴾ [النساء:44] الواضح الموصل إلى زلال الهداية بإلقاء الشبه الزائفة في قلوب ضعفائكم، وإظهار التكذيب وادعاء المخالفة بينك وبين الكتب المتقدمة.

ولا تغتروا أيها المؤمنون بودادتهم وتملقهم ولا تتخذوهم أولياء؛ إذ هم أعداء لكم ﴿وَاللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فعليكم أن تفوضوا أموركم كلها إليه، والتجئوا نحوه واستنصروا منه ليدفع بلطفه مؤونة شرورهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: كفى الله وليًا للأولياء ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: 45] لهم ينصرهم على الأعداء بأن يغلبهم عليهم وينتقم منهم خصوصًا.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ نسبوا إلى اليهودية وسموا به، وهم من غاية بغضهم مع الرسول ﷺ يدعون مخالفة القرآن بجميع الكتب السالفة؛ لذلك ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ المنزلة في التوراة في شأن القرآن وشأن بعثة سيدنا محمد ﷺ ﴿عَن

﴿مَّوَاضِعِهِۦ﴾ التي وضعها الحق سبحانه، بل يستبدلونها لفظًا ومعنى مراء ومجادلة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حين دعاهم الرسول إلى الإيمان: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ﴾ منا في أمر الدين كلامًا ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ لك من أحد ﴿وَرَاعِنَا﴾ لتستفيد منا، وإنما يقصدون بأمثال هذه المزخرفات الباطلة ﴿لَيًّا﴾ إعراضًا وصرفًا للمؤمنين ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ عما توجهوا نحوه من التوحيد والإيمان إلى ما تشتهيه نفوسهم.

﴿وَ﴾ يريدون أن توقعوا بها ﴿طَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ القويم والشرع المستقيم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من أهل الهداية ولهم نصيب منها ﴿قَالُوا﴾ حين دعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أمرك ﴿وَاسْمَعْ﴾ من ربك من الأحكام، واسمع إيانا ﴿وَانظُرْنَا﴾ بنظر الشفقة والمرحمة حتى نسترشد منك ونستهدي ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: أعدل سبيلاً إلى التوحيد والإيمان ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن عز حضوره في سابق علمه ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ منهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:46] استثناهم الله سبحانه في سابق علمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء:47-50].

ثم ناداهم سبحانه وأوعدهم رجاء أن يتنبهوا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿آمِنُوا بِمَا﴾ أي: بالكتاب الجامع الذي ﴿نَزَّلْنَا﴾ من غاية فضلنا وجودنا على محمد ﷺ مع كونه ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم﴾ أي: لكتابكم ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ أي: تمحو وتضمحل مراتب إنسانيتكم وإدراككم مطلقًا ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ قهقرى إلى المراتب الأنزل الأرذل قبل وصولكم إلى مرتبة الكمال ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نطردهم عن ساحة عز الوجوب إلى مضيق الإمكان ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ مسخنا ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ لمخالفتهم الأمر الوجوبي باقتراء الحيلة عن لوازم الإنسانية مطلقًا، ورددناهم إلى أخس المراتب ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله القادر المقتدر على جميع ما يشاء أمثال هذا الطرد والإدبار؛ إذ ﴿كَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: إرادته المتعلقة بتكوين أمره

﴿مَفْعُولاً﴾ [النساء:47] مقتضيًا البتة بلا تخفف.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالمجد والبهاء ﴿لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ أي: لا يستر ولا يعفو عن انتقام الشرك به بإثبات الوجود لغيره ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ من الكبائر والصغائر ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ من التائبين وغيرهم، ثم قال سبحانه تأكيدًا وتحقيقًا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾ الواحد الأحد الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4،3] شيئًا من مظاهره بادعاء الوجود له أصالة استقلالاً ﴿فَقَدِ افْتَرَى﴾ على الله واكتسب لنفسه ﴿إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:48] لا مخلص له عنه.

نعوذ بك ونستغفرك من أن نشرك بك شيئًا ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم، إنك أنت علام الغيوب.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بألسنتهم وألبستهم، رياء وسمعة ويفتخرون بها ويباهون عليها، كيف وطنوا أنفسهم بهذا المزخرف الباطل ولم يتفطنوا أن العبد قل ما يخلو عن الشرك الجلي فضلاً عن الخفي، ولا تليق التزكية للعبد مطلقًا سواء يزكي نفسه أو غيره ﴿بَلِ اللهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿يُزَكِّي﴾ بفضله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده، والمراءون المزكون لنفوسهم قولاً بلا توافق أحوالهم وأعمالهم على مقالهم يعاقبون عليها ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:49] أي: لا يزاد على انتقام ما اقترحوا مقدار حبل النواة، وهو مثل في الصغر والحقارة.

﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيفَ يَفْتَرُونَ﴾ أولئك المراءون المزكون نفوسهم ﴿عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بادعائهم تزكية الله إياهم ترويجًا لما عليه نفوسهم من التلبيس ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ هذا الافتراء ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:50] ظاهرًا موجبًا لانتقام عظيم من الله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)﴾ [النساء:51-55].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾ يدعون أنهم ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ﴾ علم ﴿الْكِتَابِ﴾ أي: التوراة المبين لطريق التوحيد الموضح لسبيله كيف ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾ أي: الصنم الذي لا خير يرجى منه ولا شر، ولا نفع ولا ضر ﴿وَالطَّاغُوتِ﴾ التي هي الآراء الباطلة والأهوية الفاسدة المؤدية إلى الكفر والزندقة والإلحاد عن طريق الرشاد، ولو أنهم في أهل التوحيد ولهم نصيب من اكتساب النازل من عند الله لتبيينه وتعليم طريقه، لما آمنوا بالأباطيل الزائفة الفاسدة المضلة عن طريق الحق والصراط المستقيم، ومع ضلالهم في أنفسهم يريدون إضلال غيرهم ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في حق ضعفائهم وأتباعهم: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ الضعفاء من إخواننا ﴿أَهْدَى﴾ وأقوى ﴿مِنَ﴾ السفهاء ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمد ﷺ ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء:51] وإنما يقولون أمثال هذا؛ استخفافًا للنبي ﷺ وطعنًا وقدحًا في الإسلام.

﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن ساحة التوحيد إلى ذل الإمكان ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ﴾ المنتقم المقتدر ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء:52] يشفع له عنده؛ إذ لا غير معه ولا شيء سواه.

أتعتقد وترى أيها الرائي أن لهم حظًا من الإيمان والتوحيد؟ فليس لهم ذلك ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا﴾ أي: حين كانوا ملوكًا متصرفين على وجه الأرض ﴿لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ﴾ أي: الفقراء المحتاجين ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:53] بل قطميرًا شحهم وبخلهم.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ المنظورين لله الناظرين بنوره ﴿عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ من الحكمة والنبوة والكتاب المبين، ومن غاية حسدهم يكذبونهم وكتابهم عنادًا وإذا أردت أن ترى أيها الرائي من لهم نصيب من الكتاب والملك ﴿فَقَدْ آتَيْنَا﴾ من محض جودنا وفضلنا ﴿آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وذريته الذي من جملتهم وصفوتهم محمد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين للشرائع والأحكام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السرائر المقتضية تشريعها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿آتَيْنَاهُم﴾ في الدنيا ﴿مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:54] استيلاء بسطة ممتدة إلى يوم القيامة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ بنبوتهم وعظمتهم وبسطتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ أي: أعرض ولم يؤمن عتوًا وعنادًا، فلا تعجل يا أكمل الرسل بانتقامهم وعقوبتهم ﴿وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:55] أي: كفى جهنم المسعورة المعدة لانتقامهم وتعذيبهم منتقمًا عنهم على أقبح وجه وأشد تعذيب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:56-58].

قل للمؤمنين يا أكمل الرسل نيابة عنا، إخبارًا لهم عن وخامة عاقبة هؤلاء المعرضين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ كهؤلاء المدبرين ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ وندخلهم ﴿نَارًا﴾ معدة لجزاء الغواة بحيث ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ تفانت واضمحلت ﴿جُلُودُهُمْ﴾ بإحراق نار الخذلان ﴿بَدَّلْنَاهُمْ﴾ من غاية قهرنا وانتقامنا ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ مماثلة لما احترقت منها ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليدوم لهم ذوقه وخذلانه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنتقم منهم ﴿كَانَ عَزِيزًا﴾ غالبًا على الانتقام حسب المرام ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:56] عادلاً لا يظلم بالزيادة ولا يهمل بنقصان.

ثم قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بآياتنا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ امتثلوا بالصالحات المأمورة فيها ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية فضلنا وجودنا ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار اللذات الروحانية المترتبة على التجليات الرحمانية الغير المتناهية، لذلك ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ بلا انقطاع وانصرام، ومع ذلك ﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ صواحب من الصفات والأسماء يؤانسهم ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ عن أدناس الطبيعة مطلقًا ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿نُدْخِلُهُمْ﴾ من غاية لطفنا إياهم ﴿ظِلًّا﴾ مروحًا لقلوبهم ﴿ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57] ممدودًا لا يزول أصلاً.

واعلموا أيها المبشرون بهذه البشارة العظمى ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المبشر بأمثاله ﴿يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا﴾ وتدفعوا ﴿الْأَمَانَاتِ﴾[1] من الأحوال والشهادات وسائر حقوق العباد ﴿إِلَىٰ

(1) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أمانات وَضَعَها عِندَكَ؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِن خيانتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها، والحُكْم بين الناس بالعدل تسويةُ القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مجاورةُ حقد ...

﴿أَهْلِهَا وَ﴾ يأمركم أيضًا أنكم ﴿إِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ المتخاصمين في الوقائع ﴿أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف والسوية بلا ميل إلى جانب أحد من المتخاصمين ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿نِعِمَّا﴾ نعم شيئًا ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ ويأمركم بامتثاله ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع على جميع حالاتكم ﴿كَانَ سَمِيعًا﴾ لجميع أقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:58] لنياتكم وأفعالكم فيها، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا (٥٩) أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا (٦١) ﴾ [النساء:59-61].

ثم قال سبحانه مناديًا لأهل الإيمان إيصاء وتنبيهًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم إطاعة الله وإطاعة رسوله ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ الذي استخلفه من عنده يهديكم إلى توحيده ﴿وَ﴾ أطيعوا أيضًا ﴿أُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وهم الذين يقيمون شعائر الإسلام بينكم من الأمراء والحكام والقضاة المجتهدين في تنفيذ الأحكام واستنباطه ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ أنتم مع حكامكم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمور الدين في أنه مطابق للشرع أو غير مطابق ﴿فَرُدُّوهُ﴾ وراجعوا فيه ﴿إِلَى﴾ كتاب ﴿اللَّهِ وَ﴾ أحاديث ﴿الرَّسُولِ﴾ بأن عرضوا عليهما واستنبطوه منهما ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ المجازي لعباده على أعمالهم خيرًا كان أو شرًا ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد للجزاء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرد ﴿خَيْرٌ﴾ لكم من استبدادكم بعقولكم ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء:59] من تأويلكم، وأحمد عاقبة مما تتخيلون باستبدادكم.

على انتقام لنفين [تفسير القشيري (1/491)].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول المرسل إلى كافة الأنام ﴿إِلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة على إخوانكم من الأنبياء - عليهم السلام - ومع ادعائهم هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا﴾ ويتراجعوا في الوقائع ﴿إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ المضل عن مقتضى الإيمان والكتب ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ أي: بالطاغوت ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو رئيس الطواغيت ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ﴾ عن طريق الحق ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:60] إلى حيث لا يرجى منهم الاهتداء أصلاً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتاب الجامع لجميع الكتب المبينة لطريق الحق، الهادية إلى توحيده ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿الرَّسُولِ﴾ المبلغ الكاشف لكم أحكامه ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ﴾ والذين في قلوبهم مرض ﴿يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿عَنْكَ﴾ وعن عظتك وتذكيرك ﴿صُدُودًا﴾ [النساء:61] إعراضًا ناشئًا عن محض القساوة والفساد.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:62-64].

﴿فَكَيْفَ﴾ لا يكونون منافقين إنهم ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من نفاقهم مع المؤمنين وتحاكمهم إلى الطاغوت، وعدم الرضا بحكمك وقضائك ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أصابوا ﴿جَاءُوكَ﴾ معتذرين لك ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما قصدنا ﴿إِلَّا إِحْسَانًا﴾ طلبًا للخير من الله لإخواننا المؤمنين ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:62] بينهم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن منافقًا نازع يهوديًا، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ والمنافق إلى كعب بن الأشرف، ثم بعد النزاع والجدال احتكما إلى رسول الله ﷺ، فحكم لليهودي فلم يرضى المنافق بقضائه، فقال: نتحاكم إلى عمر ﷺ، فحضرا عنده فقال اليهودي لعمر ﷺ: قضى لي رسول الله ﷺ فلم يرض، فخاصم إليك، فقال

عمر للمنافق: أهكذا، قال: نعم، فقال: مكانكما حتى أخرج، فدخل بيته، وأخذ سيفه، فخرج فضرب به عنق المنافق، فقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، فنزل جبريل وقال: إن عمر ﷺ قد فرق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنهمكون في الغي والضلال هم ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والشقاق، فلا يغني عنهم حلفهم الكاذب شيئًا من عذاب الله ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وعن حلفهم عن المؤمنين ﴿وَعِظْهُمْ﴾ في الخلوات على مقتضى شفاق مرتبة النبوة والرسالة ﴿وَقُل لَّهُمْ﴾ حين كانوا مفترقين متفردين ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ عن المؤمنين ﴿قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:63] ليؤثر فيهم ويحرك فطرتهم الأصلية التي فطروا عليها؛ رجاء أن يتفطنوا بالتوحيد ويتبهوا بحقيته بتوفيق الله وجذب من جانبه.

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل مثال هذا التوفيق منا؛ إذ ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ إلى أمة من الأمم الماضية ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ ويؤمن به ويمتثل بأمره إلا ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتعلق إرادته بإطاعتهم له وإيمانهم به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية جهلهم ونفاقهم ﴿إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالخروج عن إطاعتك وانقيادك عنا ﴿جَاءُوكَ﴾ تائبين معتذرين مما صدر عنهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ مخلصين نادمين ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ أيضًا بالاستشفاع والاستدعاء من الله بالقبول بعدما جاءوا معتذرين ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ﴾ وصادقوه مفضلاً كريمًا ﴿تَوَّابًا﴾ يقبل توبتهم ﴿رَّحِيمًا﴾[1] [النساء:64] لهم يوفقهم عليها.

(1) يتحفنا الشيخ البيطار بوارده القدسي في هذه الآية المباركة بقوله: اعلم - أيدك الله - أن ذات الله تعالى هي الكنز المخفي الذي يحرم التفكير فيه؛ لأنه الغيب الذي لا يُعلم من حيث البطون الغيبي، فلا تصل إليه العبارة ولا تتوجه إليه الإشارة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] أي: من وراء الظهورات، فالكنز المخفي غيب لا يصح ظهوره من حيث هو، وإلا لبطل سر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:3] فكل ما بدا من ذلك الغيب خرج عن اسم الغيب وصار الغيب من ورائه. وإلى ذلك أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:7]، فأخبر تعالى عن انفراده بذاته، فلا يقال: إنه ثالث ثلاثة أو خامس خمسة من جهة الغيب المطلق الذي تؤمن به، ولذلك ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:73]؛ لأنه فاتهم مرتبة البطون الذاتي المشار إليها بقوله: ﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ [البروج:20] وهي مرتبة الانفراد عن الثلاثة، كما قال: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:7] وهي الغيب الذي لم يظهر، فلا يزال المؤمن متعلقًا بمرتبة

الغيب، ولذا قال الإمام الربّاني ﷺ: الناس فرحون بالرؤية الموعودة في الآخرة وكل همي وابتلائي ألّا يخرج الأمر من العلم إلى العين، ومن الغيب إلى الشهادة يرى ﷺ أن الغيب إذا ظهر إنما هو غيب نفسك، فلا ترى إلا نفسك، فهو طائرك الملزم في عنقك لا الغيب المطلق الله هو الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:91] وقال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك». ولولا أن الأمر كذلك ما سُمي محمدًا ﷺ عبدًا، ولكان ربًا مطلقًا من كل وجه، وبهذا المعنى مُنع موسى ﷺ رؤية الله وقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: 143]؛ لأن الغيب ولو ظهر بعض مظاهره فمظاهره لا تتناهى، فهي غير محصورة فلا تمكن رؤية الله من جميع الوجوه، فهذا معنى: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وقال ﷺ لما سُئل: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنى أراه» وقالت عائشة رضوان الله عليها: «من يزعم أن محمدًا ﷺ رأى ربه ليلة الإسراء فقد أعظم الفرية» فلا يزال الله تعالى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج:20]، وإلا فقد رآه موسى في النار، أي: رأى غيبًا من غيوب الحقيقة الموسوية، فخاطبه غيبه وقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12]، فأشار بقوله: ﴿طُوًى﴾ أنه ما رأى إلا ما انطوى عليه باطنه، فالرؤية الموعودة في الآخرة رؤية ربك المناسب لباطن ذاتك، وهو الذي كان يربيك في الدنيا ويُدبِّرك يظهر فيك بالشئون التي كنت عليها، فبحسب ما كنت عليه من العقيدة فيه تراه، فالرؤية في الآخرة واحدة، ولكن لا يقبل الرائي منها إلا ما يشاكله بما كان يعتقده في ربه، فالمرئي واحد، ولكن تختلف صوره عند الرائين.

وقد ورد في الحديث: «إنه يتجلى لقوم فيتعوذون منه وينكرونه، فإذا تجلى لهم بما يعرفون قالوا: نعم أنت ربنا» وهو هو؛ لأنه عين كل أول وآخر وظاهر وباطن، ومن وراء ذلك محيط، فلا يعرف الله على الحقيقة إلا الله، حتى هو تعالى، وإن كان يعلم نفسه لكنه لا يحيط بها؛ لأن ذاته لا تدخل تحت إحاطة علمه، فلذلك انفرد عن جنس ما ظهر من الغيب بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة:7]، ومن العجب أنه عين الثلاثة وعين الرابع المتفرد وعين الخمسة وعين السادس المتفرد، والحاصل أن النهايات رجوع إلى البدايات، وهو مقام الأنبياء والرسل وكل الأولياء. وذلك معنى قولهم على مذهب المحققين: خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله وهو عندنا إثبات كمال الأنبياء لا الأولياء، فالبحر مرتبة العيان، والساحل مرتبة الإيمان.

أقول: إن هذا الساحل بحر لا يُخاض لا لأنبياء ولا لأولياء، ولكن هو الذي استأثر الله به في علم الغيب عنده، فإذا ظهر من هذا الغيب تجلي كان بحرًا يخوضه الأولياء؛ لعجزهم عن الجمع بينه وبين الساحل، وإلا فلا حاجة إلى الخوض؛ لأن بحر الأولياء بالنسبة إلى الأنبياء ساحل؛ لأن جميع علومهم مجموعة في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] والبحر عند الأنبياء هو الغيب الذاتي الذي استأثر الله به، فسير الأنبياء إيماني مع وجود

العيان، وهذا المعنى هو الذي نبه عليه الإمام الرباني ﷺ، فالحق مشهود لا مشهود، معلوم لا معلوم، منظور لا منظور، فأين الفرح بالرؤية الموعودة في الآخرة أو غيرها، وأي حاجة لرؤية الآخرة بعد قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115] فآخرة المؤمن موجودة حاصلة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولذا قال الله في مثل هؤلاء ممن ليس له ذوق شراب النبوة وهم الذين يطلبون ربهم من حيث المغايرة لهم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: 64] بأن لم يعرفوا قدر أنفسهم من أنها وجه الله تعالى الظاهر،﴿جَاءُوكَ﴾ أي: جاءوك يا محمد، فشاهدوا الله تعالى فيك، وردهم إيمانهم إليك؛ لأني أنزلت عليك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10] ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء:64] عن علم ومعرفة بالله، وحضور ومعاينة مطابقة لظاهر الإيمان بلا تأويل، فحينئذ يستغفرون الله من جهلهم بالله، ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ من وجودهم مع الرسول فينقلبون إليه انقلاب الفرع إلى أصله، فيجدون الله فيهم كما وجدوه في الرسول بشهودهم أنهم عين الرسول الذي هو عين الله، فيكون للفرع ما كان للأصل، فلذا قال تعالى: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:64] أي: لعلموا أنهم في أنفسهم عين التواب الرحيم، حيث إنه هو التواب لا هم، فتاب من نفسه التي كانت محجوبة عنها إلى نفسه العالمة بنفسها، فهو التواب من نفسه لنفسه على نفسه فيهم، فتوبة الله عين توبة من رُفع عنه الحجاب فتاب من رؤيته، إنه تائب بشهود التواب، كما قيل: قد تاب قوم كثير، وما تاب من التوبة إلا أنا.

ومن هنا قال ابن عطاء الله – قدس الله سره – في كتابه «التنوير»: لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111] اقتسم السامعون إلى قسمين:

قسم فرحوا واستبشروا وابيضّت وجوههم فرحًا بهذا البيع؛ لأنهم سلموا الثمن الذي كانوا يملكونه وهو أنفسهم وأموالهم المضافة إليهم، وأخذوا الجنة من الحق عوض ذلك الثمن، فلهؤلاء قصور من فضة تشاكل بياض وجوههم، وقسم حزنوا وخجلوا واصفرّت وجوههم خجلاً من الله، حيث عامل العباد بحسب جهلهم، فأضاف الأنفس والأموال إليهم وهي له تعالى، فهؤلاء لما اصفرت وجوههم خجلاً من الله، حيث لما علم دعواهم في ملك الأنفس والأموال أضافها إليهم، واشترى منهم ما هو مملوك له لا لهم، فجازاهم الحق تعالى بما يشاكل اصفرار وجوههم، فلهم قصور من ذهب، أقول: العارفون المحققون لا باعوا ولا اشتروا، وإنما الأمر ظهورات وتجليات، بل الأسماء الإلهية تظهر بالمعاني كلها، والمسمى واحد، وإلى ذلك أشار سلطان العاشقين منبهًا على هذا المعنى بقوله ﷺ:

أهْـوَى رَشًـا رَشِـيقَ القَـدِّ حُلَـيّ	قـد حَكَّمَـه الغَـرامُ والـوَجْدُ عَلَـيّ
إن قُلْـتُ خُـذِ الـرُوحَ يَقُـلْ لـي عَجَبًا	الـرُوحُ لـنا فهـاتِ مـن عـندِكَ شَـيّ

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [النساء:60-68].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ أي: فوربك وعظم شأنه وسطوع برهانه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالله وبكتبه وبرسله ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ وحدث ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من

وهذا المقال أعدل شاهد لابن الفارض رضوان الله عليه أنه فاني في حقيقة الرسول ﷺ؛ لأن قوله: الروح لنا إشارة لقوله: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر» فجميع الأرواح من تلك الروح بل جميع الأشباح أيضًا، فلذا قال: فهات من عندك شيء، أي: أنت مني، فما الذي لك؟ قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:6] وفي الاعتبار: الإيمان ساري في كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44]، ولا يسبح بحمده إلا من يؤمن به، فالنبي حقيقة كل مؤمن، أي: حقيقة كل شيء، وتلك الحقيقة مشهودة في مظاهر الوجود يراها أهل المعرفة والشهود، ...ولكن علامة المتحقق بهذا المشهد ما قاله بعضهم في الصوفي من أن ملكه مباح ودمه هدر، وهذا هو المسمى عن الحقيقة، فمن كان لا يطالب أحدًا بملكه ولا بدمه؛ لأن الآخذ والقاتل هو، فليفعل ما شاء، فإنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو وارث النبي ﷺ في آية الفتح المبين. ألا ترى أنه ﷺ لما أعطاه الله دعوة خاصة لنفسه كما أعطى الأنبياء قبله أباحها لأمته، وأخذ العهد من ربه ألاَّ تُرد شفاعته في واحد منهم؛ فقبل الحق منه ذلك، وقد أشار إلى هذا المعنى في قوله: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» والسر في ذلك أنهم ما ملكوا حتى يورثوا، وأما قوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:16] فالقصد الأعظم وراثة العلم والنبوة وغير ذلك من المال بالتبع، فلا يلتفت إليه، فسليمان ﷺ ما ملك المال وإنما هو خازن له لأربابه يعطيه لهم عن كشف وبصيرة، فيعطي الشيء لصاحبه ويمنع الشيء عمن ليس بصاحبه، ولذلك لا حساب عليه في العطاء والمنع؛ لأن عطاءه عطاء الله ومنعه كذلك، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:39]، لأن المالك هو الله والله لا حساب عليه؛ فافهم ما أشرنا إليه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:4].

الوقائع التي اختلفوا فيها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما حكموك ﴿لَا يَجِدُوا﴾ حين راجعوا وجدانهم ﴿فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقًا واضطرابًا وشكًا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾[1] حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ حكمك وقضاءك ﴿تَسْلِيمًا﴾ [النساء:65] ناشئًا عن محض الإطاعة والانقياد، ظاهرًا وباطنًا؛ إذ طاعتك عين إطاعتنا وانقيادنا.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فرضنا وأمرنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ في سبيلنا ﴿أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ المألوفة التي هي بقعة الإمكان ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي: المأمور به ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم المخلصون المبادرون إلى الفناء في الله؛ ليفوزوا بشرف بقائه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ من غاية تشوقهم وتعطشهم بمرتبة الفناء فيه ﴿فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في أولاهم وأخراهم ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء:66] لقدمهم في طريق التوحيد والعرفان.

﴿وَإِذًا﴾ أي: حين ثبتوا على طريق التوحيد أشد تثبيت ﴿لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا﴾ بلا صنع منهم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:67] هو الفوز بمرتبة الكشف والشهود.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:68] يوصلهم إلينا بلا اعوجاج ولا انحراف.

اهدنا بلطفك صراطًا مستقيمًا يوصلنا إلى ذروة توحيدك.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

(1) قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيمًا ظاهرًا وباطنًا وسرًا وعلنًا وحقيقة ورسمًا كان بعيدًا عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.

قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيا لها من شرفٍ، ويا لها من كرامةٍ حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إتسان المتحابين. قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعةً من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرّ سبيلًا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصفٌ بأوصاف الحق متخلقٌ بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فذُو العَرْشِ محمودٌ وَهَذَا مُحمدٌ».. [العرائس].

عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ [النساء:69-73].

﴿وَ﴾ واعلموا أيها المؤمنون ﴿مَن يُطِعِ اللَّهَ﴾ حق إطاعته ﴿وَ﴾ حق إطاعته أن يطيعوا ﴿الرَّسُولَ﴾ المستخلف منه ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المطيعون لله ولرسوله مصاحبون ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين يجمعون بين مرتبتي الكمال والتكميل، الفائزون بمقام الكشف والشهود، لا يرون غير الله في الوجود، ولذلك يدبرون الظاهر والباطن ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ وهم الذين يصلون إلى مقام المشاهدة، ويتحيرون بمطالعة وجه الله الكريم إلى حيث لا يلتفتون إلى الكمال والتكميل، بل يهيمون ويستغرقون ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ وهم الذين يرفعون مزاحمة هويتهم عن البين مطلقًا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ وهم الذين يستعدون نفوسهم لنقصان المراتب السابقة، ويترصدون لها إيمانًا واحتسابًا ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ﴾ المقربون المجتهدون في طريق التوحيد حسب مقدورهم ﴿رَفِيقًا﴾ [النساء:69] [1] شفيقًا للسالكين المتوجهين نحوه.

﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ﴾ والهداية والرفاقة مع هؤلاء الأمناء العظماء وللإنعام تفضلاً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ وامتنانًا منه لا صنع للعبد فيه، ولا علم لأحد في كيفيته وكميته ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:70] في مقدوراته، وموهوباته.

---

(1) قال روزبهان: معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله، وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضًا؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصدّيقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمته، والصالحون هم الذين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطّلع عليهم أحدٌ من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

ومن أجلّ أسباب المرافقة مع هؤلاء المقربين: الجهاد؛ لذلك أمرهم سبحانه بتهيئة أسبابه ليتهيئوا له، فقال مناديًا اهتمامًا لشأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ترويج دينكم، ونصرة نبيكم ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: عدتكم التي بها تحذرون عن العدو واستعدوا للقتال، وبعدما تم استعدادكم ﴿فَانفِرُوا﴾ اخرجوا قبل العدو ﴿ثُبَاتٍ﴾ فرقة بعد فرقة ﴿أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:71] مجتمعين مختلطين؛ لأنه أدخل في المهابة.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ أي: وإن أناسًا منكم والله ليتكاسلن، ويتثاقلن لنفاقهم ومرض قلوبهم ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ قتل وهزيمة ﴿قَالَ﴾ المنافق المتكاسل ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ﴾ بسبب هذا البطء والتأخير ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:72] حاضرًا فيصيبني ما أصابهم.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ﴾ متمنيًا من فرط تحسره وتحسده بكم ﴿كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي: كتحسر الأعداء للأعداء: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:73] مثل ما فازوا.

وإن أبطأ المنافقون في أمر القتال، وتكاسلوا نفاقًا.

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء:74-76].

﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ المخلصون المبادرون إلى الفناء ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ مع المشركين ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ ويختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ أي: بدلها، ويبيعونها بها ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ترويجًا لتوحيده مع هؤلاء المشركين المصرين على الشرك ﴿فَيُقْتَلْ﴾ في أيديهم ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ عليهم ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ من لدنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء:74] لا كأجر الدنيا ولا كأجر الآخرة المترتبة على الأعمال الصالحة، بل الشهداء منهم أحياء عند الله يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله، والغزاة فهم في حمى الله وكنف حفظه وجواره.

﴿وَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون المبشرون بهذه البشارة العظمى ﴿لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مع أعداء الله ﴿وَ﴾ لا تنقذون ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منكم من أيديهم ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الذين بقوا في مكة بعد الهجرة، فآذوهم واستذلوهم إلى أن استعبدوهم، وهم ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ من غاية حزنهم، ونهاية مذلتهم متضرعًا إلى الله مستشكيًا إليه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ إذ لا طاقة لنا بظلمهم ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ يولي أمرنا، وينقذنا من أيديهم، ويخرجنا من بينهم ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:75] ينصرنا عليهم لينتقم عنهم، فاستجاب الله دعاءهم بأن ألحق بعضهم إلى المهاجرين، ونصر بعضهم بالنبي والمؤمنين حين فتحوا مكة - شرفها الله - فوصلوا إلى ما طلبوا من الله.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تقربًا إليه وطلبًا لرضاه، وترويجًا لدينه ونصرة نبيه المبعوث لإعلاء كلمة توحيده ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ المضل عن طريق الحق، وسبيل الهداية إلى متابعة الشيطان وموالاته ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيها المؤمنون المخلصون ﴿أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تبالوا بعددهم وعددهم ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ بالنسبة إلى كيد الله ومكره ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:76] لا عبرة له ولا تأثير.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء:77-78].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ضعفهم، ورثاثة حالهم حين كانوا في مكة قبل الهجرة يريدون أن يقاتلوا: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال إلى أن يأذن

الله لكم به ويرد الأمر عليه ﴿وَأَقِيمُوا﴾ أديموا ﴿الصَّلَاةَ﴾ الميل المقرب لكم نحوه بجميع الأعضاء والجوارح ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المصفية لنفوسكم عن الميل إلى زخرفة الدنيا، وانتظروا إلى أن يأمركم الله بالقتال والجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ بعدما قوّي حالهم، وزال ضعفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بضعف يقينهم، وقلة وثوقهم بنصر الله وتأييده ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ أي: يخافون من الكفار ﴿كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ مثل خوفهم من الله ﴿أَوْ﴾ بل ﴿أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ لوهن اعتقادهم، واعتمادهم على الله؛ إذ هم في أوائل ظهور الإسلام حين كانوا متزلزلين، لا يصفوا يقينهم بالتوحيد ﴿وَقَالُوا﴾ حين سمعوا نزول أمر القتال مسوفين متأخرين: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ مع أنا على ضعفنا ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ يزداد فيه قوتنا وشوكتنا وعدتنا، وإنما قالوه خوفًا من الموت وفوات المال ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تذكيرًا وتنبيهًا: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ وعمل قصير بالنسبة إلى عطاء الله، وشرف لقائه ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ المعدة لجزيل العطاء وشرف اللقاء ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ عما يشغلهم عنه وعن عطائه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون أنكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون، ولا تهملون مما قدر لكم في القضاء ﴿فَتِيلًا﴾ [النساء:77] مقدار فتيل النواة.

واعلموا أيضًا أن تسويفكم وتأخيركم لا يفيدكم نفعًا في أمر الموت، بل وقته مبهم وأمره مبرم.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ عند حلول الأجل المقدر له من عنده ﴿وَلَوْ كُنتُمْ﴾ متحصنين ﴿فِي بُرُوجٍ﴾ قلاع وحصون ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾ بأنواع التشييدات والتحصينات؛ إذ لا مرد من قضاء الله ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَ﴾ هم أيضًا من غاية تزلزلهم وتذبذبهم، وعدم رسوخهم في جادة التوحيد ﴿إِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ فتح وغنيمة تفرح بها نفوسهم وتنبسط ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ تفضلاً علينا، وامتنانًا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بلية واختيار تنقبض بها نفوسهم ﴿يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: أضافوها إليك متشائمين بك، كما تشاءمت اليهود حيث قالت: منذ دخل محمد المدينة نقصت ثمارها وغلت أسعارها ﴿قُلْ﴾ لهم كلامًا ناشئًا عن محض الحكمة والإيقان: ﴿كُلٌّ﴾ من الحوادث الكائنة سواء كانت مفرحة أو مملة، مقبضة أو مبسطة نازل ﴿مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ حسب قدرته وإرادته، لا يسأل عن فعله ولا في أمره، بل له التصرف مطلقًا ﴿فَمَالِ﴾ عرض ﴿هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ المنحطين عن درجة التوحيد والعرفان

﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ ويفهمون ﴿حَدِيثًا﴾ [النساء:78] يخلصهم عن التزلزل، وتردد المرتبة على الإضافات المنافية للتوحيد، ولو أنهم من أهل التدبر والتأمل في سرائر كلام الله ومرموزاته لفتح عليهم مما يخلصهم عن دغدغة الكثرة مطلقًا، فكيف إضافة الحسنة والسيئة؟.

﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:79-82].

ثم لما أراد سبحانه أن ينبه على خلص عباده طريق توحيده، وأن ظهوره في المظاهر كلها خير محض لرسوله ﷺ؛ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات، وأن الشر إنما هو من الإضافة العارضة بسبب التعينات العدمية، فقال مخاطبًا لرسوله ﷺ؛ لأن تحمل أمثال هذه الخطابات الصادرة عن محض الحكمة، إنما يليق بجنابه ليصل منه إلى أمته: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ مسرة لنفسك ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ وعلى جري عادته، وظهوره على مظاهره بالخير والحسنى ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ محزنة مملة لنفسك ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ تظهر، ومن إضافتك تحصل، وإلا فهو خير في نفسه لا شر في الوجود أصلاً ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ تنبه لهم ما نبهت من لدنا ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ [النساء:79] على إرسالك وتبليغك.

ثم قال سبحانه: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به ويصدقه بما جاء من عند ربه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ لأنه المظهر الجامع لجميع أوصافه وأسمائه، وللمظهر حكم الظاهر فيه ﴿وَمَن تَوَلَّى﴾ أعرض عن إطاعتك أعرض عنهم، ولا تلتفت نحوهم ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً﴾ [النساء:80] تحفظهم عما يشينهم، بل مبلغًا داعيًا لهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم.

﴿وَ﴾ ممن يحوم حولك من المنافقين قوم إذا أمرتهم بامتثال أمر الله ﴿يَقُولُونَ﴾ في جوابك: ﴿طَاعَةٌ﴾ أي: منا امتثال وإطاعة لما أمرت ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خرجوا ﴿مِنْ

عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ زورت وافترت ولبست ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ تلك الطائفة لك، وقلت لها ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لهم والمحاسب أعمالهم ﴿يَكْتُبُ﴾ في صحائفهم، ويجازي عليهم بها ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويزورون ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بإطاعتهم وقبولهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جميع الأمور، واتخذه وليًا ونصيرًا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:81] يكفيك مؤونة ضررهم وشرورهم، وينتقم لك عنهم.

ومن جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم يطعنون في القرآن بأنواع المطاعن، تارة ينسبونه إلى غير الله وتارة يكذبونه، وتارة يقولون: هو من أساطير الأولين، أيترددون في أمره ويطعنون في شأنه؟.

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ﴾ ويتأملون ﴿الْقُرْآنَ﴾ لفظًا ومعنى، ظهرًا وبطنًا، دلالة وحكمًا، اقتضاءً ونصًا، إشارةً وإيماءً، تلويحًا ورمزًا، حتى يتفطنوا أنه ما هو من كلام البشر ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: من جنس كلام البشر ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ﴾ البتة ﴿اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82] [1] حسب تفاوت درجات أشخاص البشر.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً

---

(1) قال الشيخ البقلي: القرآن صفات القدم، وهو موصوف به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفةٌ خاصةٌ ذاتيةٌ من جملة صفاته، وهو واحدٌ من جميع الصفات، لكنه مجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائمٌ بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع للخلق التفكر والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارجٌ من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسراره، وفنوا في أنواره، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلت في حروف ا لوحدانية، وتجلت حروف الوحدانية في حروف القرآن، وكل حرفٍ مملوءٌ من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم، لأن وصف الله منزَّهٌ عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف الخلق متضادةٌ متباينةٌ متغيرةٌ، وذلك المعنى موجودٌ فيما بقي من الآية.

حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ [النساء:83-85].

﴿وَ﴾ من ضعفة المسلمين قوم ﴿إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ﴾ موجبات ﴿الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أي: فشوه ونشروه سواء كان واقعًا أم أراجيف، ولحق للمسلمين بسبب تلك الإذاعة والإشاعة ما لا يليق بهم ﴿وَلَوْ﴾ أنهم حين سمعوا الخبر ﴿رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ﴾ أصحاب الرأي والتدبير ﴿مِنْهُمْ﴾ ليتأملوا فيه ويتبصروا ﴿لَعَلِمَهُ﴾ واستخرجه البتة المجتهدون ﴿الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾ وأمثاله ﴿مِنْهُمْ﴾ وجهًا موجبًا للإفشاء أو الإسرار، ولا تغتروا أيها المؤمنون بعقولكم، ولا تستبدوا برأيكم ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بإرسال الرسول فيكم، وإنزال الكتب عليكم ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ الشاملة بكم بتوفيقكم على الإيمان، ومتابعة الرسول ﷺ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ﴾ بأجمعكم ﴿الشَّيْطَانَ﴾ المضل عن طريق الحق ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:83] منكم، وهم الذين استثناهم الله سبحانه في سابق علمه تفضلاً عليهم وامتنانًا، وإن انصرفوا عنك بالمرة وانتشروا من حولك.

﴿فَقَاتِلْ﴾ بنفسك يا أكمل الرسل ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إذ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ ولا تحمل أعباء الرسالة إلا عليك، فعليك أن تشمر ذيلك لأمر الجهاد، لا تبال بإعانتهم وانتصارهم، ولا بتقاعدهم وانتشارهم، فإن الله ناصرك ومعينك لا الجنود ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: رغبهم على القتال، إذ ما عليك في شأنهم إلا الترغيب والتبليغ سواء قبلوا أو لم يقبلوا، ولا تخف من كثرة المشركين وعظم شركهم ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ﴾ أي: يمحو عن قلبك ﴿بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: قريشًا ﴿وَاللَّهُ﴾ المنتقم المقتدر بالقوة التامة الكاملة ﴿أَشَدُّ بَأْسًا﴾ مهابة ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء:84] تعذيبًا من هؤلاء الغواة الطغاة، يكفيك مؤونة شرورهم عن قريب، وقد كفاه بأن ألقى في قلوبهم الرعب، فرجعوا خائبين خاسرين.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً﴾ يراعي بها حق الله وحقوق عباده، ويرغبهم بها على الخير، ويبعدهم عن الشر، خالصًا لرضا الله بلا تغرير لنفسه وجلب نفع لها، أو دفع ضر عنها ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ من ثواب الشفاعة التي تسبب لها، والدعاء بالخير للأخ

المسلم من هذا القبيل، قال ﷺ: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال الملك: ولك مثل ذلك»[1] ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً﴾ يحمل بها إلى ارتكاب محرم، أو يوقعهم في فتنة وبلية ﴿يَكُن لَّهُ﴾ أيضًا ﴿كِفْلٌ﴾ نصيب ﴿مِّنْهَا﴾ من أوزارها وآثامها المترتبة عليها مثل فاعلها بل أزيد ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الحسنة والسيئة ﴿مُّقِيتًا﴾ [النساء:85] مقتدرًا على جزاء كل منهما فضلاً وعدلاً.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النساء:86-88].

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ أيها المؤمنون ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾ ناشئة من أخيكم المسلم ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ أي: زيدوا عليها؛ وفاء لحق المبادرة ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ كمثلها بلا نقصان شيء منها؛ وفاء لحق المؤاخاة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المراقب لجميع حالاتكم ﴿كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ صدر عنكم من خير وشر ونفع وضر ﴿حَسِيبًا﴾ [النساء:86] يحاسبكم بلا فوت شيء، ويجازيكم على مقتضى حسابه.

﴿اللَّهُ﴾ الجامع لجميع مراتب الأسماء الموجودة المربية لمسمياتكم وهوياتكم ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ لا موجود ولا مربي لكم في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الحي القيوم الذي لا يعرض له التغيير مطلقًا ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ وليحشرنكم من قبور تعيناتكم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ التي عرضوا فيها إلى الله، وحشروا نحوه منسلخين عن هوياتكم الباطلة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وفي جمعه، فلكم بعدما أخبرتم أن تصدقوه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:87] حتى تصدقوا حديثه وتؤمنوا، فعليكم ألّا تخالفوا حكم الله وأمره بعد وروده.

وإذا كان الأمر على هذا ﴿فَمَا﴾ أي شيء عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِي﴾ أمر ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ حتى تكونوا ﴿فِئَتَيْنِ﴾ فرقتين، ولم تتفقوا على كفرهم وشركهم ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ والحال أنه سبحانه قلبهم وردهم إلى كفرهم ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾

---

(1) أخرجه أحمد (195/5، رقم 21755)، ومسلم (2094/4 ، رقم 2733)، وابن ماجه (966/2، رقم 2895)، وابن أبي شيبة (21/6 ، رقم 29158)، وعبد بن حميد (ص 98، رقم 201) .

لأنفسهم من الشرك بالله - العياذ بالله - والبغض مع رسوله والنفاق مع المؤمنين ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بهذا التفرق والتردد في أمرهم ﴿أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ وتخالفوا كلمه، كأنكم لم تصدقوه ﴿وَ﴾ اعلم أيها الكامل في أمر الرسالة ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ عن نور الإيمان والهداية ﴿فَلَن تَجِدَ﴾ أنت مع كونك ممن أذن بالكشف عنه ﴿لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء: 88] إلى الهداية فضلاً عن أن يجده غيرك، وهم من غاية بغضهم معكم.

﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) ﴾ [النساء: 89-90].

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنوا أن تكفروا ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ﴾ معهم ﴿سَوَاءً﴾ في الكفر والضلال والبعد من جوار الله وكنفه، وإذا كان الأمر على هذه ﴿فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ أي: أعداءكم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم وتوادونهم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ أي: إلى أن يسلموا ويهاجروا ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ ويبعدوا عن ديارهم وعشائرهم؛ تقربًا إلى الله وتوجهًا إلى رسوله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام والتقرب إلى الله بعدما هاجروا عن ديارهم ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ كسائر المشركين ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المهاجرين المصرين على شركهم وكفرهم ﴿وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 89] تنصرونه، فعليكم أن تجانبوهم وتتركوا ولايتهم ووداهم.

﴿إِلَّا﴾ المهاجرين ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد وثيق على ألَّا تستعينوا منهم ولا تعينوا عليهم، والمواصلون إليهم في حكمهم وعلى عهدهم، فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم حتى لا تنقضوا الميثاق ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ﴾ حال كونهم قد ﴿حَصِرَتْ﴾ ضاقت وانقضت ﴿صُدُورُهُمْ﴾ من الرعب، من المهابة، وحين كره ولم يؤذن ﴿أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ لأن المروءة تأبى عن ذلك؛ إذ هم ليسوا على عدة القتال، فعليكم ألَّا تبادروا إليه؛ إذ القتال إنما فرض مع المقاتلين المجترئين ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ قتالكم ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾ لجراهم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وأزال رعبهم عنكم ﴿فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ ولم

ينصرفوا عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ﴾ وانصرفوا عنكم ﴿فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ ولم يتعرضوا لكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: الاستسلام والانقياد ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ الميسر ﴿لَكُمْ﴾ جميع أموركم ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على قتلهم وأسرهم ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء:90] بل اصبروا حتى يأذن الله لكم.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:91-92].

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ من الكفار ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ﴾ بإظهار الهدنة والمحبة والاستسلام ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ عن شركم وقتالكم، هم أعداء لكم لا تغفلوا عنهم وعن هجومهم بغتة؛ إذ هم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ إلى الكفر والعداوة ﴿أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ وعادوا إليها وصاروا على ما كانوا، بل أشد منه ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ إظهارًا لودادتكم ﴿وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ تخديعًا وتأمينًا ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾ عن قتالكم تغريرًا لكم حتى يتهيئوا أسبابهم ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ وأسروهم ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث وجدتموهم في داركم أو دارهم ﴿وَأُولَئِكُمْ﴾ المغرورون بخداعهم ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ على أخذهم وقتلهم ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:91] حجة واضحة، فعليكم ألا تعبئوا بدعواهم، ولا تغتروا بصلحهم وكفهم، وإلقائهم السلم؛ إذ هم من غاية بغضهم معكم يريدون أن يخدعوكم وينتهزوا الفرصة لمقتكم.

﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: ما صح وجاز ﴿لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ لا قصدًا واختيارًا مطلقًا ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: لزم عليه شرعًا تحرير

رقبة متصفة بالإيمان، محكومة به؛ ليكون كفارة مسقطة لحق الله ﴿وَ﴾ لزم عليه أيضًا ﴿دِيَةٌ﴾ كاملة ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ ورثته الذين يرثون منه حفظًا لحقوقهم، وجبرًا لما انكسر من قلوبهم ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: يسقطوا حقوقهم متصدقين ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن﴾ عداد ﴿قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ عداوة بينة ﴿وَهُوَ﴾ أي: المقتول ﴿مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فالواجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنة فقط؛ إذ لا مواساة مع أهله، ولا وراثة لهم منه ﴿وَإِن كَانَ﴾ المؤمن المقتول ﴿مِن قَوْمٍ﴾ ذوي ذمة ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد وثيق ﴿فَدِيَةٌ﴾ أي: فاللازم حينئذ دية كاملة ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ حفظًا للميثاق ومواساة معهم رجاء أن يؤمنوا؛ إذ سر المواثيق والعهود الواقعة بين أهل الإيمان والكفر إنما هو المواساة والمداراة معهم ملاطفة؛ رجاء أن يرغبوا بالإيمان طوعًا ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لإسقاط حق الله وجبر ما انكسر من حدوده ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة مملوكة ولا ما يتوصل به إليها ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فعليه أن يصوم شهرين كاملين على التوالي بلا فصل كسرًا لما جراه على هذا الخطأ، وليكون ﴿تَوْبَةً﴾ مقبولة عند الله، مكفرة لخطئه ناشئة ﴿مِّنَ﴾ خوف ﴿اللَّهِ﴾ وخشيته لاجترائه على تخريب بيته ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع بضمائر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بحاله وقت إنابته ورجوعه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:92] فيما أمره وحكم عليه لإزالة ما عليه وما صدر عنه.

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾ [النساء:93-94].

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ مباشرًا على قتله إرادة واختيارًا، والعمد على الوجه من إمارات الاستحلال ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء المستحل ووبال وزره لا يسقط عنه لا بالتحرير ولا بالدية، ولا بالصوم والصدقة، بل جزاؤه ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد عن جوار الله يصير ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ مؤبدًا إلى ما شاء الله ﴿وَ﴾ مع خلوده في نار الخذلان والحرمان ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أخذه وأخزاه بأنواع الخزي والمذلة ﴿وَلَعَنَهُ﴾ طرده عن حضوره، وأسقطه عن

مرتبة خلافته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ﴾ أي: هيأ له ﴿عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:93] بحيث لا يصفو معه، ولا ينظر إليه أبدًا.

نعوذ بك من غضبك وسخطك يا أرحم الراحمين.

ومن عظم أمر القتل عند الله، وإزالة الحياة التي حصل من نفخ الروح الذي أضافه لنفسه، أمر سبحانه على المؤمنين الذين يقصدون بالقتال والجهاد رضاء الله وإعلاء دينه ترويج توحيده بالتبيين والتفتيش فيه على وجه المبالغة؛ حتى لا يؤدي إلى تخريب بنائه وإبطال صنيعه، فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم للجهاد ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة توحيده، وانتصار دين نبيه ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ فاطلبوا بيان الأمر والحال من كل من استقبل عليكم، ولا تبادروا إلى قتل بلا تفتيش حالة ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ الإطاعة والانقياد ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بل كافرًا مداهنًا خائفًا تبادر علينا بالإطاعة حفظًا لدمك ومالك حال كونكم ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تطلبون بهذا القول ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: متاعها التي هي حطام زائلة، وأثاث باطلة ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ﴾ لكم إن امتثلتم لأمره ورضيتم ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ مما تتلذذ به نفوسكم يغنيكم عن حطام الدنيا ومزخرفاتها، بادروا إليها، ولا تميلوا إلى لذاتها الفانية.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما ألقى إليكم السلم ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: قبل رسوخكم على الإيمان واطمئنانكم على شعائر الإسلام تفوهتم بكلمتي الشهادة، وأظهرتم الإيمان والإطاعة لحفظ دمائكم وأموالكم ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالتمكن والاطمئنان والعزيمة الصحيحة والاستقامة في شعائر الإسلام، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أيضًا عن حالهم، واقبلوا منهم ما قالوا كما قبل الله منكم من قبل؛ رجاء أن ينكشفوا بما انكشفتم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بسرائركم وضمائركم ﴿كَانَ﴾ في سابق علمه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأغراض المؤدية إلى الحطام الدنيوية ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:94] عليمًا لا يعزب عن علمه وخبرته شيء.

روي أن سرية من أصحاب رسول الله غزت أهل فدك، فهربوا وبقي فيها مرداس اعتمادًا على إسلامه، فلما رأى الخيل ألجأ غنمه إلى شعب الجبل وصعد عليه، فلما تلاحقوا كبّروا وكبّر أيضًا، ونزل وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله السلام عليكم يا أصحاب رسول الله، مرحبًا بكم ويقدومكم فقتله أسامة، واستاق غنمه، فنزلت.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ

ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء:90-96].

ثم قال سبحانه: ﴿لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ عن الحرب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حال كونكم ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ من الدم والمرض والذمامة وغيرها ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ابتغاء لوجه الله وطلبًا لمرضاته ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ عظيمة وفاء لحق ما اجتهدوا في سبيله ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كُلاًّ﴾ منهم ممن ﴿وَعَدَ اللهُ﴾ لهم المثوبة ﴿الْحُسْنَى﴾ والمراتب العظمى والدرجة العليا ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ زيادة ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95] هو الفوز بمرتبة الشهادة.

وفضل الله لهم في تلك المرتبة ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ﴾ بعضها قريب، وبعضها أقرب إلى ما يشاء الله ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ لذنوبهم بالمرة كيوم الولادة ﴿وَرَحْمَةً﴾ خاصة لهم بأن يكونوا عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:96] لهم يرحمهم حسب فضله وطوله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:97-99].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ﴾ وهم الذين بقوا في مكة، ولم يهاجروا مع رسول الله ولا بعده، فاستزلهم العدو، وأخرجوهم إلى قتال رسول الله يوم بدر، فقتلهم الملائكة حين إمدادهم لرسول الله ﷺ ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ بتوطينها بين العدو مع القدرة على الهجرة، مع أنه حينئذ لا يقبل منهم الإيمان بلا هجرة، ثم نسخ بعد الفتح لذلك قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»[1] ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكة لهم حين

(1) حديث عائشة: أخرجه مسلم (1488/3، رقم 1864)، وابن أبي شيبة (408/7، رقم 36932). حديث صفوان: أخرجه أحمد (401/3، رقم 15341)، والنسائي (145/7، رقم 4169).

أظهروا الإيمان بمحمد ﷺ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ في أي أمر وشأن من دينكم مع كونكم بين أعداء الله ورسوله؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم معتذرين: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ محبوسين ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أرض العدو حين استزلونا وأخرجونا إلى قتال رسول الله ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة موبخين لهم مقرعين تبكيتًا وإلزامًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ مع كونكم غير ملجئين على القعود ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء المداهنون مع الأعداء المظاهرين لهم ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد عن جوار الله وسعة رحمته ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ [النساء:97] مآبًا ومتقلبًا لهم.

﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ الذين استضعفهم المرض أو الهرم أو عدم المكنة ﴿وَالنِّسَاءِ﴾ لأنهن لسن متكلفات بالهجرة إلا مع أزواجهن ﴿وَالْوِلْدَانِ﴾ وهم ليسوا من أهل التكليف، وبالجملة: المستضعفون هم الذين ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ أي: لا يقدرون على إحداث حيلة تنجيهم عن أعدائهم ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء:98] يوصلهم إلى أوليائهم حتى يهاجروا.

﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ المضطربون في أمر الهجرة المستضعفون في يد العدو ﴿عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي: يمحو عن صحائف أعمالهم زلتهم الاضطرارية، ويغفر ذنوبهم كسائر المؤمنين إن كانوا مخلصين في الإيمان ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ونياتهم ﴿عَفُوًّا﴾ لمن أخلص ﴿غَفُورًا﴾ [النساء:99] لمن تاب ورجع.

﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [النساء:100-101].

﴿وَمَن يُهَاجِرْ﴾ عن بقعة الإمكان التي هي أرض الطبيعة سالكًا ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ﴾

حديث ابن عباس: أخرجه أحمد (226/1، رقم 1991)، وابن أبي شيبة (407/7 ، رقم 36930)، والترمذي (148/4، رقم 1590)، وقال: حسن صحيح. والنسائي (146/7، رقم 4170). والبخارى (1025/3، رقم 2631)، وأبو داود (3/3 ، رقم 2480).

الذي هو الصراط المستقيم الموصل إلى الفناء فيهن، متوجهًا إلى الفوز ببقائه الأزلي السرمدي ﴿يَجِدْ فِي الأَرْضِ﴾ أرض الطبيعة ﴿مُرَاغَمًا كَثِيرًا﴾ أي: بوادي وأودية من اللذات الوهمية، كثر وقوفه فيها إلى أن ينجو ﴿وَ﴾ يجد أيضًا ﴿سَعَةً﴾ مخرجًا من تلك المضائق حسب إخلاصه في سلوكه إلى أن يفوز بمطلوبه ﴿وَ﴾ بالجملة: أن ﴿مَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ أي: هويته الباطلة في نفسها حال كونه ﴿مُهَاجِرًا إِلَى﴾ توحيد ﴿اللهِ وَ﴾ متابعة ﴿رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ الإرادي فمات عن لوازم البشرية مطلقًا ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «من أحبني أحببته، ومن أحببته قتلته، ومن قتلته فعلي ديته، ومن علي ديته فأنا ديته»[1].

من هذا تفطن العارف أن ليس وراء الله مرمى، وإياك أن تتقيد بهويتك ولوازمها، ومتى تخلصت عنها وعن لوازمها وصلت، بل اتصلت ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المرشد لعباده إلى توحيده ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب أنانيتهم وهويتهم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:100] لهم يوصلهم إلى ما يتوجهون نحوه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لا لمعصية، بل لمصلحة دينية من تجارة وغزو وحج وصلة وطلب علم، وغير ذلك ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ ضيق وزر ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ الرباعية ركعتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالاحتيال والاغتيال ﴿إِنَّ الكَافِرِينَ كَانُوا﴾ دائمًا ﴿لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [النساء: 101] ظاهر العداوة مترصدين للفرصة.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء:102].

(1) ذكره النيسابوري في التفسير (144/2).

﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِيهِمْ﴾ أي: في المؤمنين ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾ أنت لهم ﴿الصَّلَاةَ﴾ إمامًا، فرقهم فرقتين ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ متابعين لك مؤتمين بك ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: جميعها احتياطًا ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ هؤلاء المؤتمون ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أي: الطائفة الأخرى ﴿مِن وَرَائِكُمْ﴾ حارسين حافظين لكم ﴿وَلْتَأْتِ﴾ بعدما صلوا ﴿طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ كما صلوا ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ معهم ﴿حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كما أخذوا، فليكن المصلون من ورائكم كما كانوا، فيصلي الإمام صلاة الخوف مرتين مع الطائفتين، أو يوزعهما عليهما على اختلاف الفقهاء، فعليكم ألَّا تغفلوا من العدو سيما عند الخوف؛ إذ ﴿وَدَّ﴾ تمنى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ بصلاة ونحوها ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾ بغتة ﴿مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ فصادفوكم عزلاً لا سلاح معكم، فاستأصلوكم بالمرة.

﴿وَ﴾ ليس هذا الأمر للوجوب، بل ﴿لَا جُنَاحَ﴾ لا ضيق، ولا جرم ﴿عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ وغيره ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ يشق عليكم أخذها ﴿أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ لدفع الحرج ﴿وَخُذُوا﴾ حين وضعها ﴿حِذْرَكُمْ﴾ أي: من حذركم مقدار ما يحذر به إن أتوا بغتة ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر على الانتقام ﴿أَعَدَّ﴾ هيأ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ به وبرسوله ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء:102][1] بأيدي المؤمنين، يغلبهم ويذلهم، وأعد للمؤمنين النصر

---

(1) بيَّن الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمق، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارجٌ عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حقُّ الله، وسلطان الوجد حظُّ العبد، وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلوين والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف الإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد. وأيضًا: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة. وأيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك حجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنَّه ليُغانُ على قلبي» أي: شغلي بكم حين يمنعني قلبي من حظ مشاهدتي من الله. وأيضًا: أي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسةٌ عن وقوف المصلين، وشريعة بحار قدمي منزهةٌ عن ورد

والظفر بعدما أمرهم بالتيقظ والاحتياط؛ لئلا ييأسوا من عون الله ونصره.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء:103-105].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ﴾ عند الخوف على الوجه المأمور ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بعد الفراغ منها ﴿قِيَامًا﴾ قائمين ﴿وَقُعُودًا﴾ قاعدين ﴿وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ مضطجعين؛ جبرًا لما فوتم من أركانها وأبعاضها وآدابها حالة اضطرابكم ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ﴾ وزال خوفكم وارتفع رعبكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وأتموها وأدوها، مراعين جميع شرائطها وآدابها، محافظين عليها، مهتمين ﴿إِنَّ الصَّلاةَ﴾ المقربة لكم إلى ربكم ﴿كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين بوحدانية الله المتوجهين نحو فردانيته بجميع الأعضاء والجوارح ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:103] فرضًا موقتًا محدودًا، لازم الأداء لكل مكلف جبل على نشأة التوحيد.

﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: في وقت طلب الكفار قتالكم؛ إذ هم مثلكم ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَ﴾ فائدة القتال

-

الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي. وأيضًا: إذا كنت مشغولًا بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترك في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أزلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌ مرسلٌ» قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في تادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرةٍ، ولا ذهولٌ في عظمته يقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علةٌ للغير لا لهم ومما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ﴾ فجعل إقامته للصلاة أدبًا لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في متصرفاته، ولا يشهد سواه في سعاياته.

وربحه عائد بكم؛ إذ ﴿تَرۡجُونَ مِنَ﴾ فضل ﴿ٱللَّهِ﴾ لانتصاره وإعلاء كلمته ﴿مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ فما لكم تضعفون وتجبنون عنه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ الموفق لكم على القتال والأمر به ﴿عَلِيمًا﴾ بقوتكم ومقاومتكم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:104] فيما أمركم ونهى عنكم؟ فاتخذوه سبحانه وقاية لأنفسكم، وفوضوا أموركم كلها إليه، وامتثلوا لجميع ما أمر طائعين راغبين.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾ من مقام جودنا وإحساننا ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الفارق بين الحق والباطل متلبسًا بالحق الصريح ﴿بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ بالعدل الذي هو صراط الله الأعدل الأقوم خصوصًا ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: عرفك وأوصاك به ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ﴾ أي: لأجلهم ورعاية جانبهم ﴿خَصِيمًا﴾ [النساء:105] لأهل البراءة.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ١٠٩﴾ [النساء:106-109].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ من رمي البريء، والميل إلى الخائن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:106] لمن أخلص في استغفاره.

نزلت في طعمة بن أبيرق من بني ظَفر، سرق درعًا من جاره قتادة بن النعمان، هو في جراب دقيق ينثر من خرق فيه، وأودعها عند زيد بن السهني اليهودي، فلما وقف قتادة ظن أنه عند طعمة وطلب منه، فأنكر وتفحص في بيته ولم يجد، وحلف ما أخذها وما له بها علم وخبر، فتركه واتبع أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودي؛ فوجدها في بيته، وقال: أودعها عندي طعمة، وشهد له ناس من اليهود، فقالت بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله، فالتمسوا منه ﷺ أن يجادل في صاحبهم، وقالوا: إن لم تجادل عنه هلك وافتضح، فهمّ رسول الله ﷺ أن يميل ويفعل ما التمسوا مداهنة ومجادلة، فجاء جبريل عليه السلام بهذه الآية، فندم ﷺ عما همّ، واستغفر ربه، ورجع، وتضرع.

﴿وَلاَ تُجَادِلْ﴾ يا من أرسل على الحق مع المحقين ﴿عَنِ﴾ جانب المبطلين ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ باقتراف الخيانة وانتسابها إلى الغير افتراء ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المرسل لك على الحق ﴿لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ مقترفًا للخيانة ﴿أَثِيمًا﴾ [النساء:107] مفتريًا لغيره؛ تنزيهًا لنفسه عند الناس، استخفاء منهم.

وهم من غاية عمههم وجهلهم ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ خيانتهم ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع بعدهم عنهم ﴿وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والرقيب عليهم أقرب من وريدهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ يلبسون ويزورون ﴿مَا لاَ يَرْضَى﴾ الله ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ الكاذب ورمي البريء وشهادة الزور، والحلف الكاذب وغير ذلك ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المطلع بسرائرهم وضمائركم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من أمثال هذه الأباطيل الزائفة ﴿مُحِيطًا﴾ [النساء:108] لا يعزب عن علمه شيء.

﴿هَا أَنتُمْ﴾ أيها المجادلون المبطلون ﴿هَؤُلاءِ﴾ الخائنون المفترون ﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فسترتم ما عرض بهم من الخيانة والعار في هذه الدار ﴿فَمَن يُجَادِلُ اللهَ﴾ المنتقم ﴿عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويستر زلتهم عنه فيها ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ [النساء:109] بظاهرهم، وينقذهم من عذاب الله وبطشه.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (110) وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (112) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)﴾ [النساء:110-113].

﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾ معصية متعدية ليسوء به غيره رميًا وافتراء ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ بالخروج عن حدود الله بلا تعدية إلى الغير، ثم بعدما تفطن بوخامة عاقبته ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ﴾ بالتوبة والندامة الناشئة عن محض الخلوص والتيقظ ﴿يَجِدِ اللهَ﴾ الموفق له على التوبة ﴿غَفُورًا﴾ يغفر ذنوبه ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:110] يقبل توبته تفضلاً وامتنانًا.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ منكم ﴿إِثْمًا﴾ موجبًا للنكال والعذاب ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لا يتعدى وباله عنه ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المجازي لعباده ﴿عَلِيمًا﴾ بما صدر عنهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:111] فيما جرى عليهم.

﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ منكم ﴿خَطِيئَةً﴾ معصية صادرة عن خطأ لا عن قصد ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ صادرًا عن قصد وعن اختيار ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ﴾ منزهًا عند نزاهة نفسه ﴿بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ﴾ وتحمل الرامي ﴿بُهْتَانًا﴾ افتراء ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:112] ظاهرًا في إسقاط العدالة واستجلاب العذاب.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل بإنزال الوحي ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بإعلام ما هم عليه من رمي البريء ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن منهج الرشاد ومقتضى حكم الله وأمره ﴿وَ﴾ بعدما أدركك الوحي والإلهام ﴿مَا يُضِلُّونَ﴾ بتلبيسهم ﴿إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ إذ عاد وباله ونكاله عليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ أي: شيئًا من الضرر؛ لأن الله يعصمك عما لبّسوه عليك، ويأخذهم ﴿وَ﴾ عليك أن تجتنب عن تلبيساتهم وتزويراتهم، والإصغاء إلى أكاذيبهم ومفترياتهم؛ إذ ﴿أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غاية لطفه ﴿الْكِتَابَ﴾ المبين للوقائع والأحكام ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المتقنة الكاشفة عن سرائرها ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ من الحقائق والمعارف ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من قبل ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ بإعطاء هذه الفضائل ﴿عَظِيمًا﴾ [النساء:113] [1] إذ لا فضل أعظم منه.

---

(1) قال الشيخ سيدي إسماعيل حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكرته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمهما اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفي، وإذا فنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن أنانية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان7/280].

﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) ﴾ [النساء:114-116].

وإذا كان شأنك عند الله هذا، لا تبال بهم وبمعاونتهم ومصاحبتهم؛ إذ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ دعائهم ومناجاتهم في خلواتهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ نفسه ﴿بِصَدَقَةٍ﴾ على الفقراء موجبة لرحمة الله له ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ مستحسن عقلاً وشرعًا من الأخلاق الحميدة والخصائل المرضية ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ على الوجه الأحسن الأوفق ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ كل واحد من ذلك ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ خالصًا لرضاه، بل تخلل الرياء والسمعة، وقصدْ الرئاسة والجاه بين الأنام ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ من فضلنا وجودنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:114] فوق ما يستحقه.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ ويخالفه ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُ الْهُدَىٰ﴾ جاء به الرسول لدلالة المعجزات الساطعة والبراهين القاطعة على صدقه ﴿وَ﴾ مع ظهور هذه الدلائل الواضحة ﴿يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتابعين لهم كابرة وعنادًا ﴿نُوَلِّهِ﴾ على ﴿مَا تَوَلَّىٰ﴾ من الغي والضلال، ونخل بينه وبينه في النشأة الأولى ﴿وَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿نُصْلِهِ﴾ ندخله ﴿جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿وَسَاءَتْ﴾ جهنم ﴿مَصِيرًا﴾ [النساء:115] منقلبًا ومآبًا لأهلها.

أجرنا من النار يا مجير.

ثم قال سبحانه؛ تسلية للعصاة وترغيبًا لهم إلى الإنابة والرجوع: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿لَا يَغْفِرُ﴾ ولا يعفو ﴿أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ شيئًا من مصنوعاته في استحقاق العبادة، وإسناد الحوادث نحوه ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ وإن استكرهه واستنكره وندم منه، ولم يصر عليه ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بنسبه الحوادث الكائنة إلى غيره ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن جادة التوحيد ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:116] لا ترجى هدايته أصلاً.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ [النساء:117-121].

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: ما يدعون من دون الله آلهة ﴿إِلَّا إِنَاثًا﴾ وهي: اللات والعزى والمناة ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ من دونه ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء:117] مردودًا لا خير فيه أصلاً؛ إذ هو حملهم وأغراهم على عبادة الأصنام الجامدة.

وكيف يعبدونه ويدعون له وقد ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ وطرده عن عز حضوره، وأخرجه من خلص عباده بواسطة تغرير العباد وإغرائهم إلى الشرك والطغيان ﴿وَ﴾ بعدما آيس عن روح الله، وقنط من رحمته ﴿قَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ الذين طردتني بسببهم وأبعدتني لأجلهم ﴿نَصِيبًا﴾ حظًا كاملاً مما جعلته ﴿مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:118] لهم من توحيدك وتقديسك، بأن يغرهم ويلبس عليهم إلى أن يشركوا بك، وينسبوا إليك ما لا يليق بجنابك، فينحطوا بها عن كنف حفظك وجوارك، ويستحقوا سخطك وغضبك.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بأنواع الخداع والوسوسة عن طريق توحيدك ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بما يتعلق بمعاشهم في دار الغرور من الحرص وطول الأمل، وسائر مشتهيات النفس ومستلذاتها ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ بتغيير أوضاعك وتنقيص مصنوعاتك وتخريب مخترعاتك ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ ليشقن ﴿آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وأنوف الخيل، وغير ذلك من الأعمال التي عملوا مع خلقك بلا رخصة شرعية ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ بموالاتي إياهم، ومواساتي معهم إلى أن يغيروا ما خلق على مقتضى الحكمة من الأمور التي خرج بها عن الفطرة الإلهية وانحرفوا بها عن طريقه الأقوم الأعدل ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿مَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ﴾ ولاية ﴿اللَّهِ﴾ المولي لجميع أموره ﴿فَقَدْ خَسِرَ﴾ لنفسه ﴿خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:119] ظاهرة الخسارة والحرمان؛ إذ بدل ولاية الله الهادي بولاية الشيطان المضل، ولا خسران أعظم منه.

وكيف لا يكون ولاية الشيطان خسرانًا، إذ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ ما لا ينالون ويصلون إليه أصلاً، كيف يصلون وإلى أي شيء ينالون ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:120] أوهامًا وخيالات باطلة، لا وجود لها أصلاً لا حالاً ولا مآلاً؟!

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المغرورون بغرور الشيطان والضالون بإضلاله ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ ومثواهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والإمكان ﴿وَ﴾ هم ﴿لاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:121] ملجأ ومهربًا أصلاً، بل يبقون فيها مخلدًا مؤبدًا.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء:122-123].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بولاية الله وتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضى ما أمر الله ويسره ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ من فضلنا ﴿جَنَّاتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار الحقائق والمعارف والكشوفات والشهودات المتجددة بتجددات التجليات المترتبة على الأسماء والصفات الإلهية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ على هذا المنوال ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ الذي وعده لخلص عباده ﴿حَقًّا﴾ ثابتًا في علمه الحضوري قبل خلقهم بمدة لا يعرفها إلا هو، فعليكم أيها المؤمنون أن تصدقوا وعده الثابت عنده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾ [النساء:122] فيصدقوه ويثقوا به.

واعلموا أن ما ينالكم، ويصل إليكم مما وعد لكم ربكم ﴿لَيْسَ﴾ وصوله وحصوله ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي: بمجرد أماني بلا قدم وسلوك ﴿وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ﴾ أي: ليس ما يصل إليهم بأمانيهم، فلا تخالفوا، وتنازعوا معهم، بل الأمور كلها إنما هي بمقتضى فضل الله وعدله وحسب توفيقه وتيسيره، وبالجملة: ﴿مَن يَعْمَلْ﴾ منكم ومنهم ﴿سُوءًا﴾ يسوء به نفسه وغيره ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ على مقتضى عدل الله عاجلاً وآجلاً ﴿وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ ينقذه من عذاب الله ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:123] يحمل بعض عذابه تخفيفًا له.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ

يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء:124-126].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة كلها، أو بعضها سواء كان ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بتوحيد الله وجميع كتبه ورسله ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الصالحون الأمناء ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المعدة لأهل الإيمان والصلاح ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون من جزاء ما عملوا ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء:124] مقدار نقر النواة، بل يزدادون عليها ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ وأقوم سبيلاً ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ﴾ أي: سلم ﴿وَجْهَهُ﴾ المفاض له من الله ﴿لِلَّهِ﴾ المفيض لوجوه الأشياء الموجودة ﴿وَهُوَ﴾ في حالة التسليم ﴿مُحْسِنٌ﴾ مع الله مستغرق بمطالعة جماله ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ التي هي أقوم الملل وأحسنها؛ إذ هو ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة، والآراء الفاسدة مطلقًا ﴿وَ﴾ لذلك ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [النساء:125] كأنه تخلل فيه إلى حيث صار سمعه وبصره ويده ورجله على ما نطق به الحديث القدسي.

ولا يظن أنه تخلل فيه على وجه الحلول والاتحاد، بل على التوحيد الصرف الخالي عن الكثرة مطلقًا؛ إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4.3] جميع ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات ﴿وَمَا﴾ ظهر ﴿فِي الأَرْضِ﴾ أي: السفليات؛ إذ كل ما ظهر وما بطن فمنه بدأ وإليه يعود ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق والأنفس ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من مظاهره ﴿مُحِيطًا﴾ [النساء:126] لا كإحاطة الظرفية بمظروفه، بل كإحاطة الشمس بالأضواء والأظلال، وإحاطة الروح بالجسم.

أذقنا بلطفك حلاوة توحيدك.

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ

كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء:127-128].

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي﴾ ميراث ﴿النِّسَاءِ﴾ هل يرثن أم لا؟ ﴿قُلِ﴾ في جوابهم يا أكمل الرسل: ﴿اللهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ويبين لكم ﴿فِيهِنَّ﴾ ميراثهن ﴿وَ﴾ هو ﴿مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ﴾ أي: القرآن ﴿فِي﴾ حق ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وتحرمونهن عن حقوقهن ظلمًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿تَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أو تعضلوهن كرهًا ﴿وَ﴾ أيضًا في حق ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الوِلْدَانِ﴾ إذ هم كانوا لا يورثونهم كما لا يورثون النسوان ﴿وَ﴾ عليكم ﴿أَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ والعدل بلا حيف لهم في مالهم وعرضهم ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ﴾ الرقيب عليكم ﴿كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:127] فيجازيكم على مقتضى علمه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿وَإِنِ﴾ اضطرت ﴿امْرَأَةٌ﴾ إلى الفرقة والسراح بأن ﴿خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا﴾ سوء عشرته معها، وعدم رعاية حقوقها ﴿نُشُوزًا﴾ عنها وميلاً إلى غيرها ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ طلاقًا وسراحًا ﴿فَلاَ جُنَاحَ﴾ أي: لا ضيق، ولا تعب ﴿عَلَيْهِمَا﴾ أي: على الزوجين ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾ بأن أسقط كل منهما عما استحق له شيئًا، أو زاد إلى أن يتصالحا ﴿صُلْحًا﴾ ناشئًا عن التراضي من الجانبين ﴿وَالصُّلْحُ﴾ بينهما ﴿خَيْرٌ﴾ من الفرقة والطلاق ﴿وَ﴾ لكن قلما يقع إذا ﴿أُحْضِرَتِ الأَنفُسُ﴾ الأمارة بالسوء من الجانبين ﴿الشُّحَّ﴾ أي: قد صارت الأنفس حينئذ مطبوعة مرغوبة على إحضار الشح والبخل فيما وجب عليها، فلا يسمح كل منهما من حقه شيئًا، لذلك لم يرتفع النزاع والخصومة ﴿وَإِن تُحْسِنُوا﴾ أيها المؤمنون في المعاشرة مع الأزواج ﴿وَتَتَّقُوا﴾ من غضبِ الله في الخروج عن مقتضى حدوده ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الميل إلى المحارم والإعراض عن حدود الله والمخالفة لأمره ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:128] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: 129-131].

﴿وَ﴾ إن كنتم ذوي أزواج فوق واحدة ﴿لَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا﴾ وتعاشروا بالقسط إلى ألَّا يقع التفاوت والتفاضل ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ أصلاً ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ بالغتم في رعاية العدل؛ إذ الميل الطبيعي يأبى عن إقامة العدل، لذلك قيل: لا وجود للاعتدال الحقيقي سيما في أمثاله ﴿فَلاَ تَمِيلُوا﴾ أي: فعليكم ألَّا تميلوا، وتجانبوا عما تميلوا عنه ﴿كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا﴾ إلى حيث تتركوها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ لا أيمًا ولا ذات بعل ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ بعدما أفسدتم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ عن غضب الله في إضاعة حقها ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع ما صدر ويصدر عنكم ﴿كَانَ غَفُورًا﴾ لكم بعد ما تبتم ورجعتم عما صدر عنكم ﴿رَّحِيمًا﴾ [النساء:129] لكم يقبل توبتكم إن أخلصتم فيها.

﴿وَإِن﴾ يتنازعا حتى ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ وارتفع النكاح بينهما ﴿يُغْنِ اللهُ﴾ بفضله ﴿كُلاًّ﴾ منهما عن الآخر ﴿مِّن سَعَتِهِ﴾ أي: من سعة رحمته وبسطة رزقه وفسحة مملكته ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المتفضل لعباده ﴿وَاسِعًا﴾ لهم في عطائه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:130] في إعطاء ما ينبغي.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون واسع العطاء؛ إذ ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل جميع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وما بينهما ملكًا وخلقًا، وتدبيرًا وتصرفًا، وإيجادًا وإعدامًا، وإبقاءً وإفناءً، وإذا كان الأمر على هذا فعليكم أن تتقوا من الله في السراء والضراء والخصب والرخاء ﴿وَ﴾ اعلموا أنا ﴿لَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: اليهود والنصارى، وجميع من أنزل إليهم الكتاب في كتبهم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا في كتابكم هذا ﴿أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ المالك لأزمة الأمور بالاستحقاق، وأطيعوا أمره وتوجهوا نحوه، ولا تكفروا به ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ وتعرضوا من غاية جهلكم وعنادكم عما فرض عليكم أصلاً إصلاحًا لحالكم، فاعلموا أن الله الغني بذاته لا يبالي بكفركم وإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ رجوع ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ إرادة وطوعًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَانَ اللهُ غَنِيًّا﴾ مستغنيًا في ذاته وصفاته عن العالمين، وعن كفرهم

وإيمانهم ﴿حَمِيدًا﴾ [النساء:131] في نفسه حمد أو لم يحمد، وكيف لا يكون سبحانه غنيًا في ذاته حميدًا في نفسه؛ إذ ليس في الوجود غيره ولا شيء سواه ليحمده؟!.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء:132-134].

بل ﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه المستغني عن الأكوان الباطلة مطلقًا ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: الأسماء والصفات المترتبة على تجليات الذات وتشعشعاتها ﴿وَمَا﴾ انعكس منها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الطبيعة العدم التي هي بمنزلة المرآة المقابلة لها ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ أي: كفى الله المتجلي لذاته بذاته في ملابس أسمائه وصفاته ﴿وَكِيلًا﴾ [النساء:132] في مظاهر ظلاله وعكوسه، وليس نسبتكم على الله أيها المنهمكون في بحر الغفلة، المحجوبون بحجاب التعينات العدمية لا بالمظهر والظلية.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أي: الأظلال المحجوبون عن شمس الذات، الناسون في ظلمة العدم نور الوجود ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِآخَرِينَ﴾ أي: بأظلال أخر تذكروا لها، وتتوجهوا نحوها، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ في ذاته ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الإذهاب والتبديل ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:133] لا يفتر قدرته أصلاً، بل على هذا جريان سنته دائمًا؛ إذ هو كل يوم وآن في شأن، مع أن المحجوب لم يتنبه ولم يتفطن، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

نوّر قلوبنا بمعرفتك، وأبصارنا بمشاهدتك، وأرواحنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بالجهاد والقتال وجميع الأعمال المأمورة من عند الله ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وما يصل إليها فيها من الغنيمة والرئاسة والتفوق على الأقران، وعلو المرتبة بين الأنام ﴿فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا﴾ إنجاحًا لمطلوبه ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿سَمِيعًا﴾ لمناجاتهم ﴿بَصِيرًا﴾ [النساء:134] بحاجاتهم، يوصلهم إلى غاية متمناهم مع زيادة إنعام وإفضال من عنده.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ

﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: 130-136].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ مداومين مواظبين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بإقامة العدل والإنصاف بينكم، وإن كنتم ﴿شُهَدَاءَ﴾ في الوقائع كونوا شهداء مخلصين ﴿لِلَّهِ﴾ في أدائها بلا ميل وزور وإخفاء ﴿وَلَوْ﴾ كنتم شاهدين ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ باعتراف ما على ذمتكم من حقوق الغير ﴿أَوِ﴾ ذمة ﴿الْوَالِدَيْنِ وَ﴾ ذمم ﴿الْأَقْرَبِينَ﴾ فعليكم أيها الشهداء أن تقسطوا في أداء الشهادة بلا حيف وميل ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ المشهود عليه، أو المشهود له ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ يعني: ليس لكم أن تراعوا جانب الفقير وتجانبوا عن الغني، بل ما عليكم إلا أداء ما عندكم من الشهادة على وجهها ﴿فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ برعايتهما وإصلاحهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ أي: ما تهوى نفوسكم، وتميل قلوبكم إليه إن أردتم ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ في أداء الشهادة ﴿وَإِنْ تَلْوُوا﴾ تغيروا وتحرفوا ألسنتكم عما ثبت وتحقق عندكم ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عن أدائها مطلقًا، ألجموا بلجام من نار على ما نطق به الحديث، صلوات الله على قائله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي لعباده ﴿كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من تغيركم وإعراضكم ﴿خَبِيرًا﴾ [النساء:135] يجازيكم على مقتضى خبرته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الذين يدعون الإيمان، ويجرون كلمة التوحيد على اللسان على وجه التقليد والحسبان، وينكرون طريق أهل التوحيد والعرفان، وينسبون أهله إلى الإيمان والطغيان ﴿آمِنُوا﴾ أيقنوا وأذعنوا ﴿بِاللَّهِ﴾ المتفرد في ذاته المتوحد في أسمائه وصفاته حتى عوينوا، وكوشفوا بتوحيده ﴿وَرَسُولِهِ﴾ أي: خليفته المصورة بصورته المبعوث على كافة بريته، الجامع لجميع مراتب أوصافه وأسمائه ﴿وَالْكِتَابِ﴾ المبين لطريق توحيده ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ من فضله ولطفه ﴿عَلَى رَسُولِهِ﴾ المظهر لتوحيده الذاتي ﴿وَ﴾ جميع ﴿الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ من عنده ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ على الرسل الماضين المبعوثين على الأمم الماضية، الظاهرين بتوحيد صفاته وأفعاله ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ الأحد الصمد باعتقاد الوجود لغير الله من الأظلال والعكوس ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ أوصافه

وأسمائه المتشئة من شئونه وصنوف كمالاته ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المتحبة من شئونه وتصوراته وتنزلاته على هيئة الصوت والحرف؛ ليبين بها طريق التوحيد على التائهين في بيداء الغفلة، المنهمكين في بحر الضلال ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المكاشفين بمقاصد كتبه، المتحققين المتصفين على جميع ما أمر ونهى فيها المأمورين بتبليغها والإرشاد إلى مقاصدها ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعد لجزاء من يتنبه ويتفطن من إنزال الكتب وإرسال الرسل، ومن لم يتنبه ولم يتفطن؛ إذ الحكمة تقتضي التفضل والترحم على من تنبه إلى طريق الحق بعد ورود المنبه والمبين، والانتقام على من لم يتنبه ولم يؤمن، بل ينكر ويكفر، ومن يكفر ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:136] [1] إلى حيث لا يتمنى هدايته وفلاحه.

من يضلل الله فلا هادي له، نعوذ بك منك يا أرحم الراحمين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ

---

(1) قال الشيخ روزبهان: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقًا بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدْعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشوف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف، وأيضًا: لهذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومَنْ ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنعٌ بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليقة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند إفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادثٌ يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منزَّهةٌ عن الإيمان والكفر، سُئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السِرِّ من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿آمَنُوا﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ يريد تكرار الإيمان، وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطةٍ، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط، قال الأستاذ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان. ويقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تحتم بعفوه الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غالبًا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعةٌ مقدسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ ووصلٍ وفصلٍ.

﴿لِّمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

[النساء:137-140].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله حين ظهر موسى كليم الله وبعث إليهم ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ به وبدينه حين ظهر عليهم السامري بالعجل ﴿ثُمَّ آمَنُوا﴾ بعد رجوع موسى من ميقاته ﴿ثُمَّ﴾ لما ظهر الزمان بانقطاع الوحي وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وقع في أمر الدين فترة وضعف، أرسل عليهم عيسى عليه السلام وأنزل عليه الإنجيل؛ ليبين لهم طريق توحيده ﴿كَفَرُوا﴾ به وكذبوا بكتابه عنادًا واستكبارًا.

وبعدما انقرض جيل عيسى عليه السلام، أظهر سبحانه النبي الموعود في كتبه السالفة بأنه سيأتي نبي مبعوث على كافة البرية بالتوحيد الذاتي، وله دين ناسخ لجميع الأديان، وكتابه ناسخ لجميع الكتب، وبه يُختم أمر النبوة والوحي والإرسال والإنزال؛ إذ بظهوره كمل طريق التوحيد والعرفان ﴿ثُمَّ﴾ لما ظهر وتحقق عندهم ظهوره ﴿ازْدَادُوا﴾ به ﴿كُفْرًا﴾ وتكذيبًا، وأصروا على ما هم عليه عتوًا وعنادًا ﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده والماحي لذنوبهم ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ إن بقوا على كفرهم وإصرارهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:137] إن انهمكوا في الغي والضلال.

﴿بَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ منهم، وهم الذين يدّعون الإيمان بك وبكتابك وبدينك على طرف اللسان، وقلبهم على الشقاق والطغيان الأصلي ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾ عند ربهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:138].

وحذر منهم ومن سراية خبثهم المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ﴾ المصرين على الكفر بالله وتكذيب الرسول ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء أصدقاء يصاحبونهم ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قل للمتخذين من المؤمنين نيابة عنا: ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون ﴿عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ ويعتقدون أنهم أعزة يتعززون بهم وبمصاحبتهم وموالاتهم مع أنه لا عزة لهم حقيقةً، بل ضربت عليهم الذلة والهوان ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ﴾ والغلبة والكبرياء والبسطة والبهاء ﴿لِلَّهِ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿جَمِيعًا﴾ [النساء:139] لا يسع لغيره أن يتعزز في

نفسه إلا بفضله وطوله.

ومن فضل الله لكم ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ المبيّن لدينكم، المنزل على نبيكم ﴿أَنْ﴾ أي: أنه ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ وعلمتم حين تلاوتكم ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ على رءوس الملأ أنه ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ - العياذ بالله - ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ مع هؤلاء الكفار المستهزئين بل اتركوهم ومجالستهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فإن لم تتركوهم، وتخرجوا من بينهم صرتم متسببين للكفر، والاستهزاء بآيات الله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ حين لم تتركوهم وتقعدوا معهم ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ في استحقاق العذاب والنكال ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتعزز بالمجد والبهاء لقادر على كل ما أراد وشاء ﴿جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ المداهنين ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، المستهزئين ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان، وسعير الطرد والحرمان ﴿جَمِيعًا﴾ [النساء:140] مجتمعين بلا تفاوت في العقوبة.

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141) إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)﴾ [النساء:141-143].

وكيف لا يجمع المنافقون مع الكافرين، وهم ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون لمقتكم وهلاككم أيها المؤمنون المخلصون ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ وغنيمة ﴿مِّنَ﴾ نصر ﴿اللَّهِ﴾ عليكم ﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ وفي عسكركم، لِمَ لَمْ يسهموا علينا، ولم يستخرجوا حقنا من الغنيمة؟ ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ﴾ المقاتلين ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ من الاستيلاء والغلبة ﴿قَالُوا﴾ للكفرة إظهارًا للمؤاخاة والمظاهرة: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ ولم نستعن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالتكاسل والتواني وعدم الإعانة والمظاهرة عليهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم ﴿وَنَمْنَعْكُم﴾ بهذه الحيل ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

فعليكم أن تشركونا فيما أصبتم منهم؛ إذ كنا متسببين لهم، لا تبالوا أيها المؤمنون بإيمان هؤلاء المنافقين وادعاء وفاقهم، ولا بنفاقهم وشقاقهم ﴿فَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المعد للفصل والانتقام ﴿وَ﴾ إن احتجوا عليكم،

وادعوا الإيمان؛ تلبيسًا في هذه النشأة ﴿لَن يَجْعَلَ اللهُ﴾ المولي لأمور عباده ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ المنافقين الملبسين ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين، المخلصين ﴿سَبِيلاً﴾ [النساء:141] حجةً ودليلاً في النشأة الأخرى؛ إذ فيها تُبلى السرائر، وتُكشف الضمائر، وتُجزى كل نفس بما تسعى.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق، يتخيلون أنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ﴾ ويلبسون عليه، كخديعهم وتلبيسهم على المؤمنين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وماكرهم باقتدارهم على هذا الخداع؛ إذ يترتب عليه من الجزاء ما لو علموا لهلكوا ﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم وشقاقهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى﴾ أداء ﴿الصَّلاةِ﴾ مع المؤمنين ﴿قَامُوا كُسَالَى﴾ مبطئين، متكاسلين، وليس غرضهم منها سوى أنهم ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ حتى يظنوا أنهم مؤمنون، مخلصون ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ في الصلاة ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:142] منهم، أخلصوا في نفسه، ولم يظهروا لخوفهم، والحاصل أن أهل النفاق ليسوا من الكافرين عند الكافرين، وأيضًا ليسوا من المؤمنين عند المؤمنين.

بل ﴿مُذَبْذَبِينَ﴾ مردّدين ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بحيث ﴿لاَ﴾ ينسبون ﴿إِلَى هَؤُلاءِ﴾ المؤمنين ﴿وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ﴾ الكافرين، وهم في أنفسهم ضالين، وعند الله مردودين ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ﴾ ويحيله على الضلال ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ [النساء:143] إلى الهداية أصلاً.

اهدنا بلطفك إلى الصراط المستقيم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾ [النساء: 144-147].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ

المُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ﴾ بصنيعكم هذا ﴿أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ﴾ المحاسب، المجازي لأعمال عباده ﴿عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتخذون ﴿سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:144] حجة واضحة على كفركم ونفاقكم؛ إذ من فعلكم هذا يلوح أثر النفاق والشقاق مع المؤمنين، فعليكم ألّا تصاحبوهم، ولا تتخذوهم أولياء، سيما بعد ورود النهي، حتى لا تلحقوا بهم، ولا تحشروا في زمرتهم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ المصرين على النفاق ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾ والمرتبة الأرذل، الأذل ﴿مِنَ النَّارِ﴾ المعدّ لجزاء العصاة، الطغاة، الضالين عن طريق الحق وصراطه المستقيم ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:145] يشفع لهم، وينجيهم منها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ وندموا عمّا جرى عليهم من النفاق ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ بالتوبة ما أفسدوا بالنفاق من شعائر الإيمان والإسلام ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ وفضله ولطفه حين رجعوا إليه، وتوجهوا نحوه ﴿وَ﴾ بعدما تابوا واعتصموا بالله ﴿أَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ إطاعتهم وانقيادهم ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن الشريك والنظير، المقدس عن المشير والظهير، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير ﴿فَأُولَئِكَ﴾ السعداء، المقبولون عند الله ﴿مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في روح الله وكنف لطفه ورحمته ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:146] هو الفوز بشرف اللقاء.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾ طردكم وحرمانكم ﴿إِن شَكَرْتُمْ﴾ تحققتم بظهوره في هوياتكم الباطلة، وأسندتم ما صدر وظهر منكم إليه أصالةً واستقلالاً ﴿وَآمَنتُمْ﴾ عرفتم توحيده، واعترفتم به ﴿وَ﴾ متى فنيتم في هوية الحق ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ بذاته ﴿شَاكِرًا﴾ لنعمه ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:147] بنفسه، ولقد أحسن من قال:

لقد كنت دهرًا قبل أن يكشف الغطا ... أخـال بإنـي شـاكر لـك ذاكـر

فلمـا أضـاء الليـل أصبحت شـاهدًا ... بأنـك مذكـور وذكـر وذاكـر

﴿۞ لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ [النساء:148-151].

ومن مقتضيات التوحيد أيها المتوجهون نحوه ألّا تظهروا، وتبثُّوا إلى الله الشكوى في الأمور المتعلقة بالدنيا، ولا تلحوا في المناجاة والدعاء، فإن ناقدكم بصير بحاجاتكم، وعليكم الرضا بما جرى عليكم من القضاء، ونعم القرين الرضا؛ إذ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ﴾ المتجلي باسم الرحمن على ذرائر الأكوان، معتدلاً، مستويًا بلا تفاوت، ولا يمدح عنده ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ والإشاعة ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: لا يحب أن يجهر بالقبيح، المستهجن عقلاً وشرعًا، ويبالي بشأنه، ويستدعي لأجله؛ إذ لا يجري في ملكه إلا العدل والخير، خصوصًا الجهر ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا﴾ جهر ﴿مَن ظُلِمَ﴾ فإنه سبحانه يحبه، ويبادر إلى إجابته؛ إذ الظالم خارج عن مقتضى عدل الله وصراطه المستقيم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ المتجلي على العدل القويم ﴿سَمِيعًا﴾ لجهر المظلوم ﴿عَلِيمًا﴾ [النساء:148] بظلم الظالم، وبما استحق له من الجزاء، يجازيه على مقتضى علمه.

﴿إِن تُبۡدُواْ﴾ أيها المؤمنون، وتظهروا ﴿خَيۡرًا﴾ على رءوس الأشهاد ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي: تعطوه خفية عن الناس ﴿أَوۡ تَعۡفُواْ﴾ تجاوزوا عن الظالم، ولم تنتقموا منه، ولم تتضرعوا إلى الله المنتقم ﴿عَن سُوٓءٖ﴾ فعل الظالم بكم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لسرائركم ونياتكم ﴿كَانَ عَفُوّٗا﴾ عنكم، ماحيًا لذنوبكم مع كونه ﴿قَدِيرًا﴾ [النساء:149] على انتقامه منكم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ ويشركون له بإثبات الوجود لغيره ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: يكفرون برسله، ويكذبونهم مع كونهم مبعوثين على الحق من عنده ﴿وَ﴾ مع كفرهم وتكذيبهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ﴾ المتوحد، المتفرد بذاته، المستقل في وجوده ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ المستخلفين من عنده بظهوره عليهم بجميع أسمائه وصفاته ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من غاية جهلهم بظهور الله، واستيلائه على مظاهره: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ﴾ من الرسل ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ آخر، مع أن ظهوره في الكل على السواء بلا تفاوت ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ ويتوهمون ﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ ويثبتوا ﴿بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ارتباط الظاهر بالمظهر والمظهر بالظاهر ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء:150] غير سبيل لاحق المطابق للواقع.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء، المتوغلون في الكفر ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ أي: الكافرون المنهمكون فيه، المنتهون إلى مرتبةٍ لا يعبأ بإيمانهم أصلاً ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ المستغرقين في الغي والضلال ﴿عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء:151] مذلاً، مسقطًا لهم عن

مرتبة الإنسانية بعدما جبلوا عليه صورةً؛ إذ لا إهانة أشد من ذلك.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾ [النساء:102-104].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ المتفرد في الوجود ﴿وَ﴾ اعترفوا بظهوره في ﴿رُسُلِهِ﴾ بجميع أوصافه وأسمائه ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالإيمان والكفر، بل يؤمنوا بجميعهم على السوية ﴿أُولَئِكَ﴾ السعداء، الموفقون بهذه الكرامة في هذه النشأة ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ تفضلاً عليهم في النشأة الأخرى ﴿أُجُورَهُمْ﴾ بأضعاف ما استحقوا عليه ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا؛ إذ ﴿كَانَ اللَّهُ﴾ الموفق لهم على الهداية ﴿غَفُورًا﴾ لذنوبهم المبعدة عن طريق توحيده ﴿رَحِيمًا﴾ [النساء:152] لهم، يوصلهم إلى ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ من غاية جهلهم بالله، ونهاية غفلتهم عنه ﴿أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ على مقتضى ما تهوى نفوسهم، وترضى عقولهم، ولا تستكبر منهم هذا ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ وأشد بعدًا واستحالةً ﴿فَقَالُوا﴾ من غاية بعدهم عن الله، ونهاية حجابهم عن مطالعة جماله: ﴿أَرِنَا اللَّهَ﴾ الذي تدعونا إليه، وترشدنا نحوه ﴿جَهْرَةً﴾ ظاهرة معاينة كالموجودات الأخر، وما قدروا الله حق قدره، لذلك أرادوا أن يحصروا، ويحيطوا به، مع أنه سبحانه أجلُّ من أن يشار إليه، ويحاط به، ويدرك على ما هو عليه؛ إذ الإشارة والإحاطة والإدراك إنما هو منه وبه وفيه وإليه، ومن هذا شأنه كيف يدرك ويحس؟.

ونهاية حال الواصلين إليه أنهم انخلعوا عن هوياتهم الباطلة بالمرة، وفنوا في هويته واضمحلوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾

النازلة من السماء ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ هذا فهلكوا ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تابوا، ورجعوا إلى الله، واستشفع لهم موسى صلوات الله عليه ﴿اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلهًا، وحصروا الألوهية فيه حين لبَّس عليهم السامري وخادعهم به، مع أن اتخاذهم هذا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الواضحة، الدالة على توحيد الله وتقديسه من الحصر والإحاطة ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ أيضًا بعدما رجعوا إلينا والتجئوا نحونا متذللين ﴿وَآتَيْنَا﴾ بعد ذلك ﴿مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:153] حجة واضحة، ومعجزة ملجئة لهم إلى الإيمان.

﴿وَ﴾ ذلك أن ﴿رَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ معلقًا ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بسبب أن نأخذ منهم العهد الوثيق، إن جاءوا به أزلنا عنهم، وإن أبوا أسقطنا عليهم ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ أيضًا بعدما أخذنا الميثاق عنهم على لسان موسى ﷺ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي: البيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ حال كونكم ساجدين، واضعين جباهكم على تراب المذلة، فدخلوا مسرعين ومزحفين، فنقضوا ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ أيضًا ميثاقًا ومعاهدة على لسان داود ﷺ: ﴿لَا تَعْدُوا﴾ لا تجاوزوا، ولا تخرجوا عن حدٍّ، ولاسيما ﴿فِي السَّبْتِ﴾ أي: اصطياد الحيتان فيه، فاحتالوا في اصطيادها، فنقضوا ما عهدوا ﴿وَ﴾ بعدما ﴿أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:154] أي: مواثيق غلاظ على إرادة الجنس، فنقضوا الكل، وخالفوا الأمر.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)﴾ [النساء:100-108].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبنقضهم المواثيق الغلاظ والعهود المؤكدة، فعلنا بهم ما فعلنا من الابتلاءات والاختبارات، وتحريم المباحات وأنواع البليات والأذيات ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على توحيده، المنزل على خلَّص عبيده ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ المعصومين عن الجرائم مطلقًا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بلا رخصة شرعية ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ للأنبياء والرسل حين دعتهم للإيمان عتوًا واستكبارًا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أوعية مملوءة بالحقائق والمعارف، مختومة، لا يسع فيها ما جئتم به، والحال أنهم ليس في قلوبهم ما يتعلق

بأمور الدين مقدار خردلةٍ ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا﴾ باسمه المضل، المذل، وختم عليها ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وشركهم ﴿فَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يوفقون على الإيمان منهم ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء:155].

﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وسترهم الحق؛ عنادًا ومكابرةً ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ رميًا وافتراءً ﴿عَلَى مَرْيَمَ﴾ المنزهة عن الكدورات مطلقًا ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء:156] يتهمونها، ويرمونها بالزنا مع عصمتها وطهارة ذيلها.

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ أيضًا إرجافًا وإسماعًا وتبجحًا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مع كونه ﴿رَسُولَ اللهِ﴾ وكلمته وروحًا منه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ لأنه في حمى الله وفوق سمائه ﴿وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ رجل منهم؛ أي: ألقى الله شبهه على حارس منهم يحرسه؛ ليظفروا عليه، فرفع المشبه به فبقي المشبه، فقُتل وصُلب، ثم اختلفوا فقالوا: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان صاحبنا، فأين هو عيسى؟ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ في قتله وصلبه ورفعه إلى السماء ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ ترددٍ وارتيابٍ ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ وبأمره ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ تصديقٍ ويقينٍ ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ والظن لا يغني عن الحق شيئًا ﴿وَ﴾ الحق أنه ﴿مَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء:157][1] كما زعموا.

---

(1) قال سيدي البيطار: قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: 55] تعلقت بصمتي بالله تعالى أن يكشف لي حقيقة هذا التوفي فورد على قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] فعلمت أن الله تجلى على عيسى ﷺ باسمه الحق فزهق، أي: اضمحل باطل خلقيته فظهر حقه وبطن خلقه، وهو المراد بالدمغ؛ لأن الدمغ هو الشجة التي تبلغ الدماغ فيظهر ما بطن، والدماغ باطن الرأس، ولما كان عيسى بهذه المثابة رفعه الله إليه، فهو الحق حينئذ، فينسب إليه ما يُنسب إلى الحق تعالى من الإيجاد والإحياء والإماتة وإبراء الأكمه والأبرص، ولذلك لما أرادوا قتله وصلبه أنشأ مثالاً من نفسه على صورته فتمثل لهم كما تمثل جبريل لأمه بشرًا سويًا، ورُفع إلى الله، ولا يمكن الوصول إلى التسلط على الله فقتلوا وصلبوا تلك الصورة التي على شاكلة عيسى. فلهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157] أي: قتلوا الشبه وصلبوه، الذي هو على صورة عيسى، فلم يشك اليهود أنهم قتلوا عيسى بعينه، حتى النصارى قالوا: رفع اللاهوت وصلب الناسوت، وهذا من الخرافات الباطلة؛ لأن لاهوت عيسى عين ناسوته، فإن الله أخبر أنه رفعه إليه، والله تعالى حقيقة اللاهوت والناسوت، وهذا الرفع ليس رفع مكان بل رفع مكانة بالتجلي الإلهي الذاتي، فناسوت عيسى عين ذات الله بنص الله، فإن الله قال فيه: روح الله وروح الله عينه،

﴿بَل﴾ الحق أنه ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليه، المتولي لحفظه وأمره ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى كنفه وجواره؛ إنجازًا لوعده في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:55][1]

فلذا قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء: 157] أي: شبهًا وتمثيلاً، فإن الله لم ينف التشبيه والتمثيل بل نفى القتل والصلب عنه، فكان عيسى من كونه روح الله مقتدرًا أن يظهر بكل صورة في الوجود، وما أجهل من يقول: إنه رفع إلى السماء، فإن الله تعالى لم يقل: ورافعك إلى السماء، بل قال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران:55]. فإن قلت قد ورد الحديث: «ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير» إلى آخر الحديث، وهو حديث صحيح لاشك فيه، فالمراد بهذا النزول تنزله من رتبة﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:11]إلى مرتبة الظهور بالصورة الحسيّة لنا مع أنه فينا، فهذا نزول إلهي مثل قوله: «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا» مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ [الزخرف: 84] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: 4] والحاصل أن الله رفعه من الخلقية إلى الحقيّة فاستحق التحقق بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: 4] فعيسى عليه السلام في السماوات وفي الأرضين حي بحياة الحي القيوم إلى أن يتزوج في الأرض ويولد له، فيظهر عند ذلك موته وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ فالضمير في خلقه راجع لآدم لا إلى عيسى؛ لأن عيسى لم يكن أصله التراب بل الروح، وقال الشيخ الأكبر قدس الله سره: معنى تشبيه عيسى بآدم بالنسبة لتمام الدورة بظهور ذكر- وهو عيسى - من أنثى - وهي مريم - كما ظهرت أنثى - وهي حواء - من ذكر وهو آدم، أقول: على هذا يكون عيسى عليه السلام شبيهًا بحواء لا بآدم، والذي يظهر لي في التشبيه الدوري أنه كما ظهرت إنسانية آدم من جسم ترابي ظهرت إنسانية عيسى من روح قدسي، فانفصل آدم من الجسم، وانفصل عيسى من الروح الإلهي، وكانت مريم مجلي تجلي هذا الروح، فعيسى ما اكتسب الصورة إلا من أمه مريم، والصورة أمر حكمي لا وجودي عيني، فعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأخبر الله أنه روح منه فلم ينسبه إلى جبريل بل قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: 17]، وروح الله عينه، فلو قالوا: إن الله هو المسيح ولم يقيدوه بمريم ولم يحصروه لما كفروا، ولكنهم حصروا الله في الجسم البشري، مع أن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:11] بل ليس معه شيء، فافهم.

(1) قال سيدي سهل بن عبد الله التستري: فإنه إذا مات فينتزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري، فيستيقظ النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زايله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح، وحياة روح لطيف نفس

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا، مقتدرًا على رفعه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:158] في قتل من شبه له؛ ليرجعوا بها.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ۚ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [النساء:109-162].

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: ما من جميع من أنزل إليه الكتاب من المسلمين والنصارى واليهود، وسائر من أنزل إليهم أحدٌ مكلف ﴿إِلَّا﴾ وقد وجب له ولزم عليه، إنه ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي: بعيسى - صلوات الله عليه وسلامه - حين نزوله؛ لتقوية دين سيدنا محمد ﷺ؛ إذ هو جامع لجميع الأديان؛ لإتيانها على التوحيد الذاتي.

وعند ظهوره ﷺ اتحدت الأديان كلها، إلا أن المحجوبون لا يفهمون، مع أن عيسى - صلوات الله عليه وسلامه - من عجائب صنع الله، وبدائع مبدعاته، وغرائب مخترعاته، ومن أعزة أنبيائه وأجلّة رسله، فلا بد أن يكون الإيمان به ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إذ حُكي في الحديث النبوي: إنه ينزل من السماء، ويعيش في الأرض زمانًا، ويؤمن له جميع من في الأرض، ثم يموت قريب الساعة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جميع من آمن له، واتبع هداه ﴿شَهِيدًا﴾ [النساء:159] يشهد لهم بالإيمان عند الله.

الروح بالذكر، كما قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:169] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جميعاً بالذكر والسعي بالذكر، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيئان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر، قال: فذكرت ذلك لسهل، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

﴿فَبِظُلْمٍ﴾ خروج عن حدود الله، ونقض لعهوده صدر وظهر ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ في كتابهم ﴿طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ فيما مضى ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿بِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: إعراضهم عن طريق الحق إعراضًا ﴿كَثِيرًا﴾ [النساء:160].

﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا﴾ من المضطرين أضعافًا مضاعفة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ في دينهم وكتابهم ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بلا رخصة شرعية، مثل: السرقة، والغصب، والربا، والرشوة، وحيل الفقهاء، وتزويراتهم التي ينسبونها إلى الشرع الشريف افتراءً، وتلبيسات أهل التشيخ والتدليس من هذا القبيل، ومن عِظَم جُرم هؤلاء أسند سبحانه انتقامهم إلى نفسه بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ صيّرنا وهيّأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الساترين طريق الحق ﴿مِنْهُمْ عَذَابًا﴾ بعيدًا، وطردًا ﴿أَلِيمًا﴾ [النساء:161] مؤلمًا؛ لتحسرهم على مرتبة أهل القرب والعناية.

﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين يرتقون من مرتبة العلم إلى العين والحق ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدقون الذين ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ بلا تفريقٍ وتفاوتٍ؛ إيمانًا واحتسابًا ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ وهم الذين يديمون الميل بجميع الأعضاء والجوارح؛ إطاعةً وانقيادًا؛ إذ رجوع الكل إليه ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وهم الذين يؤتون ما نسب إليهم من زخرفات الدنيا؛ طلبًا لمرضات الله، وهربًا عن التعلق بغيره ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: الذين يوقنون بتوحيد الله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ المعدّ لثمرة الأعمال الصالحة في طريقه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ السعداء، الأمناء، الموحدون، المخلصون ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾ من لدنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:162] هو الفوز بشرف اللقاء.

ربنا آتنا من لدنك رحمةً، إنك أنت الوهاب.

ورسوخ الراسخين إنما يحصل من إلهامنا ووحينا وإعلامنا، وإيقاظنا إياهم من سِنَة الغفلة ونعاس النسيان، وإرشادنا لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم من عندنا وذلك سنتنا المستمرة، وعادتنا القديمة، لا يحتاج فيها للإلحاح والاقتراح.

﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى

ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء:163-160].

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيۡكَ﴾ يا أكمل الرسل الكتاب الجامع لجميع ما في الكتب السالفة على الوجه الأبلغ، الأبيَن لطريق التوحيد ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ﴾ صحفًا مبينة لطريق التوحيد والتنزيه؛ قدم لكونه أول من أنزل إليه الكتاب، وأقدم من سائر الأنبياء ﴿وَ﴾ أوحينا أيضًا بعد نوح إلى ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ما يبنون به طريق الحق من الكتب والصحف ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ﴾ خصوصًا ﴿إِلَىٰٓ﴾ آبائك ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ المتخلق بأخلاقه الإلهية، المتحقق بمقام الخلة ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ المتمكن بمقام الرضا والتسليم.

﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ المترقب، المتوجه إلى الحق من كل صورة وشكل؛ لتحققه بمقام التوحيد ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ المتوجه إلى الله في السراء والضراء؛ لتحققه في مقام التفويض ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ المتوجهين إلى الله في جميع حالاتهم؛ منهم: يوسف المترقي من الصور الخيالية إلى الأمور العينية والغيبية لصفاء ظاهره وباطنه عن الكدورات البشرية ﴿وَعِيسَىٰ﴾ المؤثر في العلم بالتأثرات الإلهيات والنفسات الرحمانية؛ لاضمحلال ناسوتيته في لاهوتية الحق ﴿وَأَيُّوبَ﴾ المتحقق في مقام الصبر والرضا بما جرى عليه من القضاء؛ لتحققه بمقام العبودية ﴿وَيُونُسَ﴾ المتحقق في مقام الخوف والرجاء مع الله.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ المتمكن في مرتبة الأمانة والديانة واطمئنان النفس ﴿وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ الجامع لجميع مراتب عالم الشهادة؛ لتحققه في مقام البسطة والاستيلاء ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿دَاوُۥدَ﴾ المتحقق بمقام الحكمة المقتضية للتدبيرات الواقعة بين مراتب الإلهية ﴿زَبُورٗا﴾ [النساء: 163] يفصل به بين الحق والباطل والخطأ والصواب.

﴿وَ﴾ كما أرسلنا هؤلاء المذكورين، أرسلنا أيضًا ﴿رُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ في كتابك ﴿مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَ﴾ كمل أمر الوحي في موسى؛ إذ ﴿كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ المرسل للرسل، المنزل للكتب ﴿مُوسَىٰ﴾ المتحقق بمقام القرب والوصول ﴿تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:164] [1] لا يدرك كيفيته، ولا يكتنه لميته.

---

(1) بيّن تخصيص موسى ﷺ بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى ﷺ من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا -

وإنما أرسلنا ﴿رُسُلاً﴾ وأنزلنا معهم كتبًا؛ ليكونوا ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ للناس بالتوحيد وسائر المأمورات الواردة في طريقه، المؤدية إليه ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لهم عن الشرك المنافي له وعن جميع المحرمات المفضية إليه ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المجبولين على الجدال والنزاع ﴿عَلَى اللهِ﴾ المنزه عن المجادلة والمراء ﴿حُجَّةٌ﴾ متمسك وغلبة حين أخذهم بالانتقام يوم الجزاء إذ لا يبقى لهم مجادلة ومراء ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ لإهدائهم إلى طريق الحق وسبيل التوحيد مع كونهم مؤيدين بإنزال الكتب من عنده ﴿وَكَانَ اللهُ﴾ المستقل في الألوهية ﴿عَزِيزًا﴾ غالبًا في أوامره ونواهيه ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:165] في تدبيراته المتعلقة بها.

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)﴾ [النساء:166-170].

ومن غاية جدالهم ونزاعهم يجادلون غالبًا معك في رسالتك وكتابك، ولا يشهدون لك وبحقية كتابك، وبصدقك في رسالتك، مع كونك مشهودًا في كتبهم وعلى لسان رسلهم؛ مكابرةً وعنادًا، لا تبال بهم وبشهادتهم، ﴿لَّكِنِ اللهُ﴾ المطلع للسرائر والخفيات ﴿يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي: بحقيته، وصدقك فيه، وبأنه ﴿أَنزَلَهُ﴾ إليك

حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:11.10]، وأن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه، فيسمع بها كلامه، كما حكى ﷺ عنه تعالى: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به»، أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزّهٌ عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيءٌ، هناك السامع والمسمع واحدٌ من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرقة.

ملتبسًا ﴿بِعِلْمِهِ﴾ المتعلق بتأليف كلماته، وكيفية ترتيبه ونظمه على وجهٍ يعجز عنه جميع من تحدى وتعارض معه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأنه مُنزل من الحق على الحق ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:166] سواء شهدوا، أو لم يشهدوا.

ثم قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبكتابك ﴿وَصَدُّوا﴾ أعرضوا ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المبيَن فيه ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ عن طريق التوحيد ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:167] لا ترجى هدايتهم أصلاً، وكيف ترجى هدايتهم وقد أضلهم الله؟.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ستروا طريق الحق ﴿وَ﴾ مع كفرهم ﴿ظَلَمُوا﴾ خرجوا عن حدود الله بالمرة ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم؛ لعظم جرمهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء:168] من طريق النجاة؛ لانهماكهم في الغفلة والضلال.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ينجون منها أصلاً ﴿وَ﴾ لا تستبعد عن الله أمثال هذه التبعيدات والتخذيلات؛ إذ ﴿كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ﴾ المنتقم، المضل للغواة الطغاة ﴿يَسِيرًا﴾ [النساء:169].

ثم لما بيَّن سبحانه حقيَّة الرسول ﷺ، وصدقه في دعواه، وأوعد على من كذبه وخالف كتابه ما أوعد، أراد أن ينبه على عامة أهل التكليف من أرباب الملل وغيرهم أن يؤمنوا له، وما جاء به من عنده، فقال مناديًا؛ ليقبلوا عليه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المجبولون على النسيان والغفلة ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ﴾ أي: المبعوث إلى كافة الخلق ملتبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بنعمة العقل الذي هو مناط جميع التكاليف، وبه الوصول إلى الإيمان والتوحيد.

﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: فإن آمنوا به بعد ما ظهر كان خيرًا لكم عند ربكم، يوصلكم إلى توحيده، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا﴾ به عنادًا، ولم تؤمنوا به مكابرة، لا يبالي الله بكفركم، ولا بإيمانكم ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾ أي: يسجد ويخضع له جميع ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إرادة وطوعًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ المكلف لأمر عباده ﴿عَلِيمًا﴾ بقابلياتهم ﴿حَكِيمًا﴾ [النساء:170] فيما أمرهم به وكلفهم عليه؛ ليفوزوا من عنده فوزًا عظيمًا.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ

وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء:171-172].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: الإنجيل المبالغين في أمر عيسى عليه السلام إلى حيث ينتهي إلى الغلو المذموم عقلاً وشرعًا ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ونبيكم، ولا تبالغوا في الإغراء في وصفه ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ﴾ الواحد، الأحد، الصمد الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ﴿إِلَّا الْحَقَّ﴾ الحقيق اللائق بجنابه ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ كسائر رسله ﴿وَ﴾ غاية أمره ﴿كَلِمَتُهُ﴾ أي: يحصل، ويتكون من كلمته التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ ﴿وَ﴾ هو ﴿رُوحٌ﴾ يتجلى ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه، ويظهر فيه عليه السلام كظهوره في سائر الأشخاص إلا أن لاهوتيته غلبت على ناسوتيته، لذلك ظهر منه من الخوارق ما خلت عنها الأنبياء ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ﴾ المنزه في ذاته عن الأهل والولد ﴿وَرُسُلِهِ﴾ المؤيدين من عنده؛ لتبليغ حكمه وأحكامه.

ومن جملتهم عيسى عليه السلام ﴿وَلاَ تَقُولُوا﴾ على الله المنزه عن التعدد مطلقًا ما لا يليق بجنابه بأنه ﴿ثَلاَثَةٌ﴾ الله والمسيح ومريم ﴿انتَهُوا﴾ عن التثليث، بل عن التعدد مطلقًا، فإن انتهاءكم عنه يكون ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ يرشدكم إلى سبيل التوحيد ﴿إِنَّمَا اللهُ﴾ المتجلي في الآفاق والاستحقاق ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: موجود واحد، لا يمكن التعدد فيه أصلاً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ بذاته، وتعالى عن ﴿أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ كما يقول الظالمون ﴿لَّهُ﴾ باعتبار تجلياته على صفحات الإعدام بجميع أوصافه وأسمائه مظاهر ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ من جنود الله ومرايا أوصاف جماله وجلاله ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أيضًا منها، وكذا فيما شاء الله، وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴿وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:171] أي: كفى الله المتجلي بجميع أوصافه وأسمائه وكيلاً على مظاهره، موليًا لأمورهم أصالة واستقلالاً.

ومن غاية إغراء النصارى في وصف المسيح، ونهاية غلوهم في حقه استنكفوا واستكبروا عن كونه عبد الله، ونسبوه إليه بالبنوة، وعبدوا له كعبادة الله، لذلك رد عليهم بقولهم: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ﴾ ويستكبر ﴿الْمَسِيحُ﴾ وإن ترقّى إلى السماء بقوة لاهوتية ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله، المترقون من السماء أيضًا؛ إذ لا ناسوتية

لهم أصلاً، ﴿وَ﴾ كيف يستنكر، ويستنكف عن عبادته أحد من مظاهره ومخلوقاته؛ إذ ﴿مَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ الله ﴿إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:172] ويحاسبهم بما صنعوا، ويجازيهم على مقتضى حسابهم بأشد العذاب، وأسوء النكال.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء:173-170].

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله وكتبه ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة لهم؛ إطاعةً وانقيادًا ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ الله ﴿أُجُورَهُمْ﴾ بأضعاف ما استحقوا ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ما لا يسع في عقولهم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ﴾ الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بعلو المجد، وإليها ﴿عَذَابًا﴾ يطردهم عن ساحة عز حضوره ﴿أَلِيمًا﴾ ولا ألم أشد من ذلك ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ يدفع عنهم الأذى ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ [النساء:173] يخفف عنهم العذاب.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ المتوجهون إلى توحيد الله، لم يبق لكم عذر في الوصول إليه والرجوع نحوه؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾ واضح ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم وإصلاح حالكم ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:174] هو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منكم ﴿بِاللهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ وبكتابه ورسله ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾ الله ﴿فِي رَحْمَةٍ﴾ عظيمةٍ، وروحٍ عظيمٍ؛ إشفاقًا ﴿مِّنْهُ﴾ لا لاستحقاق منهم ﴿وَفَضْلٍ﴾ وإحسان؛ امتنانًا عليهم ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى ذاته ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:175] موصلاً إلى ذروة توحيده، لا يعرض لهم فيها ضلال أصلاً.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ

وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النساء:176].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل عن ميراث الكلالة: كيف يُقسم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ في أوائل السورة، ويعيد في آخرها؛ تأكيدًا أو مبالغةً، وهي آخر ما نزلت في الأحكام ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ وحين هَلَك ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿لَهُ أُخْتٌ﴾ من الأبوين أو الأب ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الهالك ﴿وَ﴾ كذا إن هلكت الأخت ﴿هُوَ يَرِثُهَا﴾ جميع مالها ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ لا ذكر ولا أنثى.

﴿فَإِن كَانَتَا﴾ الأختان ﴿اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أخوهما ﴿وَإِن كَانُوا﴾ أي: الوارثون ﴿إِخْوَةً﴾ وأخواتٍ مختلطين ﴿رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ من متروكات أخيهم، وإنما ﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ﴾ حكم الكلالة هاهنا، مع أنه بيَّنه في ما مضى؛ كراهة ﴿أَن تَضِلُّوا﴾ وتغفلوا عنها ﴿وَاللهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من حوائجكم المتعلقة بحياتكم ومماتكم ﴿عَلِيمٌ﴾ [النساء:176] يعلمكم، وينبهكم عليه حتى لا تذهلوا وتنصفوا به.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، القاصد نحو توحيده - أوصلك الله إلى أقصى مرامك - أن تتمسك بالبرهان الواضح الذي وصل إليك من الرسول ﷺ، الدال على توحيد الحق، وتستنير بنور القرآن الفارق بين الحق والباطل، الواقع في طريقه، وتمتثل بما فيه من الأوامر المؤدية إليه، وتجتنب عن نواهيه المضلة، المبعدة عنه، وتتخلق بعزائمه المكنونة في ضمن الأحكام والقصص المذكورة فيه؛ لتتحقق بما رمز فيه من غوامض سر التوحيد، وسريان الوحدة في ملابس الكثرة، وتتمكن في مقر الوحدة الذاتية، المفنية للهويات الباطلة، الزائلة في أنفسها.

ولا يتيسر لك هذا إلا بطول خدمة المرشد الكامل، المكمل الذي يرشدك إلى الله امتداد حبل الله الممدود من أزل الذات إلى أبد الأسماء والصفات، ألا وهو القرآن المنزل على خير الأنام كما قال ﷺ: «القرآن حبل الله، ممدود من السماء إلى

الأرض»[1].

فمن أراد أن يغوص في لجج بحار القرآن؛ لاستخراج فرائد اليقين والعرفان، فعليه أن يتمسك أولاً بالأحكام الشرعية الفرعية التي استنبطها أرباب العزائم الصحيحة عن ظواهر كلم القرآن؛ ليكون مهذبًا لظواهر أصحاب اليقظة من أهل الطلب والإرادة حتى تستعد بها نفوسهم، وتتصفى بواطنهم لأن يفيض عليها رشحات بحر التوحيد، ويصير قابلاً لأن ينزل عليها سلطان العشق والمحبة؛ إذ الوقاية للب التوحيد إنما هي أحكام الشريعة، وآداب الطريقة للسالكين، القاصدين نحو الحقيقة بالسلوك والمجاهدة.

وأما البدلاء المستغرقون في بحر الذات، الهائمون بمطالعة جماله، الفانون فيه مطلقًا، فهم هو، وهو هم، ما لنا ومالهم حتى نتكلم عنهم، جعلنا الله من خدّام وتراب أقدامهم.

فعليك أيها المريد، العازم لسلوك طريق الفناء، الجازم، الحازم في هذا العزم أن تصفي أولاً سرك وسريرتك عن التوجه إلى غير الحق، وتجعل مطلبك ومقصودك الاستغراق والفناء في بحر الوحدة.

لا يتيسر لك هذا إلا بعد كسر سفينة هويتك الباطلة، ولا يتيسر كسرها إلا بالرياضات الشاقة من الجوع والعطش والسهر المفرط، والانقطاع عن اللذات الحسية والمشتهيات النفسية بالتلذذ بالمودة والفناء، والصبر على البلاء، والرضا على ما جرى عليه القضاء، ومتى تحققت هذه الأمور فيك، وَهَن هويتك، وضعف سفينتك، وحينئذٍ يمكنك كسرها إنْ وفقت بها.

زين بلطفك ظواهرنا بشريعتك، وبواطننا بحقيقتك، وأسرارنا بمشاهدتك وأرواحنا بمعاينتك، إنك على ما تشاء قدير، وبرجاء المؤمنين جدير.

(1) ذكره أبو حيان في البحر المحيط (3/340).

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة المائدة

لا يخفى على المقيمين بحدود الله، الموفين بعهوده، المحافظين بعقوده المنعقدة بين أوصافه الذاتية بمناسبة بعضها مع بعض، ومقابلة بعضها ببعض أن منشأ جميع الأوامر والنواهي الموردة في الشرع إنما هي الأوصاف المتقابلة، والأسماء المتخالفة الإلهية.

فإذن الاختلافات الواقعة بين الآثار المترتبة على تلك الأوصاف إنما تنشأ منها والسر في ورود الأوامر والنواهي إنما هو لحصول الاعتدال والقسط الإلهي المعدّ لاستحقاق الخلافة، والنيابة المقصودة من الظهور والإظهار، والخلق والإيجاد.

ولذلك كلف سبحانه خواص عباده المجبولين على هذه الفطرة بالتكليفات الشاقة من قطع المألوفات؛ وترك المشتهيات والمستلذات العائقة عن الاعتدال الفطري الإلهي وهداهم إلى صراطٍ مستقيمٍ موصلٍ إلى توحيده بإسقاط الإضافات الطارئة من كثرة الأسماء، والصفات المنتشئة من تطولات الذات، وتجليات الحبية المتشعشعة أزلاً وأبدًا، بل عللٍ وأغراضٍ، وما لنا منها إلا الحيرة والاستغراق، والعجز والوله والهيمان إن وفقنا بها من عنده.

وبهذه المصلحة أمر سبحانه عباده، وأوصاهم بإيفاء العهود ومحافظة العقود ليستعدوا مما لأجله جُبلوا وخُلقوا، فقال مناديًا متيمنًا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ المستوي على عروضه بالعدل القويم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ لعباده بإهدائهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿الرَّحِيمِ﴾ لهم بإيصالهم إلى روضة الرضا وجنة التسليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ

وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة:1-2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم الوفاء بالعهود والعقود الموضوعة فيكم لإصلاح حالكم ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[1] واظبوا على إقامة الحدود، وداوموا على محافظة المواثيق التي وضعها الحق بينكم؛ لتدبر أمور معاشكم ومعادكم، من جملتها أنها ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ وهي الأزواج الثمانية وما يشبهها؛ تقويمًا لمزاجكم وتقوية له؛ ليتمكنوا على إتيان ما كلفوا به ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ في كتاب الله تحريمه حال كونكم ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ مطلقًا ﴿وَأَنتُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿حُرُمٌ﴾ محرمين للحج، مأمورين بحبس القوى الشهوية والغضبية عن مقتضياتهما، بل معطلين لها حتى تتمكنوا، وتقدروا على الموت الإرادي ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لمصالح عباده ﴿يَحْكُمُ﴾ بمقتضى حكمته ومصلحته ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:1] لهم من التحليل والتحريم بحسب الأوقات والحالات، لا يسأل عن فعله، بل لا بد لكم الانقياد؛ تعبدًا، سيما في أعمال الحج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله؛ طاعةً وتعبدًا، مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تُحِلُّوا﴾ وتبيحوا لأنفسكم ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أي: حرمات الله التي حرمها سبحانه في أيام الحج؛ تعظيمًا لأمره وتوقيرًا لبيته ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تحلوا قواكم الحيوانية عن الحبس والزجر في الأزمنة التي حرم سبحانه إطلاقها فيها؛ تعظيمًا لبيته ﴿وَلَا﴾ تبيحوا أيضًا لأنفسكم ﴿الْهَدْيَ﴾ أي: التعرض لما أُهدي إلى البيت قبل بلوغه إلى كله ﴿وَ﴾

---

(1) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومُكابَدة، فمَن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكم بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بِهمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكوِّن كانت الأكوان معكم، إلا ما يُتلَى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهِمَم لا تخرِق أسوار الأقدار»، غير مُتَعَرِّضين لشهود السّوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (28/2)].

أيضًا ﴿لَا﴾ يتعرضوا ﴿الْقَلَائِدَ﴾ وهي ما يعلم، ويقلد بقلادة دالة على أنه من هدايا بيت الله على ما هو من عادة العرب.

﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا﴾ تتعرضوا، وتتقاتلوا مع المؤمنين الموقنين الذين توجهوا نحو الكعبة الحقيقية، وأرادوا أن يخرجوا عن بقعة الإمكان، فدخلوا في طريق المجاهدة وسلكوا نحو الوجوب؛ تقربًا وتشوقًا، مع كونهم ﴿آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ قاصدين التقرب والتحقق بكعبة الذات، والوقوف بعرفات الأسماء والصفات؛ إذ لا بد من وقوفها لمن قصد زيارة بيت الله الأعظم؛ بل الركن الأصلي لزيارة بيت الله، هي هنا الوقوف عند المنجذبين نحو الحق من طريق المجاهدة المستتبعة للكشف والمشاهدة لأهل العناية.

وأما المنجذبون نحوه بالاستغناء والاستغراق التام الذي لا يحوم حوله شائبة من الكثرة أصلاً، فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلبون هؤلاء الزوار التحقق بهذه المرتبة العليّة، والمنزلة السنيّة ﴿فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بلا وسائل الأعمال والنسك، ووسائط المأمورات والمنهيات ﴿وَ﴾ يطلبون أيضًا من فضل الله ﴿رِضْوَانًا﴾ رضًا من جانب الحق، وتحسينًا من قبله فيما يأتونه من الشعائر المكتوبة في الحج الحقيقي؛ إذ لا وثوق للعبد سوى الرضا منك يا أكرم الأكرمين، ويا أرحم الراحمين.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ قوى حيوانيتكم عن عقال التكاليف المفروضة في الحج بخروج أيامها وأوقاتها مع متمماتها ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أي: أبيحوا على أنفسكم اصطياد ما أحلّ الله لكم من صيد البر والبحر ﴿وَ﴾ بعدما علمتم فوائد الحج، وعرفتم عرفانه ومناسكه ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ أي: لا يوقعنكم في الجريمة العظيمة بغض قوم إياكم، وخوفكم منهم إلى ﴿أَن صَدُّوكُمْ﴾ وصرفوكم ﴿عَنِ﴾ التوجه نحو ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي حرمت عنده سجود السوى والأغيار مطلقًا.

فعليكم أيها القاصدون زيارة الكعبة المعظمة، والقبلة المكرمة التي هي بيت الوحدة ﴿أَن تَعْتَدُوا﴾ وتتمرنوا، وتعتادوا على المقاتلة، والمقاتلة مع الكفار إنما يغني عن الزيارة من القوى الشهوية والغضبية، والمستلذات الخالية الواهية ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ استنصروا ﴿عَلَى﴾ جنود ﴿الْبِرِّ﴾ المورث للرجاء، وحسن الظن بربكم ﴿وَ﴾ على جنود ﴿التَّقْوَى﴾ المشعر للخوف من قهر الله وغضبه ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ الخصلة الذميمة عقلاً وشرعًا ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: التجاوز عن الحدود الشرعية - العياذ بالله -

﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أن تجترئوا عليه بنقض عهوده، ومجاوزة حدوده ﴿إِنَّ اللهَ﴾ القادر على كل ما يريد ﴿شَدِيدُ العِقَابِ﴾ [المائدة:2] أليم العذاب لمن ظلم نفسه بالإثم والعدوان.

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة:3].

ثم لمّا كان الأصل في الأشياء الحل والإباحة، والحرمة إنما عرضت من الشرع، بيّن سبحانه أولاً حكم المحللات مطلقًا وما يتفرع عليها، ثم عيّن المحرمات التي استثناها بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى﴾ [المائدة:1، الحج:30] فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾ في دينكم ﴿المَيْتَةُ﴾ المائت حتف أنفه بلا موجب لإزالة الحياة ﴿وَالدَّمُ﴾ المسفوح، السائل بالتزكية أو بغيرها ﴿وَلَحْمُ الخِنزِيرِ﴾ النجس، الظاهر خباثته عقلاً وشرعًا.

﴿وَ﴾ من جملة المحرمات ﴿مَا أُهِلَّ﴾ صوت ذبحه ﴿لِغَيْرِ﴾ اسم ﴿اللهِ بِهِ﴾ من أسماء الأصنام ﴿وَ﴾ كذا ﴿المُنْخَنِقَةُ﴾ المزيلة حياتها بالخنق بلا تذكية، كما يفعل المشركون ﴿وَ﴾ كذا ﴿المَوْقُوذَةُ﴾ المضروبة بالخشب والأحجار إلى أن تذهب منها الروح ﴿وَالمُتَرَدِّيَةُ﴾ التي سقطت من علو، أو في بئر فزالت حياتها ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ أيضًا، وهي التي نطحها الحيوان الآخر فماتت ﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿مَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ منه فزال حياته ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ قطعتم حلقومه مهللين حين أحسستم الرمق منه، فإنه يحل لكم.

﴿وَ﴾ كذا حرمت عليكم ﴿مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ أي: الأصنام الموضوعة حول البيت، كانوا يعظمونها، ويتقربون إليها بالذبائح والقرابين ﴿وَ﴾ من جملة المحرمات ﴿أَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ﴾ أي: الأقداح، وذلك أنهم إذا قصدوا فعلاً ضربوا ثلاثة أقداح مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، وعلى الثالث: غفل، فإن خرج الأمر مضوا عليه، وإن خرج النهي انصرفوا عنه، وإن خرج الغفل أجالوها ثانيًا.

ومعنى الاستقسام بها: الاستخبار، والاستفسار عن القسمة الغيبية التي استأثر الله

بها، ولم يطلع أحدًا عليها، وأمثال هذا ما هي إلا كهانة وكفر، صدرت عن أولي الأحلام السخيفة، الخبيثة، الناشئة من عدم الرضا بقضاء الله ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: استقسامكم واستخباركم من أزلامكم ﴿فِسْقٌ﴾ خروج عمّا عليه الأمر والشروع وديدنة الجاهلية فعليكم أن تجتنبوا عن أمثالها، خصوصًا ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ﴾ وقنط بالمرة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عن انصرافكم ﴿مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ على غلبتهم بترك رسومهم وعاداتهم المستقبحة.

﴿وَاخْشَوْنِ﴾ عن بطشي وانتقامي بترك ما أمرت لكم، ونهيت عنه في جميع أحوالكم وأزمانكم، سيما ﴿الْيَوْمَ﴾ الذي هذا قد ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] بأن ينصركم ويغلبكم على مخالفيكم مطلقًا، ويظهر دينكم على الأديان كلها ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ ظاهرًا وباطنًا بالاستيلاء، والغلبة على الأعداء، وقمع الآراء الباطلة والأهواء الفاسدة بالكلية ﴿وَ﴾ من إتمام نعمتي عليكم أني ﴿رَضِيتُ﴾ اخترت وانتخبت ﴿لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ الإطاعة والانقياد ﴿دِينًا﴾ ديدنة ومذهبًا؛ إذ لا دين عند الله إلا الإسلام.

وبعد كمال دينكم وإتمام النعم عليكم، وتحليل ما أحل، وتحريم ما حرم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ منكم ﴿فِي مَخْمَصَةٍ﴾ مجاعة مفرطة، ملجئة إلى تناول الجيف والمحرمات حال كونكم ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ﴾ مائل ﴿لِّإِثْمٍ﴾ ومعصية، رخص التناول منها مقدار سدّ جوعه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ المصلح لأحوالكم ﴿غَفُورٌ﴾ مما صدر عنكم حين اضطراركم ومخمصتكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:3] لا يؤاخذكم عليه بعدما رخص لكم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ

(1) إكماله الدين -وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمّلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصير، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القبُولِ في المآلِ، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علّمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته -على التفصيل- أكرمك بأن عرّفك ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (86/2)].

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 4-5].

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا﴾ أي: أيّ شيء من الأشياء المألوفة المتعارفة ﴿أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ في دينكم ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾[1] التي مضى ذكرها في أول السورة من البهائم

---

(1) قال البقلي في العرائس: هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتم مقام المشاهدة فلا تميتوا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثر، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيح لهم ما لا يبيح للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد. ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان ابن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهبانية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾. وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنّي أقومُ وأنام، وأصومُ وأفطرُ، وآكل اللحم والدسم، وآتي النساء، ومَنْ رَغِبَ عن سنّتي فليس منّي»، بيّن ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمشاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات، وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الحلال ما وصل إلى المعارف من خوان الغيب بلا كلفةٍ إنسانيةٍ، والطيب ما يقوّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

وقال سهل في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبّب بالحقيقة، قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك يتناوله، وقال الأستاذ: ممّا أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ﴾ وقال في قوله: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل

المذكاة ﴿وَ﴾ كذا أحل لكم صيد ﴿مَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ الكواسب، لكم الصيد من أدوات القوائم والمخالب حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ مؤدبين، معلمين إياهن لاصطياد ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ﴾ من مقتضيات العقل المفاض لكم بأنواع الحيل إياهن.

وإذا علمتموهن ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ من صيدهن حلالاً طيبًا ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ﴾ أي: وعليكم أن تذكروا اسم الله حين إرسال الجوارح إلى الصيد ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ ألَّا تهلوا على الصيد والذبائح، ولا تحلوها بذكر اسم الله بعدما أمركم به ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة:4] شديد العقاب لمن لم يمتثل بأوامره، ولم يجتنب عن نواهيه.

﴿الْيَوْمَ﴾ أي: حين انتشر وظهر دينكم على الأديان كلها ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ المذكورة، المحللة فيه ﴿وَ﴾ أيضًا ﴿طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: اليهود والنصارى وذبائحهم ﴿حِلٌّ لَّكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ وإطعامكم أيضًا ﴿حِلٌّ لَّهُمْ﴾ لأنهم من ذوي الملل والأديان ﴿وَ﴾ كذا أحلّ لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ الحرائر، العفائف ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: نكاحكم إياهن ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن بلا نقص وتكسير.

والحال أنكم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ محافظين على حقوق الزوج والنكاح ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ مجاهرين بالزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ مستترين به ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ منكم، وينكر ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ وبلوازمه، وحدوده الدالة على صحته ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:5] الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفة، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزانة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر بغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلّة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازنٍ في العقول، وما لم يكن مرضيًا في الشريعة لم يكن مرضيًا في المعرفة، ولمّا قوي العباد بنسائم لطفه وغذّاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة.

﴿ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة:6].

ثم لمّا بيّن سبحانه ما يتعلق بمعاش عباده من الحل والحرمة، والزواج والنكاح وحسن المعاشرة، ورعاية الآداب المشروعة فيها، أراد أن يهديهم إلى طريق الرجوع إلى المعاد الذي هو المبدأ بعينه؛ ليميلوا إليه، ويتوجهوا نحوه على نية التقرب، إلى أن وصلوا واتصلوا، فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدة ذات الحق، وتنزهه عن وصمة الكثرة ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ أي: إذا أردتم أن تخرجوا من بقعة الإمكان، وتميلوا نحو فضاء الوحدة متشوقين، متقربين ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: فعليكم أن تغسلوا بماء المحبة والشوق، والجذب الإلهي المحيي، المنبت لأموات الأرواح من أرض تعينات وجوهكم التي تلي الحق عن رين الإمكان، وشين الكثرة.

﴿وَ﴾ طهّروا ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ أي: قصّروها عن أدناس الأخذ والإعطاء من حطام الدنيا وأقذارها ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أي: مبالغين في تطهيرها إلى أقصى الغاية ﴿وَ﴾ بعدما غسلتم الوجوه، وطهرتم الأيدي ﴿امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي: امحوا، وحكوا أنانيتكم وهويتكم التي منها طلبكم وأدبكم ﴿وَ﴾ امحوا أيضًا ﴿أَرْجُلَكُمْ﴾ وأقدامكم التي بها سلوككم وطلبكم ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ إلى أن ينقطع سيركم وسلوككم بالفناء فيه ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ أيها المائلون نحو الحق ﴿جُنُبًا﴾ منغمسين في خبائث الإمكان وقاذوراتها ﴿فَاطَّهَّرُوا﴾ فعليكم المبالغة في التطهير بالرياضات الشاقة من قطع التعلقات، وترك المألوفات والمشتهيات، وبالركون إلى الموت الإرادي، والخروج عن الأوصاف البشرية.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ من الأبرار الذين مرضوا بسموم الإمكان، وبحموم نيرانه وصاروا محبوسين فيه بلا قدم وإقدام ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ من السالكين، السائرين نحو الحق بلا ممد ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ أي: رجع من التلوث والتدنس بغلاظ أدناس الدنيا من جاهها ومالها ورئاستها ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ واستكرهتموهن؛ لأنهن

أقوى من حبائل الشيطان وشباكها، يصرف بها أهل الإرادة عن جادة السلامة ﴿فَلَمْ تَجِدُوا﴾ في هذه الصورة من لدن نفوسكم وقلوبكم ﴿مَاءً﴾ شوقًا إلى الحق، مطهرًا لخبائث نفوسكم، قالعًا لها مطلقًا، ومحبة صادقة مزيلة لدرن التعلقات، وجذبًا مفرطًا من جانب الحق، مزعجًا ملجئًا إلى الفناء.

﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ أي: فعليكم أن تقصدوا، وتتوجهوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ مرشدًا كاملاً ومكملاً طاهرًا عن جميع الرذائل والآثام العائقة عن الوصول ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ أي: هوياتكم الباطلة ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي: أوصافكم الذميمة، العاطلة ﴿مِّنْهُ﴾ أي: من تراب أقدام، وثرى سدته السنية؛ لعله يرشدكم إلى النجاة عن مضيق التعيينات نحو فضاء الذات ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ المدبر لأموركم ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ ويبقي فيكم ﴿مِّنْ حَرَجٍ﴾ يمنعكم عن الوصول إلى ما جبلتم لأجله ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ويصفيكم أولاً من التعيين وأدناسها ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ثانيًا مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:6] [1] حين تفوزون ما تفوزون.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة:7-9].

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم، ووعدتم من عنده ما وعدتم ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ التي أنعم بها ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا بشكرها ﴿وَ﴾ تذكروا ﴿مِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ﴾ حين سمعتم قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]: ﴿سَمِعْنَا﴾ قولك، أنت ربنا

(1) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحمق، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (24/1)].

أظهرتنا من العدم ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرتنا به طوعًا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ من نقض ميثاقه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع بالسرائر والخفايا ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة:7] أي: بمكنونات صدوركم يجازيكم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ مستقيمين فيما أمرتم به في طريق توحيده ﴿شُهَدَاءَ﴾ حضراء مستحضرين ﴿بِالْقِسْطِ﴾ لحقوق آلائه الإلهية، ونعمائه الفائضة لكم من عنده تفضلاً وامتنانًا ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: لا يحملنكم ولا يبعثنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾ شدة عداوة قوم وبغضهم ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ولا تقسطوا فيما أنعم الله عليكم، بأن تجاوزوا عن حدود الله حين القدرة على الانتقام منهم؛ تشفيًا لصدوركم، بل عليكم أن تقسطوا في كل الأحوال، سيما عند الاقتدار ﴿اعْدِلُوا﴾ أيها المنعمون بالقدرة والظفر ﴿هُوَ﴾ أي: عدلكم ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ عن محارم الله، والاجتناب عن منهياته ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ المراقب لكم في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:8] من مقتضيات نفوسكم وتسويلاتها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتوحيده ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المقربة نحوه، المأمورة من عنده بأن حصل لهم مغفرة لذنوبهم؛ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:9] هو الفوز بشرف اللقاء.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة:10-11].

بعدما وعد للمؤمنين ما وعد، أردفه بوعيد الكفار؛ جريًا على عادته المستمرة في دعوة عباده، فقال:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا، وأثبتوا الوجود لغيرنا؛ مكابرة وعنادًا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا، المنزلة على رسلنا ﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المشركون ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة:10] مصاحبوها وملازموها، لا نجاة لهم منها أصلاً توغلهم وانهماكهم في الكفر والضلال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ كيف ينجيكم من يد العدو ﴿إِذْ هَمَّ﴾ قصد ﴿قَوْمٌ﴾ من عدوكم ﴿أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ حين كنتم مشغولين

بالصلاة، ويفاجئوكم بغتة، ويستأصلوكم مرة ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ بالوحي على نبيكم امتنانًا وتفضلاً عليكم ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ الرقيب عليكم أن تخالفوا أمره ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ في كل الأمور ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:11] الموقنون بوحدانيته وحفظه وحمايته.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة:12].

ثم لمَّا أراد سبحانه تقرير المؤمنين على الإيمان، وتثبيت قدمهم على جادة التوحيد والفرقان، استشهد عليهم تزلزل بني إسرائيل، وعدم رسوخ قدمهم في الإيمان والإطاعة مع أخذ المواثيق منهم على لسان نبيهم - صلوات الرحمن على نبينا وعليه - فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ﴾ بلسان موسى كليم الله ﴿مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: العهد الوثيق منهم بعدما خلصوا من فرعون، وورثوا منه ما ورثوا، واستقروا على ملك مصر ﴿وَ﴾ ذلك أنَّا ﴿بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ من نجبائهم ونخبائهم، من كل فرقة نقيب مسلم، بينهم رئاسةً وجاهًا، وبالجملة: كل من النقباء يولي أمر فرقته عند نبينا موسى عليه السلام.

فعهدوا أن يسيروا مع موسى إلى «أريحا» بالشام حين أوحى إليه، فساروا إلى أن وصلوا، وكان فيها الجبابرة الكنعانيون، فلمَّا أراد موسى عليه السلام أن يفتش عن أحوالهم ويفحص، أرسل النقباء جواسيس يتجسسون العدو، ولا يظهرون ما اطلعوا عليه من حال العدو على فرقتهم، فذهبوا وتجسسوا، فلمَّا رأوا العدو ذوي قوة، وأولي بأس شديد هابوا منه، وترهبوا، فرجعوا إلى قومهم، فأخبروا لهم ما ظهر عليهم إلا قليلاً منهم فنقضوا العهد والميثاق.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿قَالَ اللهُ﴾ لهم حين أمرهم: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ لينصركم على عدوكم وأخرجهم منها: فوعزتي وجلالي ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ على الوجه الذي وصل إليكم من رسولكم ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ على الوجه المشروع ﴿وَآمَنْتُم بِرُسُلِي﴾ بلا تفريق بينهم ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي: نصرتموهم في إعلاء كلمة الحق، وإشاعة دينه ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ﴾ ما في أيديكم من زخرفة الدنيا ﴿قَرْضًا﴾ إنفاقًا للفقراء والمساكين ﴿حَسَنًا﴾ بلا شوب

المنة والأذى ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ﴾ أي: لأمحونَّ عن ديوان عملكم ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بأسرها ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ جزاءً لإخلاصكم ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهاتٍ ثلاث: هي العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مملوءة بمياه الحقائق والمعارف ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: بعدما سمع التذكير والعظة من الله ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وفقد ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:12] لا دواء لدائه، ولا رجاء لإنجائه.

اهدنا بفضلك إلى سواء السبيل.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة:13-14].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ وبعدم وفائهم للعهود الوثيقة ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ طردناهم عن فضاء التوحيد ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ مظلمة بظلمة الإمكان إلى حيث ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ المثبتة في كتاب الله؛ لإعلاء كلمة التوحيد ﴿عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ التي وضعها الحق ﴿وَنَسُوا حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: بالتوراة، ووعظوا عنه، وأفادوا منه ﴿وَ﴾ صاروا من غاية القساوة والنسيان بحيث ﴿لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ﴾ دائمًا مستمرًا ﴿عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ تبالغ في الخيانة ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين آمنوا بكم، وأنصفوا على ما في التوراة وأظهروها ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولم يحرفوها زمانًا ﴿وَاصْفَحْ﴾ وانصرف عن انتقامهم إلى الإحسان معهم ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ القادر على الانتقام ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:13] المجاوزين عن الانتقام بعد الاقتدار عليه.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ مدعين نصرة الدين، وإعلاء كلمة الحق ﴿أَخَذْنَا﴾ كما أخذنا من اليهود ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ فنقضوا كما نقضوا ﴿فَنَسُوا﴾ كما نسوا ﴿حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: بالإنجيل المنزل على عيسى - صلوات الرحمن عليه - ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ ألقينا، وألزمنا ﴿بَيْنَهُمُ﴾ بين اليهود والنصارى، وهم اليعقوبية والنسطورية

والملكانية ﴿الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ المستمرة ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بحيث لا يصفو نفاقهم وشقاقهم أصلاً ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ كلا الفريقين، أو الفرق ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:14] في الدنيا من البغض والنفاق، وبما يكسبون به في الآخرة من العذاب والعقاب.

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:10-16].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى المجبولين على الكفر والنفاق ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ أضافه إلى نفسه؛ تعظيمًا وتوقيرًا ﴿يُبَيِّنُ﴾ ويظهر ﴿لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من أوامره ونواهيه، وأخباره المتعلقة بالزمان الماضي والآتي، سيما نعت خاتم الأنبياء والرسل - صلوات الله عليه وسلامه - وإنمّا يبيّن لكم المذكورات؛ لئلا يفوت منكم شيء من أمور الدين، ولا يؤخذون بها.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْفُو﴾ ويصفح ﴿عَنْ﴾ تبيين ﴿كَثِيرٍ﴾ من مخفياتكم من الكتب ممّا لا يترتب عليه العذاب والنكال، فعليكم أن تؤمنوا به، وبما جاء به من عند ربه لإهدائكم إلى طريق توحيده؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ معه ﴿نُورٌ﴾[1] واضح ﴿وَ﴾ هو ﴿كِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:15] ظاهر لائح هدايته وإرشاده.

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿مَنِ اتَّبَعَ﴾ منهم ﴿رِضْوَانَهُ﴾ أي: يرضى به ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أي: طريق التوحيد الموصلة إلى سلامة الوحدة، المسماة عنده بدار السلام

---

(1) أراد نور المعرفة بلا واسطةٍ ولا تصنّعٍ. وأيضًا: نوره الذي يتجلّى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعًا، وجاء الكتاب تفرقةً ظاهرةً في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأذل ظهر لجذب السالكين إلى الله. قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس. قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ أي: المتبعين رضوانه ﴿مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة العدم، وظلمة الإمكان وظلمة التعينات ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أي: الوجود البحتُ، الخالص عن شوب الظلمة؛ إذ هو نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء من أهل العناية، وإنما يخرجهم ﴿بِإِذْنِهِ﴾ وتوفيقه، وجذب من جانبه ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ أن سبق لهم العناية منه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:16] موصل إلى توحيده.

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) ﴾ [المائدة:17-18].

﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ وأعرض عن الحق، ولم يعرف حق قدره ﴿الَّذِينَ﴾ بالغوا في وصف عيسى عليه السلام، وغالوا فيه إلى أن ﴿قَالُوا﴾ على سبيل الحصر: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي في الآفاق ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا لهم وإلزامًا: ﴿فَمَن يَمْلِكُ﴾ يدفع ويمنع ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ من مراداته ومقدوراته ﴿إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ﴾ أي: يبقي على الهلاك الأصلي، والفناء الجبلي بلا مدّ من ظله، ورش من نوره ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ لا يبالي الله به وبهم؛ إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المنزه عن الأكوان مطلقًا ﴿مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ متصرف فيها حسب إرادته واختياره إيجادًا وإعدامًا ﴿يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿مَا يَشَاءُ﴾ بلطفه، ويعدم ويخفي ما يشاء بقهره ﴿وَاللَّهُ﴾ المتصف بجميع أوصاف الكمال ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مقدر إرادته ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:17] لا تفتر قدرته، ولا تنتهي إرادته ومشيئته.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ﴾ من غاية مبالغتهم، وغلوهم في حق عيسى وعزير، - عليهما السلام -: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ إذ نعبد نبيه ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ إذ نحبهما، وهما محبوباه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ الله ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ إن كنتم صادقين في هذه الدعوة، يعذبكم في الدنيا بالقتل والسبي والإجلاء، وضرب الذلة والمسكنة، وفي

الآخرة بأضعاف ما في الدنيا وآلافها، فعليكم ألّا تغلوا في دينكم ونبيكم، ولا تفتروا على الله الكذب.

﴿بَلْ أَنتُم﴾ ونبيكم أيضًا ﴿بَشَرٌ مِّمَّنْ﴾ أي: من جنس ما ﴿خَلَقَ﴾ الله بقدرته وأظهره حسب إرادته، فله التصرف فيكم وفيهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ عدلاً وانتقامًا ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ يتصرف فيها كيف يشاء إرادة واختيارًا ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾ [المائدة:18] والرجع؛ إذ الكل منه بدأ، وإليه يعود.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة:19-21].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ لا تغتروا في أمور دينكم، ولا تضعفوا فيها؛ إذ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ الموعود في كتابكم ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ أمور دينكم حال كونه ﴿عَلَى فَتْرَةٍ﴾ انقطاع وحي ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وإنما أرسلناه؛ كراهة ﴿أَن تَقُولُوا﴾ وتعتذروا حين وهن دينكم وضعف يقينكم: ﴿مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ حتى يصلح أمور ديننا ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ لئلا تعتذروا على ما تقتصرون فيه، فكذبوه، ولم يقبلوا ما جاء به من أسرار الدين والإيمان ﴿وَاللَّهُ﴾ المجازي لكم ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أنواع الجزاء ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:19] يجازيكم على مقتضى قدرته.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وهم أسلاف لكم وآباؤكم حين أراد أن يذكرهم نعم الله التي أنعمها عليهم؛ ليقوموا بشكرها: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ﴾ منكم ﴿أَنبِيَاءَ﴾ يرشدونكم، ويهدونكم إلى طريق التوحيد ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ متصرفين في أقطار الأرض ﴿وَآتَاكُم﴾ من الخوارق والإرهاصات من فلق البحر، وظل الغمام، وسقي الحجر، ونزول المن والسلوى وغير

ذلك ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:20] [1] حين ظهوركم واستيلائكم.

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ المطهرة عن شوائب الفتن ﴿الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ أي: قدرها في علمه لمقركم ومسكنكم؛ إذ هي منازل الأنبياء، ومقر الأولياء والأصفياء، فعليكم أن تقبلوا إليها تاركين ديار العمالقة والفراعنة التي هي محل الجور والفساد، ومجمع البغي والفساد ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَرْتَدُّوا﴾ بعدما سمعتم الوحي ﴿عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ خوفًا من الجبابرة.

قيل: لما سمعوا أوصاف جبابرة كنعان من نقبائهم خافوا، واستوحشوا وفزعوا وقالوا: ليتنا نرد على أعقابنا، تعالوا ننصب رأسًا ينصرف بنا إلى مصر؛ إذ موتنا فيها خير من الحياة وموضع آخر، فارتدوا ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:21] خسرانًا عظيمًا في الدنيا تائهين حائرين، وفي الأخرى خاسرين خائبين.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (22) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (23) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (24)﴾ [المائدة:22-24].

﴿قَالُوا يَا مُوسَى﴾ على صورة الاعتذار، وإظهار العجز وعدم الإقدار، وما هي إلا من عدم تثبتهم على الإيمان، وعدم رسوخهم في مقتضياته، وعدم وثوقهم بنصر الله وإعانته بعدما أمرهم بالقتل والترحال، ووعدهم ما وعدهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ لا يتأتى مقاومتهم ومقاتلتهم ﴿وَ﴾ بالجملة: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ بقتالٍ أو غيره ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ على أي وجهٍ ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة:22] إذ لا طاقة ولا

---

(1) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لمّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا [البحر المديد (49/2)].

قدرة لنا معهم.

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من قهر الله وغضبه، سيما بعد ورود أمره؛ إذ هما من أهل الوثوق بنصر الله وإنجاز وعده؛ إذ ﴿أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالإيمان والإذعان وبإعطاء الحكمة والمعرفة: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ أي: ضيقوا على عدوكم باب بلدهم، وقربوهم إلى حيث يضطرون ويختنقون من جسامتهم، وضيق مكانهم ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ على هذا الوجه ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ غانمون ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:23] (1).

﴿قَالُوا﴾ مستهزئين، مصرحين بما تكنّ صدورهم من الكفر، وعدم الوثوق والإخلاص، ومناقضة العهود والمواثيق: ﴿يَا مُوسَى﴾ لا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ وإن شئت ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ﴾ أيها الداعي ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي دعوتنا إليه، وادّعيت الإعانة والانتصار منه ﴿فَقَاتِلَا﴾ مع العدو ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:24] منتظرون إلى أن يظهر الأمر.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة:20-27].

---

(1) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله، فإن قُدِّرَ أن واحدًا منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان، كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِرُّ ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال: الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ، ويقال: الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل: ملاحظته الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها [تفسير القشيري (103/6)].

﴿قَالَ﴾ موسى آيسًا، متحيرًا، باثًا شكواه مع ربه: ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ﴾ ولا أثق لامتثال أمرك ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:25] الخارجين عن مقتضى أمرك، التاركين الامتثال به؛ من عدم وثوقهم بإعانتك وتأييدك.

ولما سمع سبحانه من موسى ما سمع من بث الشكوى، وكان حالهم وصلاحهم معلومة عنده سبحانه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا﴾ أي: الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ مدة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ خصّ هذا العدد؛ لأنهم لما أعادوا نفوسهم بعدم امتثال أمر الله، والاستهزاء به وبرسوله إلى ما هم عليه قبل إيمانهم، والإيمان ما يكمل غالبًا إلا بعد الأربعين، لذلك خصّ هذه المدة؛ لمجازاتهم ومجاهداتهم، ليكملوا الإيمان، وهم بعدما ارتدوا من الشام وتوجهوا إلى المصر ﴿يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ﴾ المقدسة بستة فراسخ تائهين، حائرين، مذبذبين لا إلى مصر ولا إلى الشام في تلك المدة، وموسى سارٍ معهم فيها، يرشدهم إلى أن يخرجهم من الضلال الصوري والمعنوي.

ثم لمّا رأى موسى اضطراب قومه وحزنهم وقلقهم واضطرارهم، رحمهم، وندم عمّا دعا عليهم، على مقتضى شفقة النبوة ومرحمته، لذلك رد الله عليه بقوله: ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ أي: لا تحزن أيها النبي الشاكي ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:26] الخارجين عن مقتضى التصديق والإيمان.

﴿وَاتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على من اتبعك من المؤمنين ﴿نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ أي: قصة قابيل وهابيل واختلافهما ونزاعهما وقربانهما، وقتل قابيل هابيل؛ ليعتبروا ويتنبهوا من قصتهما على ما هو الأقوم من السبيل، والأليق بحال المؤمن من حسن المعاشرة والمصاحبة مع الإخوان، ورعاية الغبطة، والتصبر على البلية والمحنة، وإن أدى إلى بذل المهجة والإخلاص مع الله في جميع الأحوال، تلاوة متلبسة ﴿بِالْحَقِّ﴾ مطابقة للواقع موافقة لما في الكتب السالفة.

وذلك أنهما تنازعا في تزويج كل منهما توءمة الآخر على ما هو شرع أبيهم، فقال قابيل: توءمتي أحسن صورة من توءمتك، أنا أحق بتزويجها منك، فترافعا إلى أبيهما فأمرهما بالقربان المقرب إلى الله، اذكر ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ بإذن أبيهما، كل واحد منهما على مقتضى إخلاصهما مع الله، وكان قابيل صاحب زرع، قرب مقدارًا من أردأ قمحه، وهابيل صاحب ضرع، قرب شاة سمينة حسناء ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾.

وعلامة القبول حينئذٍ أنه تنزل نار من السماء، وتأكل ما يتقربون به، فأخذا قربانهما وذهبا إلى جبل فطرحا عليه، وانتظرا القبول، فنزلت نار فأكلت قربان هابيل، ولم تأكل قربان أخيه، فاشتد سخطه وغضبه على أخيه، وزاد حسده بقبول الله قربانه ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ البتة؛ إذ ظهر مزيّتك عليّ، وفضلك عند الله منّي، وبذلك تفتخر وتتفوق عليّ بين الناس ﴿قَالَ﴾ هابيل: يا أخي، ما لي في هذا التقرب إلا الإخلاص والرجوع إلى الله والإطاعة والانقياد لأمره، والاجتناب والتحرز عن سخطه وغضبه بلا غرض نفساني وميل شهواني، فتقبل مني بفضله ولطفه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ﴾ أي: ما يتقبل المطلع لسرائر عباده أعمالهم التي يتقربون بها إلى الله إلا ﴿مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:27] المتقربين إليه بين طرفي الخوف والرجاء، المخلصين فيما جاءوا به خالصًا لوجهه الكريم، بلا ميل إلى ما تهوى نفوسهم.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:28-31].

ثم أقسم هابيل بعدما أوعده قابيل القتل: والله ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾ من إفراط غيظك وغضبك، وشؤم إمارة نفسك ﴿لِتَقْتُلَنِي﴾ ظلمًا بلا رخصة شرعية، بل عن محض عناد ومكابرة ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ لدفع صولتك عن نفسي، أو ﴿لأَقْتُلَكَ﴾ على مقتضى أمارتي ﴿إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:28] من تخريب؛ لمجرد دفع الصائل ولا أخاف على نفسي من القتل؛ إذ الشهداء المقتولون ظلمًا أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله.

﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وإعطافي معك يا أخي ﴿أُرِيدُ أَن تَبُوءَ﴾ أي: لأن تذهب وترجع إلى الله ﴿بِإِثْمِي﴾ أي: بإثمك المنسوب إلى قتلي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ الذي كنت فيه ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ عند الله بهذا الظلم ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:29] عنده.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ أي: هيّجت حسده إلى أن طوعت، وأرضت نفسه ﴿قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ ظلمًا بلا مدافعة منه كما شرط، فندم دفعة ﴿فَأَصْبَحَ﴾ وصار ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:30] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة، فتحيّر في دفعه وإخفائه؛ إذ لا يموت أحد من بني آدم إلى ذلك الوقت، فحمله على عاتقه، وسار معه إلى حيث أروح وأنتن.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ﴾ إعلامًا له ﴿غُرَابًا﴾ فقتل غرابًا من جنسه أراد أن يدفعه ﴿يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ بمنقاره ورجله ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي﴾ ويستر ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: جثته وجسده التي يسوء ﴿قَالَ﴾ قابيل متحسرًا، متحزنًا، قلقًا، حائرًا: ﴿يَا وَيْلَتَى﴾ يا هلكتي أحضري ﴿أَعَجَزْتُ﴾ وعزلت عن مقتضى العقل، وعن الاهتداء به إلى حيث ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ المتعزل عن العقل والإدراك، بل متابعًا له، متلمذًا منه ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:31] ندامة مؤبدة بحيث لا يضحك مدة حياته أصلاً وعاش مدة مائة سنة، واسودّ لونه إلى حيث لم يُعرف.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾ [المائدة: 32-33].

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ وبسبب وقوعه بين بني آدم ﴿كَتَبْنَا﴾ قضينا وألزمنا ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بلا قصاص شرعي ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ مرخص، موجب لقتله من شركٍ وبغيٍ، وقطع طريقٍ وغير ذلك من الفسادات العامة السارية ضرها وشرها ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذ كل فرد من أفراد الإنسان مستجمع لكمالات الجميع بسعة قلبه، وعلو مرتبته، واستعداده وقابليته لمظهرية الحق وخلافته فكان قتله قتل الجميع.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ خلصها وأنجاها من المهلكة والمتلفة ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ على الوجه المذكور ﴿وَ﴾ بعدما قضينا عليهم ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ تأكيدًا وتشديدًا ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على عظم جريمة القتل عند الله، وعظم النكال المترتب عليها في الآخرة ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ﴾ التشديد والتأكيد ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:32] على أنفسهم بالقتل بلا رخصة شرعية من غير مبالاة بالآيات والبينات.

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ ويقابلون له بعدم الامتثال لأمره، والانقياد لشرعه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ بتكذيبه وتكذيب ما جاء به من عند ربه، والقتال معه ومع من تابعه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ مفسدين بأنواع الفسادات الساري ضررها في أقطار الأرض ﴿أَن يُقَتَّلُوا﴾ حيث وجدوا دفعة ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أحياء؛ ليعتبر منهم من في قلبه مرض مثل مرضهم، ثم يُقتل على أفظع وجه وأقبحه.

﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ متبادلتين؛ ليعيشوا بين الناس على هذا الوجه، ولينزجر منهم نفوس أهل الأهوية الفاسدة ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ إلى حيث يؤمن من شرورهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ تذليل وتفضيح ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:33] طرد وتبعيد عن مرتبة أهل التوحيد.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المائدة:34-37].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ ورجعوا إلى الله عمّا كانوا عليه مخلصين، نادمين، خائفين من بطشه، راجين من عفوه وجوده ﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: غرماؤهم، وتأخذوهم مطالبين القصاص عنهم، يسقط عنهم حق الله بالتوبة إن أخلصوا فيها ﴿فَاعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ الموفق لهم على التوبة ﴿غَفُورٌ﴾ لهم، يغفر ذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:34] يقبل توبتهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن ارتكاب ما حرم عليكم، ونهاكم عنه ﴿وَابْتَغُوا﴾ واطلبوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾المقربة إلى ذاته لتتوسلوا به إلى توحيده ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ لقطع العلائق، ورفع الموانع مع القوى البشرية الشاغلة عن التوجه نحوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:35] تفوزون بفضاء توحيده، وصفاء تجريده وتفريده.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقب الوعد بالوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيد الله، وأصرُّوا على ما هم عليه من الكفر والشقاق ﴿لَوْ﴾ تحقق وثبت ﴿أَنَّ لَهُم﴾ ملك ﴿مَّا فِي الأَرْضِ﴾ من الزخارف والكنوز ﴿جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ بل أضعاف أمثاله ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ﴾ فدية، ويخلصوا ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ونكالها المترتبة على كفرهم ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ لعظم جرمهم وإصرارهم عليه، بل ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:36] مؤبد، لا يرجى نجاتهم أصلاً.

﴿يُرِيدُونَ﴾ متمنيًا ﴿أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ لاستحالة الخروج من ذلك لزوم النكال ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:37] دائم، متجدد متلون؛ لئلا يعتادوا بنوع منه.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾ [المائدة:38-40].

﴿وَالسَّارِقُ﴾ المتجاوز عن حدود الله ﴿وَالسَّارِقَةُ﴾ المتجاوزة عنها ﴿فَاقْطَعُوا﴾ أيها الحكام ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ أي: يمينهما إن أخرجا المسروق من الحرز المتعارف ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ معهما ﴿نَكَالاً﴾ عقوبة وتعذيبًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ لتصرفهم في ملك الغير ﴿وَاللَّهُ﴾ المتصرف المستقل في ملكه ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب، قادر على الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ [المائدة:38] متقن في مقداره وتعيينه.

﴿فَمَن تَابَ﴾ ورجع إلى الله مخلصًا، خائفًا ﴿مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ وخروجه عن حدود الله ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد على نفسه من مجاوزة حكم الله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾

المصلح لأحوال عباده ﴿يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ ويقبل توبته بعدما وفقه ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الميسر لأمور عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:39] لهم بعدما رجعوا إليه، راجين عفوه.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المتوحد، المستقل بالألوهية والتصرف ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ من الكائنات والفاسدات ﴿وَالأَرْضِ﴾ وما يتكون عليها، وكذا ما بينهما من بدائع الكوائن ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل التكاليف على ما صدر عنهم من الجرائم؛ عدلاً منه ﴿وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ فضلاً منه ﴿وَاللَّهُ﴾ المتصرف بالاستقلال في ملكه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإنعام والانتقام ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:40] له الإرادة والاختيار، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٌۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة:41].

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ المبعوث بالحق على كافة الخلق بشيرًا ونذيرًا ﴿لاَ يَحْزُنكَ﴾ صنيع الفرق ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: يسرعون إليه عند الفرصة؛ لكون جبلتهم عليه وميلهم بالطبع نحوه ﴿مِنَ﴾ المداهنين المنافقين ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ حفظًا لدمائهم وأموالهم: ﴿آمَنَّا﴾ قولاً مجردًا ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ وَ﴾ الحال أنه ﴿لَمْ تُؤْمِن﴾ ولم تذعن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ بل ختم عليها بالكفر.

﴿وَ﴾ علامة كفرهم أنهم من غاية نفاقهم معك ومع من تبعك ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: للكذب المفترى بالتورية، بأنك لست النبي الموعود فيها ومصدقون لها من الذين هادوا، قدم الاختصاص؛ إذ لا مصاحبة للمنافقين مع المؤمنين خصوصًا في خلواتهم، بل مع أحبار اليهود، وهم من أعدى عدوك، وأشدهم غيظًا وبغضًا، ومع ذلك ﴿سَمَّاعُونَ﴾ أيضًا ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ ممن آمن بك من أقاربهم وعشائرهم؛ ليضلوهم عن طريق الحق، ومن لم يؤمن لك يميلون بقلوبهم إلى الإيمان

ليقعدوهم، وليصرفوهم عمّا نووا في نفوسهم، وكيف لا يكون أحبار اليهود من أعدى عدوك يا أكمل الرسل، وهم من غاية بغضهم معك ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾؟.

ومع عدم إتيانهم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ ويغيرون ﴿الْكَلِمَ﴾ المنزلة في التوراة بيان بعثتك ووصفك وحليتك، ومنشأتك وحسبك ونسبك وعلو شأنك، ووضوح برهانك وتكملتك أمر النبوة والرسالة، ونسخك جميع الأديان ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ كونه مثبتًا عن ﴿مَوَاضِعِهِ﴾ بوضع إلهي، وهم أيضًا من غاية بغضهم معك ﴿يَقُولُونَ﴾ لإخوانهم حينما حكموك في أمر؛ لشهرة أمانتك، ووثوقهم برأيك وعزيمتك في قطع الخصومات: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ﴾ وحكمتم طبق ﴿هَٰذَا﴾ أي: المحرف ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوه، وامضوا عليه، وارضوا به ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ موافقًا له ﴿فَاحْذَرُوا﴾ منه، وأعرضوا عنه.

ثم قال سبحانه؛ تسليةً لرسول الله ﷺ: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ كفره وظلمته وقساوته ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ﴾ البعداء عن نهج الرشاد من الكافرين ﴿الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ﴾ ولم يتعلق مشيئته ﴿أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ من خباثة الكفر والشرك ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هوان وصغار وجزية وذلة ومسكنة ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:41] هو الخلود في نار الحرمان عن مرتبة الإنسان.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (42) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (43)﴾ [المائدة:42-43].

وما هو إلا أنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ المذكور، معتقدون صدقها ومطابقتها للواقع ومسمعونهم أيضًا، وهم؛ أي: الأحبار ﴿أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ أي: الحرام الذين يرتشون منهم؛ بسبب تحريفهم نعتك يا أكمل الرسل من كتابهم؛ لتبقى رئاستهم وجاههم فأعرض عنهم وعن إيمانهم ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ ليحكموك، إن شئت ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وعن حكمهم، فلك الخيار.

﴿وَ﴾ لا تبال بهم وبعداوتهم ﴿إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فإنهم وإن عادوك أشد عداوة وبغضًا ﴿فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ من المكروه، فإن الله يعصمك ويكفيك من شرورهم ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الذي هو أمر الحق ونطق به الفرقان ﴿إِنَّ

﴿اللهُ﴾ المستوي باسم الرحمن على عروش الذرائر معتدلاً بلا تفاوت ﴿يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:42] المعتدلين من عباده، المائلين عن كلا طرفي الإفراط والتفريط، المنتهين إلى قعر الجحيم، وليس غرضهم من تحكيمك الإطاعة بك وبحكمك، والوثوق لأمانتك ووقوفك، بل ليس غرضهم إلا التسهيل والتيسير، والإعراض عن بعض الأحكام مداهنةً.

﴿وَ﴾ إلا ﴿كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ مع عدم إيمانهم بك وبكتابك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿عِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾ على التفصيل، وهم يدعون العلم بها ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ وينصرفون ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعدما حكمت فيما حكموك فيه مع أنه مطابق لكتابهم ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:43] أي: وما إعراض أولئك المؤمنين بكتابهم، الموقنين فيه حتى يحكموك مع كونهم عالمين بحكمك فيه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة:44-40].

﴿إِنَّا﴾ من مقام جودنا ﴿أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ إلى موسى، وأدرجنا ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الحق من ضلَّ عن طريقه ﴿وَنُورٌ﴾ يكشف طريق التوحيد لمن استكشف منه ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ من أنبياء بني إسرائيل ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ معه، وفوضوا أمورهم كلها إليه بعدما تحققوا بتوحيده ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا وَ﴾ وكذا يحكم بها ﴿الرَّبَّانِيُّونَ﴾[1]

(1) الربانيّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الربّانيّ الذي ارتقى عن الحدود، والربانيّ مَنْ توقّى الآفات ثم ترقّى إلى الساحات، ثم تلقّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبّه وبربّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءُ ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُومِئُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به [تفسير القشيري (144/2)].

المنسوبون إلى الرب بمتابعة الأنبياء، وهم الأولياء، فهم ﴿وَ﴾ كذا ﴿الأَحْبَارُ﴾ المتفقهة، فهم يحكمون ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ﴾ أي: على ما استحفظوا ﴿شُهَدَاءَ﴾ مستحضرين يراقبون، ويداومون على حفظه.

﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ أي: لا تميلوا أيها الحكام عن طريق الحق من أجل الناس المتعظمين بجاههم ورئاستهم، ولا تداهنوا في الأحكام؛ رعاية لجانبهم ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ من بطشي، وغضبي عليكم حين مخالفتكم حكمي وأمري؛ مداهنةً ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ وأحكامي ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من الرشى ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ أي: بمقتضاه، وموافقًا له ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء المداهنون، المرتشون ﴿هُمُ الكَافِرُونَ﴾ [المائدة:44] الساترون مقتضى الحكمة بأهويتهم الباطلة، الخارجون عن رتبة العبودية بمخالفة حكم الله وأمره.

﴿وَ﴾ من جملة الأحكام التي ﴿كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ القصاص، فاعلموا أيها الحكام ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ القاتلة تقتص ﴿بِالنَّفْسِ﴾ المقتولة ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تُفقأ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ المفقوءة ﴿وَالأَنفَ﴾ يُقطع ﴿بِالأَنفِ﴾ المقطوعة ﴿وَالأُذُنَ﴾ تُصلم ﴿بِالأُذُنِ﴾ المصلومة ﴿وَالسِّنَّ﴾ تُقلع ﴿بِالسِّنِّ﴾ المقلوعة ﴿وَ﴾ كذا ﴿الْجُرُوحَ﴾ يجري فيها ﴿قِصَاصٌ﴾ مثلاً بمثل على قياس ما ذكر ﴿فَمَن تَصَدَّقَ﴾ من المستحقين ﴿بِهِ﴾ أي: بالقصاص، وعفا عنه طوعًا ﴿فَهُوَ﴾ أي: تصدقه ﴿كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي: لذنوبه ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ من الأحكام؛ ميلاً وارتشاءً ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ الحاكمون ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:45] المتجاوزون عن مقتضى الإيمان والإطاعة والانقياد.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة:46-47].

﴿وَ﴾ بعدما انقرض هؤلاء النبيون الحاكمون ﴿قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم﴾ أي: أتبعناهم ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خلفًا لهم ﴿مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ﴾ امتنانًا له ﴿الإِنجِيلَ فِيهِ﴾ أيضا ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾ للمستهدين المستكشفين منه ﴿وَ﴾ مع كونه مشتملاً على الهداية والإنارة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى﴾ هاديًا لأهل العناية ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ وتذكيرًا ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:46] المتوجهين إلى الحق بين الخوف والرجاء.

﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أيضًا ﴿أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ من الأحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم﴾ منهم أيضًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ لغرض من الأغراض الفاسدة ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ البعداء، المنصرفون عن منهج الرشاد ﴿هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:47] الخارجون عن ربقة الإيمان، المنهمكون في بحر الضلال والطغيان.

ومآل هذه الصفات الثلاثة لهؤلاء الحاكمين المجاوزين عمَّا حكم الله في كتبه واحد إذ الكفر: هو ستر حكم الله، والظلم: هو المتجاوز عنه إلى غيره من الآراء الفاسدة والفسق: الخروج عن حكمه؛ عنادًا ومكابرة، ومآل الكل إلى الشرك بالله، والإلحاد عن توحيده.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة:48-50].

﴿وَ﴾ بعدما انقرض عيسى - صلوات الرحمن عليه - ﴿أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل، وخاتم النبيين ﴿الكِتَابَ﴾ الجامع لجميع الكتب السالفة متلبسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ والصدق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ﴾ جنس ﴿الكِتَابِ﴾ المنزل على الرسل الماضين ﴿وَ﴾ مع كونه مصدقًا ﴿مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ مستحضرًا لما فيه، يحفظه عن التحريف والتغيير؛ إذ الكتب الإلهية كلُّ لاحق منها يحفظ حكم سابق، ويصونه عن التطرق والتحريف، وإن كان مشتملاً على نسخ وتغيير إلهي بحسب الزمانين ومقتضى المرتبتين ﴿فَاحْكُم﴾ أيضًا ﴿بَيْنَهُم﴾ مطابقًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ إليك في كتابه ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الباطلة؛ ميلاً ومداهنة، ولا تنحرف ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ﴾ الصريح، لاتق للحكمة الإلهية المقتضية للأحكام.

واعلموا أيها الأمم المتوجهون نحو التوحيد المسقط لجميع الإضافات ﴿لِكُلٍّ

جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً﴾ موردًا ومذهبًا تردون منها إلى بحر الوحدة ﴿وَمِنْهَاجًا﴾ طريقًا واضحًا، بيَّنها الحق لأنبيائه ورسله بإنزال الكتب عليهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿لَجَعَلَكُمْ﴾ وصيَّركم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ متحدة في المنهج والمقصد بحسب الظاهر أيضًا ﴿وَلَكِن﴾ كثَّركم، وعدَّد طرقكم ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويجربكم ﴿فِي﴾ رعاية مقتضيات ﴿مَا آتَاكُمْ﴾ من مواهبه، وعطاياه الفائضة من تجلياته الحبية.

﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ أيها المتعرضون لنفحات الحق ﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الفائضة عن محض جوده فابتدروها، وتعرضوا لمهابتها، واعلموا أيها التائهون في سراب الإمكان ﴿إِلَى اللهِ﴾ المتوحد في الجود والوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أيها الأظلال الباطلة، والتماثيل العاطلة المنعدمة في أنفسها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ بعد رفع تعيناتكم ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48] من الإضافات المترتبة على الهويات الباطلة.

ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا.

﴿وَ﴾ أيضًا أمرناك فيما أنزلنا إليك بالحق ﴿أَنِ احْكُم بَيْنَهُم﴾ مطابقًا، موافقًا ﴿بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾ إليك في كتابه بلا ميل وانحراف عنه ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المضلة ﴿وَاحْذَرْهُمْ﴾ عن ﴿أَن يَفْتِنُوكَ﴾ ويُلبِّسوا عليك ﴿عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ بمواساتك، وإظهار محبتك ومودتك قاصدين انحرافك، وميلك إلى ما تهوى نفوسهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا عنك وعن حكمك.

﴿فَاعْلَمْ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ﴾ وتتعلق مشيته به ﴿أَن يُصِيبَهُم﴾ ويأخذهم ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ وهو التولي والإعراض عنك وعن حكمك؛ لأنهم قد خرجوا بالإعراض عنك عن حكمك، عن جميع حدود الله وأحكامه ﴿وَ﴾ لا تتعجب خروجهم ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ الناسين للعهود الأصلية ﴿لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49] خارجون عن مقتضى الأحكام الإلهية وحكمه بمتابعة الأهواء الباطلة.

﴿أَ﴾ يعرضون، وينصرفون عن حكمك ﴿فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الناشئة من الآراء الفاسدة، الزائغة، الحاصلة عن تمويهات عقولهم، القاصرة، كأحكام متفقهة هذا العصر ﴿يَبْغُونَ﴾ يطلبون منك، ويعتقدون أن الحسن والحق ما هم عليه من تلقاء أنفسهم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ﴾ المتفرد بذاته ﴿حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50] بتوحيده وتفريده.

﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المائدة:51-53].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ توالونهم، وتصاحبونهم، مثل موالاة المؤمنين، ولا تعتمدوا، ولا تثقوا بودادتهم ومودتهم إذ هم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ متظاهرون، متعاونون، ينتهزون الفرصة لمقتكم ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم﴾ ويعتمد عليهم ﴿مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ من جملتهم، وعدادهم عند الله ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51] المجاوزين عن مقتضى أوامر الله، المرتكبين لمناهيه، فكيف لا يكون المتولون معهم من زمرتهم؟!.

﴿فَتَرَى﴾ أيها الرائي ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِيهِمْ﴾ في مودتهم ومؤاخاتهم ﴿يَقُولُونَ﴾ معتذرين لكم؛ نفاقًا: ﴿نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ من دوائر الزمان، كان الأمر فيها لهم، والدولة تتوجه نحوهم، فنداريهم ونواليهم؛ خوفًا منها ﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ والظفر لرسوله؛ ليظهر دينه على الأديان كلها ﴿أَوْ أَمْرٍ﴾ عظيم، نازل ﴿مِّنْ عِندِهِ﴾ يكفي مؤنة كفرهم ونفاقهم ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ من بغض رسول الله، والإنكار لرسالته، وتكذيب كتابه ﴿نَادِمِينَ﴾ [المائدة:52] خائبين، خاسرين.

﴿وَ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وأخلصوا في إيمانهم بعضهم لبعض، مستهزئين لهؤلاء المنافقين: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: أغلظها وأوكدها ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ مؤمنين بنبيكم؛ مظاهرة لكم في إعلاء كلمة الحق وانتشارها ﴿حَبِطَتْ﴾ واضمحلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ إلى حيث لا تفيدهم أصلاً ﴿فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:53] خسرانًا عظيمًا في الدنيا والآخرة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: 54-56].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تحزنوا بصنيع ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ بعد إيمانه وقبوله الإسلام، ولا تبالوا بشأنه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ من فضله ولطفه ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ الله ويوفقهم على الإيمان، ويوصلهم إلى مرتبة اليقين والعرفان ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ إلى حيث بذلوا مهجهم في سبيله طوعًا ورضًا؛ إعلاء لكلمة توحيده، ونصر دين نبيه ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ تواضعًا وإخاءً ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ غلبةً واستيلاءً ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وطريق توحيده، باذلين نفوسهم فيه، طالبين رضاه ﴿وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ﴾ ملامة ﴿لائِمٍ﴾ مليم كهؤلاء المنافقين الذين يخافون من الملامة؛ حفظًا لجاههم ورئاستهم، وحمية لما أسروا في نفوسهم من الأهوية الباطلة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الأوصاف الحميدة ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الهادي لعباده إلى فضاء توحيده ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ من أهل العناية ﴿وَاللَّهُ﴾ المتفضل، المحسن لأرباب الولاء ﴿وَاسِعٌ﴾ في فضله وطوله ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة:54] على من يستحق الإفضال والإنعام.

ثم لما نهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكفار ووداداتهم، وبالغ فيه، أراد أن ينبه على من يستحق الولاية والودادة وحقيقته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ المتولي لأموركم بالولاية العامة ﴿وَرَسُولُهُ﴾ النائب عنه، المستخلف له ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، بالولاية الخاصة بمتابعته ﷺ، وهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ يديمون ﴿الصَّلاةَ﴾ المقربة إلى الحق ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المصفية لبواطنهم عن التوجه نحو الغير ﴿وَ﴾ الحال ﴿هُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:55] خاضعون في صلاتهم، نزلت في علي - كرم الله وجهه - حين سأله سائل، وهو راكع في صلاته، فرمى له خاتمه.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ﴾ ويفوِّض أمره إليه، ويتخذه وكيلاً ﴿وَرَسُولَهُ﴾ الذي ظهر على صورته، ونزل في شأنه ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:80] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ طلبًا لرضاه، فهم من حزب الله وجنوده، يحفظهم في حفظه وحمايته، ويغلبهم على من يصول إليهم ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾ القادر، المقتدر على كل ما أراد وشاء ﴿هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:56] الواصلون إلى جميع مقاصدهم، بفضل الله وسعة جوده.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ

﴿وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

[المائدة:57-60].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليكم أن ﴿لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿دِينَكُمْ﴾ الذي هو أقوم الأديان وأقسطها ﴿هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ يستهزئون ويسخرون به؛ استخفافًا واستهانةً لأهله ﴿مِّنَ الَّذِينَ﴾ يدعون الدين والإيمان، والإطاعة والانقياد افتراءً ومراءً؛ لأنهم ﴿أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ متلبسًا بالحق، لم يمتثلوا به، ولم يعملوا بمقتضاه، ولم يصدقوا الرسل الذين أنزل إليهم الكتاب، بل يكذبونهم، ويقتلونهم؛ ظلمًا وعنادًا من كفرهم الأصلي، وشركهم الجبلي.

﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿الْكُفَّارَ﴾ الذين أشركوا بالله المتوحد بذاته، المنزه عمّا ينسبونه إليه ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ يوالونهم، ويحبونهم، كموالاة بعضكم بعضًا؛ إذ هم أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ عن موالاة أعدائه ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:57] موقنين به ومصدقين لرسوله.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وغيظهم منهم ﴿إِذَا نَادَيْتُمْ﴾ وأذنتم ﴿إِلَى الصَّلاةِ﴾ المقربة نحو الحق ﴿اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ تلك الملاعبة والاستهزاء، والمجادلة والمراء مع الأمناء العرفاء بالله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ جهلاء بمقتضى الربوبية، غفلاء عن مرتبة الألوهية وبالجملة: هم سفهاء في أنفسهم ﴿لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:58] ولا يصرفون العقل الجزئي المفاض لهم من الحق بمعرفة المبدأ والمعاد إلى ما خلق لأجله، ومع ذلك يتكرون العقلاء الشاكرين، الصارفين عقولهم وجميع جوارحهم وأعضائهم إلى ما جُبل لأجله من الأعمال المقربة نحو التوحيد الإلهي.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا﴾ وتنكرون علينا، وتستهزئون بنا ﴿إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ المتوحد، المتفرد بذاته، المتجلي على الآفاق بالاستحقاق ﴿وَ﴾ آمنا أيضًا ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ لتبيين توحيده ﴿وَ﴾ كذا آمنا ﴿مَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ من الكتب على الرسل الماضين لإهداء طريق الحق ﴿وَ﴾ تعلمون أنتم أيضًا يقينًا ﴿أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾

[المائدة:59] خارجون عن الإيمان وجادة التوحيد، ولا تظهرونه؛ عنادًا ومكابرة، ويستهزئون مع أهل الحق تجاهلاً؛ حفظًا لكم ورئاستكم.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتًا وإلزامًا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ وأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الدين الذي أنتم تنقمون منه؛ مكابرةً ﴿مَثُوبَةً﴾ عائدة، وجزاء مرتبًا عليه، ثابتًا ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ قبحه وديدنة ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ طرده عن قبوله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بأن أخرجه من رتبة خلافته ونيابته ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ المنعزلة عن إدراك الحق ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: الأهوية الباطلة، المضلة عن الهداية إلى طريق الحق ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المطرودون، المغضوبون، الممسوخون عن مقتضى الإنسانية ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ منزلة ومكانة عند الله ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:60] الذي هو الاعتدال الإنساني، المنعكس عن الاعتدال الإلهي.

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤)﴾ [المائدة:61-64].

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ مدعين المحبة لكم ولدينكم؛ مداهنةً ونفاقًا، حيث ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ بنبيكم، وبما جاء به من عند ربه، لا تبالوا بهم وبإيمانهم، ولا تصاحبوا معهم ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿قَد دَّخَلُوا﴾ عليكم متلبسين ﴿بِالْكُفْرِ﴾ والإصرار ﴿وَهُمْ﴾ أيضًا ﴿قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ بل زادوا إصرارًا وعنادًا، وإن أظهروا خلافه ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:61] من الكفر والنفاق، وبغض رسول الله والذين آمنوا معه.

﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من اليهود والنصارى ﴿يُسَارِعُونَ﴾ ويبادرون ﴿فِي الْإِثْمِ﴾ أي: الخصلة الذميمة عقلاً وشرعًا ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: التجاوز

عن الحدود الشرعية ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿أَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أي: الحرام ﴿لَبِئْسَ﴾ أي: بئس شيئًا ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:62] ويكسبون لأنفسهم من الأمور التي تستجلب العذاب والنكال.

﴿لَوْلا﴾ هلّا ﴿يَنْهَاهُمُ﴾ ويمنعهم ﴿الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾ افتراء على الله، وعلى كتابه ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ زاعمين إباحته ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:63] لبئس شيئًا يصنعونه لأنفسهم برأيهم الفاسد، وعقلهم القاصر الكاسد.

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم بالله، ونهاية غفلتهم عن مقتضيات أوصافه ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مقبوضة، يقتر بالرزق حين فقدوا البسطة والرخاء الذي كانوا فيه قبل تكذيبهم رسول الله ﷺ، قال سبحانه؛ دعاءً عليهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ عن جميع الخيرات والمبرّات بضرب الذلة والمسكنة عليهم في الدنيا، وفي الآخرة بالأغلال والسلاسل يسحبون بها إلى الجحيم.

﴿وَ﴾ أعظم منه أنهم ﴿لُعِنُوا﴾ طُردوا عن مرتبة الإنسانية ﴿بِمَا قَالُوا﴾ على ما قالوا على الله الجواد، الكريم ما لا يليق بجنابه ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ أي: أوصافه اللطفية والقهرية ﴿مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ ويتعلق إرادته لمن يشاء؛ لطفًا وجودًا، ويمنع عمّن يشاء قهرًا وعدلاً ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حقدًا وحسدًا من ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل؛ إنعامًا وإفضالاً لك ﴿مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا﴾ اجتراء وظلمًا على الله، لا يليق بجنابه ﴿وَكُفْرًا﴾ إصرارًا وتشددًا على ما هم عليه من الشرك والعناد.

﴿وَ﴾ بسبب طغيانهم وكفرهم ﴿أَلْقَيْنَا﴾ وأوقعنا ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ لا يتفقون، ولا يوافقون أصلاً، بل ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ﴾ مع المسلمين وصمموا العزم نحوه ﴿أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ بإيقاع المخالفة والعداوة بينهم ﴿وَ﴾ بالجملة: هم ﴿يَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ﴾ دائمًا، مستمرين ﴿فَسَادًا﴾ أي: لأجل الفساد، وإثارة الفتن ﴿وَاللهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:64] المعاندين منهم؛ المجترئين على الله وعلى رسوله؛ مكابرةً وعنادًا.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا

ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة:60-67].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا﴾ بك وبكتابك ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عمّا اجترؤوا عليه في حق الله، وفي حقك ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ أي: محونا عن ديوان أعمالهم بالمرة ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ التي كانوا عليها ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ﴾ تفضلاً وامتنانًا ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة:65] متنزهات العلم والعين والحق، إن أخلصوا في إيمانهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: أهل الكتاب ﴿أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ وامتثلوا بأوامرها، وأظهروا ما فيها من الأحكام والعبر والتذكيرات، سيما بعث سيدنا محمد ﷺ ونعته ﴿وَ﴾ أقاموا أيضًا ﴿الإِنجِيلَ﴾ وعملوا بمقتضى ما فيه ﴿وَ﴾ كذا جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لوسع عليهم الرزق الصوري والمعنوي إلى حيث ﴿لأَكَلُوا﴾ الرزق ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ - ذكر الجهتين يغني عن الجهات كلها - لو كوشفوا بوحدة الله من جميع الجوانب والجهات، ولا يرون غير الله في مظاهره ومجاليه ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ معتدلة، لا من أهل التفريط، ولا من أهل الإفراط، يرجى إيمانهم، وكشفهم ﴿وَ﴾ إن كان ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:66] أي: ساء عملهم في الإفراط والتفريط عن جادة الاعتدال والتوحيد.

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ المبعوث إلى كافة الخلق بالرسالة العامة، والدعوة إلى توحيد الذات ﴿بَلِّغْ﴾ وأوصل جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتبيين طريق توحيده الذاتي على جميع من كلف به ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ﴾ ولم تبلغ؛ إمهالاً وخوفًا ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ التي كلفك سبحانه بتبليغها، وبالجملة: اعتصم بالله، وتوكل عليه في أدائها ﴿وَاللّهُ﴾ المراقب لجميع أحوالك ﴿يَعْصِمُكَ﴾ ويحفظك ﴿مِنَ﴾ شرور ﴿النَّاسِ﴾[1] القاصدين مقتك ومساءتك يكفيك مؤنة شرورهم، ويكف عنك أذاهم بحوله وقوته ﴿إِنَّ اللّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:67] القاصدين مقتك، ولا يوصلهم إلى ما يريدون بك من المضرة والمساءة.

---

(1) أي: يحفظ ظاهرك من أن يَمَسّك أذاهم؛ فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوّ، أو يصون سِرّك عنهم حتى لا يقع احتشام منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجودًا بين طرفي العَدَم [تفسير القشيري (2/148)].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [المائدة:68-69].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أمر الدين والإيمان، والإطاعة والانقياد ﴿حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَ﴾ جميع ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وتمتثلوا بأحكامها، وتتصفوا بما فيها من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم المرضية عند الله، وتتحققوا بحقائقها ومعارفها المودعة فيها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم﴾ حين سمعوا منك أمثال هذا، ناشئًا من ﴿مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك ونصرك ﴿طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ من غاية غيظهم، وبغضهم معك، ومع من تبعك من المؤمنين ﴿فَلاَ تَأْسَ﴾ ولا تحزن ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:68] الساترين طريق الحق بأهويتهم الباطلة، وآرائهم الزائغة الفاسدة.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أسلموا، وانقادوا، وامتثلوا بأوامر كتابك واجتنبوا عن نواهيه، وآمنوا أيضًا بجميع الكتب والرسل، وجميع الأنبياء وذوي الأديان وغيرها؛ لتمكنهم في مقر التوحيد البحت، الخالص عن شوب الكثرة ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ من الممتثلين جميع ما أمر في التوراة، ونُهي عنه إلى أن وصلوا إلى مرتبة التوحيد، المسقط للاختلافات الصوري والمعنوي ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ الذين يتوسلون بالملائكة في عبادة الله، لا الصابئون الطبيعيون الذين هم يعبدون الكواكب من قصور نظرهم، وكثافة حجابهم ﴿وَالنَّصَارَى﴾ الذين يعملون على مقتضى الإنجيل بلا فوت شيء من أوامره ونواهيه.

﴿مَنْ آمَنَ﴾ منهم ﴿بِاللهِ﴾ المتوحد بذاته، المستغني عن الأشباه والأنداد مطلقًا ووصل بمتابعة كتبه المنزلة، ورسله المبينين لكتبه إلى توحيده ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ المعدّ للكشف والوصول ﴿وَعَمِلَ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ بطريق توحيده ﴿فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في سلوكهم ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:69] بعدما وصلوا؛ إذ كل ما جاء من عند الله إنما هو بمقتضى توحيده، مبيّن له، وإن كانت الطرق متعددة بتعدد الأوصاف والأسماء الإلهية لكن كل منها موصلة إليه سبحانه؛ إذ ليس وراء الله مرمى ومنتهى، لذلك قيل: التوحيد إسقاط الإضافات رأسًا حتى يتحقق الفناء فيه والبقاء به، بل لا فناء ولا بقاء في

مرتبة العماء أصلاً، حارت في ملكوتك عميقات مذاهب التفكر.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة:70-72].

والله ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ على لسان أنبيائهم ألَّا تشركوا بالله، ولا تخاصموا مع أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ بعدما أخذنا منهم الميثاق ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ مبشرين ومنذرين تخاصموا، وصاروا من خبث بواطنهم ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ﴾ وبما لا ترضى به عقولهم ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ عندنا، مكابرة وعنادًا ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:70] الأنبياء، ظلمًا وعتوًا.

﴿وَ﴾ هم من غاية عمههم وانهماكهم في الإعراض عن الحق ﴿حَسِبُوا﴾ وظنوا ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ وتدور عليهم ﴿فِتْنَةٌ﴾ مصيبة وبلاء بواسطة التكذيب والقتل ﴿فَعَمُوا﴾ عن أمارات الدين، وعلامات اليقين ﴿وَصَمُّوا﴾ عن استماع دلائل التوحيد والعرفان ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا تابوا مخلصين ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عفا عنهم وقَبِل توبتهم، ثم بعدما تابوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ كرةً أخرى؛ لخباثتهم الجبلية ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتهم ﴿بَصِيرٌ﴾ خبير ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:71] بمقتضى أهويتهم الباطلة يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من غاية جهلهم بقدر الله وما يليق بجنابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المتجلي على عروش الذراتر الكائنة شهادة وغيبًا ﴿هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي: متحد به محصور عليه؛ إفراطًا وعلوًا ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ لهم حين سمع منهم ما قالوا: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ التائهين بتيه الجهل والإفراط ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ المنزه عن الحصر والحلول والاتحاد بل هو ﴿رَبِّي﴾ رباني بأنواع اللطف والكرم.

﴿وَرَبَّكُمْ﴾ أيضًا بإفاضة العقل الموصل إلى معرفة توحيده، لا فرق بيني وبينكم في العبودية والربوبية، لا تشركوا معه، ولا تحصروه في ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقًا غيرَه من مخلوقاته ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ التي هي منزل

السعداء الموحدين ﴿وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ المعدة للأشقياء الظالمين، المشركين ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المفترين على الله ما هو بريء عنه بذاته ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:72] ينصرونهم ويشفعون لهم عند أخذه سبحانه وبطشه.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 73 - 75].

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ من عدم تحققهم بمقام التوحيد، وعدم تنبههم بمرتبة الفناء في الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المنزه عن التعدد، بل عن العدد مطلقًا ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ واحد منها وأراد بالثلاثة هو ومريم وعيسى ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: في الوجود موجود ﴿إِلَّا إِلَٰهٌ﴾ موجود ﴿وَاحِدٌ﴾ محير للعقول والأبصار، ماح لظلال السوى والأغيار ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا﴾ هؤلاء الظلَمة ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من التثليث والتعدد في الألوهية ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: بقوا على كفرهم بلا إيمان إلى أن ماتوا عليه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:73] لا عذاب أشد منه، وهو حرمانهم عن مرتبة التوحيد التي هي مرتبة الخلافة والنيابة، أتصرون على هذا الكفر والضلال؟

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يؤمنون له ﴿وَ﴾ لا ﴿يَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ عمّا صدر عنهم من الجرائم العظام؟ حتى تقبل توبتهم وإيمانهم ﴿وَاللَّهُ﴾ المنزه في ذاته عن كفرهم وإيمانهم ﴿غَفُورٌ﴾ لهم إن أخلصوا في توبتهم وإيمانهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:74] لهم، يقبل توبتهم ولم يأخذهم على ما صدر عنهم بعدما تابوا.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ من الرسل العظام ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ مثله، ولم ينسبهم أحد إلى ما نسبوه ﴿وَأُمُّهُ﴾ أيضًا ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ مقبولة عند الله، قد مضت مثلها كثيرة من الصادقات المقبولات، لم ينسبها أحد إلى ما نسبتموها وبالجملة: كيف ينسبونها إلى الألوهية ﴿كَانَا﴾ مركّبان ﴿يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ بدلاً لا يتحلل والإله منزة عن التركيب والتحليل، والأكل والشرب، والأبوة والأمومة وغيرها من أوصاف البشر ﴿انظُرْ﴾ أيها الناظر متعجبًا ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ﴾ ونوضح ﴿لَهُمُ الْآيَاتِ﴾

الدلائل القاطعة، الدالة على عدم لياقتها بمرتبة الألوهية، مع أنه لا حاجة إلى الدليل أصلاً عند من له أدنى دربة ﴿ثُمَّ انظُرْ﴾ وازدد في تعجبك ﴿أَنَّى﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:75] يصرفون وجوه عقولهم عن طريق الحق وإسماع كلمة التوحيد.

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: 76 - 79].

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزامًا وتبكيتًا: ﴿أَتَعْبُدُونَ﴾ وتؤمنون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المتفرد بالألوهية والوجود ﴿مَا﴾ أي: أظلالاً وتماثيل ﴿لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ ولا لأنفسهم ﴿ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ ولا وجودًا، ولا حياة، بل ما هي إلا تماثيل موهومة، وعكوس معدومة تنعكس من أشعة التجليات الإلهية، ليس لها في أنفسها أوصاف وآثار ﴿وَاللَّهُ﴾ المتجلي في الآفاق بالاستحقاق ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ في مظاهره لا غيره؛ إذ لا غير ﴿الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76] أيضًا فيها، فله الاستقلال في التصرف في ملكه وملكوته بلا مشاركة أحدٍ ومظاهرته.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي: النصارى ﴿لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ ونبيكم ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ افتراءً ومراءً، سيما بعد ظهور المبيّن، المؤيّد، المصدِّق ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ من أسلافكم ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ﴾ عن طريق الحق ﴿وَ﴾ مع ذلك لا يقتصرون على الضلال بل ﴿أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ من ضعفائهم وعوامهم ﴿وَ﴾ هم قوم ﴿ضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:77] بلا هادٍ ومنبهٍ يهديهم إليه، وما لكم تضلون عنه مع وجود المنبه المؤيد من عند الله، الهادي بالهداية العامة إلى صراط مستقيم، موصل إلى مقر التوحيد.

﴿لُعِنَ﴾ أي: طُرد، وحُرم، ورُدَّ من مقر العز ومرتبة النيابة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أيضًا ﴿ذَلِكَ﴾ الطرد واللعن ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ على الله بعدم امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:78] يتجاوزون عن مرتبة الإنسانية بالخروج عمّا حدَّ الله لهم، وبيّنه في كتابه إلى ما تهوى أنفسهم، وترضى عقولهم.

﴿كَانُوا﴾ من غاية غفلتهم وانهماكهم ﴿لاَ يَتَنَاهَوْنَ﴾ أي: لا ينهون أنفسهم ﴿عَن مُّنكَرٍ﴾ مخالف للشرع ﴿فَعَلُوهُ﴾ بعد تنبههم بمخالفته، بل يصرون عليها؛ عنادًا واستكبارًا، والله ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:79] لأنفسهم ذلك المنكر، والإصرار المستجلب للعذاب والنكال.

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المائدة:80-82].

﴿تَرَى﴾ أيها الرائي ﴿كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ﴾ ويودون، ويوالون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أشركوا بالله ويصاحبونهم، لذلك يسري شركهم وكفرهم عليهم، والله ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بسببه ﴿وَفِي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة:80] بشؤمه.

﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ المؤيَّد من عنده، المبعوث إلى كافة الخلق ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ من الفرقان الفارق بين الحق والباطل ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أي: المشركين ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أحباء، أصدقاء ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:81] خارجون عمَّا فيه صلاحهم، وسدادهم من الحكم والأحكام المنزلة في القرآن.

﴿لَتَجِدَنَّ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك وبكتابك ﴿اليَهُودَ﴾ الذين جبلوا على النفاق والشقاق، سيما معك، وممن تبعك ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ بالله بإثبات الوجود لغيره؛ لبغضهم مع الموحدين الموفقين بتوحيد الله ووحدة ذاته، القاطعين عرق الشركة بالكلية ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً﴾ ومحبة ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا﴾ للمؤمنين من محض ودادهم وصميم فؤادهم بعدما تحققوا بحقية الدين المصطفوية، والشرعة المحمدية الموصلة إلى بحر التوحيد: ﴿إِنَّا نَصَارَى﴾ ننصر دينكم ونقوي عضدكم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: بسبب ودادتكم ومحبتكم في قلوبهم ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ﴾ جمعًا

﴿قِسِّيسِينَ﴾ طالبين للعلم اللدني الذي هو ثمرة جميع الشرائع والأديان ﴿وَرُهْبَانًا﴾ متحققين بمرتبة العين، ومتصرفين بلا تفرج، متفرجين بلا تصرف في الأمور الدنيوية، منتظرين لظهور مرتبة الحق التي أنت تظهر به يا أكمل الرسل ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ بعدما وجدوا في وجدانهم ما وجدوا ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:82] عن نصرك وودادتك أيها الجامع لجميع مراتب الحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المائدة:83-86].

﴿وَ﴾ من غاية تشوقهم إلى مرتبة اليقين الحقي ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ من الحكم والأحكام والتذكير، والرموز والإشارات، والعبر والأمثال، المنبئ كل منها عن مرتبة اليقين الحقي ﴿تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ﴾ تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ﴾ من غاية تلذذهم، ونهاية تشوقهم بتلك المرتبة، وذلك التذلل والتشوق ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ بقدر وسعهم وطاقتهم ﴿مِنَ﴾ أمارات مرتبة ﴿الْحَقِّ﴾ فكيف إذا تحققوا بها، وتمكنوا في مقعد الصدق.

﴿يَقُولُونَ﴾ من غاية تحننهم وتشوقهم مناديًا، مناجيًا، قلقًا، حائرًا، خائفًا، حذرًا، راجيًا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صدقنا، وتحققنا بمًا وهبت لنا من مرتبتي العلم والعين، وبعدما تحققنا بتوفيقك بهما ﴿فَاكْتُبْنَا﴾ بلطفك ﴿مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:83] المتمكنين الذين حضروا وانقطع سيرهم، وحاروا إلى أن تاهوا أو فانوا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

﴿وَ﴾ يقولون أيضًا من غاية تحسرهم وتعطشهم: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: أيّ شيء عرض لنا ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ نصدق ونوقن ونذعن ﴿بِاللَّهِ﴾ المتوحد، المتجلي في الأكوان، المستغني عن الدليل والبرهان ﴿وَ﴾ لا نتبع ونمتثل ﴿مَا جَاءَنَا مِنَ﴾ دلائل ﴿الْحَقِّ﴾ وبنيانه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿نَطْمَعُ﴾ ونرجو ﴿أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة:84] لتلك المرتبة.

وبعدما فزعوا إلى الله، وأخلصوا فيما أظهروا ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ﴾ وأورثهم ﴿بِمَا قَالُوا﴾ راجيًا، مناجيًا، متمنيًا، متحسرًا ﴿جَنَّاتٍ﴾ متنزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أنهار المعارف والحقائق من ألسنة أرباب الكشف واليقين؛ ليحيي بلدة ميتًا من المحجوبين المسجونين بسلاسل التقليدات، وأغلال الدلائل والتخمينات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ما شاء الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، و﴿وَذَلِكَ﴾ الفوز العظيم، والفضل الكريم ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:85] الموصلين إلى مرتبة حق اليقين.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بتوحيدنا ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة عليه، المبينة لطريقه ﴿أُولَئِكَ﴾ البعداء، المحبوسون في مضيق الإمكان ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة:86] لا نجاة لهم منها، ولا خلاص من غوائلها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (87) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (88) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) ﴾ [المائدة:87-89].

ثم لمّا بالغ النصارى في الإعراض والترهب عن حظوظ الدنيا ولذاتها إلى حيث يحرمون على أنفسهم ما أحلّ الله لهم، وأفرطوا فيه إلى حيث لم يبق مزاجهم على الاعتدال الذي جبلوا عليه، أراد سبحانه أن ينبه على المؤمنين طريقًا مستقيمًا، وسبيلاً واضحًا متوسطًا بين طرفي الإفراط والتفريط؛ لئلا يؤدي إلى تخريب المزاج وتحريفه؛ إذ للحق سبحانه في إيجاد الأمزجة صنائع عجيبة، وبدائع غريبة متنشئة عن محض الحكمة الجامع لجميع الأوصاف الذاتية الإلهية من العلم والقدرة والإرادة وغيرها.

فقال مناديًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدّقوا بدين الإسلام، وامتثلوا ما أمروا فيه ونهوا عنه، عليكم أن ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ﴾ في دينكم ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ عن حدود الله؛ ترهبًا وتزهدًا، مفضيًا إلى الرياء والسمعة ﴿إِنَّ اللهَ﴾ المدبر لعباده ﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة:87] المجاوزين عن مقتضى تدبيره وإصلاحه.

﴿وَ﴾ إذا سمعتم من الحق ما سمعتم ﴿كُلُوا﴾ من طيبات ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً﴾ غير مسرفين في أكلها ﴿طَيِّبًا﴾ من كدّ يمينكم، وعرق جبينكم مقدار ما يقوم مزاجكم ويقويكم على إقامة أمر الله وأحكامه ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة:88]

موقنون، مخلصون عن مجاوزة حدوده وارتكاب محظوراته، واحذروا عن بطشه وانتقامه واعلموا أن خير قوتكم في دنياكم تقواكم ورضاكم، لذلك أوصاكم سبحانه.

ومن جملة الأمور التي تجب محافظتها عليكم في معاشكم؛ لتكونوا مع المتقين المبرورين عند الله ألّا تجترئوا على اليمين والحلف بالله في الوقائع والعقود، سيما على وجه الكذب قصدًا واختيارًا حتى لا تنحطوا عن مرتبة العدالة الفطرية، ولا تلحقوا بالأخسرين ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:104] إلا أن تصدر عنكم هفوة بغتة بلا قصد على ما هو المتعارف عند العرب في أثناء أكثر الكلام: «لا والله» بلا إغراء وتمويه، فإنه معفوٌ عنكم.

كما قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ المجازي عن أعمالكم ﴿بِاللَّغْوِ﴾ الصادر منكم ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ بلا قصد وتغرير ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم﴾ ويعذبكم ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بالعقود التي وثقتموها بالأيمان، وحنثتم فيها، فعليكم بعدما حنثتم أن تجبروها بالكفارة ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ المسقط نكاله ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي: كساوتهم على هذا الوجه ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ على تفاوت رتبكم ودرجاتكم عسرًا أو يسرًا.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ شيئًا منها ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ أي: فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متوالية؛ زجرًا للنفس، وجبرًا لما انكسر من المروءة الفطرية ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ جازمين حقيته وحنثتم، وأمّا إذا حلفتم كذبًا وزورًا - والعياذ بالله - فنكاله لا يسقط عنكم إلا بخلاص التوبة والندامة المؤكدة ﴿وَاحْفَظُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَيْمَانَكُمْ﴾ التي حلفتم بها في مواقعها عن شوب الكذب والشك، بل عن شوب الظن أيضًا إن أردتم أن تبروا فيها، وتقسطوا عند الله، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي وعظتم به ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:89] رجاء أن تتحققوا في مقام الشكر، تصرفوا ما وهب لكم من العطايا إلى ما اقتضته حكمته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة:90-92].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم محافظة حدود الله الموضوعة فيكم

لإصلاحكم أمرًا ونهيًا، كراهةً وندبًا، حلاً وحرمة ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ أي: مطلق ما يترتب عليه السكر وإزالة العقل من أي شيء أخذتم ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ القمار مع أي شيء لعبتم ﴿وَالأَنصَابُ﴾ أي: الأصنام الموضوعة؛ لتضليل العباد ﴿وَالأَزْلامُ﴾ الموضوعة للاستعلام مما استأثر الله به من غيبه، كلٌ منها ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قذر ونجس بلا واسطة أو واسطة ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: جانبوا، وأبعدوا أنفسكم عن كل منها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:90] رجاء أن تفوزوا بما يرضى به الله عنكم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ المضل ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إلى حيث يفضي إلى المقاتلة والمشاجرة ﴿وَ﴾ يريد أن ﴿يَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ وخصوصًا ﴿وَعَنِ الصَّلاةِ﴾ التي هي معراج المؤمن نحو الحق ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:91] أيها المؤمنون، أم مهلكون بارتكابها؛ إذ لا واسطة فيهما ولا عذر.

﴿وَأَطِيعُوا اللهَ﴾ فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ المبيّن لكم أمر الله ونهيه ﴿وَاحْذَرُوا﴾ عمَّا حذركم الله ورسوله ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم بعد وضوح البرهان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة:92] الظاهر الواضح، وعلينا الحساب والأخذ، والانتقام والعذاب والنكال.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ [المائدة: 93 - 94].

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المأمورة ﴿جُنَاحٌ﴾ حرج وضيق وتعب ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من المحرمات المذكورة قبل ورود تحريمها ﴿إِذَا مَا اتَّقَوا﴾ بعد ورودها عن غضب الله ﴿وَآمَنُوا﴾ صدقوا تحريمها ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المرخصة بمقتضاها بلا إخلال ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ عن رخصها ﴿وَآمَنُوا﴾ أي: أخلصوا بعزائمها ﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ عن عزائمها طالبين رضا الله ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ في هذه التقوى، وتعبدوا الله كأنهم يرونه ﴿وَاللهُ﴾ المحسن، المفضل لعباده ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:93] منهم، الطالبين رضاه، المتشوقين لقاءه.

ومن أجَلِّ الأمور المحرمة عليكم في دينكم: الاصطياد حال كونكم محرمين للحج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ ويختبرنكم ﴿اللَّهُ بِشَيْءٍ﴾ حقير ﴿مِنَ الصَّيْدِ﴾ حال كونكم محرمين يغشاكم بحيث ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ من غاية قربه، هل ما تأخذونه وتشوشونه، أم تحفظون أمر التحريم، وتراعون حقه، وما ذلك إلا ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: يميز ويفصل ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: من انتقامه في يوم الجزاء عمَّن لا يخاف، ولا يبال بأمره وشأنه ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ وتجاوز ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعدما سمع من الحق ما سمع ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:94] وعقاب عظيم باعتدائه واجترائه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (95) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (96) ﴾ [المائدة:90-96].

ثم أردفه سبحانه بما يدل على جبره بعد انكساره؛ رفعًا للحرج عن عباده، مصرحًا بتحريمه ونهيه أولاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ محرمين للحج ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ﴾ في أوقات إحرامه ﴿مُتَعَمِّدًا﴾ قاصدًا ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ أي: لزمه؛ جبرًا لما انكسر، ذبح مثلما قتل من النعم في النفع والفائدة؛ لسد جوعة الفقراء والمساكين ﴿يَحْكُمُ بِهِ﴾ بمماثلته ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ حال كون ذلك المجازي ناويًا ﴿هَدْيًا﴾ يذبح لله ولرضاه ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ أي: عندها ويتصدق بها للفقراء والمساكين.

﴿أَوْ﴾ لزم عليه ﴿كَفَّارَةٌ﴾ وهي ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ أي: يشتري بثمن ذلك المثل الذي يحكم به ذوا عدل طعامًا ويتصدق به للفقراء، يعطي كل واحد منهم مدًا من الطعام ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أو لزمه صيام مدة مساوية لعدد الفقراء إذا أطعم بثمنها عليهم سر كل تلك التكاليف الشاقة ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أي: ثقله وشدته وفظاعته، ووخامة عاقبته؛ إذ هو إبطال لصنع الحق حين حماة الحق، ونهى عن التعرض.

وعليكم أن تحافظوا على النهي بعد الورود، ولا تخافوا عمَّا قبله؛ إذ ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أي: محا عن الديوان، وأسقط عن الحساب ما اكتسبتم من الجرائم حين كونكم تائهين في بيداء الغفلة ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ عليها بعدما نبه وتنبه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ويؤاخذه عليه ويحاسبه عنه، ويجازيه على مقتضى حسابه ﴿وَ﴾ لا تغتروا بحلمه

وإمهاله ومجاملته؛ إذ ﴿اللَّهُ﴾ المستغني في ذاته عن جميع الشؤون والنشأة ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب، غيور، متكبر، قهور ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة:95] عظيم، وبطش شديد على من تخلّف عن حكمه، وأصرّ عليه.

نعوذ بفضلك من عذابك يا ذا القوة المتين.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أيها المحرمون ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾[1] مائي المولد مطلقًا إلا ما تستكرهه طباعكم ﴿وَطَعَامُهُ﴾ أكله ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ﴾ يمتعون بها مجانًا ﴿وَ﴾ كذا ﴿لِلسَّيَّارَةِ﴾ للتجارة والزيارة وغيرها تتزودون منها ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: من أول مدة إحرامكم إلى أول الحل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:96] وتساقون أيها المؤمنون.

وعليكم الحذر والاتقاء عن التعرض بمصنوعاته بقهر وغلبة في جميع حالاتكم سيما عند لبس الإحرام الذي هو كفن الفناء المعنوي، والموت الحقيقي عند أولي الألباب الناظرين إلى لب الأحكام وزبدته.

وكما أنّ في الموت الصوري لا يبقى للقوى والأوصاف الظاهرة آثار وأفعال، بل تعطلت، وانمحت، وتلاشت بحيث لا يتوقع منها ذلك أصلاً، كذلك في الموت الإرادي الذي هو عبارة عن حج العارف لا بد من إحرامه، وتعطيله أعضاءه وجوارحه عن مقتضيات الأوصاف البشرية والقوى الحيوانية، وعن جميع التعينات الجسمانية والروحانية، والغيبية والشهادية، والظاهرية والباطنية، وبالجملة: عن جميع الإضافات والكثرات الحاجبة لصرافة الوحدة الذاتية، المستهلكة عنها جميع ما يتوهم من الأظلال والعكوس.

لذلك صار الموت الإرادي أشدُّ في الانمحاء، وأغرقُ في الفناء من الموت

---

(1) قوله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ والمراد بالبحر جميع المياه، قال عمر ﷺ: «صيده ما اصطيد وطعامه ما رمي به» وعن ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة: طعامه ما قذفه الماء إلى الساحل ميتًا، وقال قوم: هو المالح منه وهو قول سعيد بن جبير وعكرمة وسعيد بن المسيب وقتادة والنخعي، وقال مجاهد: صيده: طريه، وطعامه: مالحه، متاعا لكم أي: منفعة لكم، وللسيارة يعني: المارة، وجملة حيوانات الماء على قسمين: سمك وغيره. أما السمك فميتته حلال مع اختلاف أنواعها قال النبي ﷺ: أحلت لنا ميتتان ودمان» الميتتان: الحوت والجراد، والدمان: الكبد والطحال، ولا فرق بين أن يموت بسبب أو بغير سبب، وعند أبي حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب من وقوع على حجر أو انحسار الماء عنه ونحو ذلك. [تفسير البغوي (100/3)].

الصوري؛ إذ ينتهي الأمر في الموت الإرادي إلى العدم والصرف والفناء المطلق الذي ما شمّ رائحة الوجود أصلاً، فكيف تخلل الموت والحياة، والوجود والعدم، وتاهت في بيداء ألوهية أنظار العقل وآرائه؟.

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المائدة:97-100]

إنما ﴿جَعَلَ﴾ وصيَّر ﴿اللهُ﴾ المستغني بذاته عن الأمكنة والحلول فيها مطلقًا ﴿الْكَعْبَةَ﴾ الكعبة المعينة في أرض الحجاز ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: المكان الذي يحرم فيه أكثر ما يحل في غيرها من الأمكنة، بل جميعها عند العارف؛ ليكون ﴿قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾[1] يقومون بها ويتيقظون بأركانها ومناسكها، وآدابها ومشاعرها عن منام الغفلة ورقود النسيان ﴿وَ﴾كذا صيَّر ﴿الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ ميقاتًا لزيارتها وطوافها؛ ليقوموا فيها بتهيئة أسباب الفناء، وتخلية الضمير عن الميل إلى الغير والسّوى.

﴿وَ﴾ صيَّر سبحانه أيضًا ﴿الْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ جبرًا لما انكسر من رعاية نسكه، وأراد به؛ لئلا يتقاعدوا عن إتمامها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جعلها وتصييرها مرجعًا لقاطبة الأنام، وقبلة لهم بحيث يجب عليهم التوجه نحوه من كل مرمى سحيق، وفج عميق، إنما هو ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ﴾ المحيط بذرائر الأكوان ﴿يَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري جميع ﴿مَا فِي

(1) ألبس الله الكعبة سناه قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنه وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعةٌ من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزّهٌ عن خطرة كل حادثٍ، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى ﷺ من طور سيناء، وظهر لعيسى ﷺ من طور المصيصة، وظهر لمحمد ﷺ وأمته من الكعبة، كقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابه عن كل طارق غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم. قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه. [عرائس البيان].

﴿السَّمَوَاتِ﴾ أي: العلويات والأعيان الثابتة ﴿وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ السفليات التي هي الهويات الباطلة ﴿وَ﴾ ليعلموا ﴿أَنَّ اللهَ﴾ المنزه، المتعالي عن أن يحاط بمجلاه وتجلياته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما استأثر باطلاعه، وما يعلم جنوده إلا هو ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97] لا يعزب عن علمه وحضوره شيء، كلّت الألسن عن تفسير صفتك، وانحسرت العقول عن كنه معرفتك، فكيف يعرف كنه صفتك يا رب؟.

وبالجملة: ﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المتوجهون نحو الحق وزيارة بيته ﴿أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا تغتروا بإمهاله له بمقتضى لطفه وجماله، بل احذروا، وخافوا عن سطوة سلطنة قهره وجلاله ﴿وَ﴾ اعلموا أيضًا ﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ ستار لذنوب عباده المخلصين ﴿رَحِيمٌ﴾ [المائدة:98] لهم، يرحمهم بمقتضى جماله ونواله، يعني عليكم أن تكونوا مقتصدين، معتدلين بين طرفي الخوف والرجاء؛ لتكونوا من زمرة عباده الشاكرين.

فإن جادلوا معك يا أكمل الرسل، أهل البدع والأهواء الفاسدة في هذه الإلهامات والاختبارات الإلهية المترشحة من بحر الحكمة، قل لهم نيابة عنا: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ الهادي بإذن الحق ﴿إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أي: بلاغ ما أهدي به والقبول من الله، والتوفيق من عنده ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائركم ﴿يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تظهرون، وتعلنون من الإيمان والإطاعة ﴿وَمَا﴾ كنتم ﴿تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:99] من الكفر والبدعة.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ عند الله ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أيها المتعجب ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ إذ لا عبرة للقلة والكثرة بالجودة والرداءة في الأعمال ﴿فَاتَّقُوا اللهَ﴾ حق تقاته ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ الناظرين بلب الأمور ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:100] تفوزون من عنده فوزًا عظيمًا، بعدما تجوّدون أعمالكم بالإخلاص والتقوى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:101-104].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لاَ تَسْأَلُوا﴾ ولا تقترحوا من رسولكم ﴿عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قبل ورود الوحي ﴿إِن تُبْدَ﴾ وتظهر ﴿لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ وتغمكم، وتورث فيكم حزنًا ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ بلا سوء وحزن ﴿عَفَا اللهُ﴾ عمّا سلف ﴿عَنْهَا﴾ فعليكم أن تحافظوا عليها بعد ورود النهي ﴿وَاللهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لهم ما سبق من ذنوبهم قبل ورود الزواجر ﴿حَلِيمٌ﴾ [المائدة:101] لا يعجل بالعقوبة إلى أن يبوؤوا.

واعلموا أنه ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ عنها ﴿قَوْمٌ﴾ مثلكم ﴿مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من أنبيائهم ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر ما اقترحوا ﴿أَصْبَحُوا﴾ صاروا ﴿بِهَا﴾ بسبب ظهورها ﴿كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 102] بعدم امتثالهم وانقيادهم بما ظهر.

﴿مَا جَعَلَ اللهُ﴾ أي: ما وضع، وشرع لكم في دينكم ما في الجاهلية ﴿مِن بَحِيرَةٍ﴾ وهو أنهم كانوا إذا أنتجت ناقتهم خمسة أبطن خامسها ذكر بحروا أذنها؛ أي: شقُّوها وخلوا سبيلها، فلا تركب ولا تحمل ولا تحلب أبدًا، فسموها بحيرة ﴿وَلاَ سَائِبَةٍ﴾ وهي أنهم قالوا: إذا شفيتُ فناقتي سائبة؛ أي: ممنوعة من الانتفاع كالبحيرة ﴿وَلاَ وَصِيلَةٍ﴾ وهي أنهم إذا ولدت شاتهم أنثى كان لهم، وإذا ولدت ذكرًا كان لآلهتهم، وإذا ولدت ذكرًا وأنثى في بطن واحد يتبعون الأنثى بالذكور، ويتقربون بها، وسموها وصيلة.

﴿وَلاَ حَامٍ﴾ وهي أنهم إذا أنتجت من صلب فحل عشرة أبطن، حرم انتفاعه بالكلية، ولم يمنعوها من الماء والكلأ والمرعى، وقالوا: قد حمى ظهره، ويسمونها حام ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أعرضوا عن الإيمان والإطاعة ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ أي: يستوي أمثال هذه المزخرفات الباطلة على الله؛ افتراءً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103] الله، ولا يعلمون حق قدره ومقتضى حكمته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ إمحاضًا للنصح: ﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَى﴾ امتثال ﴿مَا أَنزَلَ اللهُ﴾ المصلح لحالاتكم ﴿وَإِلَى﴾ متابعة ﴿الرَّسُولِ﴾ الهادي لكم عمّا فيكم من الضلال ﴿قَالُوا﴾ من غاية انهماكهم في الغفلة: ﴿حَسْبُنَا﴾ وكافينا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ وأسلافنا، قل لهم ﴿أَ﴾ تقلدونهم، وتقتفون أثرهم ﴿وَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أنفسهم ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:104] طريقًا مستقيمًا بإهداء الهادي، وإرشاد المرشد مع كونكم عقلاء من أهل التميز والاختيار، فالعار كل العار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المائدة:100-106].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ﴾ أن تحفظوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ وتلازموها على الطاعات وتداوموها على التوجه نحو الحق في جميع الحالات، وما لكم إلا حفظ نفوسكم ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ ضلالة ﴿مَّن ضَلَّ﴾ عن طريق الحق ﴿إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إليه، واعلموا أيها المؤمنون ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ المبدئ، المعيد ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وهم ﴿جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:105] في دينكم من شر وخير، ومعصية وطاعة، ويجازيكم عليه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من جملة الأمور التي يجب عليكم محافظتها: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ أي: إشهادكم ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أن يُشهدوا ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من أقاربكم وعشائركم ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ من جانب المسلمين وأهل الذمة ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ متباعدين عن الأقارب والعشائر ﴿فَأَصَابَتْكُم﴾ فيها ﴿مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا﴾ أي: الآخران من الأجانب، وتقفونهما ﴿مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ عند الجماعة.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ على رءوس الأشهاد ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أيها الوارثون في شهادتهما، بأنا ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ ولا نرتشي بشهادتنا ﴿بِهِ ثَمَنًا﴾ ولا نشهد بالزور ﴿وَ﴾ خصوصًا ﴿لَوْ كَانَ﴾ المقسم له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ صاحب قرابة ﴿وَ﴾ بأنا ﴿لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ التي أودعناها، بل نؤديها على وجهها بلا تحريف ولا كتمان، وإن كتمناها وحرفناها؛ ظلمًا وزورًا ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة:106] المكتسبين لأنفسنا إثمًا عظيمًا.

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا

لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة:107-109].

﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ أي: أشعر واطلع ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدان ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بواسطة تحريفهما وكتمانها ﴿فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: من الورثة وهما ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ الأحقان بالتحليف من الشاهدين ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ﴾ وأصدق ﴿مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ وتجاوزونا في هذه الشهادة عن الحق، وإن اعتدينا ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:107] الخارجين عن الاعتدال الإلهي الذي وضعه الحق بين عباده.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التحليف والتغليظ ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلى الاحتياط ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ويؤدوها ﴿عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أي: على وجه تحملونها من غير تحريف وخيانة فيها ﴿أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ على المدعين ﴿بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ الكاذبة، فيفتضحوا بظهور الخيانة على رءوس الملأ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيها الشهود عن الكتمان والتحريف ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما يقول المحتضر وأدوه على وجهه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَا يَهْدِى﴾ إلى توحيده ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:108] الخارجين عن مقتضى أوامره ومنهياته، واذكروا، وتذكروا خطاب الله وعتابه لرسله من أجلكم.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿فَيَقُولُ﴾ لهم على وجه التوبيخ: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أي: بأي شيء أجبتم لهؤلاء العصاة المتجاوزين عن الحد؟ ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ بحالهم، ولا عذر لنا نعتذر عنهم ﴿إِنَّكَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ﴾ بخصوصيتك؛ إذ لا غير معك ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:109] التي غابت عن عقولنا وأبصارنا وأسماعنا، فلك الحكم والأمر، تفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة:110].

اذكر وقت ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ امتنانًا عليه ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ

﴿وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ وأقم شكرها ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك، وخصصتك ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: بالنفس القدسية اللاهوتية المطهرة عن شوب القوى الناسوتية، لذلك ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ على السوية؛ أي: جعلت لك جميع كمالاتك بالفعل، في جميع أوقات وجودك بلا تفاوت بين طفوليتك وكهوليتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ أي: التدبيرات المتعلقة لظواهر الشرع ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ المتعلقة لبواطنها ﴿وَالتَّوْرَاةَ﴾ الجامع بينهما ﴿وَالإِنجِيلَ﴾ الغالب فيه ما يتعلق بالباطن.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ تصور وتقدر ﴿مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي: بأمري وتعليمي ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ من روحي التي أيدتك به ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ وتبصر ﴿وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ﴾ المكفوف العين ﴿وَ﴾ تشفي ﴿الأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى﴾ من قبورهم أحياء ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ ومنعت شر ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ﴾ وقت ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الواضحات والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ من حيث باطنهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:110] [1] وما هو إلا ساحر عليم.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة:111-114].

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ وألهمت ﴿إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ عيسى بن مريم ﴿قَالُواْ﴾ عن صميم فؤادهم: ﴿آمَنَّا﴾ بك وبرسولك. ﴿وَاشْهَدْ﴾ يا ربنا ﴿بِأَنَّنَا

(1) قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لئلا ترى غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم ﷺ الجنة، لأطهر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدسهما جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على مثابة بالقوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله.

مُسْلِمُونَ﴾[1] [المائدة:111] منقادون بدينك ونبيك، نستودعك هذه الشهادة إلى وقت الحاجة. اذكر ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ لك حين أرادوا الترقي من مرتبة العلم إلى العين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أضافوه إليه؛ لتحققه في مرتبة العلم والحق ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ رزقًا معنويًا حقيقيًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾[2] أي: من جانب العلو الذي

(1) وحي الله إلى المرسلين يكون خاصًا ويكون عامًا، الخاص بغير واسطة، والعام بواسطة جبريل ﷺ، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحي بالصفة، ووحي بالذات، وحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحي الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلّي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيبٌ، وليس لهم في الوحي برسالة المُلك نصيبٌ، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحي منزل المعرفة الحديث، ووحي منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسمٌ على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعلي، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهرًا، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصبٍ في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفاتي الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة، الا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية، قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِى﴾ مقام الجمع، و﴿وَبِرَسُولِى﴾ مقام التفرقة.

(2) قال سيدي روزبهان: تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهرًا؛ لأنهم موقنون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله؛ لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب. ألا ترى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:260]، فأجابه الله قال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:260]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة:260]، وليس في الوصفين شكٌّ من جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلمّا سمع عيسى ﷺ منهم اشتد عليه أمرهم وعجب منهم ذلك بعد إيقانهم، وأجابهم بقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: خافوا الله فيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: الزموا اشتغالكم بدفع الخطرات؛ كي لا تحتجبوا عنه بغيره، وإن من وصل إليه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحسن منه طلب الآيات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم

هو مرتبة العين والحق، فلمّا سمع منهم ما سمع آيس منهم، وأفظع أمرهم، وأوجس في نفسه خيفة من الله الغيور؛ لأنهم ليسوا في تلك الحالة مستعدين الكشف والشهود، لذلك ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ عن أمثال هذه الأسئلة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:112] موقنين بكمال قدرته وإرادته واختياره، واستقلاله بالتصرف في ملكه وملكوته.

﴿قَالُوا﴾ معتذرين، ملتجئين: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ﴾ نذوق ونستفيد ﴿مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ وتتمكن أقدامنا في جادة التوحيد ﴿وَنَعْلَمَ﴾ يقينًا عينيًا ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في جميع ما أرشدتنا وأهديتنا ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:113] أي: من أهل الشهود والكشف بلا حجاب العلم.

فلمّا أحس عيسى ابتلاء الله، وفتنته إياهم بادر إلى المناجاة، حيث ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ فرحًا وسرورًا ﴿لِّأَوَّلِنَا﴾ متقدمينا ﴿وَآخِرِنَا﴾ متأخرينا ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ تنكشف بها بتوحيدك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ من لدنك حظًا يخلصنا من ظلام أظلالنا، وغيوم هوياتنا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:114] على من سبقت غايته له.

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة:110-116].

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ المطلع لاستعداداتكم ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وإن لم تكونوا قابلين لها

عجزهم عن إدراك مقامات أهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نريد أن نربّي أبداننا بمأكول الجنة، كما تربّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبنا تصديقك ومحبتك حتى لا تبقى فينا معارضة الطبيعة، ونكون من شهداء رؤية المعجزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حصل مرادنا تحصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل ﷺ مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ سأل من السماء لا من الأرض لمَا فيها من الروحانية والحنانية والملكوتية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله. وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ﴾ أي: بعد نزولها ﴿مِنكُمْ فَإِنِّي﴾ بعزتي وجلالي وقوتي ﴿أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ﴾ أي: لا أعذب مثله ﴿أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:115] فكفروا بعد ذلك فمُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ورُدوا إلى مرتبة الحيوانات وأخبثها، العياذ بالله من غضب الله.

﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ﴾ حين فشا غلو النصارى في حق عيسى وأمه، ونسبتهما إلى الألوهية، وقولهم بالتثليث والأقانيم والحلول والاتحاد: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾ واعبدوني مثل عبادته، أم اتخذوك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالَ﴾ عيسى منزهًا لله، مبعدًا نفسه إليها عن أمثاله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أنزهك تنزيهًا عن أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما يصح ويليق ﴿لِي أَنْ أَقُولَ مَا﴾ أي: قولاً ﴿لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ لائق جائز أن أقوله، سيما بعد لطفك إلي، وفضلك وامتنانك علي ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إذ ﴿تَعْلَمُ﴾ بالعلم الحضوري ﴿مَا فِي نَفْسِي وَ﴾ أنا ﴿لاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وذاتك وشأنك وسلطانك ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:116].

وإنما خاطبه سبحانه، وعاتبه بما عاتبه مع أن الأمر معلوم عنده؛ ليوبخ، ويقرع على الغالين المتخذين؛ لعلهم ينتهون بسوء صنيعهم، وقبح معاملتهم مع الله المتوحد، المتفرد المنزه بذاته عن الأهل والولد، الصمد المقدس الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:4،3].

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة:117-120].

ثم بسط عيسى الكلام مع ربه؛ تشفيًا، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ قولاً ﴿إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي: بتبليغه وإيصاله إليهم، وهو ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ﴾ الواحد الأحد الذي هو ﴿رَبِّي﴾ أوجدني من العدم، ورباني بأنواع اللطف والكرم ﴿وَرَبَّكُمْ﴾ أيضًا أوجدكم من العدم مثلي، ورباكم، فتكون نسبة إيجاده وتربيته علي وعليكم على السواء، ما ترى من تفاوت في خلقه ﴿وَكُنتُ﴾ بأمرك وإرسالك ووحيك ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أحفظهم بتوفيقك عن أمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ ورفعتني

بجودك إلى ما رفعتني ﴿كُنتَ﴾ بذاتك وأسمائك وأوصافك ﴿أَنتَ الرَّقِيبَ﴾ المحافظ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ المولي لأمورهم، تضلهم وتهديهم، ترشدهم وتغويهم ﴿وَأَنتَ﴾ المنزه بذاتك عن جميع الأكوان ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأمور الكائنة ﴿شَهِيدٌ﴾ [المائدة:117] حاضر غير مغيب.

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ عدلاً ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فلك أن تتصرف فيهم على أي وجه تتعلق إرادتك ومشيئتك ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فضلاً وطولاً ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على الإنعام والانتقام ﴿الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:118] (1) المتقن في إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، ومنعه عنه بلا مشاركة ولا مظاهرة. فلمّا بثّ وبسط عيسى مع الله الكلام، وبالغ في التفويض والرجوع إليه في جميع الأمور، خصوصًا أمر قومه ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ سبحانه: يا

---

(1) اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشركين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين جميعًا، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى ﷺ سرًا مكتومًا مبهمًا على قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان مِنْ أهل خالصة سرِّه، ومحال أن خفيَ على عيسى ﷺ أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم وورد الشرع وإنما نطق بذلك من عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: 18]، قالا: يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم تجدد خلقهم، قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا، قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعها خرابًا، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فهو حقٌ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في مُلكك لست بجاهل في غفرانهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من هذا، فإنه موضع الأسرار، وأيضًا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾ بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحدانية، ويقوا في حجاب حظوظهم عنك بك، قال الوراق: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرّين لك بالتقصير، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزّة والكرم، فلَمْ يبدلها إلا لمَنْ خلقه لها ومَنْ هو حق بها وأهلها، قال بعضهم: ترك عيسى ﷺ الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يزال يشفع ويقول: أمتي ... أمتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي خُصّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطًا ويجاب بقوله: «قل تسمعْ واشفعْ تشفّعْ».

عيسى ﴿هَذَا يَوْمُ﴾ لا يكتسب فيه الخير، ولا يستجلب النفع، ولا يدفع الضر، بل ﴿يَنفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا في النشأة الأولى ﴿صِدْقُهُمْ﴾ السابق ﴿لَهُمْ﴾ في هذه النشأة لهؤلاء الصادقين إلى ﴿جَنَّاتٌ﴾ متنزهات المعارف والحقائق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ مملوءة بمياه المكاشفات والمشاهدات المثمرة للحياة الأبدية والبقاء السرمدي ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ لتحققهم بمقام الصدق والإخلاص ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى غاية ما جبلوا عليه لأجله بلا منتظر ﴿ذَلِكَ﴾ الوصول والتحقق هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة:119] والفضل العميم، واللطف الجسيم لأهل العناية الفائزين من عنده بهذه المرتبة العلية.

ولا يستبعد من الله أمثال هذه الكرامات مع أرباب الولاء الباذلين مهجهم في سلوك طريق الفناء؛ إذ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إظهارًا وتصرفًا واستقلالاً ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المكونات، فله التصرف فيها كيف يشاء حسب إرادته واختياره ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ من عموم مراداته ومقدوراته ﴿قَدِيرٌ﴾ [المائدة:120] فله أن يوصل خلّص عباده إلى فضاء فنائه بإفنائهم عن هوياتهم الباطلة، وإبقائهم بهويته الحقيقية السارية، الظاهرة في الأكوان.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المتوجه لمرتبة الفناء المثمر للبقاء الأبدي شكران سعيك وأوصلك إلى غاية مبتغاك أن تجعل قرينك الرضا في جميع ما جرى عليك من القضاء؛ إذ كل ما يجري في عالم الأكوان والفساد إنما هو على مراد الله، ومقتضى مشيئته حسب تجلياته الجمالية والجلالية، واللطفية والقهرية، والعارف إذا تحقق بمقام الرضا الذي هو نهاية مراتب العبودية فقد خلص عن الإضافات مطلقًا، ومتى ارتفعت الإضافات لا يشوشه السراء والضراء، ولا اللذة ولا الفناء؛ إذ كل ذلك من لوازم الإمكان وأمارات البعد.

فعليك أن تصفي نفسك عن جميع الأمراض الباطنة من العُجب والرياء والرعونة والهوى، وتلازم العزلة والإعراض عن أبناء الدنيا، والالتجاء إليهم والمخالطة معهم وتقلل عن حوائجك وحظوظك سوى سدّ جوعة وكنّ ولباس كيف اتفق، وعليك أن تروض نفسك في زاوية الخمول، وكن القناعة، ومنزل الفراغة.

وإياك أن تصاحب مع أهل الأهواء وتراجعهم، سيما في الأمور التي تتعلق بالمعاش المستعار، وكن في ورطة الدنيا كأنك غريب ليس لك ألفة ومؤانسة مع من فيها وما فيها أو كعابر سبيل يروح فيها ويغدو بلا تمكن وقرار.

وبالجملة: عدّ نفسك من أصحاب القبور، وافعل مثل ما تشاهد منهم بالنسبة إلى الدنيا، بل موتك الإرادي لا بد أن يكون أعرق في قطع التعلق، وترك المألوف من الموت الصوري؛ لأن أكثر الأموات بالموت الصوري يخرجون من الدنيا متحسرين بحسرة عظيمة، والعارف المتحقق بمرتبة الموت الإرادي له مسرة ولذة، بحيث لو عاد على ما عليه لتغمم، بل هلك خوفًا، فلك أن تشمر ذيلك عنها وعن لذاتها بالمرة، وتداوم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، وملتقطات المشايخ العظام التي استنبطوها منها بسعي بليغ - شكر الله مساعيهم - وتصرف عنان عزمك عمّا سواها من الأباطيل الزائفة، المنسوبة إلى أصحاب الحجج والاستدلال، الضالين بتغريرات عقولهم القاصرة عن منهج الحق ومحجة اليقين.

جعلنا الله ممّن أيد من عنده فتأيد، وأطلق عنان عزمه نحو الحق ولم يتقيد، بمنّه وجوده.

فهرس المحتويات

